شخصــية المسلم

(كمـا يجب أن تكون)

تأليف

الدكتور/ سيد جمعة سلام

مكتبة الإيمان – المنصورة

ت: ٢٢٥٧٨٨٢

الطبعـــة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الإهداء

وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ......

ما أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ.......

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ.

إلى:

من علمني حسن الخلق والحلم........ إلى روح والدي رحمه الله تعالى.

وإلى من علمتني معنى الصبر.......... إلى والدتي حفظها الله تعالى.

وإلى زوجتي الفاضلة وزهرواتي الأربع فاطمة وأسماء وإيمان وندى.

وإلى الإخوة الأفاضل بالجالية المسلمة بمدينتى:

Bossier City LA ،USAS hreveport

وإلى كل شباب الجالية المسلمة بأمريكا الشمالية........

وإلى كل مسلم ومسلمة قرأ وتعلم ودعا لي بظهر الغيب أهدي هذا الكتاب.

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ووفقنا للإيمان، وما كنا لنؤمن لولا أن شرح الله صدورنا له، وأحيى قلوبنا بالقرآن العظيم، نور الله المبين، وحبله المتين، وصراطه المستقيم.

والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ إمام المتقين، وسيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، الذي أرسله ربه رحمة للعالمين، وبشيراً ونذيراً للناس أجمعين، فبلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، فجزاه الله عنا أفضل ما جازى نبياً عن أمته، ورضي الله عن آله وأصحابه ومن نهج نهجهم، واقتفى أثرهم، واتبع طريقتهم إلى يوم الدين،

{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ}(1).

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}(2).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}(3).

وبعد؛

إن الشخصية في مفهومها العام تعني ملامح الإنسان وصفاته التي تميزه عن غيره، ولا يقتصر هذا المفهوم على الصفات البدنية، إنما يتعداها إلى الصفات النفسية والاجتماعية والعقلية، وقد صارت الشخصية علماً على السمات الخاصة التي يتميز بها كل إنسان عن الآخر في عقيدته وعواطفه ومشاعره وسلوكه وعلاقته الاجتماعية وطرائق تفكيره وسائر تصرفاته الإرادية؛ لأن هذه هي المقومات الشخصية للإنسان ومحار الحكم على شخصيته.

إن تفاوت الناس في صفاتهم البدنية يرجع إلى عوامل الوراثة والبيئة، وهو تفاوت محمود لا يغير شيئاً من خصائص الإنسان الجسمية، ووظائفه العضوية، وقلما يكون له تأثير في الصفات النفسية إلا لدى أصحاب العاهات من الشواذ، والنادر لا حكم له. والحياة الإنسانية لا تقوم بالمقاييس الحسية الظاهرة، إنما تقوم بمعيار العقيدة والقيم الأخلاقية،

---

(1) آل عمران: ١٠٢.
(2) النساء: ١.
(3) الأحزاب: ٧٠.

والمستوى الفكري؛ لأن هذه هي خصائص الإنسان العاقل المكلف الرشيد. وبهذا المفهوم الخاص تتميز شخصية المسلم عن غيره. فهي شخصية مؤمنة مهتدية، تتجه بمشاعرها وأحاسيسها لله تعالى، تستلهم منه الرشد والسداد، وتهتدي بنور الإيمان في سلوكها، وتتخذ الشريعة الإسلامية نبراسا لها في تصرفاتها، وتحتكم إليها في كل شؤون حياتها. وهي شخصية متميزة بالعقيدة الإسلامية التي تؤمن بها، وتخلط شغاف قلبها، وتمتزج بأحاسيسها، فتعيش من أجلها، وتجعل حياتها وقفاً عليها؛ إذ لا قيمة للحياة بدون عقيدة. والعقيدة لدى المسلم هي المعيار الأساسي للعمل. فأي عمل لا ينبعث من العقيدة لا قيمة له في ميزان الإسلام مهما كان جليلاً نافعاً يعود على البشرية بالخير.**{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}**[1].

وكذلك يحدد القرآن الكريم ثماني صفات لهذه الشخصية، ولا تعجب حينما تجد الصفة الأولى والأخيرة منها تتصل بالصلاة ودورها في معالجة الهلع:**{إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ}**[2]، إن مداومة الإنسان على صلاة النافلة ومحافظته على صلاة الفريضة هما عاملان على رأس ثمانية عوامل للتخلص من الهلع وكسب الاطمئنان والوحدة في الشخصية.

إن الإيمان بالمفهوم الواقعي للخير والشر إنما يمثل الجانب النظري من تماسك الشخصية؛ ولذا قلنا: إنه مفتاح الانتصار على الهلع في نظر الإسلام. أما الجانب التطبيقي فهو تحويل هذا المفهوم إلى قرارة في النفس ورؤية يومية فيها.. وأي شيء ينهض بذلك غير الصلاة؟

في أيامك الطويلة التي تقطعها بين مؤثرات الحياة وضغوطها على نفسك وعصفها برؤيتك ومشاعرك فلن تجد في الحياة دوحة تعيد إليك اطمئنانك وتثبت في قلبك بصيرته

---

(١) سورة التوبة: ١٧ – ١٨.

(٢) المعارج: ١٩ – ٣٥.

وهداه إلا دوحة المثول بين يدي الله والاغتراف من معينه والاعتصام به.

الدوحة الظليلة التي تدخلها متعباً من الأثقال مشوشاً من لبس الهوى واعوجاج الناس، وما أن تستظل بركعتين منها حتى تنزاح عنك الأتعاب وينكشف عن قلبك الهوى. وتستقيم لك البصيرة، فتعود جديداً لحياتك مليئاً بالحياة.

انظر إلى نفسك عندما تريد أن تأوي إلى فراشك كم هي محملة من عناء النهار ومثقلة بالمشاكل والمشاغل والأهواء، ثم توضأ لله وأحضر قلبك أمامه في ركعتين لترى نفسك نفساً جديدة انزاحت عنها الأثقال حتى اطمأنت وانجاب عنها الهوى حتى شفت.

وانظر إلى سرائك وضرائك، إلى كل ما يملأ نفسك ويعترض أيامك من ثمرات الحياة من تعب وارتياح وفقدان ووجدان ودموع وبسمات، كيف إذا مزجتها بالصلاة وهبتك الصلاة فيها البصيرة، وأنارت لك الجادة، وأسغت لك مرارة الحنظل، وعطّرت لك هناءة النعيم..

* * * * *

أهمية الموضوع

* إن عقيدة الإسلام تصنع الإنسان صناعة أخرى، فتجعله ينظر إلى الحياة بشكل آخر، ويقيِّم الأشخاص بشكل آخر، بل إن أبسط المسلمين ثقافةً يستطيع أن يدرك من خلال عقيدته لُغزَ الحياة، الذي حار عنه أكبر علماء الأرض، فعقيدته تجيبه عن الأسئلة المحيرة:

من أنا؟.. من أوجدني؟.. لماذا أوجدني؟..

شخصية المسلم شخصية مُصدِّرة للسلوك والأخلاق لا تستورد أي سلوك من أمة أخرى؛ لأن في كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، تدخلا في كل خصوصيات المسلم، تعلمه ما ينبغي عليه أن يعمل، وما يُكره لـه، وما يُستحب فعله، في كل زمان ومكان، وفي نفس الوقت يعتقد المسلم أن أحكام الشرع جاءت لجلب المصالح، ودرء المفاسد، وأن كل حكم شرعي ينطوي على مصلحة للمسلم، فلن يجد لنفسه شرعاً أعلى من هذا الشرع.

وشخصية المسلم قوية جداً؛ لأنها على اتصال مباشر بأقوى الأقوياء سبحانه وتعالى، وتعلم أنه لا يستطيع مخلوق أن يتسلط عليها بالشر إلا إذا شاء الله، كما أنه لا يستطيع كائن أن ينفعها بشيء إلا إذا قدَّر الله عز وجل ذلك، فهي لذلك لا تخضع لأحد، ولا تُعلق الآمال بأحد إلا بالله؛ لأنه هو وحدَه مصدر النفع والضر والعز والذل.

شخصية المسلم تفتخر بالانتماء إلى الله عز وجل، فهي شخصية عالية المطلب، فعند ما يكون همُّ الناس هو الدنيا وحطامها، يوجِّهُ المسلم همه إلى إرضاء الله عز وجل، وفعل محابه من الأعمال، فإذا انفرد المسلم بنفسه فكَّر بالله، وإذا اجتمع مع الناس تحدث عن الله، وإذا احتاج سأل الله، وإذا استغنى شكر الله، وإذا استوحش أَنِس بالله واشتاق إليه، واطمأن بذكره.

وشخصية المسلم مطمئنة واثقة بوعد الله عز وجل، فهو وعَدَها بالجنة إن أطاعت، وكتب عليها النار إن هي عصت أمره وتخلت عنه... فكل مصيبة تنزل به لا يقيم لها وزناً، إن لم يكن بها ضرر لـه في دينه، وكل أذىً يصيبه يصبر عليه طالباً الأجر من الله تبارك وتعالى، منتظراً من ربه إنجاز وعده لـه بإدخاله الجنة.

شتم رجل أبا الدرداء، فأجابه قائلاً: يا هذا إن أمامي عقبة كؤود – يعني ساعة الحساب – فإن نجوتُ منها ما ضرني ما تقول، وإن لم أنجُ منها كنتُ شراً مما تقول:**{يا أيُّها النّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى وَجَعَلْناكُم شُعُوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أتْقاكُمْ، إنّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ}**[1].

هذه آية عظيمة تقرر أصلاً من أصول الإسلام عظيماً، وهو المساواة بين الناس، ولقد

(١) الحجرات: ١٣.

قررت هذه الآية مبدأ ضخماً من المبادئ الإنسانية السامية فهي من معجزات هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله ضياءً للناس ونوراً يهتدون به وبرهاناً ساطعاً ينير السبل أمامهم.

قبل أربعة عشر قرناً من الزمن والعالم يموج في الظلم ويضطرب في الفساد، وتسوده الهمجية والعصبية الجاهلية وتخيم عليه ضلالات العصور القديمة، وقد نشر الرعب أجنحته على الدنيا وزاد الفساد وتفاخر الناس بالأنساب وعاشوا تحت ظل نظام الطبقات.

في هذه الظلمة الداكنة ينبثق فجر الإسلام فتبدد أنواره تلك الغيوم السوداء وتنزل هذه الآية الكريمة لتقرر مبدأ إنسانياً عظيماً وهو إعلان المساواة بين البشر - كل البشر - فلا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير، ولا لكبير على صغير، إلا بالتقوى والتقرب من الخالق عز وجل. فالناس كلهم متساوون، أصلهم واحد وأبوهم واحد.

وقد روي أن رجلاً قال لنبي الله عيسى عليه السلام: أي الناس أفضل؟ فأخذ قبضتين من تراب وقال: " أي هاتين أفضل؟ الناس خلقوا من تراب، فأكرمهم أتقاهم ". وقد جعلهم الله عز وجل شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويصلوا الأرحام لا ليتفاخروا بالأنساب، فالإنسان مخلوق بأمر الله سبحانه لا باختياره ولا باختيار أبويه، إن شاء خلقه عربياً أو كردياً أو تركياً، فكيف يسوغ له أن يفخر بأمر ليس له فيه كسب ولا اختيار؟

والله تبارك وتعالى يقول:**{وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى}**(1)، فهل نسبه وحسبه من سعيه ونتيجة جهوده؟ حتى يكون له الحق في الفخر بهما. فالله تعالى الخبير بأحوال الناس العليم بأعمالهم سيجازيهم على ما كسبت أيديهم، فالفائز أحسنهم عملاً لا أشرفهم نسباً.

قال الزمخشري صاحب الكشاف رحمه الله تعالى في سبب نزول هذه الآية الكريمة: ورد عن يزيد بن شجرة قال: مر رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط أن لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ، فاشتراه رجل، فكان رسول الله ﷺ يراه عند كل صلاة، ففقده يوماً فسأل عنه صاحبه، فقال: محموم، فعاده رسول الله ﷺ، ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال: هو لما به، فجاءه وهو في دمائه، فتولى رسول الله ﷺ غسله ودفنه، فدخل على المهاجرين والأنصار أمر عظيم، فنزلت هذه الآية:**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}**(2).

---

(1) النجم: ٣٩.
(2) الحجرات: ١٣.

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في أبي هند، ذكر ذلك أبو داود في المراسيل عن الزهري رضي الله تعالى عنه قال:

أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ : نزوج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية الكريمة.

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لما كان فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة فأذن، فقال الحارث بن هشام: ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟

وقال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم.

وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره.

وقال أبو سفيان: أنا لا أقول شيئاً، أخاف أن يخبره به رب السماوات. فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره بما قالوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية زجراً لهم عن تكبرهم وازدرائهم بالفقراء، فإن المدار على التقوى لا على الأنساب والأحساب.

وقد وردت هذه الآية الكريمة بعد النهي عن التجسس والغيبة وغيرها من الأخلاق الذميمة، فجاءت هذه الآية منبهة على تساوي البشر، فلا يجوز لأحد أن يفخر على أحد ولا ينتقص أحداً أو يطعنه أو يعيبه، وقد ورد عند البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم؟ قال: **«أكرمهم عند الله أتقاهم»**، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: **«فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»**. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: **«فعن معادن العرب تسألون؟»** قالوا: نعم، قال: **«خياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام إذا فقهوا؟»**.

وذكر أبو بكر البزار في مسنده عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان»** (1).

وروى الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أنسابكم هذه ليست بمنسبة على أحد، كلكم بنو آدم، طف الصاع لم تمنعوه ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو تقوى وكفى بالرجل أن يكون بذيئاً بخيلاً فاحشاً»**.

وقد رواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن أبي لهيعة ولفظه: ((الناس لآدم

(1) رواه الترمذي.

وحواء، طف الصاع لم يملوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة،**{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}))**[1].

ونقل الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه عن عميرة زوج درة بنت أبي لهب عن درة بنت أبي لهب قال: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال ﷺ : **«خير الناس أقرأهم وأتقاهم للّه عز وجل وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم»**.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا ولا أعجبه إلا ذو تقى.

وقد استفاضت الأخبار وامتلأت كتب الشريعة الإسلامية بأن الكرامة لا ترتبط بالنسب ولا بعظيم الرتب ولا بأم وأب، ولكنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمل، وعمل الإنسان هو الذي يوزن به، والناس أبرار وفجار. والفاجر فاجر ولو كان ابن أكابر، والبر بر، ولو كان ابن الأحقر. قال رسول الله ﷺ : **«الناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيّن على الله، الناس كلهم بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب»** ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية:**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}**[2].

وخطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع تلك الخطبة العظيمة التي كانت دستوراً للمؤمنين ونوراً للصالحين، وضياء للعارفين، ومما قال فيها صلوات الله وسلامه عليه: **«ألا إن ربكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«فليبلغ الشاهد الغائب»** [3].

هذا هو الإسلام في عدله ومساواته للناس، فماذا بعد الحق إلا الضلال، وماذا بعد الإسلام من المبادئ والأفكار إلا الخبال.

ولقد جاء الإسلام ديناً عاماً خالداً؛ لذا اعتبر المؤمنين جميعاً جسداً واحداً، واعتبر المسلمين أمة واحدة:**{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}**[4]، وبهذه الروح

---

(١) الحجرات: ١٣.
(٢) الحجرات: ١٣.
(٣) سنن ابن ماجة.
(٤) الأنبياء: ٩٢.

فتحوا مشارق الأرض ومغاربها ودانت لهم الدنيا بالطاعة، وما كان يمكن أن تسير قبائل العرب وشعوب العجم تحت راية الإسلام تقاتل مخالفيه وتنشر تعاليمه النيرة وتثبت قواعد التوحيد وتنشر العدل والمساواة بين الناس، ما كان يمكن أن تفعل هذه الأعاجيب في ذلك الظرف القصير، لو استمرت على عصبيتها الجاهلية، تفخر القبائل على القبائل، والشعوب على الشعوب، وما عرف أن أمة توحدت وارتبطت حتى كانت كجسم واحد رغم تفاوت أجناسها ولغاتها. ولها هدف معين وغاية محددة يعمل الجميع فيها على تحقيق هذا الهدف وتلك الغاية، وقد اعتبرت الوحدة الإسلامية، على رباط الإيمان، وهدفها إرضاء الله عز وجل خالق الجميع ورب كل الناس رب العالمين، للشخصية الإسلامية مثل أعلى، وقيم عليا، وقدوة رائدة في الحياة، تتمثل في تصوّر الإنسان المسلم لقيم الخيرة والكمال البشري الذي تحقق مجسداً – في القدوة الفذة – الرسول ﷺ والطليعة الراشدة من أصحابه وأهل بيته البررة.

قال تعالى:**{لَقَد كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لِمنْ كانَ يَرجُو اللهَ وَاليَومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً}**(١).

فالشخصية الإسلامية تنزع دوماً إلى الوصول إلى هذا المثل الإنساني الأعلى.. وتبرمج مسيرتها، وتصحح مواقفها على ضوء هذا المقياس، وهي تجد قبل هذا المثل الإنساني الحي، فكرة الكمال الإلهي المتسامي، وتعرف صفات الخالق العظيم؛ المتصف بالخير والكمال المطلق؛ من العدل والرحمة والصدق والكرم والحلم والعلم والشفقة والسلام.. إلخ، فتكون تلك الصفات محبوبة لدى الإنسان المسلم، لأنّها صفات معبوده، فهو دوماً يتجه نحوها، وينزع إلى الاتصاف بما يلائم إنسانيته من معانيها، أملاً في تحقيق مرضاة الله، وسعياً وراء الكمال الذي يوصله إلى النعيم والفردوس الأعلى، ومن هنا كانت أهمية هذا الموضوع، ولقد جعلته فى ثلاثة فصول تحوى مباحث عديدة، يندرج تحت كل منها مطالب كثيرة، سائلا الله عز وجل أن يتقبل، وأن ينفع به...... آمين.

* * * * *

---

(١) الأحزاب: ٢١.

الفصل الأول

شخصية المسلـــم
كما يصورها القرآن

المبحث الأول
الجانب الأخلاقى فى شخصية المسلم المعاصر

يسود العالم الآن نوع من الأخلاق النفعية وهي نظام من السلوك يتبعه الفرد ليس إيماناً بحسنه أو قبحه، وإنما لمعرفته بأنه يحقق المصلحة.

وهذا النوع من الأخلاق منتشر في الغرب بوجه خاص، فتجد مثلاً التاجر صادقاً وأمينا ولطيفاً، وتجد الصانع دقيقاً ومخلصاً، ولكن مشكلة هذا النوع من الأخلاق هي عدم ثباتها، فإن صاحبها يكون مستعداً للانقضاض عليها واستبدالها بنقيضها أحياناً إذا وجد مصلحة في ذلك، وربما نعرف جميعاً كيف أن الإنسان الغربي الذي يتميز بالعدل والأمانة والصدق في بلده كان يتحول إلى الظلم والكذب والخداع في تعامله مع الآخرين خارج حدوده خاصة أيام الاحتلال.

وعلى العكس فإن الأخلاق المطلقة مصدرها الأساسي هو الدين، وهي تتميز بالثبات والأصالة فهي موجودة في كل الأحوال والظروف، ولقد جسدها المسلمون الأوائل فكانت أخلاقهم إسلامية مطلقة داخل حدود وطنهم وخارجه، وكانت هذه الأخلاق هي مفتاح قلوب البشر في كل مكان خاصة وأن البلاد التي فتحها المسلمون كانت تعانى من الظلم والخداع وسوء الأخلاق من حكامها فإذا دخل عليهم المسلمون فاتحين وجدوا فيهم العدل والإنصاف وحسن الخلق.

وللأسف فإن نسبة غير قليلة من المسلمين المعاصرين قد أهملوا البعد الأخلاقي، فهم لم يلتزموا بالأخلاق الإسلامية المطلقة وفشلوا حتى في الالتزام بالأخلاق النفعية، وقد نشأ عن هذا نوع من عدم التناسق في الشخصية والذي يصل في بعض الأحيان إلى التناقض الشديد بين الاهتمام بالعقيدة والعبادات وبين المعاملات والأخلاق وكأنها أقسام مختلفة لا ارتباط بينها في وعي هؤلاء الناس فتجد الواحد منهم يصلى ويصوم ولكنه في نفس الوقت يكذب ويغش ويظلم وكأن هذا شيء وذاك شيء آخر.

لذلك فالمسلم المعاصر يحتاج أن يعيد لوعيه قول الله تعالى ممتدحاً أخلاق رسوله:**{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**[١] وأن يعيد لوعيه قوله تعالى ممتدحا أخلاق المؤمنين:**{وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}**[٢]. وقوله تعالى آمراً إياهم:**{وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}**[٣].

وأن يعيد إلى وعيه قول رسول الله ﷺ : **«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وأن الله يبغض الفاحش البذيء»** [٤]، وحين نقول بأن الخلق الحسن هو مفتاح القلوب ورسول السلام إلى البشر جميعاً فإننا نقر سنة كونية صرح بها الله تعالى في كتابه الكريم مادحاً وموجهاً لرسوله ﷺ ولكل من يحمل رسالة الخير للناس من بعده:**{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}**[٥].

فقد ثبت في كل مراحل التاريخ وفى كل المجتمعات البشرية أن الناس تنفض عن كل قاسٍ خشن غليظ القلب، وتنفض عن كل حاقد مستبد، وتلتف بعقولها وقلوبها حول كل رحيمٍ لين طيب رقيق عفو يحترم عقولهم وآراءهم.

وللأخلاق جمال أخاذ ربما يفوق جمال الطبيعة وجمال الوجوه فللكلمة الطيبة سحر لا ينسى، وللموقف النبيل أثر رائع يزداد توهجاً مع الأيام، فتظل تلك الكلمة أو ذلك الموقف يجلجلان في صفحات التاريخ على مدى آلاف السنين تتناقلهما الأجيال بكل الإعجاب والانبهار.

* * * * *

---

(١) القلم: ٤.
(٢) آل عمران: ١٣٤.
(٣) النساء: ٥٨.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) آل عمران: ١٥٩.

المبحث الثاني
أسس بناء شخصية المسلم

من الجدير بالذكر أن الإيمان الحق يدفع إلى السلوك المستقيم حيث جاء الإنسان إلى الحياة ومعه فطرة نقية مهيأة لقبول الحق وكل تغيير لنقاء هذه الفطرة وصفائها ما هو إلا تشويه لشخصية المسلم الذي ينبغي أن يتجه اتجاها مستقيماً لا عوج فيه، وهو الاتجاه نحو الله تعالى والاستسلام له والاستعانة به في كل أمور وشجون الحياة. إن الأساس الأول لشخصية المسلم هو الأسوة الحسنة؛ إذ يبدأ المسلم تكوين شخصيته الإسلامية سلوكا وتطبيقا من القرآن الكريم ومنهج الرسول ﷺ وأهل بيته الكرام رضي الله عنهم، فقد ذكر القرآن، الصفات الأساسية التي تشكل صورة واضحة الملامح لشخصية المؤمن كما أرادها الله تعالى وهي الصورة التي تمثلها شخصية النبي محمد ﷺ؛ لأن خلقه القرآن ولأن الله تعالى قد أدبه فأحسن تأديبه. أما الأساس الثاني فهو العلم حيث تتسامى شخصية المسلم بالعلم الذي يكشف له طريق الحق والخير وينير مسالك الحياة فيمضي فيها على هدى، فتتميز شخصيته عن غيره بالفكر والعلم المفيد. ومن أسس الشخصية الإسلامية، العبادات فهي دعائم الإسلام وهي التطبيق العملي للعقيدة والعبادات بدورها تثمر السلوك الصحيح والخلق القويم وترسم لشخصية المسلم، الخطوط العريضة فيعيش حياته موصولا بربه، حانيا على مجتمعه، ففي كل عبادة من عبادات الإسلام يستشعر بنبض الإيمان في أعماقه فلا ينبعث من حياته إلا الخير. ويعتبر العمل من الأسس الهامة في بناء شخصية المسلم، فالمسلم العامل له في الحياة أهميته مهما كان عمله مادام عملا شريفا وما دام كسبه حلالا فهو يشارك في عمارة الحياة وازدهارها ويعمل على دفعها إلى الإمام.

وتنهض شخصية المسلم على أساس العمل بإتقانه له، أخروياً كان أو دنيويا. ثم يأتي الجهاد كأساس أخير لشخصية المسلم فهو شجاع لا يعرف الجبن إلى قلبه سبيلا. يتوجه بعقيدة راسخة يرى من خلالها أن الأجل واحد، لذا فهو يدافع عن الدين وعن النفس والعرض والأرض والمال وفي قلبه يقين لا يتزعزع. من ملامح شخصية المسلم العزة من غير تكبر فهو لا يذل ولا يستكين لأحد، وعزته هذه تتنافى مع الغرور والاستعلاء. كما يتميز المسلم باستقلال الشخصية فهو يعتنق الحق ويسير على ضوئه ويعمل في دائرته دون أن يكون هناك أي تأثير خارجي عليه، وقد حرص الإسلام على تحرير الشخصية لئلا تستبد بها الآفات أو تحتلها الأباطيل والنزعات، فليس لأحد أن يخضع إلا لله، ودعا إلى تحرير الشخصية من العادات السيئة والتقاليد المرفوضة، وحث المسلم إلى تحرير شخصيته من الخوف والقلق. ومن ملامح شخصية المسلم أيضاً، الثبات في العسر وفي اليسر، فهو شاكر في السراء، صابر في الضراء. وللمسلم شخصيته المعتدلة نحو المال الذي استودعه الله إياه فهو يتصرف فيه بالطرق المشروعة من غير إسراف أو تقتير، سائرا على المنهج القرآني الذي رسمه الله تعالى في

قولـه:**{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}**(1).

ولشخصية المسلم سمة من أرفع السمات التي تميزه عن غيره، إنها القـوة الدافعـة قـوة الإيمان التي تستحثه لارتياد مسالك الخير وتجعل منه إنساناً قوياً لا يخشى في الحق لومة لائـم، وهو ثابت الشخصية لا تزلزله عواصف الحياة، إنه يستمد ثباته من عقيدته الثابتة التي تمنحـه القوة والرسوخ؛ ولذا نرى الإنسان المسلم صاحب العقيـدة الراسـخة، ثابتـاً في كـل أحوالـه وأعماله وأفعاله، يتحلى بالأخلاق والقيم النابضة. ومن أبرز صفات المسلم الشجاعة الأدبية فهي إحدى قيم الإسلام الهامة، والشجاعة الأدبية تحتاجها مواقف الحيـاة الفاضـلة، كجهـاد أهل الباطل والزيغ والجهر بكلمة الحق، فالمسلم الذي يعتمد على ربـه لا يخـاف مـن مخلـوق وإنما يخاف ربه وحده القادر على كل شيء. ويعمـل الإسـلام علـى ألا يتعـرض المسـلم إلى الأذى بأية صورة، ووجوب المحبة والمودة لأخيه المسلم وأن يـؤثر أخـاه علـى نفسـه وعندئـذ ترتقي شخصيته الإيمانية ويستشعر عظمة الإسـلام في كـل كيانـه. ولشخصـية المسـلم مظهـر معين يتسم بالهدوء، فهو لا يقوم إلا على ما يطمئن إليـه، كمـا يتميـز بصـفاء القلـب ونقـاء سريرته، فبصفاء القلب وصلاحه تستقيم الجوارح ويتهذب السلوك، وهو قـادر علـى ضـبط الـنفس، فالإنسـان القـائم علـى نفسـه، الحـاكم لرغباتهـا الكـابح لجماحهـا، إنسـان قـوي الشخصية. والمسلم غني النفس راض بما في يده، قانع بما عنده لا يتطلع إلى غيره.

وهناك عوائق تعترض النفس البشرية وتعوق أمنها وراحتها فإذا مـا اهتـدى بهـدى الله ويمم وجهه شطر الإيمان وجد العقيدة الإسلامية، عاصمة لـه يقول عـز وجـل:**{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}**(2). ويعنى الإسلام ببناء الشخصية على الصدق منذ فجر الصبا ويدعو الآباء والأمهات إلى تنشـئة الأبنـاء عليـه منـذ صـغرهم. ومن سمات شخصية المسلم الحياء وهو شعبة من الإيمان وتتسم شخصية المسلم بأعلى أنواع الحياء وهو الحياء من الله تعالى كما تتميز شخصية المسلم بالأمانة حيث يقـول الرسـول ﷺ: **«لا إيمان لمن لا أمانة لـــه ولا دين لمن لا عهد لـــــه»** ولعظمـة الأمانـة وضـخامتها ومـا تشتمل عليه من أحكام الدين الشرعية فإن ضعاف الشخصية لا يستطيعون حملها. كما تتميز شخصية المسلم بالتعاون والعفة نظرا لحرصـه علـى حفـظ دينـه وعرضـه وكرامتـه وشـرفه، والمبادرة بالعمل الصالح والوفاء والشـكر والـبر وقدرتـه علـى توثيـق العلاقـات الإنسـانية والاجتماعية والعفو عند المقدرة والصبر وغير ذلك من السمات.

* * * * *

---

(1) الفرقان: ٦٧.

(2) الأنعام: ٨٢.

المبحث الثالث
سنن الفطرة

١- سنن الفطرة وآثارها الإيجابية في شخصية المسلم:

إن الإسلام دين الفطرة التي قال فيها الحق سبحانه:**{فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** وتتمثل هذه الفطرة في طهارة المسلم ظاهراً وباطناً، فأما طهارة الباطن فهي متعلقة بالقلب وتعني تطهير النفس الإنسانية من الشرك بالله، وتتطلب إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، والقيام بالأعمال الصالحة والأفعال الخيرة. وأما طهارة الظاهر فهي الفطرة العملية التي تشتمل على كل ما كان متعلقاً بجمال المظهر عند الإنسان المسلم وحسن سمته. لما في ذلك من ملاءمة للفطرة السوية التي خلق الله الإنسان عليها، والتزام بهدي النبوة المبارك. فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: **«إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»** [(١)].

ولأن الإسلام هو دين الفطرة الذي عرف أسرارها، وكشف خباياها، وسبر أغوارها، فقد قدم لها ما يُصلحها وما يصلح لها من تعاليم وسنن وتوجيهات جاءت كالثوب المناسب لمختلف الأعضاء، والملائم لشتى الأبعاد. لذلك كله جاءت سنن الفطرة لتشكل رافداً من روافد التربية الجمالية في حياة المسلم، ولتعرض نموذجاً مثالياً لحياة المصطفى ﷺ، كما أنها تحقق معنى التوازن الذي تفتقده جميع الفلسفات البشرية التي عرفها الإنسان قديماً وحاضراً حيث إنها ترتكز مرة على الجانب الجسدي، وتارة على الجانب العقلي، وأخرى على الجانب النفسي وهكذا..

كل هذا يعني أن سنن الفطرة تضع الشخصية المسلمة في وضع متوازن عادل يمثل الوسطية المطلوبة فلا إفراط ولا تفريط. وليس هذا فحسب بل إن هذه السنن في مجموعها تمنح الإنسان تكريماً إلهياً يأتي كأبدع ما يكون التكريم.

وهذا البحث يقدم من خلال سنن الفطرة نموذجاً للتربية الإسلامية يتحقق في كرامة الإنسان المسلم الذي أراد الله - جل وعلا - أن يكون خليفة في الأرض، ويتمثل في توازن شخصيته في جوانبها المختلفة، كما يتحقق فيه أيضاً هدف التربية الغائي في استقامة الإنسان واستقامة الحياة، وذلك أسمى ما تصبو إليه التربية، عند بنائها لشخصية الإنسان المسلم.

---

(١) رواه أبو داود.

٢ – سنن الفطرة نموذج تربوي نبوي:

تحتاج كل تربية إلى نموذج واضح يجسد معالم هذه التربية ويوضح تعاليمها بصورة واقعية تنقل المجرد إلى محسوس، والقول إلى عمل، والنظرية إلى تطبيق.

وفي التربية الإسلامية لا يوجد أعظم ولا أكمل ولا أفضل من شخصية محمد ﷺ لتكون نموذجاً حياً، وقدوة حسنة للإنسان المسلم في كل زمان ومكان. ولا ريب فهو من اصطفاه ربه – جلا وعلا – وقال فيه:**{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُول اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}**[١]. وهو الذي بعثه الله لأمته معلماً ومزكياً ومربياً. قال تعالى:**{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ}**[٢]. وهو الذي مدحه ربه سبحانه بما منحه فقال لـه سبحانه في كلمات موجزات:**{وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**[٣]. فكان كل خلق فاضل وسلوك سليم متمثل في حياة رسول الله وشخصيته المتكاملة التي استوعبت كل جوانب الحياة.

وبذلك جسَّد الرسول ﷺ منهج التربية الإسلامية السامية في الواقع العملي لحياته متمثلاً في سنن الفطرة. من هنا كان للمحافظة على هذه السنن أثر تربوي عظيم يتمثل في أن التزام المسلم بها وتطبيقه لها في واقع حياته يدل على أمرين هما:

* التصديق بما ورد في سيرة الرسول والتقليد والاتباع لهدي التربية النبوية في كافة الأعمال وجميع التصرفات. وهذا بدوره كفيل بتعود المجتمع المسلم بمن فيه من أفراد على السمع والطاعة والامتثال لأوامر الله والرسول ﷺ، لا سيما وأن في الناس نزعة فطرية لتقليد ومحاكاة من يحبون، وليس هناك أحب عند المسلم من رسول الله ﷺ.

* اتخاذ القدوة الحسنة من المعلم الأول والمربي الأعظم ﷺ كشخصية متكاملة متوازنة، وتتضح هذه القدوة في اهتمامه بالجوانب المتعلقة بالجانب الجسمي والنظافة العامة حينما يتفقد المسلم أظافره فيقصها، وفمه فينظفه، وأسنانه فيسوكها، وشاربه فيقصه، وإبطيه فينتفهما... إلخ.

وهذا بدوره ينفي الزعم الباطل القائل بأن الإسلام لا يهتم بالناحية الجسمية بل ويؤكد

---

(١) الأحزاب: ٢١.
(٢) آل عمران: ١٦٤.
(٣) القلم: ٤.

قضية التوازن في اهتمام التربية الإسلامية ورعايتها لمختلف الجوانب الجسمية والروحية والعقلية، فلا يستغرب بعد ذلك أن يعرف المسلم لأول وهلة حين يرى سمته ووقاره، وهيئته الخارجية وشكله العام الذي يميزه عن غيره من الناس. لأن هذه السنن في مجموعها جعلت لـه شخصية مميزة، ومظهراً خاصاً، ونموذجاً فريداً يقتدي فيه بإمام الطاهرين وقدوة الناس أجمعين ﷺ.

٣ – سنن الفطرة والتربية الجمالية:

تدعو التربية الإسلامية دائماً، وتحث على الاهتمام بالمظهر الشخصي والناحية الجمالية، ليكون المسلم جميلاً في مظهره، متناسقاً في هندامه، بعيداً عن الدروشة والقذارة والإهمال. قال تعالى:**{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}**(١). فالله سبحانه كما جاء في الحديث: **«جميل يحب الجمال»**. وليس هذا فحسب بل إن في ذلك إشباعا لحاسة الجمال في نفس المسلم، فيتولد في أعماقه إيمان شديد بعظمة الخالق سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه، والذي صورنا فأحسن صورنا، وخلقنا في أحسن تقويم.

ومن عناية الإسلام بالمظهر الحسن والهيئة الجميلة أمره للمسلم وحثه إياه للالتزام بسنن الفطرة التي تربي المسلم تربية جمالية تتمثل في:

* الطهارة الحسية الجسدية، وهي مما يحبه الله سبحانه. قال تعالى:**{واللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}**(٢). ولما روي عن الرسول ﷺ أنه قال: **«تنظفوا فإن الإسلام نظيف»**(٣)، ويتمثل ذلك في تطهير البدن بالوضوء والغسل فينعكس ذلك بدوره على المظهر الخارجي.

* الطهارة المعنوية التي تغرس في النفوس تطهير الضمير كعبادة وطاعة وامتثال لأوامر الله سبحانه ورسوله ﷺ.

وهذه التربية الجمالية تؤدي بدورها إلى تطهير النية والعمل والسلوك، فنظافة المظهر مدعاة لنظافة الجوهر، ونظافة الشكل مدعاة لنظافة الضمير، ونظافة الفرد مدعاة لنظافة المجتمع. وبذلك يتحقق بعد تربوي إسلامي عظيم متمثل في طهارة المجتمع المسلم طهارة معنوية من الفواحش والمعاصي والذنوب والآثام، فترتفع النفس المسلمة من رجس الفوضى وأوحال الوحشية إلى نظافة الأخلاق وتهذيب السلوك. ومن ثم يتم تطهير الحياة الاجتماعية عامة حتى تصبح التربية شاملة للنفس والعقل والجسم.

---

(١) الأعراف: ٣١.
(٢) التوبة: ١٠٨.
(٣) رواه ابن حبان.

وليس هذا فحسب بل إن في هذه السنن مدعاة لتأليف القلوب ومد جسور المحبة والمودة، وتوطيد الصلة بين الإنسان المسلم وزوجه، فتكون حياتهما مبنية على الرحمة والمودة، وقائمة على السكن والراحة والقبول. وليس أجمل من أن يكون – كلا الزوجين مناسباً للآخر، وملائماً له، مقبولاً عنده في شكله وهيئته لأن ذلك مدعاة للائتلاف والرضى، وسبب مباشر لقناعة كل منهما بالآخر. وهذا بدوره سيؤدي إلى استمرارية سعادتهما الزوجية.

ولقد كان النبي ﷺ قدوة تحتذى في هذا الشأن. يقول ابن الجوزي: "كان النبي ﷺ أنظف الناس وأطيب الناس". وقد قالت الحكماء: من نظف ثوبه قلّ همه، ومن طاب ريحه زاد عقله، ومن طال ظفره قصرت يده. ثم إن المسلم بالتزام سنن الفطرة يقرب من قلوب الخلق، وتحبه النفوس لنظافته وطيبه. كما أن سنن الفطرة تنمي لدى الإنسان الإحساس بالجمال، وتنمي طاقاته وملكاته المستشعرة لمعنى الجمال في خلق الله سبحانه.

وأحسب أن قول النبي ﷺ : **«إن الله جميل يحب الجمال»** (١) إنما هو دعوة إلى التخلق والتحلي بالجمال الذي هو البهاء والحسن وجمال الصورة وجمال المعنى على حد سواء.

٤ – سنن الفطرة والتوازن في شخصية المسلم:

مما لا شك فيه أن الكيان البشري يشتمل على عدة وحدات هي: الجسم، والعقل، والروح. ولذلك فإن التربية الإسلامية حرصت على الربط بين هذه الوحدات لتجعل منها كياناً واحداً مترابطاً، واختطت لذلك منهجاً فريداً في إحاطته بجميع الجوانب الإنسانية، فجاء هذا المنهج متوازناً مهتماً بالذات الإنسانية في كل حالاتها. ولا ريب فهي تربية للإنسان كله جسمه وعقله، روحه ووجدانه، خُلقه وسلوكه، سرائه وضرائه، شدته ورخائه، أي أنها تشمل كل الجوانب الشخصية دون قهر أو كبت أو فوضى أو تسيب أو إفراط أو تفريط.

ولذلك جاءت شخصية الإنسان المسلم متوازنة سوية متكاملة، لا يطغى فيها جانب أو يهمل على حساب الجانب الآخر. وهذا هو ما نلمسه في هذه السنة هي التي إلى جانب كونها من المظاهر الدنيوية فهي عبادة يثاب عليها المرء، وتكسبه الأجر والثواب متى قصد بها وجه الله سبحانه والاقتداء بهدي النبوة. وهذا بدوره يربط بين الهدفين الديني والدنيوي للتربية الإسلامية.

وبذلك يتحقق التوازن في شخصية الإنسان المسلم حينما نرى أن التزامه بهذه السنة

---

(١) مسند أحمد.

يجعل الجسم يحظى بحق من العناية والرعاية والاهتمام فيما يخص المظهر الخارجي والشكل العام اللائق المقبول. فيدل ذلك على أن الإنسان ينعم بعقل راجح وتفكير سديد، ومدارك واسعة وفهم عميق لحقائق الأشياء وجوهرها، الأمر الذي يدفعه من ثم إلى السمو الروحي والرفعة الإنسانية والتعالي عن سفاسف الأمور وصغائرها وحطامها المادي الحقير.

كما أن اتباع المسلم لما يسمى بسنن الفطرة يؤدي إلى ما يسمى بالقبول الاجتماعي للفرد. حين يقترب منه الناس ويطمئنون إليه ويعاملونه بكل حب وتقدير واحترام لأنه يفرض ذلك عليهم بحسن مظهره وحسن تدبيره. لذلك كله نقول ونؤكد أن دين الإسلام هو الدين الوحيد القادر على ربط الإنسان بخالقه وإصلاح حاله في كل زمان ومكان حينما يمشي على الأرض بجسم، ويتوجه بروحه إلى السماء ليستمد منها أنوار الهداية والمعرفة فيحكم عقله فيها ويختار منها ما يناسب حاله، ويوافق قدراته، ويلبي حاجاته، فتسير حياته وفق منهج مستقيم وهدي قويم.

٥ – سنن الفطرة دليل تكريم الله للإنسان المسلم:

لما كان الدين الإسلامي هو المنهج الرباني المتكامل والمناسب للفطرة الإنسانية؛ لأنه جاء من عند الخالق – عز وجل – لصياغة شخصية الإنسان صياغة متوازنة متكاملة، لا ترفعه إلى مقام الألوهية، ولا تهبط به إلى درك الحيوانية أو البهيمية، وإنما لتجعل منه خير نموذج على الأرض؛ فقد خصه – جل وعلا – بتكريم يليق به لكونه جُعل في الأرض خليفة ليعمرها وينشر منهج الله بين ربوعها ويقيم شريعته فيها. ثم لأنه – جلا وعلا – خلقه في أحسن تقويم فكرمه بالصورة الحسنة والمظهر الجميل، فكانت سنن الفطرة عاملاً مهماً في إبراز هذا الجمال والمحافظة عليه. وليس هذا فحسب بل إن الله كرم الإنسان بأن نفخ فيه من روحه، قال تعالى:**{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}**[1]. فكان ذلك تكريماً للكائن البشري وتمييزاً له عن سائر المخلوقات، إضافة إلى ما خصه الله به من نعمة العقل. فكان للجانب العقلي انعكاس على سلوكه وتصرفاته تجعله يحكم ذلك العقل كثيراً، لا سيما وأن ذلك العقل يعد مناط التكريم الإلهي للإنسان.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن في هذه الخصال والسنن النبوية نمطاً تربوياً إسلامياً يتناسب مع مسئوليات هذه الخلافة ووظائف تعمير الكون، إلى جانب كونها تحقق مبدأ التكريم

---

(١) سورة ص: ٧١ – ٧٢.

الإلهي للإنسان في هذه الحياة الدنيا. وهو أمر يتميز به الإنسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى لقوله تعالى:**{ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ والْبَحْرِ ورَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}**[١].

ففي قص الأظافر مثلاً تمييز للإنسان المسلم عن غيره من الكائنات ذات المخالب من كواسر وقوارض ونحوها. وفي حلق الشعر وقصه ونتفه تمييز للإنسان المسلم عن غيره من المخلوقات ذات الشعور المرسلة، والمسدلة على أجسادها بلا ترتيب ولا انتظام. وفي السواك والمضمضة تمييز للإنسان المسلم عن غيره من الكائنات التي لا تنظف أفواهها ولا تعتني بنظافة أسنانها.. وهكذا.

وهذا فيه رفع لمستوى الإنسان المسلم وتكريم له على غيره من الكائنات والمخلوقات الأخرى؛ لذا كان على الإنسان المسلم أن يحترم هذه المكانة التي أنزله الله إياها، وألا يهبط بها عن مستواها الإنساني الرفيع الذي خصه الله به عمن سواه، وفى أيامنا هذه صرنا نرى أناسا مختلفة تماما عن الجيل الأول أسماؤهم إسلامية وأشكالهم شيطانية، لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا رسمه، ومن هنا نرى أن سنن الفطرة دليل على تكريم الخالق سبحانه للإنسان المسلم لأمرين هما:

* أن تكريم الله سبحانه للإنسان نابع في الأصل من كون هذا الإنسان يحمل منهج الله في الأرض، وأن هذا المنهج يعتمد على مصدرين رئيسيين أحدهما متمثل في اتباع الهدي النبوي والسنة المطهرة.

* أن من السنة الاقتداء برسول الله ﷺ، وهذا يحصل للمسلم عن طريق محافظته على سنة الفطرة.

٦ – سنن الفطرة والاستقامة الإيمانية:

من المسلمات أن التربية الإسلامية تسعى إلى تحقيق غاية عظمى، وهدف أسمى يتمثل في استقامة النفس البشرية على نهج الإيمان الواضح الصحيح الذي لا تشوبه شائبة، وذلك أمر لا يمكن تحقيقه إلا بممارسة شرائع الإسلام واتباع تعاليمه، والانقياد لأوامره والابتعاد عن نواهيه. فالاستقامة إذاً مرحلة ثانية تأتي بعد الإيمان لأنها أثر من آثاره ونتيجة من

---

(١) الإسراء: ٧٠.

نتائجه. قال تعالى:**{ومَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبْـراهِيمَ حَنِيفاً}**(١). وقال ﷺ : **«قل: آمنت بالله، ثم استقم»** رواه مسلم. فهذه الاستقامة الإيمانية لا تتحقق إلا بالفقه الشرعي ومعرفة أمور الدين، والإحاطة بتعاليمه، ورعاية الأخلاق وتطبيقها في واقع الحياة ليصبح الإنسان المسلم بذلك كله قدوة صالحة وأسوة حسنة. ثم لأنه متى استقام قلب المسلم على معرفة الله سبحانه وعلى خشيته وتقواه في كل لحظة وفي كل صغيرة وكبيرة؛ استقامت جوارحه كلها على الطاعة والامتثال.

وهذا يؤهل من قام به والتزمه ليكون من حملة الرسالة الخالدة الذين قال الله سبحانه فيهم:**{إنَّ الَذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}**(٢).

ومن هنا يمكن القول بأن من ثمرات التزام المسلم بسنن الفطرة ما تحققه من ملامح الاستقامة الإيمانية عنده حينما يطلبها بشكل مناسب ومقبول يعتمد في المقام الأول على الاعتدال والاتزان والاتباع لهدي النبي ﷺ دونما إفراط أو تفريط. إضافة إلى تربية المسلم على الاستمرارية والمواصلة والمحافظة على هذه السنن المباركة والخصال الحميدة لما فيها من خير للفرد وصلاح المجتمع (٣).

* * * * *

(١) النساء: ١٢٥.

(٢) فصلت: ٣٠.

(٣) صالح أبو عرّاد الشهري / موقع إسلامي على الإنترنت.

المبحث الرابع
الميزات التي يجب أن تكون موجودة في شخصية المسلم

سوف نلقي الضوء على بعض الزوايا في شخصية الفرد المسلم. وما هي الميزات التي يطلب الإسلام أن تكون موجودة في شخصيته حتى يستطيع أن يتكيف مع البيئة والمحيط، وكذلك الميزات الغير مرغوب فيها والتي وإن غلبت عليه ستؤدي إلى عدم التكييف وبالتالي إلى الإحباط.

وسنذكر كلتا الجهتين، الإيجابية والسلبية. ولكي يصل المسلم إلى الصحة النفسية يجب أن ترجح لديه الكفة الإيجابية.

١ – الكفة الإيجابية:

(ضبط النفس، الاتحاد والتعاون، والاستقلالية، الاعتراف بالخطأ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الاجتهاد ومراقبة النفس، الأمانة، العلم، العمل).

٢ – الكفة السلبية:

(التشاؤم، الكبرياء، الفساد، الكذب، سوء الظن، الغش، السلبية، الأنانية، الاتكالية، الشك).

تعال معي نتناول الجهة الإيجابية من هذا الميزان:

١ – ضبط النفس.

إن الإسلام وضع هذه الميزة للمسلمين وطالبهم بأن يتمسكوا بها؛ لأنها صورة سلوكية تساعد المؤمن على التكييف مع شروط الحياة. فالإنسان المؤمن الحق هو ذلك صاحب النفس الأبية القوية التي ترتفع عن الدنايا وتتنزه عن النقائص والصغائر وترغب عن الرذائل. ولقد ذكر القرآن الكريم صورة من صور ضبط النفس إذ قال تعالى في كتابه الكريم:**{وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}**[1].

فالمسلم إذا استطاع أن يضبط نفسه ويتحكم بها ويسيطر عليها فهو من المحسنين. كما أن كظم الغيظ إذا صحبه العفو كان ذلك دليلا على حسن النية، فمقاومة الانفعالات النفسية ومطاردة الهواجس الشيطانية ذلك هو الإيمان بالله.

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٤.

أيضا هناك صور أخرى تبين كيف أن الإسلام الحنيف يحث على ضبط النفس والسيطرة عليها فنرى رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: **«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»**.

والعفو عند المقدرة هو صورة من صور ضبط النفس في الإسلام، إذ يقول تعالى:**{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ}**(١).

والصفح الجميل هو بمعنى العفو دون عتاب. والعفو أقرب للتقوى مع الأقارب والجيران وتحمل الإساءة وضبط النفس حينها، يقول تعالى:**{وَلاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}**(٢).

ونأتي بقصة كمثال على صورة من صور ضبط النفس عند المسلمين.

وذلك كان في عهد رسول ﷺ حينما شتم أعرابي أبا بكر الصديق رضي الله عنه في حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأبو بكر ساكت ولما لم يسكت الرجل أخذ أبو بكر يرد عليه، فقام الرسول من المجلس، فقال أبو بكر لرسول الله:

لم قمت حين أخذت أرد على الرجل؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: **«يا أبا بكر لما سكت كان هناك ملك يدافع عنك، فلما ابتدأت تنصف نفسك ذهب الملك وجاء الشيطان، ولم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان»**.

وهكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام يعلم أصحابه الصبر والاحتمال وتمالك النفس حين الغضب.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:**{وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}**(٣).

ومن الخير أن يكون المؤمن قويا أمام نزواته ونزعاته توابا أوابا إلى ربه الذي يعلم ما تكسب كل نفس وهو القائم على النفس البشرية بما كسبت وهو الذي خلق الإنسان فسواه وألهمه فجوره وتقواه.

٢ – الاتحاد والتعاون.

عن أبي ذر – جندب بن جنادة – رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الأعمال

(١) سورة الحجر: ٨٥.
(٢) سورة فصلت: ٣٤.
(٣) سورة الشورى: ٤٣.

أفضل؟ قال: **«الإيمان بالله والجهاد في سبيله»**، قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: **«أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنا»**، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: **«تعين صانعا أو تصنع لا فرق»**، قلت:

يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: **«تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك»** (١).

في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام نجد مدى حثه على التعاون والاتحاد الذي يؤدي إلى سعادة الفرد في الجماعة.

وفي القرآن الكريم نجد صوراً كثيرة تحث على التعاون بين المسلمين كي يتمكنوا من الوصول إلى حياة نشطة وفعالة، إذ يقول تعالى:**{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ}**(٢).

من خلال هذه الآيات القرآنية نرى أن الله تعالى يطالب المؤمنين بأن يتعاونوا على البر والتقوى وأن يتحدوا فيما بينهم لأن الجماعة أفضل من الفرد والتعاون يساعد الفرد على الحياة ومن طبيعة الإنسان السليم أن يشعر بطمأنينة وراحة نفسية في جماعة تعينه وتحترمه وتقدره وتشعره بذاته، فالإنسان الذي يعمل في جماعة ويتقن عمله سوف يشعر أنه مرغوب فيه بالتالي يتمكن من تكوين فكرة إيجابية عن نفسه وذاته فيكون سوي الشخصية؛ إذ أن السمة المركزية في الشخصية السوية كما عرفها الخبراء في علم النفس هي الفكرة الإيجابية عن الذات. يقول الله تعالى في كتابه الكريم:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ وَلاَ الهَدْيَ وَلاَ القَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ}**(٣).

ويقول محمد عليه الصلاة والسلام: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»**.

فقد سعى رسول الله عليه الصلاة والسلام في تأليف قلوب المسلمين وتوحيدهم فكان ينزل إلى مستوى الناس ولا يجعل فارقا بينه وبين واحد منهم.

---

(١) سنن الترمذي.
(٢) آل عمران: ١٠٤.
(٣) سورة المائدة: ٢.

التعاون والاتحاد هما صفتان من صفات المسلم التي تساعده على التكييف مع الشروط الاجتماعية وتوصله لحياة نفسية سليمة وسوية.

ونذكر أن هناك طريقة علاج نفسية متبعة في طرق العلاج النفسي يطلق عليها اسم العلاج النفسي الجماعي والتي تساعد المريض على الخروج من حالته عن طريق اختلاطه بالجماعة والتعاون معهم.

٣ – الاستقلالية:

ظل الرسول عليه الصلاة والسلام حريصا على غرس الاستقلالية في نفوس أصحابه.

ونرى ذلك في حديثه الشريف حينما قال: **«لا يكن أحدكم إمعه فيقول: إن أحسن الناس أحسنت»**.

وهذا يدل على أن الإسلام يحث على الاستقلالية في الرأي والتفكير واستنباط النتائج دون التعلق التام برأى الآخرين.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

المبحث الخامس
ما هو المقصود بخلق أو سلوك المسلم؟

نحن نقصد بسلوك المسلم أخلاقه المرتبطة والمتزنة والمتوازية والمنبثقة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بحيث إن المسلم الذي نعول عليه والذي يصير قدوة للناس هو المسلم الذي تمثل أخلاقه صورة واضحة لخلق الإسلام والتي تنبثق من كتاب الله وسنة رسوله، وهو المسلم الذي يتصف بما أمر الله به من فضائل، ويجتنب ما نهى رب العباد عنه سبحانه وتعالى.

ما هو القدر الذي يمثله كل من العبادات والخلق في الإسلام:

الإسلام عبارة عن محاور فالإسلام عقيدة وشريعة فالعقيدة تتصل بالتوحيد والاتصال بالله عز وجل والثقة فيه والتوكل عليه والثقة فيما عنده، والخوف منه والرجاء فيه وهذا هو جانب العقيدة. أما جانب الشريعة فيختص بالمعاملات من أخذ وعطاء، وبيع وشراء، وحقوق أحوال شخصية وحقوق الغير ثم مسألة الخلق فهذه أيضا تخص الشريعة لأن خلق المسلم منبثق من شريعة الله عز وجل ومن أوامر الدين لأن الخلق عند الغربي هو خلق نفعي وخلق مؤقت أي أنه خلق يتوقف على الحالة التي يكون عليها الإنسان. وإذا ظن الإنسان أن الأخلاق مجرد فضائل يتحلى بها فقط فإن ذلك يعد نظرة ضيقة جدا لحقيقة ما يجب أن يكون عليه خلق المسلم فالخلق في الإسلام فرائض فرضها الله سبحانه وتعالى، وليست فضائل. كما أن الخلق يمثل أوامرا ونواهيا حيث نهى الله عن الغيبة، والكذب، وغش الناس، وشهادة الزور وهذه النواهي تعادل الأوامر حيث أمر الله بحسن التعامل مع الناس والأمانة، وكذلك الصدق معهم وبالتالي فإن خلق الإسلام عبارة عن أوامر ونواهي وهذا هو الجانب الذي تأخذه من إطار الإسلام العام.

ما هو رأيكم في الدافع الذي يجب أن يشتق منه المسلم خلقه وسلوكه؟ هل هو العادات والتقاليد والعرف أم الدين؟

العرف والتقاليد جزء من تكوين شخصية المسلم وجزء من الشريعة، ولكنه ذلك العرف الذي لا يتعارض مع كتاب الله أو سنة نبيه، فالكتاب والسنة أولا ثم تأتى الأعراف والتقاليد إذا اتفقت مع أوامر الله ونواهيه، وكذلك أوامر الرسول ونواهيه. أما إذا اختلفت مع ما في دين الله سبحانه وتعالى من كتاب وسنة فتلغى تماما ولا تكون وإلا كانت عصبية وجاهلية، كما يقول الله عز وجل: **{إِنَّا وَجَدْنَا**

آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ}.

هل حث الإسلام على ضرورة اتباع الخلق الحسن؟ ولماذا؟ وكيف يكون المسلم حسن الخلق؟

الإسلام دائما يحث المسلم على اتباع الخلق الحسن كما قال الله عز وجل في كتابه الكريم:**{خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ}** لأنه عندما يكون الأمر من الله سبحانه وتعالى يكون أمراً إلهياً، وبالتالي يقتضي ذلك من المسلم أن يتبعه وأن يطيع أمر الله سبحانه وتعالى وأن ينفذه حتى يتصف بالخلق الحسن. ولكن إذا ترك الاتصاف بالخلق الحسن لمقدرة الإنسان في أن يأخذ الأمر أو لا يأخذه أو أن يطبقه أو لا يطبقه فهنا تسوء القضية لأن الخلق الحسن يمثل أوامرا ونواهيا من كتاب الله سبحانه وتعالى وكذلك من السنة المطهرة. والمسلم يكون حسن الخلق من خلال مراعاة بعض من الأمور بحيث ينظر بما مدح الرسول ﷺ عباد الله الصالحين من أخلاق حميدة ويتصف به وبما ذمهم من أخلاق ذميمة فيبتعد عنه. وبالتالي فإن ميزان المسلم يجب أن يكون الكتاب والسنة بحيث يضع الكتاب والسنة في أحد جوانب الميزان وأخلاقه في الجانب الآخر حتى تحسن أخلاقه بإذن الله. وذلك بالإضافة إلى أنه يجب أن ينظر في أخلاق الناس ويتصف بما يستحسنه من أخلاق حميدة عند الناس، ويبتعد عما يكرهه ويبغضه من أخلاق ذميمة ولا يتصف به طالما أن المنهج والميزان هو الكتاب والسنة.

ما هو رأيكم في المسلمين الذين يعتبرون أن الإسلام يقتصر على العبادات فقط ولم يتناول حسن الخلق؟ وبالتالي فإن موضوع الخلق مسألة تختلف باختلاف المجتمعات والمعتقدات والأعراف بدون أن يكون لذلك علاقة بالدين؟

هذا كلام ليس من الإسلام في شيء فالأخلاق في الإسلام جزء من تكوين المسلم نفسه وجزء من تركيبته وتصرفاته..

ما هو انعكاس الالتزام بكل من العبادات والخلق الحسن فى التأثير على الدعوة للإسلام وفى نظرة الإسلام للغرب؟ وأيهما يكون أشد تأثيرا؟

إن الغرب لا يتأثر بالعبادات ولكن يتأثر بالخلق فالخلق لغة عالمية يجب أن يتصف الإنسان بها. وبالتالي فإنها أكثر تأثيرا لأن الغربي لا يأخذ من صلاتي شيئا ولا من زكاتي شيئا ولكن عندما يرى تراحمي مع المسلمين في قضية الزكاة ويفهم هذا المحور ينشرح صدره للإسلام، وكذلك عندما يرى أنى أحسن التعامل مع أهل

البيت ومع الجيران ومع الرفاق في العمل من إيثار وتفضيل الغير وحب الخير لهم فكل هذا بلا شك يمثل الأخلاق التي تدعو غير المسلمين للإسلام أكثر مما تدعو إليه العبادة. وعندما يتصف المسلم بالتميز في الجانب التعبدي وفي جانب الخلق يكون هذا هو المسلم الحق.

كيف نشجع أنفسنا ونربي أولادنا على حسن الخلق؟ وما هو تأثير ذلك على الأمة الإسلامية في الحاضر والمستقبل؟

أهم ما في السلوك أن نكون قدوة عملية دون كلام فيمكن أن أجلس يومين أو ثلاثة أو أربعة بدون الكلام في أوامر أو نواهي مع الأولاد والبنات ولكن أجعلهم يرونني خلقاً يمشي على قدمين فهنا يكون التأثير إن شاء الله، وسوف نحصد خيراً إذا ربينا أولادنا على الخلق الحسن، كما سنحصد شراً إذا أهملنا تربيتهم أو تركناهم ليشبوا على خلق السوء[(١)].

* * * * *

(١) بقلم الأخصائي النفسي بديع القشاعلة/ مقال بتصرف.

المبحث السادس
شخصية المسلم المعاصر هل تفيد الدعوة؟

أما هذه الخلوف المعاصرة فلها شأن آخر.! هناك من يرحل إلى أوروبا وأمريكا طلبا للقوت، وهناك من يرحل طلبا للأمان. وفرارا بحياته، وهناك من يرحل طلبا للعلم وتعرفا على مفاتح الحضارة الحديثة، وهناك من يرحل طلبا للمتعة، واستكثارا من الفضائح في بلاد لا تعرف فيها...

والنظم الاجتماعية عند القوم تتيح فرصا سهلة لهؤلاء وأولئك، بل تتيح فرصا عظيمة للدعوة الإسلامية، لو شاء المسلمون وصحت لهم دعوة! فالحريات هنالك لا حدود لها، ولكن فاقد الشيء لا يعطيه، والمسلمون في بلادهم غرباء على دينهم فكيف يهدون إليه وماذا يقولون؟؟

الصورة التي ارتسمت في أذهان الغربيين عن الإسلام وأمته تبعث على الخجل، فطلاب المتع من أغنيائنا ألجموا أفواهنا عن أي اعتذار..

المال الإسلامي يراق بسفه غريب في علب الليل، وموائد القمار والخمر، وأنواع التهتك التي تسبق الخيال!

والغربيون ليسوا أغبياء! إنهم يقولون: أما على هذا المال رقابة؟ من أين اكتسب؟ وفيم أنفق؟ وهم يعلمون أن جماهير غفيرة من المسلمين ذهبوا ضحايا الجفاف والقحط، ومن بقى منهم في آسيا أو إفريقية بقي جلدا على عظام، أو ملامح تصرخ بالبأساء والضراء!

أين المواساة التي يتحدثون عنها في دينهم؟ أين التواصي بالمرحمة؟ وقبل ذلك أين التقوى التي تحجز عن المحارم وتقهر هذا العهر السافر المشهود بالليل والنهار من شباب العرب وشيبهم؟؟

الحق أن الصورة التي عرفت عنا لا تشرف ديننا ولا تغرى بنظر فيه.

ولولا أن الحضارة الحديثة تحض على النظر والاستكشاف، ما عرف أحد الإسلام على حقيقته، أو على أجزاء مشرفة من هذه الحقيقة.

ويوجد متدينون من المسلمين النازحين إلى أوروبا وأمريكا، وفيهم بلا ريب من هزم تيارات الانحراف التي تجره إلى السقوط، غير أن كثيرا من هؤلاء يحمل جراثيم العلل التي شاعت في بلاده الأصلية، في إنجلترا دعاة للطريقة النقشبندية التقيت بأتباعهم من الإنكليز! وهناك من اجتهد فترجم موطأ مالك! فهو المذهب السائد في شمال إفريقية! وهناك من

يحارب القباب والأضرحة في أمريكا وهناك من يرى وضع اللثام على الوجه، ويقرنه بكلمة التوحيد! وهناك من جعل شارة الإسلام الجلباب الأبيض كأننا في صحراء نجد!

وهناك من حلق رأسه وشواربه بالموسى وأطلق شعر لحيته على نحو يشعرك بأن كل شعرة أعلنت حربا على جارتها، فهناك امتداد وتنافر يثيران الدهشة.. قلت في نفسي: لم يبق إلا أن يحلق حاجبه بالموسى هي الأخرى لتكتمل الدمامة في وجهه ولم أر مساءلته لم فعل ذلك لأني أعلم إجابته: سيقول هذه هي السنة...!

ما عليه لو ترك شعر رأسه مرجلا معطرا، وهذب لحيته لتكون أبهى من لحى أهل الفن كما يقولون أو كما يفعلون.

ثم هو – عندما يفعل ذلك – إنما يستكمل الشكل، وما يفيده شيئا إذا لم يكن هناك موضوع! أين النفس الإنسانية وتزكيتها وأين العقل البشري وحسن إدراكه للحقائق كلها؟؟

إن الأجيال المنتمية للإسلام في هذا العصر تنقصها التربية النفسية والفكرية التي برز فيها السلف الأول، وأضحوا بها قادة ترنو لهم الدنيا بإعجاب وحفاوة.. وكثيرا ما نبهت إلى أن الأوربيين يهتمون بالأصول لا بالفروع، وأنهم يزنون النهضات بثمراتها المادية والأدبية معا، هم لا يكترثون للياباني إذا أكل الأرز بالأقلام أو بالعصي! إنما يرمقونه بدهشة، وهو يبدع الأجهزة أو وهو يقلدهم في عمل، ويصل بعقله اللماح إلى أبعاده، ثم يسبقهم إلى إنتاجه..

* * * * *

المبحث السابع
التوازن في شخصية المسلم

نستطيع أن نقول دون حرج: إن الميل إلى التطرف أصل في حياة الإنسان، بل يكاد يكون شيئاً مغروساً في التراث الجيني للبشرية، والشخص الـذي يرغـب في أن يحيـى حيـاة متوازنـة أشبه بالذي يسير فوق حبل مشدود، عليه أن يحـرص علـى ألا يسـقط ذات اليمين أو ذات الشمال.

وكذا الإنسان المسلم مهدد دائماً بأن يجنح نحو إفراط أو تفريط، أو أن يعتني بأشياء على حساب أشياء أخرى. التوازن شيء جميل لأنه قد يرمز إلى الكمال. ومن الملاحـظ أن الشـيء ينتزع الإعجاب إذا اجتمع فيه ما تفرق في غيره. وهو إلى جانب هذا أحد مؤشرات الالتـزام المهمة، فتكاليف الإسلام كثيرة والشخص الملتزم المتوازن يحاول أن يقوم بها جميعاً.

ويمكن القول: إن الذي يؤمن نصاب التوازن في حياتنا شيئان: واجباتنا وأهدافنا. ولـيس المقصود بالواجب هنا الواجـب الشـرعي، ولكنـه الواجـب الحضـاري، وكـل مـا نشـعر أنـه مطلوب منا ولو كان نافلة من النوافل. إن الالتزام بالواجبات والآداب العامة والشرعية التي تحتويها يجعل حياتنا في السياق الصحيح الذي ينسجم مع عقيدتنا، وينسجم كذلك مع الغاية النهائية التي نسعى إلى بلوغها، وهي الفوز برضوان الله تعالى – ونعيم الجنة الأبدي.

أما الالتزام بأهدافنا في أعمالنا وإنجازاتنا ومسؤولياتنا فإنه يساعدنا على حشـد طاقاتنـا، كمـا يجعلنـا نضـغط علـى رغباتنـا وأوقاتنـا، لنبـدو في نهايـة الأمـر منطقـيين في سـلوكياتنا ومنسجمين مع أنفسنا. وهناك أمران آخران أيضاً يساعدان علـى تحقيـق التـوازن: الأول هـو الالتزام بالسنة، والثاني هو البعد عن الغلو والتنطع. إن اتباع السنة في أكـبر قـدر ممكـن مـن تفصيلاتها يعني الانتباه الدائم لحقوق الله تعالى – وحقوق الأهل والأقرباء والجـيران وعامـة المسلمين. كما أن السنة تساعد على تحقيق الانسجام الاجتماعي من خلال تأمينها نوعـاً مـن الوحدة الشعورية بين المسلمين، وتحقيق الألفة، من خلال مـا تشـيعه مـن التشـابه في المظهـر والسلوك. والأهم من كل هذا هو أن المسلم حين يتمسك بسنة النبي عليـه الصـلاة والسـلام يكون قد أقام حول نفسه خط دفاع أولي يحول بينه وبين الانحدار نحو التفـريط والتقصـير في الفرائض.

أما البعد عن التنطع والغلو والحرفية في رؤية الأشياء فإنه يحقق التوازن من جهة إبعادنا عن الإفراط والذي يعني دائماً إعطاء شيء ما من الاهتمام والعناية والوقت والجهد أكثر ممـا

يستحقه، وهذا غالباً ما يكون على حساب أشياء أخرى. وقد قال عليه الصلاة والسلام: **«هلك المتنطعون ثلاثاً»** والمتنطعون هم المتشددون في غير موضع تشدد. وحين زار سلمان الفارسي أبا الدرداء – رضي الله عنهما – ورأى من إعراضه عن الدنيا وزينتها – في خبر معروف – قال سلمان لأبي الدرداء: "إن لربك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه" وحين ذكر قول سلمان للنبي عليه الصلاة والسلام قال: **«صدق سلمان»**.

ولكن ليس التدين حزباً له شروطه وقوانينه حتى يتم الدخول فيه بشروط خاصة، وليس التدين طائفة أو شعبة لها معتقداتها الخاصة وأسلوبها الخاص. إنما التدين واجب كل فرد منا ويجب أن ترتكز عليه جذور شخصيتنا الاجتماعية والثقافية والتربوية. فكل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقوم بجميع الواجبات الدينية هو متدين، ولكن درجة التدين أو مستوى التدين هو ما يختلف بين شخص لآخر فيمايز بين البشر وكلنا يعلم حديث الرسول ﷺ : **«لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»** [(١)].

ولهذا فإن التقوى والتدين هو الميزان بين الناس.

كم نرتاح عندما ندخل إلى مكان ما لنشتري شيئاً ونجد صاحب المحل من المتدينين يخالجنا شعور جميل يطمئننا في التعامل معه ليقين نخفيه أنه لن يغشنا وسينصحنا في خياراتنا ويقدم لنا الأفضل.

كم نهنأ عندما نجد الأستاذ المسلم المتدين يحمل هم الدين أثناء تعليمه فتراه يعطي بلا حدود لأن الإسلام رباه على ذاك وينشئ الأجيال على التربية الإسلامية الصحيحة عملاً بالقدوة الحسنة مهما كانت المادة التي يعلمها لأن خلقه ودينه وأسلوبه هو الذي يعطي الصورة الجميلة.

عندما نرى الإعلامي المتدين، فهو يعرف كيف يخدم دينه بإعلامه الهادف وخير مثال على ذلك الدعاة الذين ظهروا على القنوات الفضائية والفضائيات الإسلامية التي تبث فكرنا الإسلامي المتزن في كافة أصقاع الأرض.

وقس على ذلك من أمثلة واضحة عن المتدينين ممن دخلوا معترك السياسة والهندسة والعلوم الشتى ونجحوا في ذاك بل وأبدعوا تألقاً وتميزاً.....

---

(١) رواه البخاري.

ليس المتدين هو الإنسان المنغلق الذي يعيش عالمه في عزلة عما حوله فلا الدنيا تهمه ولا من فيها حتى...

عن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»** [1].

وقفة:

" الدعوة إلى الله يجب أن تكون كالتنفس لا إرادية ومستمرة".

فهذه العبارة قد اختصرت الطريق وأرادت أن تجعل من كل مسلم ملتزم قدوة في سلوكه وعلمه وعمله وأخلاقه وسلوكه بين الناس وأن تجعل من كل امرئ منا مسؤولاً عن تمثيل الإسلام بصورته الحقيقية بعفوية. فهذه كلها تؤخذ على عاتق الملتزم، فكثيرا ما نسمع أن فلاناً اهتدى بسبب كلمة وأن فلاناً ترك الدين بسبب معاملة ذلك المسلم له. نعم، الدين المعاملة والدين النصيحة

١ – التوازن بين الفلاح والنجاح:

إن الذي يطلع على الأدبيات التي سادت عبر القرون الخمسة الماضية يجد أن اهتمام معظم المسلمين ببلورة شروط النجاح الدنيوي كان ضعيفاً للغاية وكان اهتمامهم أفضل بمسائل الفلاح الأخروي.

وهذا أدى إلى تهميش الأمة وضعفها بسبب ضعف مكوناتها الأساسية وهي الأفراد. وربما نظر الناس في تلك المراحل إلى أن الحديث عن الإنجاز العالي والتفوق في الإدارة إلخ.. يشكل نوعاً من الانغماس في الشأن الدنيوي، والإخفاق في إدارة شؤون المعاش لابد في النهاية أن ينعكس على مستوى التدين لدى الفرد ولدى الأمة سواء بسواء. واليوم تنشر العولمة وعلى أوسع نطاق، مفاهيم القوة والغلبة والتفوق والنجاح وتلح في مساعيها على جعل الناس يهتمون بالمادة على حساب المعنى والعاجل على حساب الآجل، وتلقى تجاوباً غير قليل في أوساط الشباب والناشئة. إن الحضارة الغربية تحفز معاني القوة على حساب

---

(١) رواه البخاري.

معاني الرحمة، ومعاني الأخذ على حساب معاني العطاء، وقد صار العالم الغربي يستوحي من تراثه القديم روح البطل المقدام الذي يغزو، وينهب ويسلب، وينفق من غير حساب وقد كان من قبل يستوحي من النصرانية روح الشهيد الذي يضحي بنفسه من أجل غيره. وقد ترتب على كل هذا اتجاه كثير من الناس اليوم، ولاسيما الشباب إلى النجاح الدنيوي والفوز بالثروة والمنصب والجاه والنفوذ والجاذبية الاجتماعية على أنها أشياء تستحق فعلاً التضحية، وأن يكرس المرء حياته من أجلها. وكان هذا على حساب الاهتمام بالفلاح والقيام بحقوق العبودية لله تعالى والاهتمام بالفوز الأخروي.

نقطة التوازن في هذه المسألة قد لا تكون في العمل على إعادة توزيع الاهتمام بين الفلاح والنجاح، فهذه عملية يعسر ضبطها، وإنما تكون في الالتزام بأن تكون مساعينا لتحقيق الفوز الدنيوي مرتبطة على نحو ما بحرصنا ومساعينا في اتجاه الفوز الأخروي. وذلك يتم من خلال استحضار النية الصالحة والحسنة عند مباشرة المباحات وعند محاولة الحصول على كل ما هو دنيوي من مثل كسب المال والحصول على منصب أو وظيفة. ولا تكفي النية الحسنة في تحقيق التوازن المطلوب بل لابد من سلوك الطرق المشروعة للحصول على ما نريد الحصول عليه من أمور الدنيا. إن هذه الحياة في الرؤية الإسلامية حياة مؤقتة ومحدودة وإن كل النجاحات التي نصيبها فيها بالتالي هي نجاحات صغيرة ومؤقتة وإن أي نجاح يتم بطريقة غير مشروعة هو نجاح وهمي، وقد يكون عبارة عن فرصة أو مناسبة لتحمل المزيد من الآثام والأوزار. إن حياتنا على هذه الأرض ستكون لها أعظم القيمة إذا استطعنا أن نجعل من حركتنا اليومية أسباباً تقربنا من الله تعالى ونيل مرضاته، وهذا ممكن إذا حاولنا وضع إراداتنا وقدراتنا في إطار العبودية لله تعالى، كما قال جل وعلا: **{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ}**[1].

٢ – التوازن بين العقل والعلم:

دار جدل قديم بين كثير من الناس في المقارنة بين العلم والعقل، فمنهم من فضل العلم ومنهم من فضل العقل، ولا أظن أن ذلك الجدل سوف ينتهي في يوم من الأيام بسبب غموض مجالات عمل العقل وغموض نوعية العلاقة التي ترتبط العقل بالخبرة. وإذا تأملنا في واقعنا وجدنا صنفين من الناس يحتاجون إلى استعادة التوازن في هذه المسألة. صنفا يبذل جهده في القراءة وجمع المعرفة، وقد يقوم بنقلها وتعليمها للناس، لكنه لا يحاول أبداً أن يضيف شيئاً لما يحمل من علم، أي لا يقوم بأي دور نقدي تجاه ما يحفظ وينقل. وقد ذكروا

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

أن تلميذاً ظل يتردد على أحد الأساتذة عشر سنوات، ثم توقف عن ذلك، وصار يقرأ على أستاذ آخر، فغضب الأستاذ الأول من ذلك التحول، وعتب عليه، وسأله عن أسبابه، فقال التلميذ: صحبتك عشر سنين، ولم أسمع منك إلا قولك: قال فلان، وقال فلان، ولم تسمعنا ما الذي تقوله أنت. قول فلان وفلان أجده في الكتب والمراجع، لكن أريد أستاذاً أعرف رأيه في قول فلان وقول فلان!

شيء أساسي أن نحفظ ونطلع، لكن من المهم أيضاً أن نمتلك الوعي الجيد بما نحفظ ونحمل من علم. إن من المهم على هذا الصعيد أن نعرف تاريخ العلم الذي نحمله، لأننا لا نستطيع أن نسبر أغواره دون أن نعرف المنعطفات التي مر بها، ودون أن نعرف المشكلات التي واجهها والفرص التي تنتظره، وآفاق تطويره وتنميته. ومن المؤسف في هذا السياق أننا لا نملك في طول عالمنا الإسلامي وعرضه أية جامعة متخصصة في تاريخ العلوم، بل قد لا نملك أية كلية تفتخر بأنها تقدم شيئاً متميزاً في هذا الحقل المعرفي الخطير!

إذن لابد من إحداث توازن على الصعيد الشخصي داخل البنية المعرفية بين الحفظ وبين فهم ما نحفظ ونقده والاجتهاد فيه والإضافة إليه.

أما الصنف الثاني من الناس فإنه على العكس من ذلك، يستخدم عقله على نحو نشط، ويحاول أن يقول في كل شيء قولاً لكن المعرفة التي لديه والخبرة التي في حوزته محدودة جداً. ويكثر وجود هذا الصنف في البيئات التي يغلب عليها طابع الثقافة الشفهية، وهي بيئات تنتشر فيها الأمية عادة انتشاراً واسعاً. أين – ياترى – تكمن نقطة التوازن بين العلم والعقل؟

لا أعتقد أننا نستطيع وضع السكين على المفصل في أمر شديد الالتباس كهذا الأمر، لكن يمكن أن نقارب ما نريد. في ظني أن نقطة التوازن تلك تكمن في معرفة دور كل من العقل والعلم في تكوين الحكم العقلي، وفهم ما يمكن أن يكون لكل منهما من مجالات. وأعتقد في هذا الإطار أن الله جل وعلا خلق العقل البشري ليعمل ضمن أطر ووفق مبادئ وأصول محددة. وهذه يوفرها الوحي. وحين يستدبر العقل الوحي فإنه يظهر الكثير من العجز والكثير من الاضطراب. وحين ينشط في إطار الكليات فإنه يفتقر إلى المعرفة المتخصصة. وهو في هذا أشبه بالرحى، فكما أن إدارة الرحى تكون غير ذات جدوى إذا لم نضع فيها شيئاً من الحبوب فكذلك العقل لا ينتج من خلال تشغيله أي شيء ذي قيمة من غير تزويده بالمعارف والمعلومات والخبرات المطلوبة. وهكذا فإن نقطة التوازن في العلاقة بين العقل والعلم تتمثل في التسليم للوحي في الأمور الكلية والغيبية وفي توفير الكثير من

المعلومات الدقيقة والشاملة كي يتمكن العقل من إعادة تنظيمها ووصفها في سياق منطقي جديد، واستثمارها من أجل الحصول على أشياء كانت مجهولة قبل عملية التفكير.

٣ – التوازن في التعامل مع الأزمة:

نحن باعتبار ما، شيء من الماضي، فجذورنا الفكرية والنفسية وموروثاتنا الجينية كلها ممتدة في الماضي، ولهذا فإن المرء لو ترك نفسه وشأنها فإنه سيجدها نزاعة إلى الماضي غارقة فيه. وهذا حاصل بالنسبة إلى كثيرين منا، ومن المؤسف أن بعض المسلمين يحتفي بالاستنباط من التاريخ ويسعى إلى استخراج النماذج منه أكثر من سعيه إلى فهم مقاصد المنهج الرباني الأقوم. وكثيراً ما يغيب عن البال أن الاعتماد على التاريخ في فهم الواقع أو تسويقه أو توجيهه كثيراً ما يشكل عامل انقسام وتهديد لوحدة الأمة. والمنهج القرآني في التعامل مع التاريخ فريد فهو يعرض عن التفاصيل، ويركز على مواطن العظة والعبرة وحبذا لو وقفنا عند هذا الحد.

إن من المهم أن ندرك أن طاقة وعينا على الاستحضار والاستيعاب محدودة، وحين نصرفه إلى الماضي فإن تعامله مع الحاضر ومع المستقبل سيكون قاصراً. كلما اتضحت معالم المنهج الرباني الأرشد في أذهاننا وأنظارنا كانت حاجتنا إلى الاستعانة بالتاريخ أقل والعكس صحيح. ويصح لنا أن نتخذ من هذا مؤشراً ومعياراً.

حتى لا يختل توازننا فإن علينا أن نصرف القليل من اهتمامنا للماضي، ونوجه الباقي للحاضر والمستقبل. الأمة تعاني من مشكلات كثيرة على المستوى الداخلي وعلى مستوى علاقاتها. ولسنا في حاجة في هذا المقام إلى الحديث عن الفقر والمرض والجهل والتشرذم والاستبداد والظلم والغثائية والتبعية.. فقد تحدث المفكرون والمصلحون في هذه الشؤون بما فيه الكفاية، لكن علينا أن نبدع في صياغة المناهج والأساليب والأدوات التي تساعدنا في اجتراح الواقع والقبض على المعطيات الحاضرة، وليس هذا بالأمر اليسير نظراً للطبيعة الزئبقية والهلامية للواقع. وليس المطلوب منا حتى نتعامل مع الأزمنة بتوازن واعتدال أن نسعى إلى توزيع اهتماماتنا على نحو معين، وإنما المطلوب أيضاً أن نسلك المسلك المتوازن على صعيدنا الشخصي، حيث إن هناك كثيراً من المسلمين يقعون في أشكال من الخلل، فهناك – مثلاً – من يعيش في ضنك وتقتير بحجة أنه يوفر المال لمواجهة أزمات أو عوارض المستقبل. والغريب أن منا من يفعل ذلك وهو في سن السبعين. ولست أدري أي مستقبل على هذه الأرض ينتظر أو ينتظره ابن السبعين!! وهناك من يعيش حياته بالطول والعرض، يعب من الملذات مباحها ومحرمها غير آبه بما يجره عليه ذلك من الأمراض والعلل المهلكة،

إنه ينظر فقط إلى الساعة التي يعيش فيها وينظر إلى ما بعدها باستخفاف تام!

وأود في هذا السياق أن أشير إلى النقاط الثلاث الآتية:

١ - لا ريب أن الإنسان كلما ارتقى صارت قدرته على التضحية بالعاجل من أجل الآجل أكبر وأعظم وعلى هذا فالمسلم الملتزم يحمل سمات حضارية كبيرة، وعدم القدرة على تأجيل بعض الرغبات يؤشر دائماً إلى الوهن والتأزم، ويمكن أن نتخذ من هذا المفهوم مجساً لمعرفة أحوالنا الشخصية.

٢ - على الواحد منا أن يهتم بحاضره على مستوى الفهم وعلى مستوى الاستثمار والانتفاع وعلى مستوى الاستمتاع أيضاً، وليس من الحكمة في شيء أن يعيش المرء تعيساً لأنه اتخذ من السعادة هدفاً يطارده مدى الحياة دون أن يلحق به. ليكن تمتعنا بالحياة محكوماً دائماً بإمكانية الاستمرار وهذا لا يكون إلا إذا أخذنا من الحاضر لأنفسنا باعتدال وتوازن.

٣ - إن المستقبل يولد من رحم الحاضر وإن زماننا سريع التغير والتقلب والتطور وإن استشراف المستقبل والإعداد له يجب أن يتم من أفق تحسين قرارات الحاضر؛ إذ كلما كانت قراراتنا في التعامل مع واقعنا أكثر رشداً وأكثر حكمة توقعنا بإذن الله تعالى مستقبلاً أكثر أمناً وازدهاراً.

إن التغيرات السريعة والتعقيدات الكثيرة التي تميز عصرنا عن غيره، تجعل أي توازن نصل إليه مهدداً بالزوال، مما يعني أن البحث عن التوازن في كل جوانب حياتنا يجب أن يشكل العمل الذي لا نمل من تكراره [١].

* * * * *

(١) بقلم: أ. د. عبدالكريم بكار كاتب ومفكر.

المبحث الثامن
شخصية المسلم واطمئنان القلب

لو أردنا استعراض سمات شخصية المسلم كما حددها الدين لاستغرقنا في الحديث، طويلا فلنكتف ببعض نماذج تستخلص من كلام الله عز وجل وحديث رسوله ﷺ حول سمات شخصية المسلم:

١ – الإيمان بالقدر:

قال تعالى:**{قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}**، وهنا ينبغي أن يفسر هذا القول دوما بصفة إيجابية كحث على قبول المصائب بصدر رحب دون الالتجاء إلى مظاهر اليأس والوهن والانهيار أو دون الالتجاء إلى السلوك العدواني المعاكس أو التهجمات المفرطة التي لا يحمد عقباها، ولا يعني ذلك الاستسلام بل العمل على أن نتعدى أمرنا ونقفز بعد ذلك إلى الأمام لنتغلب على الشدائد والمصائب.

٢ – مسئولية الاختيار:

قال تعالى:**{بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ}**(١)، وهنا تتجلى حرية الفرد في اختيار مواقفه وسلوكه بكل دراية وهو هدف عديد من العلاجات النفسية المعاصرة.

٣ – طلب العلم:

قال الله تعالى:**{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً}**(٢)، ويتضمن ذلك قابلية المؤمن للتوعية والإرشاد.

٤ – الصدق:

قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}**(٣) والصدق فضيلة هامة جدا يرتكز عليها اطمئنان النفس إلى حد بعيد، ويقاس به مدى انهيارها إذا خلفت ذلك، من ذلك أن بعض الأخصائيين في علم النفس الحديث قد اخترعوا ركائز لقياس مقدرة الفرد على الصدق والإخلاص.

---

(١) القيامة: ١٤.
(٢) طه: ١١٤.
(٣) التوبة: ١١٩.

٥ – التسامح:

قال الله تعالى:**{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}**(١)، والتسامح من الفضائل الهامة لاطمئنان النفس ونيل الارتياح.

٦ – الأمانة:

قال تعالي:**{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}**(٢).

٧ – الرحمة:

قال رسول الله ﷺ : **«الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»** (٣) وهذه الخصال الحميدة لها وزن كبير في سلوك الأفراد الأسوياء والمرضى في آن واحد، ولنذكر هنا بطاعة الوالدين والعناية بهما وبضرورة حسن معاملة الأولياء لأبنائهم ولذويهم على أسس المحبة والرحمة.

٨ – التعاون:

قال الله تعالى:**{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى}**(٤).

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}(٥).

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(٦).

وقال رسول الله ﷺ : **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»** وفي ذلك أعظم العبر وأسمى التعاليم للتوافق الأسري والاجتماعي الذي ترتكز عليه قواعد الصحة النفسية.

---

(١) فصلت: ٣٤.
(٢) النساء: ٥٨.
(٣) سنن أبي داود (٤٢٩٠).
(٤) المائدة: ٢.
(٥) الحجرات: ١٠.
(٦) التوبة: ٧١.

٩ – القناعة:

وهي من أفضل الخصال البشرية التي تنهي عن التناطح العنيف نحو تحقيق السعادة المادية التي لا حد لها، فهي تعالج الاضطرابات النفسية الناجمة عن الحقد والغيرة وكراهية الغير المنافس، وإن كان المسلم يحمد الله فليس لغرض غير غرض السعادة الروحية والاطمئنان وقبول حالته بصدر رحب مع الملاحظ أن ذلك لا يعني الاستسلام والفشل والركود في الذل والخسارة والخصاصة بل إن القيم الأخلاقية الإسلامية تشجع كما هو معروف من جهة أخرى على الإقدام والابتكار لكن بدون أن تستعمل في ذلك وسائل القهر والعنف والحيل الظالمة والرذائل المكروهة بصفة عامة.

١٠ – الصبر:

قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}**(١)،**{وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}**(٢)، ويا لها من عبرة فائقة في هذا الصدد حيث تتكاثر في مجال الطب النفسي التي تبرهن على أهمية الصبر والتحكم في النفس على هذا الأساس.

١١ – العفة:

قال تعالى:**{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}**(٣)، ومن هنا يتجنب الفرد الشر والرذائل على مختلف أنواعها.

١٢ – القوة والصحة:

قال رسول الله ﷺ **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف..»**(٤).

وفي ذلك تشجيع على تقوية النفس وتسييرها نحو الإقدام والشجاعة ومزيد من الفاعلية والتفاؤل للخير مستقبلا، وكذلك بقصد تجنب كل بوادر اليأس والانهيار.

* * * * *

(١) البقرة: ١٥٣.
(٢) البقرة: ١٥٥.
(٣) النازعات: ٤٠.
(٤) سنن ابن ماجه (٧٦).

المبحث التاسع
المسلم المتميز

الله سبحانه وتعالى أمرنا أن ندخل في السلم كافة، وأن نأخذ بجميع شرائع الإسلام وشعب الإسلام والإيمان، وأن نتمثل هذه الشريعة بجميع أبوابها، ولسنا مطالبين بالعلم فقط ولا بالعبادة فقط ولا بحسن الخلق فقط ولا بمعرفة الآداب والتمسك بها فقط، وإنما نحن مطالبون ومتعبدون بكل ذلك. ينبغي أن تكون شخصية المسلم متميزة بالعلم والعبادة والخلق والأدب، وجميع هذه الأشياء موجودة متمثلة فيه، وانظر مثلاً إلى إخفاء ذكر بعض شعب الإيمان في الأحاديث، على أي شيء يدل؟ قال النبي ﷺ : **«الإيمان بضع وسبعون شعبة: فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»** [1].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: **«أربعون خصلة أعلاهن منيحة العنز»** إذا أعطيت شاة عندك لرجل ليحتلبها وينتفع بها فترة من الزمن ثم يردها إليك، هذه تسمى منيحة العنز، وهي من أنواع الصدقات ومن أبواب الخير. **«أربعون خصلة أعلاهن منيحة العنز ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة»** [2].

ذكر ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث نقلاً عن ابن بطال رحمه الله: ومعلوم أنه ﷺ كان عالماً بالأربعين المذكورة، وإنما لم يذكرها لمعنى هو أنفع لنا من ذكرها؛ وذلك خشية أن يكون التعيين لها مزهداً في غيرها من أبواب الخير، فإذاً ما ذكرت الأربعين لكي تحرص على تلمس الأربعين فتحرص على هذا الباب من أبواب الخير، وعلى هذا النوع من أنواع الصدقة، وعلى هذا المجال من مجالات العمل الصالح، رجاء أن تدرك هذه الأربعين، وهذا يدل على أنه ينبغي عليك أن تضرب بسهم في كل واد من أودية الخير، وأن تحرص على تكميل نفسك من جميع شعب الإيمان التي هي بضع وسبعون شعبة، ذكر لنا أعلاها وأدناها وعلينا أن نبحث عن الباقي ونتلمسه في النصوص الشرعية ونعمل به. وهذه الأربعون كذلك مع أنها ليست من الأشياء الكبيرة كالصلاة والزكاة، لكن الذي يعمل بواحدة يرجو ثوابها عند الله، يصدق بموعودها يوعد بالجنة، إذاً المسألة مهمة، وسلعة الله غالية.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح البخاري.

١ – الإفلاس في نقص الشخصية:

وهذا الموضوع مهم – أيها الإخوة – أن نكمل فيه شخصياتنا؛ لأن النقص عيب وشين، وإذا نظرت في الواقع فنظرت إلى بعض الناس وجدت عنده جوانب من الخير فتراه: يصلي مع الجماعة، يقرأ القرآن، يذهب للعمرة والحج، يصوم، يتصدق، لكن في جوانب المعاملة مع الخلق تجده صاحب مثالب ومعايب، وعنده نقائص، وهذا المعنى موجود في حديث النبي عليه الصلاة والسلام: **«أتدرون من المفلس؟»** يسألهم عليه الصلاة والسلام، يلفت نظرهم إلى هذا الموضوع **«أتدرون من المفلس؟»** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار، قال: **«إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة»** – لاحظ ماذا عند الرجل، هذا الرجل عنده صلاة وصيام وزكاة، ومع ذلك يصفه عليه الصلاة والسلام بأنه مفلس، كيف يكون صاحب الصلاة والزكاة والصيام مفلساً؟**!** – يقول: **«ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا»** (1).

كم خصلة نحن مشتركون فيها من هذه الخصال الذميمة؟ قد يقول البعض: ما سفكنا دماء، نقول: لكن انظر في الواقع، كم شتمنا، كم قذفنا، كم ضربنا**!** فأقول – أيها الإخوة – نظرة محاسبة لأنفسنا: كم عملنا من هذه المعايب والذنوب؟ وهل سنكون يوم القيامة في عداد المفلسين؟ نسأل الله السلامة، ماذا سيحصل؟ **«فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته – يعطى للمظلوم من الظالم، صاحب الصلاة والزكاة والصيام – فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه؛ أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»** إذاً: النقص عيب، لا بد أن نكمل شخصياتنا لأن هذه الأشياء تورد المهالك، ويمكن أن يدخل الإنسان النار بسببها، فينبغي أن نكمل شخصياتنا.

٢ – آثار النقص في الشخصية:

أيها الإخوة**!** إذا نظرنا في الواقع وفي أنفسنا وفيمن حولنا وجدنا أن النقائص الموجودة في شخصياتنا لها آثار سلبية علينا وعلى غيرنا، فمثلاً: صاحب الشخصية الناقصة نقصها سلبي عليه، فقد يكون النقص في شخصيته نقصاً في الإيمان، يسبب الوقوع في المعاصي، يسبب شقاء النفس، يسبب قلة التوفيق، وإذا كان هذا مرضاً صار مرض قسوة القلب. النقص في الشخصية ينعكس علينا حتى في بيوتنا، لا معاشرة بالمعروف، ولا رحمة بالصبيان، ولا رفق بالبيت، والله سبحانه وتعالى إذا أراد بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق، فإذا

---

(١) مسند أحمد (٦٧٨٦).

وجدت البيت فيه شدة وعنتا ومعاملة جافية وغليظة؛ فاسأل الله أن يرزقك خيراً وأن يمنحك الرفق، فإنه يخشى منك ألا تكون ممن أراد بهم خيراً وممن أراد الله ببيوتهم خيراً. ثم إن النقص في شخصياتنا ينعكس أيضاً على علاقاتنا بإخواننا، النقص في الآداب يسبب البغض والقطيعة، والكره والتنافر، لا تضحية ولا إيثار، ولا سعة صدر وحسن استقبال. ثم إنه ينعكس أيضاً على الناس عموماً، تأمل لو أن هناك إنساناً صلى في الجماعة، واجتنب بعض المحرمات، وقام ببعض الواجبات، والتزم ببعض الأشياء في ظاهر شخصيته مثل إطلاق لحيته ونحو ذلك من السنن والأشياء الواجبة، ثم صار عنده نقص في شخصيته: غلظة في التعامل، خشونة، إخلاف مواعيد، عدم صدق في الحديث... ماذا سيكون أثر هذا على العامة؟ سيلوم الناس أصحاب اللحى، ويكون هذا ظلماً للغير، وفتح باب ينقد الآخرون من خلاله أهل الخير، وقد يصبح هذا الشخص بنقائصه من الذي يصدون عن سبيل الله، نحن بنقصنا وتصرفاتنا الخاطئة نعكس صورة مشوهة عن الإسلام في أعين غير المسلمين، ونعكس صورة مشوهة لمفهوم الالتزام بالدين في أعين غير الملتزمين بالدين.

٣ – أهمية تكميل الشخصية الإسلامية:

إن تكميل الشخصية الإسلامية مهم؛ لأننا من المفترض أن نرث عن الأنبياء دورهم في إصلاح المجتمع، فنذكّر الناس إذا غفلوا، ونعلمهم إذا جهلوا، ونقيم الحجة عليهم إذا عاندوا، بالوسائل السلمية، وكذلك بالوسائل العملية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ – حاجة الوقت إلى شخصية إسلامية قائدة:

وتكميل الشخصية مهم؛ لأننا في هذا الزمان نحتاج إلى شخصيات إسلامية تقود، والناس بالتدريج سئموا من قيادة الغرب الكافر، وغيرهم لا يصلحون لقيادة العالم؛ فتجد كبيرهم واقعاً في الفواحش والزنا والسرقات والاختلاسات والسكر والخمور، وهمه في اللهو واللعب، وعزف القيثارة والمعازف، فمثل هذه الشخصيات لا تصلح لقيادة العالم، وإذا كانوا قد تحكموا في الناس بالقوة والسلاح لكن قيادتهم فارغة من مضامين الخلق والأدب الحسن والعدل؛ لأن العدل لا ينتج إلا باتباع الشريعة، وإذا زالت الشريعة حل الظلم، ولذلك فقيادتهم للعالم ظالمة، وهذه الرموز التي تقود لا بد أن تفلس، بل قد أفلست، والسقوط وشيك، وبمرور الزمن سيتهيأ المجال لأن تشغل مراكز التوجيه والتأثير في العالم شخصيات أخرى، والشخصيات الإسلامية هي المرشحة للقيادة في المستقبل، فلا بد أن يوجد من الشخصيات المكملة من إذا أتيح لها المجال لمنصب أو مركز إذا تبوأته أن تؤثر

وتقوم بالعدل والإحسان:**{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ}**[1] ولا بد أن يوجد الاستعداد عند المسلمين لهذا الأمر، وهذه مسألة فيها عمق، وقد يتخيل أن فيها بعداً، لكن الله غالب على أمره والله متم نوره ولو كره الكافرون.

إننا نجد في الواقع القريب، أن أصحاب الشركات والموظفين فيها يترقون، فأنت تجد أنك تترقى في سلم الوظيفة وترشح لمنصب ولوظيفة أعلى من وظيفتك الحالية، وهكذا تتدرج في المستقبل، ولو كانت شخصيتك الإسلامية صحيحة ناضجة، لصار أثرك في منصبك ومركزك ووظيفتك أثراً إيجابياً إسلامياً نافعاً مباركاً، لكن لو كنت صاحب شخصية هزيلة وناقصة، وعندك من المعايب والمثالب والمعاصي والآثام؛ فإن هذا المركز سيكون وبالاً عليك، وسيظلم الناس من تحتك ولا شك، وسيكون كلام الناس عنك - أحياناً - كلام عن الدين نفسه الذي أنت تمثله، أو عن الالتزام الذي أنت تمثله ظاهرياً. ولذلك أقول: إن هذا الموضوع مهم من جهة المستقبل للإسلام، من جهة أن الظرف الحالك الذي نمر به يحتاج إلى شخصيات قوية كاملة تقود، اذكر أبا بكر الصديق في زمن الردة، وكيف كانت شخصيته حازمة ومهمة في الخروج بالمسلمين من ذلك المضيق، اذكر شخصية الإمام أحمد رحمه الله في المحنة لما ثبت فثبت بثباته ملايين الناس، كانوا ينتظرون ماذا يقول الإمام أحمد ليكتبوا ويعملوا، اذكر ابن تيمية رحمه الله لما ثبت بشخصيته المتميزة بالعلم والحلم، بما جاء على ضوء هذه الشريعة، قيظه الله عز وجل لما ثبت في زمن التتر والمتصوفة والمتكلمين والفلاسفة؛ فأنقذ الله به فئاماً من الناس. واذكر شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لما صار الشرك عاماً في أنحاء العالم الإسلامي إلا من رحم الله، حتى في هذه الجزيرة عبدت الأصنام والأوثان، واضطربت أليات نساء بني دوس حول ذي الخلصة، والذي يقرأ تاريخ دعوة الشيخ يعرف أن بعض أصنام الجاهلية الأولى أعيدت، وبنيت القباب على القبور، وطاف الناس حول الأضرحة، وعبد الموتى من دون الله، فصارت تلك الشخصية العالمة المجاهدة إنقاذاً للناس ورحمة من رب العالمين.

إذاً: الظرف الذي نعيش فيه الآن من تسلط الكفار، ومظاهر الاستسلام التي تعم العالم الإسلامي والقنوط من رحمة الله، والخزي الموجود، والاستخذاء والضعف يحتاج إلى شخصيات قوية تنقذ الموقف، وهذه الشخصيات لا يصلح أن تكون شخصيات ناقصة مهلهلة مشوهة، ينبغي أن تكون شخصيات إسلامية، والتغيير حاصل حاصل، والله سبحانه

---

(١) النحل: ٩٠.

وتعالى يداول الأيام بين الناس، وكما أن الغلبة اليوم للكفار ظاهرياً**{يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ}**(1) ماذا قال مؤمن آل فرعون؟**{فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا}**(2) فبأس الله سيأتيهم سيأتيهم، فمن سيملأ المواقع، ومن سيخلفهم، الله سبحانه وتعالى لا يؤتي النصر الذين لم ينصروه، وإنما ينصر من نصره وجاهد في سبيله:**{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}**(3) سيحدث التغيير وسيبرق ضوء الفجر، لكن إذا صرنا على مستوى التغيير والمواجهة والجهاد، والقيام بأمر الله سبحانه وتعالى علماً وعملاً، عند ذلك ينصرنا الله عز وجل.

٥ – القضاء على النـزعات القومية والاختلافات العنصرية:

وقد قضى هذا المبدأ الإنساني على النزعات القومية والاختلافات العنصرية التي كانت – وما زالت – تسود المجتمعات والتي تسبب العداوات فتقتل الأنفس وتزهق الأرواح وتنهب الأموال.

وبهذه القاعدة مهد الإسلام للعامل المجد أن يفتح أمامه طريق المجد، وأن ينال في الدنيا ما يصل إليه جهده، وفي الآخرة ما مهد لـه تقواه وصلاحه.

والتقوى تنال بطاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ، وبالأعمال الصالحة، وليست هذه الأعمال صلاة وصوماً وزكاة وحجاً فحسب بل لابد إلى جانبها أمور وأمور لا يتم إيمان المرء إلا بها، ومنها بل أهمها صيانة الإسلام وحمايته من كيد أعدائه والجهاد في سبيله، وفي سبيل الحق والدفاع عن ديار الإسلام من أن تمتد إليها يد الطامعين من الكافرين:**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}**(4).

---

(١) غافر: ٢٩.
(٢) غافر: ٢٩.
(٣) العنكبوت: ٦٩.
(٤) الحجرات: ١٥.

فمن الممكن أن يكون أي شخص من الناس هو الأكرم عند الله؛ لأن الكرامة عند الله عز وجل بالتقوى، ومن الواجب أن يكون هذا المعيار قائماً عند الناس، فالمتقون هم الأكرمون.

وهذا هو السمو بالنفس الإنسانية إلى أعلى الدرجات وأسمى الغايات وأنبل الصفات، وبعد ثلاثة عشر قرناً من الزمن عرفت الأمم هذا المبدأ وفخرت به وظنت أنها وقعت على شيء جديد لم يعرف من قبل، وتجاهلت أن الإسلام العظيم قد جاء بهذه المثل العليا قبل زمن طويل في وقت كان البشر غارقين في العبودية بل وتقديس الطغيان، فجاء الإسلام العظيم بهدم مزايا الأجناس والظلم وإلغاء الفروق الجنسية والتمييز العنصري والتعويل على التقوى والعمل الصالح وحدهما.

وإليكم مثلاً رائعاً من أمثال هذا الدين العظيم الذي ساوى بين الناس ولم يفرق بين أحد منهم: أبو لهب عم رسول الله ﷺ وهو من كبار رجال مكة حسباً وشرفاً ومالاً وأنصاراً، وحسبُه أنه عم رسول الله ﷺ، ولكنه لم يؤمن برسالة الإسلام، بل وقف حائلاً دون انتشارها ومنفراً عنها هو وزوجته أم جميل، ولما أنزل الله على رسوله الأمين ﷺ قوله:**{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}** جمع ﷺ أقرباءه وآل بيته فدعاهم إلى الله تعالى وإلى دينه الجديد فقال له عمه أبو لهب: تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟

فأنزل الله تعالى فيه: {تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد**}** [المسد] فلم تنفعه قرابته ولم يشفع له نسبه بعد أن ترك رسالة الإسلام. ؟؟؟؟؟؟

وهذا بلال الحبشي المولى الفقير والعبد الضعيف ليس له قبيل ولا عشير، ولا ناصر ولا مجير، ولم يكن عربياً ولا قرشياً ولا مكياً، بل كان عبداً حبشياً، آمن برسالة الإسلام، واتبع محمداً خير الأنام حتى أصبح يدعو إلى الله خمس مرات في اليوم مؤذناً بأمر رسول الله ﷺ، وفي يوم أصبح رسول الله ﷺ فقال: **«أين بلال؟ أين بلال؟»** فلما حضر، قال رسول الله ﷺ : **«يا بلال، بم دخلت إلى الجنة»** فقال رضي الله تعالى عنه: كنت يا رسول الله ما توضأت وضوءاً إلا صليت ركعتين ولا أذنت أذاناً إلا صليت ركعتين، قال ﷺ : **«بهما»**.

هذه الدرجة التي نالها بلال وصلها بإيمانه وتقواه، وتلك الدرجة التي وصل إليها أبو لهب بكفره وعناده.

وسلمان الفارسي رضي الله عنه يبلغ تلك المنزلة الرفيعة حتى يقول فيه رسول الله ﷺ : **«سلمان منا أهل البيت»**، ويقول الرسول ﷺ مخبراً عن قادة الأمم وطلائعها إلى الجنة: **«أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبشة»**، هذه الدرجات السامية التي رفع الإسلام أصحابها إليها وبوأهم عرش ذلك المجد المؤثل. فأين قادة المسلمين مما عليه اليوم من اعتزاز بعروقهم وفخرهم بقبائلهم وأمصارهم مما أدى إلى تقطيع الروابط بين المسلمين فأصبحوا أذلة بعد العزة، وضعفاء بعد القوة، وفقراء بعد الغنى. بل أصبحوا كما قال رسول الله ﷺ غثاء كغثاء السيل، ليس لهم وزن يتخطف بلادهم أعداؤهم وهم غافلون لاهون، يتحكم بمصائرهم الغرباء وهم سادرون غائبون الشعب: من قوله تعالى:**{وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}** هو الطبقة الأولى من الطبقات التي عليها العرب في اصطلاحاتهم وهي: الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة، فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل، فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس رضي الله تعالى عنه فصيلة، وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها.

والذكر والأنثى من قوله تعالى:**{إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى}**[1] أي من آدم وحواء وقيل معناه: خلقنا كل واحد منكم من أب وأم، فما منكم أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلي به الآخر سواء بسواء فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب.

الخلق: هو الإيجاد والتكوين.

وقد ورد في الخبر عن سيد البشر ﷺ أنه طاف يوم فتح مكة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: **«الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها يا أيها الناس، إنما الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله»**، ثم قرأ الآية الكريمة**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}**[2].

ولقد قام في هذه الآية الكريمة أصل خطير غير ما قررته من المساواة بين الناس وعدم التفاضل فيما بينهم إلا بالتقوى وما قررته من اعتبار المسلمين وحدة متماسكة كجسد واحد فقد قام فيها أصل مهم وخطير وهو وجوب رد الظالمين عن ظلمهم، والوقوف في صف المظلومين، وهذه درجة سامية كرّم الله بها المسلمين، ومن الواجب أن يفقهوها ويتدبروها

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الحجرات: ١٣.

ويعملوا لها ويحافظوا عليها كما يحافظون على أعز ما يملكون حفاظاً على شرفهم ومجدهم وعزتهم وكرامتهم، جعلنا الله تعالى ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ولقد ختمت الآية بقوله تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** فالله تبارك وتعالى خبير بأحوال الناس لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، عليم بأعمالهم التي تميزهم عنده فباب الله مفتوح لكل أحد والتقوى متيسرة لكل إنسان، وفقنا الله لعبادته وتقواه إنه نعم المولى ونعم النصير والحمد لله رب العالمين.

{قالَتِ الأعْرابُ آمنّا قُلْ لَمْ تُؤمِنُوا ولكِنْ قُولُوا أسْلَمْنا ولَمّا يَدْخُل الإيمانُ في قُلوبِكم وإنْ تُطِيعُوا اللهَ ورسُولَهُ لا يَلْتكُمْ مِنْ أعْمالِكُم شَيْئاً، إنّ الله غَفُورٌ رحِيمٌ}(1).

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فيما نقله الزمخشري في كشافه: إن نفراً من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة، فأظهروا الشهادة وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها وهم يغدون ويروحون على رسول الله ﷺ ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال والذراري، يريدون الصدقة ويمنون عليه ﷺ بإسلامهم فنزلت هذه الآية الكريمة.

ونقل الإمام الطبري في مجمع البيان في قوله تعالى:**{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا}** قال: هم قوم من بني أسد أتوا النبي ﷺ في سنة جدبة وأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر، إنما كانوا يطلبون الصدقة، والمعنى: إنهم قالوا صدّقنا بما جئت به، فأمره الله سبحانه أن يخبرهم بذلك ليكون آية معجزة له ﷺ، فقال:**{قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا}** أي لم تصدقوا على الحقيقة في الباطن،**{وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}** أي أنقذنا واستسلمنا مخافة السبي والقتل، ثم تبيّن سبحانه أن الإيمان محله القلب دون اللسان، فقال:**{وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}**(2)، وقال الزجاج: الإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به الرسول ﷺ، وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان، وصاحبه المؤمن المسلم حقاً، فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو في الظاهر مسلم، وباطنه غير مصدق، وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله تعالى:**{وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}** أي لم تصدقوا بعد ما أسلمتم تعوذاً من القتل، فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر، والمسلم التام الإسلام مظهر للطاعة وهو مع ذلك مؤمن بها. والذي أظهر الإسلام تعوذاً من القتل غير مؤمن في الحقيقة إلا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين.

---

(1) الحجرات: ١٤.

(2) تفسير الطبري.

وروى أنس عن النبي ﷺ قال: **«الإسلام علانية والإيمان في القلب»** وأشار إلى صدره، والإيمان هو التصديق التام مع الثقة وطمأنينة النفس وهو أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل الفقه والعلم من المسلمين، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه.

قال الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله تعالى عنهما قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً. فقال سعد رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً وهو مؤمن. فقال النبي ﷺ : **«أو مسلم؟»** حتى أعادها سعد ثلاثاً: والنبي ﷺ أو مسلم؟ ثم قال النبي ﷺ : **«إني لأعطي رجالاً وأدع من هو أحب إليّ منهم فلم أعطه مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم»**.

فقد فرق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام والإسلام أعم وأشمل وبينهما عموم وخصوص مطلق كما يقول علماء المنطق، فكل مؤمن مسلم ولا عكس.

والأمن: أصله طمأنينة النفس وزوال الخوف وقد أخذ منه: الإيمان، وجعل اسماً للتصديق الذي معه الأمن وهو الإذعان للحق، ومنه قوله تعالى:**{وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا}** أي بمصدق.

والإسلام: استسلام وانقياد وترك للتمرد والعناد. والتسليم: عام يكون في القلب والجوارح واللسان، أما الإيمان فأخص - كما قلنا - وهو أشرف أجزاء الإسلام.

هذا ما يعطيه ظاهر اللغة، ولكن الإيمان والإسلام لهما استعمالات شرعية أخرى فقد استعملا مترادفين ومختلفين ومتداخلين.

ومن الترادف قوله تعالى:**{فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ}** فلم يكن فيها بالاتفاق إلا بيت واحد.

وفي حديث رسول الله ﷺ قوله: **«بني الإسلام على خمس...»**.

وقد سئل النبي صلوات الله وسلامه عليه عن الإيمان فأجاب بمثل هذا الجواب وذكر نفس هذه الأركان.

ومن الاختلاف بين معنى الإيمان والإسلام الآية التي نحن بصدد تفسيرها، وقد ذكرت الفرق بينهما. ومن التداخل حديث رسول الله ﷺ وقد سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال:

«الإسلام» فقيل: أي الإسلام أفضل؟ قال: **«الإيمان»**. وهذا دليل على أن الإسلام أعم والإيمان أخص وهما متداخلان فالإسلام شمل تسليم القلب ونطق اللسان وعمل الجوارح، وأفضل هذه الثلاثة: تصديق القلب وهو الإيمان.

وقد جاء استعمال الإيمان في العمل الصالح، قال تعالى:**{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}**.

وللإيمان شعب مختلفة ودرجاته عند الناس متفاوتة، وهو يزيد وينقص، ويزهر ويذبل ويحيا ويموت، وفي حديث رسول الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»** (1).

فما أعظم هذا الإسلام الذي جعل إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان وقد ورد ذلك على لسان النبي الأعظم سيدنا محمد ﷺ المثل الأعلى للإنسان الكامل، وقد استجمع صفات الكمال فهو عليه الصلاة والسلام كمالاً فوق الكمال.

أما زيادة الإيمان ونقصانه فهو في قول الحق تبارك وتعالى إذ يقول وهو أصدق القائلين:**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}**(2).

فالله تبارك وتعالى ذكر صفات المؤمنين في هذه الآيات ورتب عليها السعادة في الدنيا والآخرة، وبها يتحقق الإيمان الكامل فلينظر الإنسان إلى نفسه، فإن كانت تلك الصفات صفاته فهو ممن يرثون الفردوس هم فيها خالدون، وإن كان بعيداً عنها فليحذر الذين يخالفون عن أمره.

ولقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات خمس صفات هي علامات الإيمان الحق وسمة الإسلام الصحيح وكلما ازداد عملاً كلما ازداد قرباً من الله، والواجب على الإنسان أن يتدارك أمره قبل أن ينقضي الأجل وينقطع الأمل فلا تنفعه الندامة ولا تغنيه الحسرة**{يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**،**{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا**

---

(1) صحيح مسلم/ ٥٠.
(٢) الأنفال: ٢ - ٤.

لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً}. يوم يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً.

٦ – من صفات هؤلاء المؤمنين:

{إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}.

فمن علائم الإيمان وجل القلوب عند ذكر الله عز وجل مدبر الكائنات ورب الأرض والسماوات وكل شيء في قبضته، وكل مخلوق في حاجة إلى رحمته وهو الذي يعلم خواطر النفوس وهمساتها وسرها وعلانيتها وقد أحاط بكل شيء علماً.

أما الذين لا تخشع قلوبهم لذكر الله عز وجل ولا تتحرك نفوسهم فأولئك الذين لم يُقَدّروا الله حق قدره، ولم يعرفوا مدى سلطانه وبأسه. قال تعالى:**{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}**(1).

وثانية هذه الصفات هي في قوله تعالى:{وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً}.

فمن علامة المؤمن أنه إذا سمع آيات الله تتلى ووحيه يقرأ ازداد إيماناً إلى إيمانه ويقيناً إلى يقينه وعلماً إلى علمه، فالمؤمن قلبه دائماً حاضر ونفسه مطمئنة بذكر الله عز وجل تداوي به عللها، وتصلح به ما اختل من شؤونها، ومتى ما قرع نداء الله تعالى أذنيه لبى نداء خالقه. أما أولئك الذين في قلوبهم مرض الذين يستثقلون آيات الله عز وجل إذا تليت عليهم وتشمئز قلوبهم من ذكر الله سبحانه فأولئك لا تنفعهم الذكرى بل يزدادون رجساً إلى رجسهم وخبثاً إلى خبثهم وهؤلاء يقول الله تعالى فيهم:**{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}**(2).

وهذه الآيات والتي قبلها تؤكد وتصرح بأن الإيمان يزيد وينقص ويذبل، ويتقدم ويتأخر ويحيا ويموت. وعلى هذا فيجب على المسلم المؤمن أن يسعى دائماً إلى تنمية إيمانه والمحافظة على دينه فهو كالنبتة المزهرة إن لم ترعها بالري والسقاية وتدفع عنها الأذى والعدوان اعتراها الذبول فالموت.

فاجتهد أيها المسلم أن تكون لكلام الله مصغياً ولآياته متدبراً وفي المعاني مفكراً

---

(1) الحديد: ١٦.

(2) التوبة: ١٢٥، ١٢٦.

وللأوامر فاعلاً ثم تفكر في ملكوت السماوات والأرض واعتبر بمن ارتحلوا عنك فسكنوا المقابر وتركوا الدنيا وأهلها. والتزم مجالس الصالحين**{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}** فهذا مما يساعد على زيادة الإيمان وتقوية اليقين وفكر في نفسك وماذا كنت وفي نشأتك ومراحل حياتك وقل بعدها:**{تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}**(١) والله تعالى يقول:**{وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}**(٢).

وثالثة الصفات هي في قوله تعالى:**{وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}**.

والتوكل على الله عز وجل هو الاعتماد عليه في بلوغ الغاية والوصول إلى النتيجة المرجوة في العمل، فإذا شرع في عمل ما فليوطن نفسه على أنه لن يجني ثماره ويبلغ الغرض منه إلا إذا أحاطته رعاية الله عز وجل وسهلت له الأسباب وذللت أمامه الصعاب، فإن العبد إذا وطن نفسه على ذلك وصدق في توكله أمدّه الله تعالى بقدرته حتى يصل إلى غايته، وليس معنى التوكل أن تنام في البيت وتقعد عن العمل وتقول: أنا متوكل على الله تعالى وسيأتيني رزقي، وما قدّر لي لا بد واصل إلي. فهذا ليس من التوكل في شيء بل هذا ضعف وعجز وخمول، وقد روينا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لذلك الرجل الذي رآه جالساً من غير عمل: قد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

والتوكل الحق دليل الإيمان وطريق الفلاح كما قال الرسول الأعظم ﷺ : **«لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»** وما أعظم هذا التشبيه من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، فالطير ليس لها مخازن تودع فيها الحبوب والأقوات وليس لها صهاريج تملؤها بالمياه، ولا حقول خاصة تتناول منها ماءها وغذاءها، ولكنها بما أودع الله فيها من غريزة تهب من أوكارها في الصباح قد خلت بطونها من الطعام والشراب فتسرح في الجو وتنتقل في الحقول والرياض والفيافي والقفار وعلى المنابع والأنهار، فما يأتي المساء إلا وقد امتلأت بطونها وارتوت، وعادت أدراجها إلى أوكارها سالمة آمنة، ولو سكنت الطيور أعشاشها دون غدو ورواح لما وصل إليها شيء، فالسعي والعمل لا ينافي التوكل على الله سبحانه بل الله تعالى نفسه يأمرنا بالبحث والتنقيب واستغلال خيرات الأرض حيث يقول:**{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}** كما أمرنا بالتوكل عليه حين قال:**{رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ**

---

(١) المؤمنون: ١٤.

(٢) الذاريات: ٢١، ٢٢.

الْمَصِيرُ}[1].

ورابعة صفات المؤمنين في قولـــه تعالى:{وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ}.

فالصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين، وهي صلة بين العبد وربه، وهي رياضة النفس وتطهير لها من الرجس، والصلاة قـرآن يتلـى وشـكر لله وتقديس، وتنزيه لـه وتسبيح، وما أحوج العبد إلى هـذه الصـلة بربـه وهـذا الشـكر لخالقـه، ويقدمه كل يوم خمس مرات استجابة لأمر الله تعالى إذ يقول:**{إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً}** وهي تنهي عن الفحشاء والمنكر، ولا يتحقق النهي حتى تكـون كلـها خشـوعاً وخضوعاً وسجوداً وركوعاً. فالقلـب يركـع لله ويسـجد قبـل أن تركـع الجـوارح وتسـجد، والقلب يقرأ وينطق قبل أن يتحرك اللسان ويلفظ، والقلب يسـكن ويطمـئن قبـل أن تسـكن الجوارح وتستقر.

ويجب أن تفكر النفس فيمن وقفت بين يديه تحادثه وتناجيه، فلا يكن الجسم راكعـاً لله، والقلب غافلاً عنه تبارك وتعالى مشغولاً بالأموال والأولاد، ويجب أن يكون لنا أسوة حسـنة برسول الله ﷺ الذي قالت عنه عائشة رضـي الله تعـالى عنهـا: " كـان رسـول الله ﷺ يحـدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه "، فوقـت الصـلاة وقـت خـاص لله تعالى، فلا ينبغي أن تشغله بغيره وتعطيه لغيره وقد خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسـن عملاً.

فصلِّ بقلبك قبل أن تصلي بجسمك، واعلم أنه ليس لـك مـن صـلاتك إلا مـا عقلـت منها، قال تعـالى:**{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُـــرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}**[2].

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) الماعون.

وفي حـديث لرسـول الله ﷺ : **«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً»**.

وخامسة الصفات هي في قولــه تبارك تعالى:{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}.

من نعم الله تعالى على الإنسان إعطاؤه الأموال التي يتمتع بها في هذه الحياة الدنيا فيأكل ويشرب ويسكن ويلبس ويركب ويتنزه ويتطيب ويتطبب ويرحل ويصطاف، ومن الناس مـن ضاقت يدهم أو ضعفت حيلتهم أو قل كسبهم، فالالتفات عن هؤلاء – وهم جزء من المجتمع – قسوة وظلم يؤديان إلى الفساد في الأرض وتمكين العداوة والبغضاء بين طبقات المجتمع غنيها وفقيرها، وضعيفها وقويها، لذا حتَّم الله عز وجل على المسلمين أن يساندوا بعضهم فيخـرج الأغنياء جزءاً مما رزقهم الله سبحانه ويقدموه لهـؤلاء البؤسـاء عطـاء مفروضـاً وحقـاً لازمـاً معلوماً حتى تزول الفاقة وتتحقق للجميع الهناءة والراحة، فقال تعـالى:**{وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَـقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}** [1] فإذا أعطى الأغنياء للفقراء هذا الحق فإنهم لم يعطوه تفضلاً ومنة بل هو حق من حقوقهم فرضه الله عليهم شكراً للنعمة واعترافاً بالإحسان، أما إذا أعطوا ومنوا على الفقراء فقد بطل أجرهم وحبط عملهم، قـال تعـالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لاَ تُبْطِلُـوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى}**[2] وقال سبحانه أيضاً:**{قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى}**[3]. ولست بصدد شرح الناحية الاقتصادية في الإسلام حتى أتوسع الآن لأبيّن نـواحي العدالة الاجتماعية التي جاء بها هذا الدين العظيم والتكافل الاجتماعي الذي وضع قواعده وأسس بنيانه – وأرجو المولى القدير أن يتيح لي الفرصـة لآتـي علـى هـذه الناحيـة الخطـيرة فأفصل الكلام فيها تفصيلاً – غاية ما في الأمر هنا أن يعلم الناس أن تطبيق ما أمر به الإسلام من الناحية الاجتماعية والاقتصادية كفيل بالقضاء على الفقر بشتى مظاهره، والإسلام جعل الإنفاق جزءاً من الإيمان، وليس هناك من العقائد والأفكار ما يجعل الأمور الاقتصادية مرتبط بالإيمان غير الإسلام الذي جاء قبل أربعة عشر قرناً والذي لا تزال مبادئه وآياته النيرة تتجدد معانيها وتسبق الدنيا بعدالتها وشرعها.

فإذا استكمل المسلم هذه الصفات الخمس وهي: خشوع القلب عند ذكر الله عز وجـل، والتأثر بآيات الله عز وجل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتماد على الله والتوكل عليه.

إذا استكمل المؤمن هذه الصفات كافأه الله تعالى درجات عالية في دار النعيم. ولا تقاس

---

(١) الذاريات: ١٩.
(٢) البقرة: ٢٦٤.
(٣) البقرة: ٢٦٣.

هذه الدرجات بمناصب الدنيا ولا برتبها ولا بمالها وصدق الله العظيم إذ يقول:**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}**.**{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}**(١). فزن نفسك أيها المؤمن بهذا الميزان الدقيق – ميزان الإيمان – لتعرف درجتك عند ربك، فإن وجدت خيراً فاحمد الله على هداه، وإن وجدت غير ذلك فلا تلومن إلا نفسك، ولكن لا تيأس من الله فأبواب التوبة مفتوحة وطريق العمل ميسور**{رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}**(٢).

{إنَّما الْمُؤمِنُون الذين آمَنُوا باللّهِ وَرسُولِه ثُمّ لَمْ يَرتابُوا وجاهَدوا بأمْوالِهم وأنْفُسِهم في سَبيل اللّه وأولئِك هُمُ الصادِقُونَ}(٣).

في الآية الكريمة السابقة رد الله ادعاء نفر من بني أسد حينما قدموا المدينة المنورة وادعوا الإيمان فرد الله تعالى قولهم:**{قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}** [الحجرات: ١٤].

وفي هذه الآية بيان لحقيقة الإيمان وصفة المؤمنين الصادقين قولاً وعملاً وكأن الله عز وجل قال لهؤلاء المدعين: ليس الإيمان ما زعمتم وظننتم من قول لا يوافقه عقد القلب وادعاء لا تصدقه الأعمال ولم تشهد له الطاعة بالبرهان، بل الإيمان الحق عند الله تعالى ويستحق أهله عليه الحمد والثناء وحسن الجزاء إنما هو التصديق لا أثر فيه للريب والشك بل هو يملأ القلب فتظهر ثمراته على الجوارح بالطاعة وأداء ما فرضه عز وجل من التكاليف البدنية كالصلاة والصوم والتكاليف المالية كالزكاة والحج والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله تعالى وتمكين الحق ودفع البغي، وعمارة الأرض وتطهيرها من الفساد فهؤلاء المتصفون بهذه الخصال العاملون لها هم الصادقون إذا قالوا آمنا.

روى الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: إن النبي ﷺ قال: **«المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل»**.

وقوله تعالى:**{لَمْ يَرْتَابُوا}**، أصله رابه أي أوقعه في الشك والتهمة، وقولهم: ريب المنون: ليس الشك فيه من جهة وقوعه بل من جهة وقته.

---

(١) الحاقة: ٢٤.

(٢) آل عمران: ١٩٣، ١٩٤.

(٣) الحجرات: ١٥.

والمجاهدة: معناها استفراغ الجهد في مدافعة العدو، والجهاد يشمل جهاد العدو الظاهر وجهاد النفس.

٧ – أنواع الجهاد!!!

وفي الحديث، جاهدوا أهواءكم كما تجاهدوا أعداءكم، والجهاد الظاهري يكون باليد وباللسان، وفي حديث الرسول ﷺ : «**جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم**».

ومعنى قوله تعالى:**{ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا}** أي استمروا على التصديق والإذعان للحق ولنبي الحق ﷺ ولم يعترضهم الريب والشك بعد ذلك، لأن المؤمن قد يبتلى بمن يضلله ويقذف في قلبه الشك من شياطين الإنس والجن الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. فالمؤمنون الأطهار يبتعدون عن مثل هؤلاء المفسدين المشككين للناس في عقائدهم، ولذلك فهم المؤمنون الصادقون الذين رضي الله عنهم وأرضاهم وثبتهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد وهم المجاهدون بأنفسهم وأموالهم والمرابطون على الثغور حماية لبلاد الإسلام وأمة الإسلام، وهذا هو الجهاد بالنفس، أما الجهاد بالمال فيشمل على جميع أنواع البر من زكاة وصدقة وبناء للمساجد والملاجئ والمياتم وعمارة لشتى المرافق العامة من مستشفيات ومستوصفات، ومن أهم أنواع الجهاد بالمال تجهيز الغزاة المجاهدين بالمعدات الحربية اللازمة والإنفاق عليهم وعلى ذويهم لتأمين حاجياتهم من طعام وشراب ومسكن ودواء حتى يطمئن المجاهد كل الاطمئنان على من يعول ويجاهد بكل راحة بال وطمأنينة نفس.

والغرض من ذكر الجهاد في هذه الآية دون سائر الطاعات هو أن يكون المسلمون مع المظلوم على الظالم حتى يعود هذا إلى الحق.

والجهاد يجب أن يكون في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، فكأن المسلم قد نُدبَ من قبل الله عز وجل لنصرة الحق وإعلاء كلمة الدين والضرب على أيدي البغاة ليتم تطهير الأرض من الفساد، وهذه منزلة رفيعة وضع المسلم فيها فعليه أن يعد نفسه لها وأن يعتبر جندياً جاهزاً على أهبة الاستعداد، إما في القتال والغزو وإما في الرباط للدفاع عن ثغور البلاد وحمايتها.

وقد جعل الله تعالى أجر الجهاد عظيماً، وهو فريضة محكمة على كل مسلم فمن تخلف فقد استحق العقوبة، والجهاد ماض إلى يوم القيامة، والأمة الإسلامية أمة مجاهدة إلى يوم الدين. وفي حديث رسول الله ﷺ : **«الجهاد ماض إلى يوم القيامة»**، وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: المسلمون في رباط إلى يوم القيامة.

وإذا حورب المسلمون أو اعتدي على بلادهم وجب على المسلمين جميعاً رد المعتدين وتخليص ديارهم صفاً واحداً، قال تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ}**. فإذا لم يتعاون المسلمون جميعاً لقتال الأعداء أثموا جميعاً.

والجهاد الحق هو الجهاد الخالص لوجه الله تعالى ولإعلاء كلمة الله وحده لا يقصد من ورائه مغنم دنيوي... ورد عن أبي موسى أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل للمغنم والذكر، فمن في سبيل الله؟، فقال ﷺ : **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**.

فإذا اختلطت نية الجهاد بمقصد آخر كحب الظهور والشهرة بين الناس في الشجاعة أو لكسب المغانم والأموال فليس له جزاء عند الله تعالى بل يحبط عمله لأنه لم يخلص لوجه الله تبارك وتعالى.

ففي حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار..»** الحديث(1).

وقد بيّن الله تعالى أحكام الجهاد وسنن الحرب والسلام ومن يقاتلون ومن يسالمون وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين فقال تعالى:**{لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}** (2).

---

(1) رواه البخاري.

(2) النساء: ٩٥، ٩٦.

وجعل الجهاد سبيل النجاة من عذاب الله سبحانه، وطريق الفوز بنعمة الله، وبالجهاد يكتب النصر للأمة ويفتح لها سبيل المجد والكرامة والحرية، وقد قال تعالى مرغباً في الجهاد مبيناً فضله وثوابه: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}**(1).

كما قال تعالى في سورة التوبة: **{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}**(2).

ولم يشرع الجهاد في الإسلام لسفك دماء الناس واستعمار ديارهم أو طردهم من أوطانهم بل شرع لحماية الدعوة الإسلامية وصيانة ديار الإسلام من أن تمتد إليها يد الغاصبين ولأجل إدخال النور وضياء العقيدة الحقة إلى قلوب الناس ونفوسهم. ويمكن أن تعتبر الآية القرآنية الكريمة التي وردت في سورة الممتحنة دستور الإسلام في القتال، قال تعالى: **{لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}**(3).

ولما أمر الله تعالى بالجهاد وأمر المسلمين بأن يعدوا لأعدائهم العدة اللازمة من صنوف القوة وأنواع السلاح بيّن لهم أنهم إنما يعدون العدة حتى لا يؤخذوا على غرة ولإرهاب عدوهم حتى لا يظنهم ضعفاء فيطمع بهم وهذا ما يسمونه في العرف الدولي " بالسلم

(1) الصف: ١٠ - ١٤.
(2) التوبة: ١٩ - ٢٢.
(3) الممتحنة: ٨، ٩.

المسلح " قال تعالى:**{وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}**(1).

فانظروا إلى دقة تعبير القرآن العظيم حيث قال بعد ما أمر بإعداد القوة بصنوفها المختلفة قال:**{تُرْهِبُونَ بِهِ}** ولم يقل تظلمون أو تسفكون الدماء أو تستعمرون الديار بل قال:**{تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}** ومتى علم العدو أنك مسلح قام باحترامك وزال طمعه فيك وهذا مما يثبت دعائم السلم.

والقوة تختلف باختلاف العصور فلكل عصر سلاح وعدة، فلا يجوز للمسلمين أن يتخلفوا عن غيرهم في إعداد النوع الملائم لكل زمان وعليهم أن يملكوا أحدث أنواع السلاح وإقامة مصانعه ثقيلة وخفيفة وأن يحافظوا على أسرار صنعها.

هذه المعارف التي تتعلق بالسلاح وأنواعه والقوة ولوازمها يجب على المسلمين أن يأخذوا بها كما يجب عليهم الإحاطة بعلوم دينهم وأسراره، وإلا فهم مقصرون ومعاقبون ويكون ذلك سبباً لاستغلال الطامعين وكيد الكافرين.

وواجب المسلمين اليوم وقد أحاط بهم أعداؤهم من كل جانب، وطمع فيهم من لا يدفع عن نفسه من أراذل الخلق وشذاذ الآفاق، واجبهم اليوم أن يعدوا أنفسهم إعداداً كاملاً وأن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد للقتال، وأن يحسنوا استخدام أحدث أنواع السلاح وأن يتقنوا صناعة الموت ويتمرنوا على تحمل الصبر والمشقات وأن يخشوشنوا ويتركوا الترف والبذخ حتى تعود الكرامة وترد البلاد السليبة، وأن يتحدوا ويتعاونوا على البر والتقوى في سبيل الغاية الكبرى والمصلحة العظمى مصلحة الإسلام والمسلمين لرد كيد الكائدين وطمع الطامعين. والأمة المجاهدة لا تعرف اللهو والعبث بل تعمل ليل نهار في سبيل عزتها وكرامتها.

روي أن السلطان نور الدين الشهيد، الذي يعتبر في نظر بعض المؤرخين سادس الخلفاء الراشدين كان دائم العبوس فلم ير ضاحكاً ولا مبتسماً قط حتى عرف ذلك عنه، وانتشر بين الناس وتحيروا في تعليل ذلك وهو الرجل المسلم والسلطان العادل فكيف لا يهش لأحد ولا يبش بوجه إنسان، وقد عرف السبب وبطل العجب حينما جاء السلطان إلى المسجد يستمع تفسير كتاب الله تعالى ويصغي إلى أحاديث الإسلام في بيت من بيوت الله سبحانه، وما كاد إمام المسجد وخطيبه يعلم بقدوم السلطان إلا وحوَّل موضوعه إلى بشاشة الوجه وأثرها في النفوس وأن الرسول ﷺ كان يبتسم في وجه أصحابه ولكن السلطان لم يزدد إلا

(1) الأنفال: ٦٠.

عبوساً وإطراقاً. وبعد انتهاء الموضوع انتقل المجلس إلى غرفة الإمام الذي أخذ بملاطفة السلطان وسأله عن سبب عبوسه فما كان من السلطان الشهيد إلا أن صرخ بأعلى صوته يخاطب الإمام: " ما تقول يا هذا والله إني لأستحيي من الله أن يراني مبتسماً وفي ديار الإسلام قدم لكافر ".

فهذا هو الإمام المجاهد الذي عقد الله تعالى لواء النصر للمسلمين فوق رأسه وقد اختاره الله عز وجل للشهادة في سبيل إعلاء كلمة الله ودحر أعدائه، استشهد وقلبه يهتف: الله أكبر والعزة للإسلام، والله أكبر ولا حكم إلا بالقرآن، والله أكبر ولو كره الكافرون.

٨ – الجهاد أسمى الأماني:

ولقد بذل المسلمون المهج رخيصة في سبيل الله تعالى لما سمعوا من موعود الله للمجاهدين من نصر في الدنيا وفوز ونعيم في الآخرة، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه وجعلوا شعارهم في الدنيا: " الموت أسمى أمانينا " حتى كان أحدهم إذا خرج من بيته ودّع أهله وولده ثم سأل الله تعالى أن يختاره شهيداً إليه فلا يرجعه إلى أهله.

وكيف لا يجاهدون بإخلاص وهم الذين سمعوا من رسول الله ﷺ قوله: **«ضمن الله لمن خرج في سبيله – لا يخرجه إلا جهاد في سبيله وإيمان به وتصديق برسوله – أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»**.

وكيف لا يرابطون ويحمون الثغور وهم يسمعون رسول الله ﷺ يقول: **«عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله، ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر؟ حارس حرس في أرض خوف لعله ألا يرجع إلى أهله، ومن رابط ليلة حارساً من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صلى وصام»**، والرباط هو حراسة الحدود والثغور.

ولقد أسرع المسلمون في الاستجابة للقتال ولم يتخلف منهم أحد، فكل مسلم جندي طبيعي في جيش الإسلام فإذا دق بوق الخطر فالكل مجاهد بماله ونفسه وسلاحه وعتاده ومن لا سلاح له جهزه المسلمون وأعانوه، فلا تثاقل عن الجهاد ولا تخلّف بل الكل في سبيل الله. قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**(١).

ولقد ثبتوا في مواقعهم ثبات الأبطال وأقدموا دون إحجام صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص فلا خوف ولا فرار، قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ**

---

(١) التوبة: ٣٨، ٣٩.

بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (١).

وورد عن النبي ﷺ أنه قال: **«ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف»** (٢).

فكانوا أمثلة صدق في العزيمة والبطولة والتضحية والفداء رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

هذه بعض أحكام الجهاد في الإسلام كما شرعه الله عز وجل لنصرة الحق وإعلاء كلمة الله تعالى، لا من أجل المطامع وإرواء الشهوات أو التوسع في البلاد ونهب الخيرات.

ولهذا كان المسلم رجلاً شجاعاً يهاب الموت إذا دعا داعي الجهاد وحانت ساعة القتال ولكنه في نفس الوقت - وفي كل وقت - مهذب الأخلاق، سمح الطباع، لا يسخر من أحد، لا يطعن أحداً، ولا يؤذي أحداً، غايته مرضاة الله عز وجل، وسيرته سيرة النبي ﷺ، أخلاقه أخلاق القرآن، وميزانه ميزان الحق.

فهل آن للمسلمين أن يفهموا حقيقة الإسلام فيعودوا إلى ربهم، ويهبّوا لدفع الأخطار المحيقة بهم وببلادهم بعد أن غلبهم العدو في بعض أقطارهم، فلا تزال أبواب الجنة مفتحة وبلاد الإسلام تستجير من وطأة الكافر على أرضها، فالإيمان ليس كلمة تقال باللسان كما قالت الأعراب آمنا، ولكن الإيمان حقيقة راسخة في القلب تدل عليها الأعمال النظيفة والبيانات الصحيحة:**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}** (٣).

لما جاء نفر من بني أسد إلى رسول الله ﷺ وادّعوا الإيمان وردّ عليهم الله عز وجل بالآيتين السابقتين:**{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}** [الحجرات: ١٤].

وقد وضّحت الآية التي بعد هاتين الآيتين حقيقة الإيمان والمؤمنين وذلك في قوله تعالى:**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}**.

ولما سمع هذا النفر من بني أسد إلى هذه الآية الكريمة جاءوا رسول الله ﷺ يحلفون له

---

(١) الأنفال: ١٥، ١٦.

(٢) مسند أحمد.

(٣) الحجرات: ١٥.

أنهم مؤمنون صادقون فأنزل الله عز وجل الآية الكريمة:**{قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**(١).

والمعنى: أتخبرون الله بالدين الذي أنتم عليه، والله تبارك وتعالى عالم بذلك فلا يحتاج إلى إخباركم به، وهذا الاستفهام إنكار وتوبيخ، أي كيف تعلمّون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم.

وفيه معنى التجهيل لهم فكيف يعلمون الله بدينهم ويقسمون الإيمان على إيمانهم والله يعلم السر وأخفى، ويعلم ما في السماوات وما في الأرض وهو بكل شيء عليم، قال تعالى:**{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}**(٢).

وإن عجائب هذا الكون ودقائق الصنع وعجيب الأسرار في تلك العوالم والتي لا يعلم حقيقتها وأسرارها الكاملة إلا الله تبارك وتعالى ليدل ذلك كله على أنه لا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء:**{أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}**.**{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}**.

{يَمُنّونَ عَلَيْكَ أنْ أسْلموا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُم بَل اللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أنْ هَداكُمْ للإيمانِ إن كُنتُم صادِقِين}(٣).

روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أسلمنا وقاتلنا العرب ولم نقاتلك، كما قالوا له عليه الصلاة والسلام: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، فقال الرسول ﷺ : «**إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم**». ونزلت هذه الآية الكريمة:**{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}**

فقد منّ هؤلاء الأعراب بإسلامهم ونصرتهم لرسول الله ﷺ جهلاً وغروراً فرد عليهم الله تعالى بقوله:**{قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ}** لأن نفع الإسلام وخيره وفلاحه وعزه وسعادته إنما يعود عليكم أنتم، ولله المنّة عليكم وهو أحق بأن يمن عليكم أن هداكم للإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، وللّه الفضل والمنة علينا وعلى الناس أجمعين كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «**يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً**

---

(١) الحجرات: ١٦.

(٢) ق: ١٦.

(٣) الحجرات: ١٧.

فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فآلفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟» وكلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ.

فلله الفضل والمنة في هديتنا وتوفيقنا، فلولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صمنا ولا صلينا، فقد أكرمنا الله تعالى بالإسلام كما أكرمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة وهادي الأنام، ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى:**{إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}**. أي قال لهم تعالى: إن كنتم صادقين أيها الأعراب في قولكم: آمنا، فالله وحده هو الذي هداكم لهذا الإيمان الذي تزعمون وتدعون.

قال الزمخشري رحمه الله تعالى في كشافه: يقال: منّ عليه بيد أسداها إليه كقولك: أنعم عليه وأفضل عليه، والمنّة النعمة التي لا يستثيب مسديها من بذلها إليه ويعطيها له واشتقاقها من المن الذي هو القطع لأنه يُسْدِيها إليه ليقطع بها حاجته، ثم يقال: منّ عليه صنعه إذا اعتده عليه منّة وإنعاماً.

وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة وذلك أن الكائن من هؤلاء الأعراب قد سماه إسلاماً ونفى أن يكون كما زعموا إيماناً، فلما منّوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : إن هؤلاء يعتدون عليك بما ليس جديراً بالاعتداد به من حَديثهم الذي حقّ تسميته أن يقال له: إسلام، فقل لهم: لا تعتدوا على إسلامكم أي حَدَثكم المسمى إسلاماً عندي لا إيماناً. ثم قال: بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووفقتم له حسب زعمكم وصدقت دعواكم، إلا أنكم تزعمون وتزعمون ما الله عليم بخلافه، وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف ما لا يخفى على المتأمل وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه وتقديره: إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان فلله المنة عليكم أن هداكم للإيمان.

وما أكثر المنّانين اليوم والمتجبرين، فإذا صلى أحدهم ركعتين منّ على الله بصلاته، وإذا تصدّق بفلسين منّ بصدقته أيضاً، وإذا فعل معروفاً مع أحد فالويل لذلك الأحد من منّ ذلك الرجل واستعلائه عليه. مع أن الفضل كله لله هو الذي يجب أن يمنّ علينا أن هدانا للإيمان ورزقنا وأعطانا وعافانا وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها.

{إنَّ اللّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأَرْضِ واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}(1).

هذه آخر آية في سورة الحجرات وفيها إخبار من الله عز وجل للمسلمين وبيان لهم بأنه يعلم غيب السماوات والأرض فهو يعلم الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق فلا يحقّ لكم أن تعلّموه ما أنتم عليه، فهو يعلم ما تكنّه الضمائر وما تتحدث فيه النفوس وما غاب واستتر من خبايا السماوات والأرض وهو بصير بأعمالكم سرها وجهرها خيرها وشرها وهو الذي سيجازي كل إنسان على ما اقترف:**{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ}** (2).

وهذه المعاني تكررت في كثير من السور لأن هذا المبدأ يبنى عليه الكثير من الأمور فالمسلم الذي يستيقن أن الله بصير به مطلع عليه يعلم سره وجهره يفكر كثيراً وكثيراً جداً قبل أن يتهاون في طاعة الله عز وجل أو يرتكب معصية مما نهى الله عنه، أما إذا نزعت هذه الرقابة الربانية من النفوس انقلب الناس بغفلتهم إلى حالة قريبة من حال البهائم كما ورد ذلك في قوله تعالى:**{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ}**(3).

جعلنا الله تعالى من الذاكرين الشاكرين البعيدين عن الغفلة، ونسأله تعالى أن يوفق المسلمين إلى معرفة دينهم والعودة إليه عن رغبة ورهبة وأن يعملوا على سعادتهم في الدنيا والآخرة وأن يعيشوا على مائدة القرآن، ويتخلقوا بأخلاقه، ويتأدبوا بآداب المصطفى ﷺ، وأن يعيشوا للقرآن وبالقرآن.

* * * * *

---

(1) الحجرات: ١٨.
(2) الزلزلة: ٧.
(3) الأعراف: ١٧٩.

المبحث العاشر
نظرات تربوية في فكر الحسن البصري
وتأثيرها في الشخصية المسلمة

شهدت الأمة الإسلامية في العقود الأخيرة محاولات جادة من أبنائها المخلصين لبعث حضاري جديد قائم على التعاليم الإسلامية السامية، وتباينت من أجل هذا البعث الآراء حول عملية التربية التي تعتبر الركن الأساسي لأي نهضة مرجوة وبعيدا عن ركام العديد من النظريات التي تنطوي على أفكار غريبة عن إسلامنا وتقاليدنا لابد أن لا ننسى حقيقة أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، إذ قدم السلف من علماء الأمة الربانيين العديد من الآراء والمبادئ التي تمثل القاعدة الكبرى لأي تربية إسلامية حقيقية.

ويعد الحسن البصري من أبرز أعلام المدرسة التربوية الإسلامية الذي كشفت أقواله ومواقفه عن فكر تربوي أصيل يمكن أن نوجزه في محورين أساسيين لا غنى لأي تربية إسلامية رشيدة عنها نقدمها لمن أراد النبع الإسلامي الصافي وتوجه إليه بصدق لينهل من رحيق الإيمان العذب.

صلاح الظاهر معقود على صلاح الباطن لما كان القلب للأعضاء كالملك المتصرف في الجنود الذي تصدر عن أمره كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أول ما اعتمد عليه السالكون والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون قال تعالى:**{يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**[1]، وقال ﷺ **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»**[2].

ولقد تعددت وتنوعت أقوال الحسن البصري التي تقرر هذه القاعدة التربوية الجليلة القائمة على تطهير القلب من أدران الشرك والحقد والغل والحسد و... و... وإصلاحه بالإيمان واليقين والمراقبة والطاعات ومختلف أنواع القربات فيقول رحمة الله عليه: حادثوا هذه القلوب فإنها سريعة الدثور[3]واقرعوا[4]هذه الأنفس فإنها تنزع إلى شر غاية، ويقول: ما أيقن عبد بالجنة والنار حق يقينهما إلا خشع وذبل واستقام واقتصد حتى يأتيه الموت. وقال:

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

(٢) متفق عليه.

(٣) الدثور للقلوب: إمحاء الذكر منها.

(٤) واقرعوا: انهروها وأبعدوها عن الفحش.

باليقين طلبت الجنة وباليقين هربت من النار وبـاليقين أديـت الفـرائض علـى أكمـل وجههـا وباليقين أصبر على الحق وفى معافاة الله خير كثير. وقال: الناس في العافية سـواء فـإذا نـزل البلاء سكن المؤمن إلى إيمانه والمنافق إلى نفاقه. بل إنه كان من أحـرص النـاس علـى سـلامة قلبه فكان إذا فرغ من حديثه وأراد أن يقـوم قـال: اللـهم طهـر قلوبنـا مـن الشـرك والكـبر والنفاق والرياء والسمعة والريبة والشك في دينك يا مقلب القلوب ثبت قلوبنـا علـى دينـك واجعل ديننا الإسلام القيم، ومن هنا يرى الحسن البصري أن أي انحراف في سلوكيات الفرد عن جادة الصواب مرجعه ابتداءً إلى خلل في إيمانه وعلامة على مرض قلبه لذلك كان منهج التربية عنده قائم على إصلاح القلوب أولاً.

فيروى العتبى عن أبيه قال: كتب الحسن إلى فرقد أمـا بعـد: فـإني أوصـيك بتقـوى الله والعمل بما علمك الله والاستعداد لما وعد الله مما لا حيلة لأحد في دفعه ولا ينفع الندم عنـد نزولـه فاحسر عن رأسك قناع الغافلين وانتبه من رقدة الجـاهلين وشمـر السـاق فـإن الـدنيا ميدان مسابقة والغاية الجنة أو النار فإن لي ولك من الله مقاماً يسألني وإياك فيـه عـن الحقـير والدقيق والجليل والخافى ولا آمن أن يكون فيما يسألني وإياك عنه وساوس الصـدور ولحـظ العيون وإصغاء الأسماع وما أعجز عنه. وعنـه قـال: قـال لقمـان لابنـه: يـا بنـى العمـل لا يستطاع إلا باليقين ومن يضعف يقينه يضعف عمله. وقال: يا بنـى إذا جـاءك الشـيطان مـن قبل الشك والريب فاغلبه باليقين والنصيحة، وإذا جاءك مـن قبـل الكسـل والسـآمة فاغلبـه بذكر القبر والقيامة وإذا جاءك من قبل الرغبة والرهبة فأخبره أن الدنيا مفارقة متروكة. ومن أقواله: رأس مال المؤمن دين حيث زال زال معه لا يخلفه في الرحال ولا يأتمن عليـه الرجـال ويعلق على قولـه تعالى:{ **وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**} [القيامة: ٢] فيقول: لا تلقى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكلمة كـذا مـا أردت بأكلـة كـذا مـا أردت بمجلـس كـذا وأمـا الفـاجر فيمضى قدما لا يلوم نفسه.

ويقول أيضا: تصبروا وتشددوا فإنما هى ليال تعد وإنمـا أنـت ركـب وقـوف يوشـك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت فانقلبوا بصالح ما بحضـرتكم إن هـذا الحـق أجهـد النـاس وحال بينهم وبين شهواتهم وإنما يصبر على هذا الحق من عـرف فضـله وعاقبتـه. حزنـا مـن الحسن وما رأيته قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة، وقال مسمع: لو رأيت الحسن لقلت قـد بث عليه حزن الخلائق من طول تلـك الدمعـة وكثـرة ذلـك النشـيج. وقـال أسـباط: مكـث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك وأربعين سنة لم يمـزح. وقـال أيـوب السـختيانى: كـان الرجـل يجلس إلى الحسن ثلاث حجج ما يسأله عن وأخيرا يقول: لا يـزال العبـد بخـير مـا كـان لـه واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته.

ومما زاد من جلال منهج الحسن البصري في التربية أنه تجاوز حد الكلمات المجردة والدعوات الجوفاء وأخذ على نفسه الالتزام الكامل بكل معالم هذا المنهج فقدم للناس قدوة عملية أثمرت نجاحه كداعية فضلا عن المحبة في قلوب الخلق فلهجت الألسن بالثناء عليه وانقادت لـه الجموع تهتدي على يديه.

فعن خالد بن صفوان قال: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: أخبرني عن حسن أهل البصرة. قلت: أصلح الله الأمير أخبرك عنه بعلم أنا جاره إلى جنبه وجليسه في مجلس أشبه الناس سريرة بعلانية وأشبه قولا بفعل إن قعد على أمر قام به وإن قام على أمر قعد به وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به وإن نهى عن شيء كان أترك الناس لـه رأيته مستغنيا عن الناس ورأيت الناس محتاجين إليه قال: حسبك يا خالد كيف يضل قوم هذا فيهم.

وقال يونس بن عبيد: لم أر أقرب قولا من فعل من الحسن. وقال إبراهيم بن عيسى: ما رأيت أطول مسألة هيبة لـه. وسئل عطاء عن شيء فقال: لا أدرى فقيل إن الحسن يقول كذا وكذا قال إنه والله ليس بين جنبي مثل قلب الحسن. وقال يونس بن عبيد: كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير عمله ولم يسمع كلامه.

ومن ثناء معاصريه عليه قول أنس بن مالك رضى الله عنه: إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين الحسن وابن سيرين. وقال الأعمش: ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها. وكان أبو جعفر الباقر إذ ذكره قال: ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء.

أما الذهبي في موسوعته (تاريخ الإسلام) فيقول عنه: مناقبه كثيرة ومحاسنه غزيرة كان رأسا في العلم والحديث إماماً مجتهدا كثير الاطلاع رأسا في القرآن وتفسيره رأسا في الوعظ والتذكير رأسا في الحلم والعبادة رأسا في الزهد والصدق رأسا في الفصاحة والبلاغة رأسا في الأيد والشجاعة.

طريق الهدى في العلم والعمل:

هذه القاعدة تمثل المحور الثاني من محاور التربية عند الحسن البصري وحقيقتها أنه لا يمكن بلوغ الحق والخير إلا بالعلم النافع ثم بالعمل به لأن التربية القائمة على الجهل وبغير أسس علمية سليمة تضر بصاحبها أكثر مما تنفعه وهى أشبه بالسراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا وأصل هذه القاعدة في الدين قوله تعالى:**{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**[1] قال الرازى: وهذا

(١) يوسف: ١٠٨.

يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور، وكعادته في التربية بدأ الحسن البصري الداعية والمربى بنفسه فكان له من العلم النصيب الوافر الذي أنفق في تحصيله جُل سنوات عمره المباركة حتى شهد له علماء عصره بالإمامة فيه فكان أنس بن مالك رضى الله عنه إذا سئل عن شيء قال: سلوا الحسن فإنه حفظ ونسينا. وقال بكر المزني: من سره أن ينظر إلى أفقه من رأينا فلينظر إلى الحسن. وقال حميد بن عبيد: قد رأينا الفقهاء فما رأينا أجمع من الحسن. وقال أيوب السختياني: لو رأيت الحسن لقلت إنك لم تجالس فقيها قط. وقال معاذ بن معاذ. قلت لأشعث: قد لقيت عطاء وعندك مسائل أفلا سألته؟ قال: ما لقيت أحداً يعنى بعد الحسن – إلا صغر في عيني. وعن الربيع بن أنيس قال: اختلفت إلى الحسن عشر سنين فليس من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبل ذلك، ويقول عنه ابن سعد في (الطبقات) كان الحسن جامعا للعلم والعمل عالما رفيعا فقيها ثقة مأمونا عابدا زاهدا ناسكا كثير العلم والعمل فصيحا جميلا وسيما وقدم مكة فأجلس على سرير وجلس العلماء حوله واجتمع الناس إليه فحدثهم.

ثم إن الحسن عالم عامل بعلمه قد روضه العلم حتى صار من سادة الناس في الأخلاق وكرائم الخصال. قال قتادة: ما كان أحد أكمل مروءة من الحسن. وكان رحمه الله إذا اشترى السلعة بدرهم ينقص دانقا كمله درهما أو بتسعة ونصف كملها عشرة مروءة وكرما وكان يقول: لا دين إلا بمروءة وباع بغلة له فقال له المشترى: أما تحط لي شيئا يا أبا سعيد؟ قال: لك خمسون درهما أزيدك؟ قال: لا رضيت بارك الله لك، وروى يونس أن الحسن أخذ عطاءه فجعل يقسمه فذكر أهله حاجة فقال دونكم بقية العطاء أما إنه لا خير فيه إن لم يُصنع به هكذا، ولما تولى القضاء كان لا يأخذ عليه راتبا. أما عن زهده فيقول مطر: دخلنا على الحسن نعوده فما كان في البيت شيء لا فراش ولا بساط ولا حصير إلا سرير مرمول هو عليه.

وعن دوره في عملية التربية والتوجيه نجده صاحب همة عظيمة لا تعرف الكلل ولا الملل فعن العوام بن حوشب قال: ما أشبه الحسن إلا بنبي أقام في قومه ستين عاما يدعوهم إلى الله تعالى. وكان طبيب القلوب الذي يشخص الداء ويصف الدواء ويرصد السلبيات السلوكية في أفراد الأمة التى ترجع إلى خطأ في التربية أساسه ترك العلم أو العمل أو كلاهما.

فتجده يتناول علماء الدنيا الذين جعلوا العلم وسيلة لجمع حطامها الفاني فعن مالك

ابن دينار قال: قلت للحسن: ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا؟ قال: موت القلب. فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ويبقى عليه رسمه، ويروى عنه أنه مر على باب ابن هبيرة الوالى فرأى جموع القراء - وكانوا هم الفقهاء - جلوسا على بابه فقال طفحتم نعالكم وبيضتم ثيابكم ثم أتيتم إلى أبوابهم تسعون ثم قال لأصحابه: ما ظنكم بهؤلاء الحذاء؟ ليست مجالسهم من مجالس الأتقياء وإنما مجالسهم مجالس الشرط. وعنه قال: إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله لم يأتوا الأمر من قبل أوله قال تعالى:**{كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}**[1] وما تدبر آياته إلا أتباعه أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفا واحدا وقد والله أسقطه كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل حتى إن أحدهم ليقول والله إني لأقرأ السورة في نفس لا والله ما هؤلاء بالقراء ولا بالعلماء ولا الحكماء ولا الورعة ومتى كانت القراءة هكذا؟ لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء. وعن عمران القصير قال: سألت الحسن عن شيء فقلت: إن الفقهاء يقولون كذا وكذا فقال وهل رأيت فقيها بعينك إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه المداوم على عبادة ربه.

ويتناول أرباب الدنيا الذين لا هم لأحدهم إلا جيبه وبطنه وفرجه فيقول: إذا شبت لقيت الرجل أبيض حديد اللسان حديد النظر ميت القلب والعمل أنت أبصر به من نفسه ترى أبدانا ولا قلوبا وتسمع الصوت ولا أنيس أخصب ألسنة وأجدب قلوبا يأكل أحدهم من غير ماله ويبكى على عماله فإذا كهضته البطنة[2]، قال: يا جارية ائتني بهاضم وهل هضمت يا مسكين إلا دينك؟ وقال فرقد: دخلنا على الحسن فقلنا: يا أبا سعيد ألا يعجبك من محمد بن الأهتم؟ فقال: ماله؟ فقلنا: دخلنا عليه آنفا وهو يجود بنفسه فقال انظروا إلى ذاك الصندوق - وأومأ إلى صندوق في جانب بيته - فقال: هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار لم أؤد منها زكاة ولم أصل منها رحما ولم يأكل منها محتاج فقلنا: يا أبا عبد الله فلمن كنت تجمعها؟ قال: لروعة الزمان ومكاثرة الأقران وجفوة السلطان فقال الحسن: انظروا من أين أتاه شيطانه فخوفه روعة زمانه ومكاثرة أقرانه وجفوة سلطانه!؟ ثم قال أيها الوارث لا تُخدعن كما خُدع صويحبك بالأمس جاءك هذا المال لم تتعب لك فيه يمين ولم يعرق لك فيه جبين جاءك ممن كان له جموعا منوعا من باطل جمعه ومن حق منعه ثم قال الحسن: إن يوم القيامة لذو حسرات الرجل يجمع المال ثم يموت ويدعه لغيره فيرزقه الله فيه الصلاح

---

(١) ص: ٢٩.

(٢) البطنة: امتلاء البطن بالطعام حتى لا يطيق النفس.

والإنفاق في وجوه البر فيجد ماله في ميزان غيره.

ويتناول المتواكلون ضعاف الهمم فيقول: إن قوما ألهتهم أماني المغفرة ورجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة يقول أحدهم إني لحسن الظن بالله وأرجو رحمة الله وكذب لو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة يوشك من دخل المفازة من غير زاد ولا ماء أن يهلك. ويقول: ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيبا إلا وجدت عيبا آخر لم تصلحه فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك وأحب العباد إلى الله تعالى من كان هكذا، ويبين في موضع آخر قيمة السلوك كميزان حقيقي يوزن به الناس فيقول: اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم فإن الله عز وجل لم يدع قولا إلا جعل عليه دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه فإن سمعت قولا حسنا فرويدا بصاحبه فإن وافق قول عملا فنعم ونعمت عين أخته وأخيه وإذا خالف قول عملا فماذا يشبه عليك منه؟ أم ماذا يخفى عليك منه؟ وإياك وإياه لا يخدعنك كما خدع ابن آدم إن لك قولا وعملا فعملك أحق بك من قولك وإن لك سريرة وعلانية فسريرتك أحق بك من علانيتك وإن لك عاجلة وعاقبة فعاقبتك أحق بك من عاجلتك.

وفى النهاية يؤكد دور السلوك الطيب كثمرة حتمية للعلم النافع فيقول: يا ابن آدم والله إن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولن في الدنيا حزنك وليشتدن خوفك وليكثرن بكاؤك ويقول: أهينوا هذه الدنيا فوالله لأهنأ ما تكون إذا أهنتموها كما يجعل الإسلام والسلوك متلازمين في شخصية المسلم فيقول: من علامات المسلم قوة في دين، وحزم في لين، وحكم في علم، وحبس في رفق، وإعطاء في حق، وقصد في غنى، وتحمل في فاقة، وإحسان في قدرة، وطاعة معها نصيحة، وتورع في رغبه، وتعفف وصبر في شدة، لا ترديه رغبته ولا يبدره لسانه ولا يسبقه بصدره، ولا يغلبه فرجه، ولا يميل به هواه، ولا يفضحه لسانه ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته.

ومع كل هذا الحرص على تقدير دور السلوك وأهميته يرفض هذا العالم الرباني كل محاولات الإفراط السلوكي تحت دعوى التعمق في الدين ويرى ذلك تشددا وتنطعا لا خير فيه فعن عمارة بن مهران قال: كنت عند الحسن وهو يأكل خبيصا فدخل علينا (فرقد) فقال الحسن: تعال فكل فقال أخاف أن ألا أؤدي شكره قال الحسن: ويحك وتؤدى شكر الماء البارد. بل إنه يرفض الغلو في منهج الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى يوصله إلى حمل

السيف على أخيه المسلم وقد قال رسول الله ﷺ **«لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»** [١] وقال ﷺ **«لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»** [٢] فلما كانت فتنة ابن الأشعث الذي قاتل الحجاج انطلق عقبة بن عبد الغافر وأبو الجوزاء وعبد الله بن غالب في طائفة فدخلوا على الحسن فقالوا: يا أبا سعيد ما تقول في قتل هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام وترك الصلاة وفعل وفعل؟ قال: أرى أن لا تقاتلوه فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وعليكم بالسكينة والتضرع فخرجوا وهم يقولون: نطرح هذا العلج وخرجوا مع ابن الأشعث فقتلوا جميعا وقد قيل لابن الأشعث إن سرك أن يقتلوا حولك كما قتلوا حول جمل عائشة فأخرج الحسن فأرسل إليه فأكرهه على الخروج، قال ابن عون فنظرت إليه بين الجسرين عليه عمامة سوداء فغفلوا عنه فألقى نفسه في بعض تلك الأنهار حتى نجا منهم وكاد يهلك يومئذ.

وهكذا قدم الحسن البصري للأجيال منهجا تربويا يتمتع بالتكامل والأصالة، أضاء للسابقين طريقهم.

فهل للحاضرين أن يقتبسوا من هذا النور؟! [٣].

* * * * *

---

(١) صحيح الجامع (٥٠٧٧) عن عبد الله بن عمر.

(٢) متفق عليه عن جرير بن عبد الله.

(٣) د/ خالد سعد النجار - مقال الإنترنت.

المبحث الحادى عشر
حقيقة الدنيا

الحديث عن الدنيا حديث لا ينتهي، لتعدد مصادره، وكثرة تفرعاته، ولأنها أي – الدنيا – الدار التي نسكنها، والكنف الذي نعيش فيه، والواقع الذي يلامس مشاعرنا وتفاعلاتنا وتصرفاتنا.

وهذا قد يكون سبباً من أسباب اختيار مثل هذا الموضوع والحديث عنه، وسببٌ آخر مهم ألا وهو انجراف الناس خلف هذه الدنيا، والسير وراء متاعها وزينتها الزائفة، وجعلها أكبر الهم، وأهم المقاصد، بل إنك ترى من اهتمام الناس بها وكأن ساعة فراقهم لها لن تبلغهم، وملك الموت لن يزورهم، والحقيقة الحتمية المتمثلة في سكرات الوداع لن تواجههم.

تلكم أبرز الأسباب التي جعلتني أتحدث عن الدنيا، وقبل البدء في الموضوع أذكر لكم المحاور التي ستكون مدار هذه الموضوع وهي:

أولاً: حقيقة الدنيا:

هي الدار الفانية، والمقر الذي لن يدوم، والحياة التي ستنقطع آمالها، هي التي تخوّف من رجاها، وتغش من وثق فيها، تعترضنا دائماً بصورة امرأة مليحة فتستميلنا بجمالها، ولا ندري بأنها تحمل أسرار سوء قبيحة تهلكنا متى ما رغبنا في وصالها. الدنيا عدوةُ لله وعدوةٌ لأوليائه وعدوةُ لأعداء الله: –

أما عداوتها لله فإنها قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها.

وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل فإنها تزينت لهم بزينتها وعمّتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها.

أما عداوتها لأعداء الله فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها، وعوّلوا عليها فخذلتهم وهم أحوج ما كانوا إليها فاجتنبوا منها حسرة تنقطع منها الأكباد، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد، فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون، بل يقال لهم:**{اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ}**(1).

الدنيا أولها عناء، وآخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عذاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن.

---

(1)المؤمنون: ١٠٨.

هـــــي الـــــدنيا إذا كملـــــت ::: وتم ســــــرورها... خـــــذلتْ
وتفعـــــل في الـــــذين بقـــــوا ::: كمـــا فـــيمن مضـــى فعلـــتْ

إذا كست أوكست، وإذا أينعت نعت، وإذا حلت أوحلت، كم من قبور تبنـى ومـا تبنـا، وكم من مريض عدنا وما عدنا، وكم من ملك رفعت لـه علامات فلما علا مات.

صاحبت نوحاً وعاداً فقدموا علـى ربهـم، وردوا علـى أعمـالهم، ولا تـزال هـي غضـة وجديدة لم يبلها ما مرّ بها، ولم تعجز عن عرض زينتها وملاهيها.

الدنيا خمر الشيطان من سكر منها لم يفق إلا في عسـكر المـوتى نـادمون مـع الخاسـرين. الدنيا عيشتها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل، إما بنعمة زائلة، أو بلية نازلـة، أو منيّة قاضية.

الدنيا كثيرة الأشغال، وفيرة المتع والأرزاق، فكُرمت وحُق أن تهان، وقُـدّمت وكـان لهـا أن تتأخر، وأُوثرت وحرى بأن يؤثر عليها.

قال الشافعي رحمه الله وهو يعظ أخا لـه: " يا أخي إن الدنيا دحـض مزلـة، ودار مذلـة، عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناهـا إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فـافزع إلى الله وارض برزقـه، ولا تتسلف من دار بقائك إلى دار فنائك، فإن عيشتك فيء زائل، وجدار مائل، أكثر مـن عملـك وأقصر من أملك " انتهى كلام الشافعي رحمه الله. أيام هذه الدنيا غرارة، وسـاعاتها غـدارة، تزخرفت بالغرور فأغرتنا بطول الأمل، وتزينت بالأماني فأنستنا ساعة الأجل.

الدنيا كالفاتنة المأسورة، العيـون إليهـا نـاظرة، والقلـوب عليهـا عاكفـة، والنفـوس لهـا عاشقة، فكم من عاشق قتلت، ومطمئن لهـا خـذلت، فهـي دار كـثير بوائقهـا، مذمومـة مـن خالقها، جديدها يبلي، وملكها يفنى، وعزيزها يُـذل وكثيرهـا يقـل، ودهـا يمـوت، وخيرهـا يفوت.

نعم أيها الأحبة هذه هى الدنيا التي من أجلها كرهنا الموت والدار الآخرة ولقاء ربنا عز وجل لأننا شغلنا بعمار دنيانا فخربت آخرتنا، اهتمينا بتغذية الأبدان فدمرت آمال الأرواح.

الدنيا دار الهم والغم، والمرض والسقم، والسخط والغضب، والفقر والعوز، والقحط والبلاء، والهون والدناء، والألم والبؤس، والنفرة والقطيعة، والشدة والقسوة. هذه هي حقيقة الدنيا يا من جهلها، والذي كان من الواجب أن تعرفها جيداً، وتدرك ماهيتها وكينونتها.

نعم هذه هي حقيقتها يا من سافرت به فألهته، ويا من أخذته وشطت به فأغرته، ويا من سلبته وآلت به فقتلته.

يا خاطب الدنيا إلى نفسها ::: تنح عن خطبتها تسلم
إن التي تخطب غدّارةٌ ::: قريبة العرس من المأتمِ

ثانياً: الدنيا في ميزان الشريعة:

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم وفي أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام يدرك تماماً المنزلة الدنيا لهذه الدنيا في ديننا، ويتيقن تماماً بأنها – هذه الآيات والأحاديث – مشتملة على ذم الدنيا، وصرف الخلق عنها، ودعوتهم إلى العمل للآخرة والتجهيز لها، وهذه الأدلة كثيرة جداً ولا يمكن حصرها، إلا إني أعرض لكم بعضها، ولكم يا رعاكم الله أن تقيسوا مدى اهتمامكم بهذه الدنيا وزينتها.

لقد بين الله جل وعلا أن هذه الدنيا قد جمعت ما تحبه النفس، ويودّه الهوى، ويتمناه الفؤاد من فتن وشهوات، وتزينت به للناس وهي في الأصل متاع وما عند الله خير وأبقى قال تعالى:**{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}**(١).

وبيّن الله تعالى في موضع آخر حرص الإنسان على هذه الدنيا ورضاءه عنها بالآخرة، ففي الوقت الذي يدعى فيه المؤمن للجهاد في سبيل الله والذب عن دينه ومعتقده بالمال والنفس، تجده يتشبث بمقره ولا يكاد يغادره خوفاً من أن يرحل عن هذه الدنيا التي لا يعد متاعها في الآخرة إلا قليل. قال تعالي:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ}**(٢).

واسمع لقول الله تعالى أيضاً وهو يبين أن هذه الدنيا لهو ولعب فحسب للذين اتخذوها

---

(١) آل عمران: ١٤.

(٢) التوبة: ٣٨.

مقراً للمتعة، ومأوى للضياع، وأن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية فيقول:**{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}**(١).

وتتجلى صورة الرجوع إلى الله تعالى، وأن كل نفس لا بد أن تذوق طعم الموت، ويحاسبها ربها، ومن ثم توفى الأجور وافية غير منقوصة يوم القيامة، فمن أكرمه ربه ونجاه من النار وأدخله الجنة فقد نال غاية ما يطلب، وما الحياة الدنيا إلا متعة زائلة فلا تغتروا بها وذلك في قوله تعالى:**{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}**(٢).

و يا ويل أولئك الذين حرمهم الله تعالى من نعيم الآخرة وهم الذين جعلوا الدين الذي أمرهم الله باتباعه باطلاً ولهواً، وخدعتهم الحياة الدنيا وشُغلوا بزخارفها عن العمل للآخرة، فيوم القيامة ينساهم الله تعالى ويتركهم في العذاب الموجع، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ولكونهم بأدلة الله وبراهينه ينكرون مع علمهم بأنها حق.**{الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}**(٣).

واسمع لهذا التشبيه العجيب والذي شبه الله تعالى فيه الدنيا بمطر أنزله الله من السماء والأرض فتنبت من الخيرات والثمار مما يقتاته الناس وتأكله البهائم، حتى إذا ظهر حسْن الأرض، وبان بهاؤها، واعتقد أهل الأرض بقدرتهم على حصادها وجني خيراتها جاء أمره عز وجل ليلاً أو نهاراً فأهلكها وأزالها كأن لم تكن من قبل، فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهون به من دنياكم وزخارفها فيفنيها الله ويهلكها. قال تعالى:**{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}**(٤).

وانظر كيف صور لنا محمد ﷺ الدنيا، وكيف أتقن بوصفه إياها لنا وهو عليه الصلاة والسلام الذي ما من خير إلا ودل الأمة عليه، ولا شر إلا وحذرها منه.

فقد جلس عليه الصلاة والسلام على المنبر وجلس أصحابه حوله ثم قال: **«إن مما**

---

(١) العنكبوت: ٦٤.
(٢) آل عمران: ١٨٥.
(٣) الأعراف: ٥١.
(٤) يونس: ٢٤.

أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» (١).

من حديث أبى سعيد الخدري رضي الله عنه.

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الدنيا حلوة خضره، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النار»** (٢).

وها هو ﷺ يبين منزلة الدنيا بالنسبة للآخرة في جملة رائعة فيقول: **«ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمِّ لينظر بم يرجع»** (٣).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ على شاة ميتة فقال: **«أترون هذه الشاة هينة على أهلها؟»** قالوا: من هوانها ألقوها. قال: **«والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»** (٤) وقال عليه الصلاة والسلام: **«الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما ولاه وعالم ومتعلم»** (٥).

وهذه رسالة أخرى لمن جعل الدنيا همه، يوجهها محمد ﷺ للأمة فيقول: **«من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال، هم لا ينقطع عنه أبداً، وشغل لا يتفرغ منه أبداً، وفقر لا يبلغ غناه أبداً، وأمل لا يبلغ منتهاه أبداً»** (٦).

وعن عمرو بن عوف البدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين فجاء من هناك بمال، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة بن الجراح فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: **«أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء»** قالوا: أجل يا رسول الله، قال: **«فأبشروا وأمّلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»** (٧).

أما الدنيا وزينتها وزخرفها ومتاعها ولذتها عند السلف الصالح فإنك ترى الحرص

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه.
(٤) أخرجه ابن ماجة والحاكم.
(٥) أخرجه الترمذي وابن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٧) متفق عليه.

على استغلالها الاستغلال الأمثل، وترى الزهد عما فيها، والعمل الدؤوب على جعلها رافداً إلى الخير، وعاملا مساعداً إلى العمل الصالح، وسنداً قوياً للحق والصدق في إرغامها وإخضاعها بأن تكون خير ممر لخير مقر.

وأكتفي بهذين المثالين الدالين على ذلك.

أولهما ما كتبه الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز قائلاً: أما بعد، فإنّ الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إلى عقوبة فاحذرها فإنّ الزاد منها تركها. والغنى منها فقرها. لها في كل حين قتيل. تذل من أعزها. وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه، فكن فيها كالمداوي جراحه يحتمي مخافة ما يكره طويلا، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء. فاحذر هذه الدار الغدّارة الختالة الخدّاعة التي قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وحلت بآمالها، وسوّفت بخاطبها، فأصبحت كالعروس المجلية. العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قالية، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأوّل مزدجر، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مدّكر. فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسي المعاد، فشغل فيها لبّه حتى زلت به قدمه، فعظمت ندامته وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الفوت بغمته، وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروّح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد، فاحذرها وكن أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، السارّ في أهلها غار، والنافع فيها غدّار ضار، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ما ولى وأدبر، ولا يدرى ما هو آت فينتظر. أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها على خطر، إن عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على الحذر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ؟ فما لها عند الله جل ثناؤه قدر، وما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها إذْ كَرِهَ أن يخالف على الله أمره، أو يحب ما أبغضه خالقه أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختبارا وبسطها لأعدائه اغترارا، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها، ونسى ما صنع الله عز وجل بمحمد ﷺ حين شدّ الحجر على بطنه ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغنى مقبلا فقل: ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقل: مرحبا بشعار الصالحين، وإن شئت اقتديت

بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه كان يقول:

إدامى الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوف، وصلائى في الشتاء في مشارف الشمس، وسراجى القمر، ودابتى رجلاى، وطعامي وفاكهتي ما أنبتت الأرض، أبيت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء، وليس على الأرض أحد أغنى منى.

وقال وهب ابن منبه: لما بعث الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال: لا يروّعنكما لباسه الذي لبس من الدنيا، فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذني، ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فإنما هي زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت، ولكنى أرغب بكما عن ذلك فأزوى ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة، وإني لأجنبهم ملاذها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن منازل الغرة، وما ذاك لهوانهم عليّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالما موفرا، إنما يتزين لى أوليائي بالذل والخوف والخضوع والتقوى تنبت في قلوبهم وتظهر على أجسادهم فهي ثيابهم التي يلبسون، ودثارهم الذي يظهرون، وضميرهم الذى يستشعرون، ونجاتهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذى إياه يأملون، ومجدهم الذي به يفخرون، وسيماهم التي بها يُعرفون، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل لهم قلبك ولسانك، واعلم أنه من أخاف لى ولياً فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة. انتهي كلام الحسن رحمه الله.

وخطب علي رضي الله عنه يوما خطبة فقال فيها:

" اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت، وموقوفون على أعمالكم ومجزيّون بها، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، فإنها بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال وهى بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم من شرها نزالها، بينما أهلها منها في رخاء وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور، أحوال مختلفة وتارات منصرفة، العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها، وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها موفور واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارا وأشدّ منكم بطشا وأعمر ديارا وأبعد آثارا، فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية، واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة الصخور والأحجار المسندة في القبور اللاطئة الملحدة،

فمحلـها مقـترب وسـاكنها مغـترب بـين أهـل عمـارة موحشـين وأهـل محلـة متشـاغلين، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون تواصل الجـيران، والإخـوان علـى مـا بيـنهم مـن قـرب المكان والجوار ودنوّ الدار، وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنتهم كلكلـة الـبلاء وأكلـتهم الجنادل والثرى؟ وأصبحوا بعد الحياة أمواتا، وبعد نضارة العيش رفاتا، فجع بهم الأحبـاب، وسكنوا تحت التراب، ظعنوا فليس لهـم إيـاب،**{كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}**(١). فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليـه مـن الـبلاء والوحـدة في دار المثـوى، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو عاينتم الأمـور، وبعثـرت القبور، وحصل ما في الصدور، وأوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليـل، فطـارت القلـوب لإشفاقها من سالف الذنوب، وهتكـت عـنكم الحجـب والأسـتار وظهـرت مـنكم العيـوب والأسرار؟ هنالك تجزى كل نفس بما كسـبت...**{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْـزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}**(٢).

ثالثاً: – فكلا أخذنا بذنبه:

لقد أغرت الدنيا كثيراً من الأقوام البائدة، وتمكنـت مـنهم تمكنـاً شـديداً حتـى لفظـتهم كفاراً حسداً، ولم تبق لهم أثراً سوى ذكرهم الممقوت، وبيـتهم المنحـوت، وبلادهـم الخاويـة، عذبهم الله بكفرهم وطغيانهم، وبإيثارهم الدنيا على الآخـرة، وبتكـذيبهم الأنبيـاء والرسـل عليهم أفضل الصـلاة والسـلام.**{فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}**(٣) ومن أولئك قارون ومن تبعه من قومه حيث أنعم الله عليه بكثرة الكنوز حتى إن مفاتيح تلك الكنوز كان يثقل حملها على الجماعـة مـن النـاس، فلقيـه قومـه قائلين لا تفرح وتفخر على غيرك فإن الله تعالى لا يحب الفـرحين ولـتكن همتـك مصـروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة فإنه خير وأبقى، فما كان رده لهـم إلا أن**{..... قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي}**(٤)، قالها باستعلاء الفجور، قالها محمّلة بالنكران والجحـود، لم يتفكـر بنعم الله عليه ولو لبرهة، لم يسأل نفسه ويقول من أين لك هذا؟ تمكنت الدنيا من قلبه فنسي الآخرة، واحتلت جوارحه فأقعدته، وأحالتـه عـن قـول الحـق وكأنـه لا يعلـم بمـا حـل بمـن

(١) المؤمنون: ١٠٠.
(٢) النجم: ٣١.
(٣) العنكبوت: ٤٠.
(٤) القصص: ٧٨.

قبله{... أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}(١) قال ابن كثير رحمه الله: فخرج في تجملّ عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم، فلما رآه من يعظّم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله، وغبطوا بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح قالوا لهم: -{.... وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً}(٢) أي ثواب الله في الدارالآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى " أ. هـ كلام ابن كثير رحمه الله.

وبعد هذا المشهد العجيب يأتي الله سبحانه وتعالى بأمره ليعلم الجميع بأنه القاهر الجبار، المهيمن عز وجل، القدير تعالى على فعل ما يريد.

{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الُمنتَصِرِينَ}(٣).

ومن تلك الأقوام الكافرة الجاحدة أيضاً أصحاب الرس الذين كانت لهم بئر ترويهم وتكفي أرضهم جميعاً، وكان لهم ملك عامل حسن السيرة، فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيماً، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته وقال: إني لم أمت، ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم ففرحوا أشد الفرح، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه، وأخبرهم أنه لا يموت أبداً فصدّق به أكثرهم، وافتتنوا به وعبدوه، فبعث الله فيهم نبياً، فأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب، ونهاهم عن عبادته، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر، فغار ماؤها وعطشوا بعد ريّهم، ويبست أشجارهم، وانقطعت ثمارهم، وخربت ديارهم، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة، وبعد الاجتماع بالفرقة، وهلكوا عن آخرهم، وسكن في مساكنهم الجن والوحوش فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن، وزئير الأسود، وصوت الضباع.

وفي مشهد ثالث يتجه موسى عليه السلام إلى ربه، وقد يئس من فرعون وملأه أن يكون فيهم خير، وأن تكون منهم بقية، وأن يرجى لهم صلاح، اتجه إليه يدعو على فرعون وملأه، الذين يملكون المال والزينة، تضعف إزاءهما قلوب الكثيرين فتنتهي إلى التهاوي أمام الجاه والمال وإلى الضلال. اتجه موسى إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال، وأن يشد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان. فاستجاب الله الدعاء:{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ

(١) القصص: ٧٨.
(٢) القصص: ٨٠.
(٣) القصص: ٨١.

آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ}(١).

الزينة والأموال في الحياة الدنيا ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك يارب، إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين، وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه، فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغواءهم، ووجود النعمة في أيدي المفسدين، لا شك يزعزع كثيراً من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختباراً، وأنها كذلك ليست شيئاً ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة، فكتب الله تعالى لهذه الدعوة الإجابة من قبله جل وعلا وقضي الأمر، وأمر موسى وهارون بالاستقامة على طريقهما حتى يأتيهما الأجل، وأن يحذرا من أن يتبعا سبيل الذين لا يعلمون فيتخبطوا على غير علم، ويترددوا في الخطط والتدبيرات، ويقلقوا على المصير، ولا يعرفون إن كانوا يسيرون في الطريق الهادي أم هم ضلوا السبيل.

رابعاً: {فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا}:

أيها الأحبة....

يعيش أحدنا هذه الحياة وينعم بنعيمها، ويشقى ببؤسها، يفرح بمتاعها، ويألم على جورها يفند ويفصل، يرقى وينحدر، يعطي ويمنع، ثم تدور أيامه وسنونه على هذه الأحوال المختلفة حتى يأتيه ملك الموت فيموت.

يغنى الفقير حتى تكمن السعادة في قلبه بهذا الغنى ويتغير شأنه، وتتبدل أحواله وتعلو منزلته بين أقرانه، ويُقدَّم في المحافل والمناظر وتتبلور تلك اللحظات والساعات ويهنأ بها ويسعد حتى يموت.

يسعى الشاب والمزهو بشبابه، والمغرور بحيويته ونشاطه، يدك البيد، ويطوي البعيد، يغلب أعداءه، وينتصر على أخصامه وهكذا حتى يموت.

يصل الرجل إلى الستين والسبعين من عمره وهو لا يزال في غفلة عن ذلك العمر حدودب ظهره لكنه لا يفوّت ملهي، ابيض شعر رأسه ولحيته لكنه لا يمرر سهرة، كثرت آهاته وتوجعاته غير أنه لازال أسيراً للدنيا وأهوائها وهكذا حتى يموت.

تتزين المرأة لتري قريناتها جمالها الباهر، وتتخضب لكي تتجمل للشيطان وأعوانه. وترتدي الغالي من الثياب لإبراز منزلتها ومفاتنها، وهكذا طيلة أيام حياتها حتى تموت.

---

(١) يونس: ٨٨.

نعم... إنه الموت هادم اللذات، ومفرق الجماعات، الزائر على غير موعد، الآتي على غير مسبّقات، القادم لكل واحدٍ منا لا محالة، هو أصعب لحظة يعيشها العبد، وأثقل هم يكابد صدره وأنفاسه هو نقطة التحول من الدنيا إلى الآخرة، هو مرحلة الانتقال بين وقتي "عمل ولا حساب " و" حساب ولا عمل " هو الذي لا يستأذن ملكا، ولا يحابي سيدا، ولا يجامل قريبا أو بعيدا، هو الذي لا يرده قوم، ولا يصده صاد، ولا يمنعه صاحب ولاية ولا زعيم سلطة.**{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}**(١).

نعم إنها الحقيقة التي طالما غفلنا عنها، والمؤكد الذي لا بد أن يأتي ذلك اليوم فنراه اليوم بأعيننا، ونحسه بقلوبنا وتتأثر به جوارحنا.

خامساً: حقائق مؤلمة:

من المعلوم أن لغة الأرقام لغة الحقائق، وأنها اللغة الصادقة متى ما فعل استخدامها بالشكل الذي يرضي الله تعالى، وعن موضوع الدنيا وزينتها، والموت وحقيقة قدومه، إليكم نتيجة هذا الاستبيان الذي وزع على شرائح مختلفة رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، متعلمون وأميون، وقد تم طرح العديد من الأسئلة وضع تحت كل واحد منها مجموعة من الإجابات يتم اختيار أحدها من قبل الشخص الموجه إليه الاستبيان:

ولقد تبين ما يلي:

٣١٪ من مجموع المشاركين في الاستبيان ليس للموت أي ذكر في حياتهم.

و ٨٦٪ يذكرونه ما بين الفينة والأخرى، وليس ذكراً دائماً. وبالنسبة عن مدى الانشغال بالدنيا عن الآخرة:

فهناك ٢٦٪ أشغلتهم دنياهم عن آخرتهم، وليس للآخرة أي التفاتةٍ منهم.

و٥٥٪ أخذتهم الدنيا عن الآخرة بشكل كبير جداً رغم تفكيرهم في الآخرة بدون استعداد لها.

وبالسؤال عن ما مدى القراءة عن الموت والقبر واليوم الآخر؟ قال من نسبتهم ٩٣٪ أنهم لا يقرأون مطلقاً في هذا الجانب.

وأن ١٠٪ فقط هم الذين تستهويهم القراءة عن الموت والقبر واليوم الآخر. وفي سؤال آخر مفاده ما مدى كراهيتك لذكر الموت؟

(١) آل عمران: ١٨٥.

قال أكثر من ٤٠٪ إنهم يكرهون ذكر الموت ولا يريدون أن يعرفوا عنه شيئاً.

وعن حضور المحاضرات التي تذكر الموت واليوم الآخر قال من نسبتهم ٩١٪ إنهم لا يحضرون لهذا النوع من المحاضرات، ولا يهتمون بها.

والذين يهتمون بها يشكلون ١٧.٥٪ فقط.

وقال أكثر من ٩٠٪ من الرجال إنهم لا يزورون المقابر، بل إن الغريب أن أغلبهم لم يفكروا في هذا الأمر مطلقاً.

ومن خلال قراءة دقيقة لهذا الاستبيان يتضح لنا ما يلي: -

_ حرص الناس على هذه الدنيا واستماتتهم لأجل العيش فيها.

_ كراهيتهم للموت واليوم الآخر وما ذاك إلا لأنهم دمروا آخرتهم لبناء دنياهم.

_ عدم الحرص على ما يساعد على ذكر الموت واليوم الآخر كالكتب والمحاضرات والدروس التي تهتم بهذا الجانب.

نعم هذه الحقيقة المؤلمة التي غفلنا عنها، فهل من واعٍ لهذا الألم، وهل من متأمل لهذا الواقع، وهل من عمل بعد هذا العلم.

سادساً: ثمرات وفوائد:

وبعد كل هذا فإنا نخرج بإذن الله بجملة من الثمرات والفوائد حري بنا جميعاً أن نوليها اهتماماً بالغاً وهي ما يلي:

١- اعلم أن باب التوبة مفتوح، وأن الإنسان ما دام في دنياه فهو في فسحة من أمره، وأن الفرصة لا زالت بيده، وأن الله جل وعلا يحب من يعود إليه، قال تعالى:**{إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}**[(١)]. وإنها من أسباب فلاح العبد فالدنيا والآخرة قال تعالى:**{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**[(٢)]

ومعنى الفلاح هنا: أن يحصّل الإنسان مطلوبه وينجو من مرهوبه. والتوبة النصوح يغفر الله بها الذنوب مهما عظمت وتزايدت قال تعالى:**{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}**[(٣)].

(١) البقرة: ٢٢٢.
(٢) النور: ٣١.
(٣) الزمر: ٥٣.

والمؤمن يدرك تماماً أن لا قنوط ولا يأس من رحمة الله فـ: **«إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء النهار»** [(١)].

١- كن جريئاً في الإقدام.

ولا تتأخر في عودتك إلى الله، ولا تسوف توتبك، ولا تستسلم لتلبيس إبليس، وشجاعاً في مواجهة كل رغبة نفس، وهوى ملهي، وأدرك معنى قوله تعالى:**{فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}**[(٢)] وقوله تعالى:**{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}**[(٣)] واعلم بأن الوقت لا يرحم، وأن الأيام تتصرم، وأن الدهر يضيع، وأن كل يوم يمضي من حياتك إنما هو خطوة تخطو بها إلى قبرك ثم انظر عن يمينك وعن شمالك واسأل نفسك أين أولئك الذين غادرونا وذهبوا إلى حياةٍ أخرى، ومساكن أخرى كيف هي أحوالهم، وماذا كسبوا من دنياهم، وماذا خسروا، ثم استشعر لحاقك بهم، وتيقن بأنك في يوم من الأيام سيكون مآلك كمآلهم.

٢ – اصدر القرار:

وتوكل على الواحد القهار، وابدأ في التغير المحمود، والتحول المطلوب، واعلم بأن هناك تضحيات كبيرة سوف تقدمها جراء هذا التغير، فمن أراد أن يتغير فعليه أن يضحي، ولا تولي تلك التضحية أي اهتمام فإنما هي لله وفي سبيل الله، وحدد الهم الذي تحمله وليكن هماً أخروياً تنل من حمله الأجر والفلاح ولا يكون هماً دنيوياً لا فائدة منه في الدنيا ولا في الآخرة. صّور الندم في قلبك، وابك على خطيئتك، واعزم على عدم العود إلى معاصيك، واستغفر لذنبك، ورد من أخذت منه حقا، واطلب العفو ممن أخطأت في حقه بأي صورة كانت، و**«التائب من الذنب كمن لا ذنب لــه»** [(٤)].

٣ – اعرف من أنت!!.

ولماذا خلقت؟ وما هو هدفك في هذه الحياة؟ وماذا تشكل في مجتمعك؟ وما هي آمالك ورسالتك؟ وصدقني وحينما تجيب على هذه الأسئلة بكل واقعية وصدق ستدرك كم تملك من المسؤوليات الملقاة على عاتقك وأنت لا تعلمها، وستعلم مدى تقصيرك عن أداء

---

(١) رواه مسلم.
(٢) الذاريات: ٥٠.
(٣) الواقعة: ١١، ١٠.
(٤) سنن ابن ماجه.

رسالتك الإيمانية التي هي رسالة كل مؤمن. فلديك فكر، وتحيطك آمال وطموحات، وتسكن بين جوانحك الملايين من ذرات الخير للناس، فمتى يظهر ذلك كله على أرض الواقع، ومن تتبلور مشاهدته أمام الجميع، ومتى ستبدأ طاقاتك القيام بقيادة أفكارك وجعلها مشاريع خيرية وإنمائية للمجتمع والمسلم، وعليك أن تخبر فؤادك دائماً بأنك لست صفراً على الشمال، أو هامشياً في مجتمعك، أو سلبياً في تصرفاتك لا!!. بل أنت من أتباع محمد ﷺ، وتنتمي إلى هذا الدين الخالد، وتفخر بدستورك الكريم فأي عزة أنت فيها؟.

٤ –{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}:

إنك مع تحولك المأمول منك بإذن الله سوف ترى من ينتقدك أو يهزأ بك أو يسخر من قدرتك، أو حتى يهينك، وسوف تجد من يحاول أن يثنيك عن طريقك، أو يزين لك طريق الشيطان لكي تعود إليه، وهنا يكمن معنى الصبر، وتتجلى أهميته، وهو صبر على فعل الطاعة، ومجاهدة النفس على طهرها وتقواها، فإذا جعلت الصبر لك عنوانا في هذه المرحلة الحرجة وهي مرحلة التحول من الظلام إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، فإنك بعون الله تكن من عباده الصابرين التائبين قال تعالى:**{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}**(١).

٥ – الماضي المؤلم:

لا ترجع إليه ولا تعود، ولا تهيج أشجانك بذكره، فهو إما ذنب كبير أو معصية مؤلمة، أو نفاق تشرب في القلب وأمراضه، وإذا كان ولابد فارجع إليه معاتباً نفسك على تقصيرك في تلك الأيام وقاطعاً على نفسك وعداً بعدم العودة إلى تلك المآسي والآلام. اهتم بما بين يديك، وأنجز ما كلفت به، واعمل على إتمام ما تود إتمامه. تحرر من وساوس إبليس، واطرد الحزن من أعماقك إلى غير رجعة، واعلم أن من صفات المؤمنين الصادقين الصابرين أن**{لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}**(٢) قال أهل العلم: أي لا يخافون من الغد، ولا يحزنون على ما مضى.

* * * * *

المبحث الثاني عشر
الفساد والمفسدون ودين الرحمة والتسامح

تئن البشرية من آثار الفساد الذي أصبح ظاهرة كونية – مع اختلاف حجمه وصوره من دولة إلى أخرى حسب اختلافها في المستوى الثقافي، والوعي السياسي، واحترام القوانين

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) يونس: ٦٢.

المنظمة لحياة الناس·

والدول القوية تستغل إمكاناتها الاقتصادية، والعلمية، والعسكرية في إفساد أوجه الحياة في الدول الأخرى بغية إضعاف قوتها، والسيطرة عليها، واستغلال خيراتها·

والقرآن الكريم – كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، ودستور الإسلام الذي هو رحمة الله للعالمين – اهتم اهتماما واضحاً بهذه الآفة الاجتماعية الخطيرة، فقد حذر من الفساد، وبين أسبابه، ودواعيه وآثاره، وتوعد المفسدين·

فما الفساد؟

قال الراغب الأصفهاني: الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج أو كثيرا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

الإسلام دين الرحمة والتسامح، يدعو إلى العدل والسلام ويصون حرية الإنسان وكرامته، وهذه ليست مجرد شعارات يرفعها الإسلام، وإنما هي مبادئ أساسية راسخة قام عليها بنيان الإسلام، فقد أرسل الله نبيه محمدا ﷺ "رحمة للعالمين". كما ورد في القرآن الكريم، ووصف النبي رسالته بقوله: **«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»** ومنح الإسلام الإنسان حرية الاختيار حتى في أمور الاعتقاد: **{فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}** [الكهف: ٢٩].

والدعوة إلى الإسلام تقوم على الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى، لا على الإكراه والإرغام، كما أمر الإسلام بالعدل والإحسان ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والإفساد في الأرض، ودعا إلى مقابلة السيئة بالحسنة، وقد عفا النبي ﷺ عن أهل مكة عند فتحها رغم كل الذي صنعوه معه ومع أصحابه من الظلم والاضطهاد والقتل والتعذيب، وقال لهم: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

وهناك تطابق تام بين الإسلام والسلام، فكلمة الإسلام مشتقة من الأصل ذاته الذي اشتق منه لفظ السلام، وقد وصف الله نفسه في القرآن الكريم بأنه السلام، وتحية المسلمين هي السلام تذكيرا لهم باستمرار بأن السلام هدف رئيسي لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان، والمسلم يتجه في نهاية صلاته كل يوم خمس مرات بتحية الإسلام إلى نصف العالم ناحية اليمين، ثم بعد ذلك إلى النصف الآخر ناحية الشمال.

ومن كل ذلك يتضح الطابع السلمي للإسلام، فليس هناك مكان في هذا الدين للعنف أو التشدد أو التعصب أو التطرف أو القهر والإرهاب وترويع الآمنين، أو الاعتداء على

حياتهم وممتلكاتهم، فمقاصد الشريعة الإسلامية تتمثل في حماية الحقوق الأساسية للإنسان، وبصفة خاصة حماية حياته ودينه وعقله وأسرته وممتلكاته.

ومن هنا حرم الإسلام الاعتداء على الآخرين بأي شكل من الأشكال، لدرجة أنه جعل الاعتداء على فرد واحد من أفراد الإنسانية كأنه اعتداء على البشرية كلها:

{مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً} [المائدة: ٣٢]، فكل فرد يمثل الإنسانية في شخصه.

وهذه الإنسانية التي يحرص الإسلام على حمايتها تتمثل في احترام كل فرد بشري للآخر: احترام حريته وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة، وقد ورد في الحديث الشريف:

«كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه».

كما جاء في حديث آخر: **«لا يحل لمسلم أن يروع مسلما»**.

كما دعا الإسلام إلى التعايش السلمي بين الشعوب، وإلى معاملة غير المسلمين بالعدل والإنصاف كما يقول القرآن الكريم:

{لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: ٨].

ومسؤولية الحفاظ على أمن المواطنين واستقرارهم تعد مسؤولية مشتركة بين الناس جميعا، وتحمل هذه المسؤولية هو السبيل إلى الاستقرار والأمن في مواجهة أخطار الفساد والإفساد، فنحن جميعا كما جاء في حديث شريف: **«مثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا»**.

ومن هنا فإن الإسلام دين لا يعرف التعصب على الإطلاق، وبالتالي فإنه لا يدعو أتباعه إلى التعصب، ومصادر الإسلام في القرآن والسنة لا تشتمل على شيء من هذا القبيل.

فالدعوة إلى الإسلام - كما يشير القرآن الكريم - تقوم على أساس من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى، وهذه الأساليب بعيدة تماما عن كل شكل من أشكال التعصب، ومن هنا رأينا النبي ﷺ يقول لكفار مكة بعد رفضهم دعوته لهم إلى الإسلام:**{لَكُمْ**

دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦].

أما ما يتصل بالأديان السماوية السابقة فإن الإسلام يعتبر الإيمان بأنبياء الله السابقين على محمد ﷺ عنصرا أساسيا من عقيدة المسلم، وهذا ما يشير إليه القرآن في وضوح تام:

{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦].

فالموقف الإسلامي إزاء الأنبياء جميعا هو عدم التفريق بين أحد منهم، وتلك صورة من التسامح الديني لا مثيل لها لدى أتباع أي دين من الأديان، فهل هناك مجال للتعصب بأي شكل من الأشكال في تعاليم دين بهذا الوصف[(١)].

* * * * *

(١) د/ محمود حمدي زقزوق – وزير الأوقاف المصري – منتدى إنترنت.

المبحث الثالث عشر
شخصية المرأة المسلمة

لقد خلق الله سبحانه الذّكر والأنثى لحكمٍ جليلة:**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}**(1)، التكريم عند الله بسبب التقوى وليس بسبب الجنس ذكراً كان أو أنثى أو لشعب دون شعب.

وعلى ذلك فالجميع سيحصل على الثواب الجزيل على تقواه وطاعته لله**{وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً}**(2).

ولكن الإسلام يريد من المسلمين والمسلمات التميُّز بالطاعات لينالوا الدرجات العُلا فيتميزون على غيرهم:**{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}**(3).

ونحن في هذا البحث نريد التركيز على المرأة المسلمة في شخصيتها المتميزة التي تجعلها مختلفةً عن بقية النساء اختلافاً يرقى بها ويسمو لتكون مثالاً يحتذى وأنموذجاً يُقتدى به..

ولعل أهمية بيان معالم شخصية المرأة المسلمة وتميزها يظهر من خلال الآتي:

أنَّ المرأة لها تأثير كبير، ولا ينكر ذلك أحد.

أنَّ المرأة كرّمها الله سبحانه، ورفع الإسلام من شأنها بعد أن كانت مُهانةً في الجاهلية وفي بعض المجتمعات البشرية، وهذا التكريم الإسلامي للمرأة لا بد من ظهوره على شخصيتها ومن ثم على سلوكها لتكون قدوةً لغيرها.

أراد دعاة الضلال والانحلال أن يتخذوا من المرأة مطية لشهواتهم، والمرأة المسلمة لها نصيبٌ من ذلك، سعياً وراء إذابتها ومن ثم تفكيك المجتمع المسلم عن طريق تفكيك الروابط الأسرية.

وكان لا بد من بيان مقومات ومعالم شخصية المرأة المسلمة التي تحفظ بها نفسها وبنات جنسها وأسرتها.

---

(1) الحجرات: ١٣.
(2) النساء: ١٢٤.
(3) الأحزاب: ٣٥.

· إنها محاولة لتنبيه المسلمة إلى ما أودعه الله فيها من قُوى وإمكانات هائلة تحفظ بها وتكون فعَّالةً في مجتمعها وتتصدى بها لسيول الضلال الجارفة.

إنّها دعوة لغير المسلمات، والمسلمات اسماً وليس منهجا وسلوكا.. أن يتأملن في فضل المرأة المسلمة المستقيمة على سائر النساء، وفي ما تجنيه من ثمرات في الدنيا والآخرة نتيجة هذا التميز.

إن التميز الحق هو المنبثق من أقاصي الذّات ومِن بُنيَّاتِ أفكارها، إنَّ تميُّزها في مبادئها الأصيلة التي لا تَبلى ولا تتحلَّل مع مرور الزّمن، فتتأصّل فيها وتترسّخ، حتى تسري مسرى الدم في العروق، فيعُمّ الجسدَ كُلَّه، وتعمل به الجوارح في ثباتٍ ورسوخ، حينها لن يجرفه أيُّ تيارٍ مهما عظُمَ بعد تثبيت الله تعالى له[1].

إنّ مسلماً نُودِيَ بالسير مع الهِمم العالية، فانتفضَ وأفلتَ مِن قيودِ الأرض، وحلَّقَ بجناح العِزّة هو مسلمٌ حريٌّ به أن تتم انتفاضتُه بخطوةٍ تميُّز واضحة.

– والإسلام يطلب من أتباعه التميُّز، لأنّه تميُّزٌ مرتبط برب العالمين وما كلَّف به عباده من شرع قويم لا يتطرق إليه الخلل أو القصور..

– إنّه تميُّزٌ متفرِّد لأنه يقوم على أصول وثوابت معصومة، فلن يكون هناك أفضل منه.

هذا التميز لا يكون إلا بالتمسُّك بالقرآن وهديه لأنّه الصراط القويم الذي لا يزيغ من سار عليه، ولأن ما احتوى عليه من عقائد وقيم متميُّز**{فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}**[2]، ولذا فإن المستمسكين بهذا القرآن سيتميزون على غيرهم بأن يرتفع ذِكرُهم**{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ}**[3].

– وهو تميُّزٌ بهذه الشريعة لمن اتّبعها، وخالف أهواء النفوس..**{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ**

---

(١) نُهى بنت عبد الله العريني – المسلم والتميُّز. (مقال) بمجلة البيان – عدد ١٦٥ ص ١٤٠ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ – أغسطس ٢٠٠١م.

(٢) الزخرف: ٤٣.

(٣) الزخرف: ٤٤.

الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}[1] – تميُّزٌ في مفارقة لسبيل الآخرين ومنهجهم وسلوكهم**{وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}**[2].

– تميُّز المسلم يجعله حريصاً على عدم التشبُّه بغير المسلم شكلاً ومضموناً، يقول الرسول ﷺ : **«ليس منّا مَنْ تشبَّه بغيرنا»** [3]، وقال: **«مَنْ تشبَّه بقوم فهو منهم»** [4] وذلك لأنّ التشبُّه بالآخرين في الظاهر يورث مشابهةً لهم في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي، كما أنّ المشاركة في الهدْي الظاهر تُوجِبُ مناسبةً وائتلافاً وإنْ بعُدَ المكان والزمان، وهذا أمرٌ محسوس، بل إنّها تُورثُ نوعَ محبّةٍ ومودة وموالاة في الباطن، كما أنّ المحبة في الباطن تُورث المشابهة في الظاهر[5]..

– إن هذا التميُّز عقيدةٌ يؤمن بها المسلم، وبتمسُّكه بها يبين عن غير المسلمين ويستقل عنهم حتى لو كانوا أقرب الناس إليه**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** [6].

– والمسلمة يريد منها الإسلام أن تكون لها شخصيتها المتميِّزة التي تُعرَف بها بين الناس فتكسب الحماية من الأذى، وتكون محط التقدير والاحترام..**{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً * لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً، مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً}**[7].

يقول الإمام ابن كثير في تفسيرها: يقول الله تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات – خاصة أزواجه وبناته لشرفهنّ – بأن يدنينَ عليهنّ من جلابيبهنّ ليتميَّزن عن

---

(١) الجاثية: ١٨، ١٩.

(٢) الأعراف: ١٤٢.

(٣) سنن الترمذي ٧/ ٣٣٥ رقم (٢٦٩٦) وقال: إسناده ضعيف. ولكن الألباني حسنه، انظر صحيح الجامع ٥/ ١٠١ رقم (٥٣١٠).

(٤) سنن أبي داود: كتاب اللباس ٤/ ٣١٤ رقم (٤٠٣١) ومسند أحمد ٧/ ١٤٢ رقم (٥١١٤) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وقال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع ٥/ ٢٧٠ رقم (٦٠٢٥).

(٥) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٢٠ ط: ٢ سنة ١٣٦٩هـ – مطبعة أنصار السنة بالقاهرة.

(٦) التوبة: ٢٣.

(٧)الأحزاب: ٥٩ – ٦٢.

سِماتِ نساء الجاهلية وسِماتِ الإماء[1]. وذكر رحمه الله قول السدّي ومجاهد: كان نـاسٌ مـن فُسَّاق أهلِ المدينة يخرجون بالليل حيث يختلط الظلام إلى طرق المدينة فيعرضـون للنسـاء، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة، فإذا كان الليل خرجت النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة فكفـوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها"، وقال مجاهد: "يتجلببن فيعرف أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة"[2].

ولا يخفى أن إيراد المنافقين والذين في قلوبهم مرض يعد ذا صلة بما ورد من توجيهات في الآية، إذ أن هؤلاء هم أعداء هذا التميز لأنهم دعاة الانحلال ولذا فإنهم **{يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا}**[3].. ويتعاونون جميعا في ذلك، ويسعون لإشاعته والإرجاف به تشويها لتميز المؤمنات لتهتز صورة النقاء والعفاف وتفقد الثقة وينهدم البناء..

وصايا الرسول ﷺ :

الوصية الأولى.. الإيمان والعمل توأمان:

قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ}**[4].

وقال سبحانه: **{وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْابِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**[5].

وقال سبحانه: **{وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْبِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَاخَالِدُون}**[6].

وجميع الآيات الكريمة التي وردت في القرآن قرنت الإيمان المؤدي إلى الخير والجنة بالعمل واعتبرت أنه لا انفصال أبداً بين الإيمان والعمل، من هنا جاء تعريف العلماء للإيمان بأنه ما وقر في القلب وصدقه العمل.

فإذا شعرت بالإيمان غضاً طرياً يداعب قلبك وعقلك ورأيت نفسك وقد وقفت على بوابات التصديق بما أمر الله أن نصدق به، وأحسست بدبيب اليقين يتسرب إلى روحك

(١) محمد بن سعيد القحطاني: الولاء والبراء في الإسلام ص ٢٢٣ دار طيبة - الرياض السعودية. ط١ وط ٢.
(٢) أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي - تفسير القرآن العظيم - ٣/ ٥١٩.
(٣) النور: ١٩.
(٤) يونس: ٩.
(٥) العصر.
(٦) البقرة: ٢٥.

فاعلمي أن أولى درجات القبول لهذا اليقين أن يقترن بالعمل، والعمل هنا معروف وواضح تماماً، فالقرآن والسنة حافلان بالأوامر والنهي، والإسلام جعل تشريعاً لكل صغيرة وكبيرة في حياة المسلم. وما عليه سوى أن يشد العزم ويدفع بهمته نحو البحث والمعرفة والسؤال وطلب النصيحة ليجد الطريق أمامه مفتوحاً. وأنت يا أخت الإسلام لا تتحرجي من دفع همتك نحو العلم والمعرفة والسؤال، واسألي أهل الذكر إن كنت لا تعلمين، فإذا فعلت ذلك وعملت بعلمك انطبق عليك قول الله عز وجل:**{وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا}**(1).

و لو نظرت قليلاً في الكتب التي تحدثت عن المسلمين والمسلمات في عهد النبوة، عهد الرسول ﷺ والرجال الذين من حوله وهم خير القرون في تاريخ البشرية، ورأيت سيرتهم وسيرتهن لوجدتهن أنه لم يرد ولا أي خبر عن أي مسلم أو مسلمة حدث أن آمن دون عمل أو وصله حكم من الأحكام ولم يسارع إلى تطبيقه مهما كانت الصعوبات التي تواجهه والرغبات التي تحول دونه ودون تنفيذ هذا الحكم أو ذاك، وإلا كيف يمكن أن ينطبق عليهم لفظ الإسلام؟ أي الاستسلام لأحكام الله وهم لا يطبقون أحكام الله ولا يقيمون شرائعه؟.

وإن لك في مسلمات القرن الأول قدوة حسنة بعد النبي ﷺ وزوجاته الطاهرات والمطهرات، اللواتي كن يبحثن في كل الأحكام التي تحفظ عليهن دينهن دون حرج أو حياء لأنه لا حياء في الدين، واعلمي أن من سلك طريقاً يطلب به علماً يزيده يقيناً وعملاً بأحكام الله فإن الله سوف ييسر له طريقاً إلى الجنة كما ورد في الحديث الشريف، لذا كوني مؤمنة واعلمي علم اليقين أن إيمانك هذا لا يكفي وحده لينجيك من عذاب الله ولكن لا بد له من قرين آخر لا يقل عنه أهمية ألا وهو العمل.. إنهما توأمان لا يعيش أحدهما دون الآخر وهما معاً يحملانك إلى عتبات الجنة بفضل الله سبحانه ورحمته.

الوصية الثانية.. طلب العلم والحرص على التعلم:

قالت النساء يوماً للنبي ﷺ : يا رسول الله، لقد غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً يلقاهن فيه فأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم، وبلال يأخذ بطرف ثوبه... (2).

وقال تعالى:**{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِين آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**

---

(1) سورة مريم: ٧٦.

(2) رواه البخاري ومسلم.

خَبِيرٌ}[1].

إن الدرجات التي يرتفع بها المسلم والمسلمة عند الله ليست كدرجات الدنيا وترقياتها.. إنما يرفع الله هؤلاء المؤمنين بما عملوا من أمور في دينهم وما استقاموا على أصوله والتزموا شرائعه، ولا يمكن للمرء أن يلتزم إلا بشيء قد جاءه العلم به، لذا حث الإسلام الناس على العلم والتعلم وجعل الذين يعلمون أعلى درجة من الذين لا يعلمون بل وتساءل سبحانه وتعالى مؤكداً الجواب في ذات السؤال بقوله:**{هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ}**[2].

و لا يمكن لمسلم ولا مسلمة أن يرتقي بإيمانه ويرتفع في معارج التقى والصلاح ما لم يكن عالماً بأمور دينه باحثاً، وبإلحاح لا يتوقف عن تفاصيل الأحكام التي تهمه في حياته وآخرته، يؤمن بها ويتعلم منها ويلتزم بها ويكون من الذين لايستوون مع الذين لا يعلمون..

وأنت يا أختي المسلمة.. لك في النساء المسلمات في عصر النبوة تلك القدوة الطيبة حيث وقفن أمام النبى ﷺ وقدمن احتجاجاً على سيطرة الرجال على مصدر العلم مبينات أن لهن حقاً كحقوق الرجال في العلم، وقلن له بأنهن أيضاً مكلفات شرعاً بالتعلم والتفقه في أمور الدين، وأنهن مستعدات أيضاً لتطبيق الأحكام إذا علمنها..

لذا فعندما حدثهن عن الصدقة واقترن إيمانهن بالعلم اتجهن الاتجاه الطبيعي في تنفيذ أحكام الصدقة وقمن بالتبرع بأقراطهن وحليهن، وهي أفضل وأغلى ما تملكه المرأة من زينتها، من هنا فإنه يتحتم عليك ياأختي المسلمة أن لا يمنعك عن طلب العلم أي مانع، ولا يحجزك عن المعرفة أي حاجز، لأنها حجابك في مواجهة الجهل وسلاحك في مواجهة الجاهلية الحديثة المعاصرة التي تحاول أن تستبدل علوم الدين بعلوم الدنيا، وعلوم الهدى بأفكار الضلال فتطرح عليك وعلى أخواتك أفكاراً غريبة عن دينك وتستخدم لذلك كل وسائل الإعلام من صحف وإذاعات وتلفزيونات وغيرها.. ولكن يمكن أن تشقي بأن هذا الدين لا تمكن هزيمته لأنه محفوظ بحفظ الله وبجهود المؤمنين والمؤمنات الذين يؤمنون به ويتعلمون أحكامه ويلتزمون شرائعه ولا تأخذهم في الله لومة لائم..

عليك أن تقولي لأبيك أو أخيك أو زوجك وخبريهم أن الله يأمرهم أن يعلموها، فإن لم يفعلوا فإنها ستخرج إلى المسجد ومجالس العلماء وتتلقى علوم دينها..

---

(١) المجادلة: ١١.

(٢) الزمر: ٩.

واعلمي يا أختي المسلمة أن العلم الذي نتحدث عنه ليس علم الدين فقط، وعلوم القرآن والفقه فحسب، بل كل علم يوصل إلى مزيد من اليقين والإيمان لأن الله عز وجل يأمر بذلك، أو ليس هو القائل جل شأنه:**{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَاعَذَابَ النَّارِ}**(١).

إن التفكر في خلق الله يعني دراسة هذا الخلق والتعرف عليه عن قرب، هذا التفكر يوجد العلم الذي يعرفك بمقدار رحمة هذا الخالق سبحانه في خلقه، لذا لا مانع من أن تدرسي الكيمياء والفيزياء والأحياء والزراعة وغيرها من العلوم التي تزيدك معرفة بخلق الله وكائناته فتزدادين علماً وإيماناً وتقرباً إلى الله.. ولا تسمحي لأي كان يقف دون أن تتعلمي وترتقي في مدارج العلم، وعليك أن لا تسمعي كلام الجهلاء الذين يقولون إن المرأة يجب أن تكون جاهلة.. إنهم بهذا يسيئون إليك وإلى دينهم الذي حث في آياته الكثيرة على طلب العلم وعلى السير في الأرض للبحث في مخلوقات الله الكثيرة للوصول بالمسلم إلى أرفع درجات العلم، وأذكرك هنا بتلك الفترة الذهبية من تاريخ الإسلام عندما كان المسلمون منشغلين بعلوم الطب والأحياء وغيرهما ويقدمون للبشرية أرقى الحضارات..

وأنت لا تستطيعين أن تكوني صانعة لها مشاركة فعاله في بناء حضارة إسلامية قادمةٌ بالعلم الذي يجب أن نطلبه ولوكان في الصين.. وكما ورد في الحديث علينا أن نطلبه من المهد إلى اللحد، لأنه كما قال ﷺ : **«فريضةٌ على كل مسلم»** (٢)...

الوصية الثالثة.. أين شخصيتك القوية؟

قال تعالى:**{وَلاَتَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}** (٣) قد وصف النبي ﷺ المسلم بأنه إذا سيم خطة خسف أن يقول: " لا " بملء فيه ولقد جاء الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وإن دينا هذا شأنه ليهتم أول ما يهتم بتربية أتباعه على العزة والكرامة والشخصية القوية التي تثبت في مواجهة التحديات أثناء الصراع المحتدم بين جيش الإيمان وجيش الكفر.. لذا وصف سبحانه وتعالى الكافرين بقوله:**{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا**

(١) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.
(٢) رواه البخاري.
(٣) آل عمران: ١٣٩.

ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ}(١).

كماوصف المؤمنين بقولـه:**{أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ}**(٢).

و جعل الله نفسه جل جلاله ولياً للمؤمنين ونصيراً ومؤيداً لا يستعينون إلا به ولا يتمسكون إلا بحبله ولا يخافون إلا منه، ولا يحسبون حساباً لغيره..

إن هذه الشخصية المتماسكة المتينة القوية هي صفة ثابتة وأكيدة في المسلمين جميعاً، ذكوراً وإناثاً.. لذا فإن المسلمة لا تقل عن شقيقها المسلم في شخصيتها القوية وتمسكها بموقفها الذي تؤمن به وتتحمل في سبيله المشاق..

و كم حدثتنا السيرة النبوية عن نساء وقفن بشموخ أمام طغيان القرشيين ورفضن الانصياع لمطالبهم، فتعذبهن عذاباً شديداً وأفضى بعضهن إلى الاستشهاد في سبيل الله......

وأنت يا أختي المسلمة تذكرين أسماء بنت أبى بكر وسمية أم عمار بن ياسر الشهيدة وصبر السيدة خديجة على ما فعله الكفار بزوجها ﷺ، هؤلاء النسوة مثلك أرادت تربية القبيلة العربية أن تعلمهن على الخنوع والطاعة العمياء في الخطأ والصواب، كمال تفعل القبيلة العربية اليوم أيضاً بتربية البنات المسلمات على الذل والخنوع والاستكانة والطاعة العمياء لكل من يملك أو لا يملك عليها حق الطاعة، ناسين أن هذه المرأة المسلمة هي التي أمرها الله عز وجل أن تكون عزيزة، وطلب منها أن تكون ذات شخصية قوية لا تستسلم للضغوط ولا تنهار أمام المغريات..

أختي المسلمة:

أرأيت كيف يحرص الإسلام على بناء شخصيتك بالعلم والثقة واليقين والتماسك ويحرص على أن تبذلي كل جهدك للحفاظ على هذه الشخصية بعيدة عن الذل والهوان ولا تستسلم لأية ضغوط وتحتمل في سبيل دينها ما لايستطيعه الرجال أحياناً، ويجب أن تكون كذلك لأنها المكلفة بنقل هذه الشخصية القوية إلى أبنائها الذين ستنجبهم وتربيهم على تعاليم العزة والكرامة وتنمي فيهم شخصيتهم القوية التي تقف في مواجهة الخصوم... وها نحن نردد مع الرسول ﷺ قوله: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»**

---

(١) آل عمران: ١١٢.

(٢) المائدة: ٥٤.

فهل تحبين أن تكوني أحب إلى الله؟

و هل تريدين أن يعتز زوجك بك وبمواقفك؟

و هل تتمنين أن يفتخر أبناؤك بأمهم القوية؟

إذن عليك أن تكوني قوية بما يكفي للوقوف في وجه الظلم ترفعي يدك معارضة، وتمارسي حقوقك كاملة واعلمي أنك لن تهني ولن تحزني وأنت من المؤمنين، من الأعلين، والله وليك يحميك ويقف معك ويرعى خطوك الواثق في طريق الإيمان..

الوصية الرابعة.. لا تنسي أن لك حقوقاً:

قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن لجسدك عليك حقاً، ولقلبك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط لكل ذي حقاً حقه**».. ما هلكت أمة إلا بعد أن نسى أبناؤها حقوقهم أو سكوتهم عنها.. هل يقف في وجه الظالم إلا من يعرف حقه المهضوم؟

الظلم والعدوان صفة بشرية سائدة في الناس، لهذا السبب توضع القوانين والشرائع لكي تحول بين الناس وبين الأعداء على الآخرين، فتعاقب المعتدي وتعيد الحق للمعتدي عليه، ولكن كيف يمكن للقانون أن يتدخل إذا لم يشك المعتدي عليه؟ وكيف سيعرف الناس أن هناك ظلماً إذا كان صاحب الحق لا يطالب بحقه ولا يهتم به؟ لقد وضع الإسلام قوانينه وأحكامه وشرائعه لتطبق ويحول دون اعتداء الناس على بعضهم البعض، وعلم المسلم أن لا يسكت عن حقه إذا حاول أحد أن يعتدي عليه، وعندما نظم العلاقة بين الرجل والمرأة جعل للرجل على المرأة حقوقاً يجب عليها أن تؤديها، لكنه في ذات الوقت جعل للمرأة على الرجل حقوقاً يجب على الرجل بدوره أن يؤديها، واعتبر التقصير من الطرفين في أداء الحقوق هذه اعتداء آثماً من أحدهما على الآخر، وعندما سادت التربية الحديثة اللاإسلامية في المجتمعات الإسلامية تركز وعي الناس على المطالبة بحقوق الرجل على المرأة وتوسيع هذه الحقوق لدرجة الاعتداء على حقوقها وشخصيتها، مما أدي إلى هضم حقوقها، فسكتت على مضض واستجارت بالله تدعوه ليل نهار ليخفف عنها ما هي فيه.. وكان لسان حالها يقول: "إنني لا أريد حقوقي ولكن خففوا عني هذا العبء الثقيل"، ولم تكن نساء الرعيل الأول يرضين هذا السكوت المهين، بل كانت إحداهن تقف في وجه زوجها أو أبيها أو أخيها إذا هضم حقاً من حقوقها..

وقد حدثتنا سيرة هؤلاء النسوة عن امرأة رفضت رأي أبيها في تزويجها من رجل لا تعرفه، وشكت إلى النبي عليه السلام ذلك فأنصفها، وأظنك تذكرين قصة المرأة التي اعترضت على عمر بن الخطاب حين أراد أن يحدد لهن المهور، وواجهته بقوة، مدافعة عن

حقوق النساء فقال عمر: أصابت المرأة وأخطأ عمر، ولكن كيف يمكنك أن تطالبي حقوقك وتدافعي عنها في وجه الأعداء والاستلاب إذا كنت لا تعرفينها؟

وكيف ستثبتين فى التمسك بها وأنت لا تعرفينها؟!!

اعلمي يا أختي المسلمة، إن الحقوق التي أعطيت للرجل لا تختلف كثيراً عن تلك التي أعطيت للمرأة، وإن الدرجة التي ذكرها القرآن الكريم بقوله:**{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}**(1).

لا تعدو اختلافاً في موضوعه الإنفاق عندما لا يكون لديك مال خاص بك، فإذا كان لك مال خاص وانتفى الإنفاق فإن هذه الدرجة لا تبقى وتصبحين مالكة لكل حقوق الرجل، ما عدا الإمامة الكبرى في رأي بعض الفقهاء، وهي مسألة خلافية لا داعي لذكر تفاصيلها هنا.. فإذا كنت تمتلكين إيماناً راسخاً والتزاماً قوياً وشخصية متماسكة، وتتسلحين بعلم طيب بأمور الدين والدنيا، وتعرفين حقوقك التي فرضها الله لك فلن يستطيع أحد أن يظلمك ولو حاول أن يفعل ذلك فعليك أن تقفي بحزم وتقولي: " لا " بملء فمك.. لأن الساكت عن حقه يفقده..

(١) البقرة: ٢٢٨.

أختي المسلمة.. أخي المسلم:

من أين سنأتي بالعدالة للناس ونحن نظلم أنفسنا وأقرب الناس إلينا؟ وكيف نطالب بتحقيق العدالة ونحن نمارس الظلم ضد أخواتنا وأمهاتنا وزوجاتنا ونحولهن إلى جواري بلا حقوق، ونعلمهن الذل والخضوع والمهانة؟!. وكيف يا أختي المسلمة ستعلمين أبناءك العزة والكرامة وأنت لا تستطيعين الدفاع عن حقوقك التي فرضها الله لك؟.. وأين شخصية المسلم القوية التي وصفها القرآن بقوله:**{أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}**[١].

الوصية الخامسة: لعلكم تعقلون

قال تعالى:**{أَفَلَم يَسيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا}** [٢].

وقال سبحانه:**{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}** [٣].

وجاء في الأثر:

خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال سبحانه: وعزتي وجلالي ما خلقت أفضل منك.

بين الإنسان والحيوان فرق واحد تنبثق عنه كافة الفروق. ألا وهو العقل. أعظم مخلوقات الله على الإطلاق. هو مناط العلم والتكليف والحساب. بدونه يصبح الإنسان حيواناً تسيره غرائزه الحيوانية وبه يتنقل الإنسان إلى المرتبة الأعلى بين مخلوقات الله، والعقل آلة المعرفة ومنشؤها ومبدلها ومطورها. وكبقية الأعضاء وضع الإسلام له قوانين وتشريعات وأنظمة تليق بمستواه وتضعه عند حدوده وتستفيد من كل طاقاته المخبوءة فيه، لذا فالعقل زينة الإنسان وهو دليله في البحث والعمل وسراجه في الظلمات ونجمته الهادية في عتمات الليالي الدهماء.

والمسلم الذي يوصله عقله على أسمى المعارف وأشرفها، ويدله على خالقه دلالة اليقين والاهتداء، يجعل من عقله هذا وسيلته للسير على الطريق القويم لأنه يعلم أن هذا العقل هو مناط التكليف وأن المسلم سوف يؤاخذ إذا لم يستخدم عقله استخداماً كاملاً ليصل به إلى النتائج المرجوة لزيادة الإيمان وتعميق اليقين. لذا قرن القرآن عملية التفكر في خلق الله بالنتيجة المحتومة وهي الإيمان وجعل هذه العملية دلالة العقل السليم وأنه ما لم

---

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) الحج: ٤٦.

(٣) يوسف: ٢.

يصل المرء إلى هذه النتيجة فهو لم يستخدم عقله بالشكل السليم........

قال تعالى:**{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}**(1).

إنهم أولو الألباب الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ويصلون إلى نتيجة واحدة هي: **{رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً}**.. إنه الإيمان بأن الله لا يخلق شيئاً عبثاً..

أيتها الأخت المسلمة:

أين أنت من هذا كله؟ أنت والرجل سواء فى التكليف، كلاكما مكلف بالتفكر والتدبر والوصول إلى هذه النتيجة اليقينية، لكي يتعمق الإيمان في أرواحكم ويتغلغل اليقين ويزداد القلب ثباتاً وتمكيناً فلا تهتز جدرانه ولا تنهار قواعده، أنت مكلفة كشقيقك الرجل، فاليقين يقين يحمله الجميع، رجلاً كان أو امرأة والإيمان إيمان يعتنقه الطرفان دون فروق لأن التكليف بعد ذلك تماماً يتساوى للطرفين. والحساب يوم الدين على هذه الأمور أيضاً للطرفين على حد سواء.

أختي المسلمة:

لا عمل بلا إيمان، كما أنه لا إيمان بلا عمل، وكلاهما - العمل والإيمان - لا يحصلان بدون العقل النير الموصل لليقين القوي، فاعملي على أن يكون عقلك مكتملاً ناضجاً فاعلاً متجهاً صوب الحقيقة والإيمان المثمر، وستجدين نفسك مع السباقات المقربات من الصحابيات المؤمنات اللواتي ما اتبعن الهدى إلابعد أن استقر في عقولهن وقلوبهن استقرار الجبال الرواسي، فليكن عقلك زينتك وحاديك إلى دروب الهدى واليقين..

---

(١) آل عمران: ١٩٠: ١٩١.

الأمة الوسط: دعامة الثقة بالنفس:

{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}(1) هو الشعار الذي يطرحه كل مسلم عارف لدينه يدرك مقومات الإسلام الحضارية.. ولكن هل يدرك كل المسلمين حقيقة هذا الشعار؟

منذ البداية يمكن القول أن الجهل والتخلف حال بين المسلم وبين قرآنه، ويعرف كثيرون أن غالبية المسلمين تقرأ (كنتم) بمعنى كان، فعل ماض لا بمعنى التحقيق والتأكيد الذي تعنيه الآية الكريمة بمعنى أنتم..

بعد هذا الاستهلال، يتوجب تحديد مفهوم الأمة وتخليصه مما علق به من شوائب. فلا أحد ينكر أن قطاعاً غير صغير من الأمة يفهم اللفظة بمعناها العرقي أو العنصري أو القومي، ولهذا جنح بعضهم إلى تجريد هذا المفهوم من محتواه الإسلامي، فالأمة المقصودة في الآية هي الأمة الإسلامية ولا أحد سواها، لأن معيار التفاضل الإسلامي أصلاً هو: لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

وتحديد مفهوم خير أمة على ضوء هذا المعيار ضروري، لأنه يحدد المنهج القويم في طرح مفهوم الأمة للناس، وقبل ذلك تحديد المحتوى الذي يترسخ في الوجدان.. وفي التاريخ القديم والحديث، أمثلة عدة على غلبة النزعة العرقية المتطرفة على مفهوم الأمة، ويوضح هذا التيار في بعض مراحل التاريخ الإسلامي، قول الشاعر المتنبي:

ونحن قوم لا توسط بيننا ::: لنا الصدر دون العالمين أو القبر

هذا المفهوم النازع إلى التطرف هو من أبرز الأمراض التي فتكت بشخصية المسلم في عهود الانحطاط؛ إذ انحرفت عن المفهوم الإسلامي الذي يحقق التوازن في شخصية الأمة وفي شخصية الفرد، ذلك التوازن الذي لا بد منه في كل إنجاز حضاري..

وهذا التوازن أكد عليه دستور المسلمين بوضوح**{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}**(2).

فإذا أردنا أن نستعمل المصطلحات القانونية قلنا: إن هذا المفهوم أمة وسط هو اللائحة التفسيرية للقاعدة الكبرى لأمة الإسلام**{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ}**.. ففي هذا التحديد لمفهوم الأمة وهي الأمة الوسط، أبعدت شخصية الأمة والفرد عن الاختلال الذي لا بد أن ينجم عن الانحراف أو الميل إلى هذا الجانب أو ذاك، كاعتبار عرق أو جنسية أو قومية خير من غيرها.

---

(1) آل عمران: ١١٠.

(2) البقرة: ١٤٣.

إذ أن هـذا المفهـوم يقـود إلى طريـق النازيـة والصـهيونية وكـل منهمـا ينظـر نظـرة عنصـرية متعصـبة إلى فئـة أو قـوم أو أمـة بغـض النظـر عـن القـيم الـتي تحملـها. فـالأولى تعـد العـرق الجرمـاني معيـارا للتفضـيل، والثانيـة تعـد معيـار التفضـيل العـرق الـذي يدعي لنفسه (شعب الله المختار) وهذه الصفات تطلق بمعزل عن القيم.

أمـا في الإسـلام فـلا فضـل لشـخص علـى آخـر إلا بـالتقوى وحـين قـال تعـالى: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ}** أتبعهـا بمعيارهـا الأخلاقـي ومضـمونها الفكـري **{تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ}**. وهـذه رسـالة أخلاقيـة إصـلاحية يجـب القيـام بهـا لتحقيـق الخـير والعـدل والحـق، ولكـن لـيس هـذا وحسـب، وإنمـا أيضـاً مـن واجـب هـذه الأمـة منـع الشـر في العـالم **{وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}**. وتحديـد هـذه الجوانـب لمفهـوم الأمـة ضـروري لبنـاء شخصـية المسـلم، لأن فقـدان كـثير مـن المسـلمين للثقـة بأنفسـهم وشخصـيتهم، وبالتـالي شخصـية الأمـة ككـل، نـابع بالدرجـة الأولى مـن جهـل مفهـوم الأمـة. فكـثير مـن النـاس يقول: كيف نقول إننا خير أمـة ونحـن علـى مـا نحـن عليـه مـن تخلـف وجهـل.. وأي خـير يرجى بعد الذي حل فينا؟

والجواب هـو أن **{خَيْرَ أُمَّةٍ}** لا يعـني الأمـة بمـا هـي عليـه مـن بعـد عـن الإسـلام وأخلاقيتـه بـل يعـني الأمـة الملتزمـة بمعيارهـا الأخلاقـي (الأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر) والمنطلقـة مـن حـدودها الإسـلامية وهـي حـدود (التوسـط) وعـد التطـرف في النظـر إلى الـذات تكـبراً في حالـة الثقـة أو اسـتخفافاً في حالـة انعـدام الثقـة بـالنفس، وكـذلك عـدم التطـرف في النظـر إلى الآخـرين وإلى الأمـم الأخـرى، احتقـاراً في حالـة العنجهيـة العرقيـة العنصـرية أو انبهـاراً في حالـة انعـدام الثقـة بـالنفس والتغـرب وفقـدان الهوية الفكرية والعقائدية.

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً} [البقـرة: ١٤٣] شـعار إسـلامي كـبير وعلـى درجة كبيرة من الأهميـة لأنـه حـين يطبـع الشخصـية بطابعـه، يحقـق لهـا التـوازن ويبعـدها عن الجنوح والتطـرف في كـل جوانـب النشـاط الإنسـاني. فـإذا قمنـا بعمليـة إسـقاط لهـذا الشـعار علـى أيـة فعاليـة، أي إذا جعلنـاه معيـاراً، فإنـه كفيـل لكشـف كـل العيـوب.. الجشـع مـثلاً، هـو تطـرف مرضـي في حـب المـال أو المبالغـة المفرطـة في الحصـول علـى الأشـياء. ولـو سـاد الحيـاة النفسـية مفهـوم (التوسـط) الإسـلامي الـذي يـرادف في هـذا المجـال (الاعتـدال) اسـتقامت المعادلـة وانتفـى الجشـع.. والأمـر نفسـه ينطبـق علـى الإجـرام الـذي شـاع المجتمعـات الغربيـة، والـذي (للأسـف) تم تسـريبه إلى الـبلاد العربيـة

عبر وسائل التثقيف المرئية والمسموعة، بغية تهديم المجتمعات الإسلامية من الداخل. وهذه محاولة تهديم واضح للإسلام، فالإجرام وما يرافقه من عنف واعتداء على الآخرين يقضي على الدعامة الإسلامية **{جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** [البقرة: ١٤٣] والتي بتهدمها يختل التوازن في الشخصية وفي المجتمع، وتسري فيه أمراض الغرب التي أفرزتها حضارة المادة أو حضارة الطين كما أسماها بعض المفكرين بمعنى الحضارة الملتصقة بالأرض وشقها الإنساني الجسد، بعيداً عن السماء وشقها الإنساني الروح.

{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} أي الأمة التي لا تلغي نصف الإنسان لحساب النصف الآخر، لا تلغي الروح لصالح الجسد، لأنه بدون لجامه وعقاله الروحي يتحول إلى قوة عمياء لا يقدر على إشباعها شيء، وهي نفسها تعود لتدمر ذاتها، والانتحار المرتفع النسبة في حضارة الغرب شاهد كبير.

ولكن بالمقابل، هل نجا المسلمون اليوم من هذه الأمراض، هل استطاع قادة الأمة تحصين فكرها من جراثيم الحضارة حين استوردوا منجزاتها المادية والعلمية.

أم أن الذي حدث هو العكس، أي أنه في مناطق وبلاد عدة لم تستورد منجزات العلم، ولم تستقدم معطيات التكنولوجيا، ولكن استوردت واستقدمت أمراض العنصرية النازية، ونزعة العنف الإجرامي، والانحلال الخلقي عبر المخدرات و... و...

إن مما يملأ القلب هما اليوم هو أن مسلمين كثير فقدوا الثقة بأنفسهم وأمتهم، وضاعت أو اختلت المفاهيم لديهم، ونجم عن هذا ليس الانسحاب من ساحة العمل العام لصالح الأمة والمجتمع فحسب. بل والتنازل عن القيم الروحية والأخلاقية على صعيد حياتهم الخاصة والعائلية. فهم لم يستطيعوا التوازن في حالة الوسط. ولكن في الوقت ذاته لا ينبغي لهم حرمان أنفسهم أو أسرهم من سلام اليقين والإيمان أو تنشئة جيل فاقد الجذور والهوية، وهي خطورة سيدركونها سريعاً لأن يافعا بلا جذر أخلاقي أو فكري أو ديني، سيكون فريسة إغراء أي طعم، المخدرات أم العنف أم.. إلخ.

وفي كل الحالات، في حالة الإقبال أم في حالة الإعراض، يصبح من الأولويات الثبات في الوسط، عملاً بالقاعدة القرآنية الناصحة بالتوسط والاعتدال، التي يوضحها قوله ﷺ : **«خير الأمور أوسطها..»**؛ لأن ذلك من مستلزمات ومواصفات الأمة التي من أول مهامها

الربانية{**لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**}(1).

* * * * *

(١) البقرة : ١٤٣.

المبحث الرابع عشر
من معالم شخصية المسلمة التي تميِّزها

شخصية ربَّانية{وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ}[1]:

لأنَّ صياغة هذه الشخصية وتكوينها تمت بهذه العقيدة الرَّبانية، وصُبِغت بتلك الشريعة الإيمانية التي مصدرها الربُّ سبحانه بجلاله وعظمته وكماله، صاحب الخلق والأمر في هذا الكون، وربّ كل من فيه وما فيه، الذي خلق الناس ذكرهم وأنثاهم، وهو أعلم بهم وبما ينفعهم ويرفعهم، وما يَصْلُح لهم ويُصْلِحهم**{أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}**[2].

وإنها شخصية متميزة بالعقيدة الإسلامية التي تؤمن بها، وتخالط شغاف قلبها، وتمتزج بأحاسيسها، فتعيش من أجلها، وتجعل حياتها وقفاً عليها، إذ لا حياة ذات قيمة بلا عقيدة سليمة.

هذه العقيدة تكون المسلمة بها ربَّانية لأنَّها تؤمن فيها بالله الموجود وجوداً مطلقاً ليس كوجود مخلوقاته، وأنه الرب الخالق المدِّبر المسير للكون، وبيده بقاء هذا الكون وزواله، المحيي، المميت، الرازق.. لا يشركه في ذلك أحد من خلقه..

وهو المألوه الذي يستحق العبادة وحده دون سواه، وهنا الارتباط بين الربوبية والألوهية، فمن كان رّباً خالقاً رازقاً محيياً مميتاً.. هو وحده الذي له الحق أن يأمر فيُطاع، يأمر الكون كله فيستجيب، ويأمر كائناته فلا تملك إلا أن تأتيه طوعاً أو كرهاً.

وينبغي أن يجيب البشر عندما يأمرهم مشرِّعاً لهم ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة**{أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}**[3].

إنَّ المسلمة تؤمن بملائكة الله الذين خلقهم سبحانه على هيئة خاصة تتجلى فيها عظمته وقدرته، وكلَّفهم بمهام تظهر من خلالها عناية الله بخلقه ورقابته عليهم، وتؤمن بكتب الله التي أنزلها على رسله فتدرك أنَّ الله لم يخلق عباده ويتركهم هملاً بل أرسل الرسل وأنزل الكتب إعانةً لهم على سلوك سبيل الهداية والثبات عليه على نور من الله، وتؤمن باليوم الآخر الذي يكون فيه بعث الخلائق من موتهم ومحاسبتهم ومجازاتهم إنْ خيراً فخير، وإنْ شرًّا فشر، حيث يحق الحق ويبطل الباطل، ويُنصف المظلوم ويُحاسب الظالم ويُكافأ المحسن

---

(١) آل عمران: ٧٩.

(٢) الملك: ١٤.

(٣) الأعراف: ٥٤.

ويُعاقب المسيء، ويُعوِّض المتضرِّر... ويكون الملك كله لله.. كما تـؤمن المسـلمة بقضـاء الله وقدره، وأنَّ كل شيء لا يخرج عن سلطان الله وملكوته، فتقبل بقضائه سبحانه، وترضى بما قدر فلا تجزع ولا تيأس ولا تحتج على ربها...

ويترتب على هـذا الإيمـان أن تكـون المسـلمة ذات شخصـية ربَّانيـة، أي متعلِّقـة بربهـا سبحانه، تنظر إلى الأمور كلها من خلال إيمانها بالله تعالى، لا تجعل إيمانها مجرَّداً بـارداً تحفـظ أركانه وتستظهر أدلته، لكنها لا تصبغ به حياتها، ولا تتذوَّق به طعم العبودية لله، وهي تسير في مُلكه عزّ وجل، وتتعامل مع عباده، وينزل عليها قدرُه...

ويترتب على هذه الشخصية الربانية أن:

- تشعر المسلمة بقدسية ما تؤمن به وتعتقده وتعمل به من أحكام.
- توقن بسلامة المنهج الذي تسير عليه، وعدم تطرق القصور أو النقص إليه.
- تجزم بوجوب الثبات علي المبادئ والقيم، لأنّها ربّانية ثابتة.
- تطمئن إلى أحكام الله الكونية والشـرعية، لأنّهـا تجـد في نفسـها الاحـترام والقبـول والطاعة والانقياد التام لتلك الأحكام لأنّها ربّانية معصومة.
- تعتقد أنّ أحكام الله هي الأعدل والأكمل والأوفـى بتحقيـق كُـلِّ خـير، ودرء كُـلِّ شر، وإقامة الحق وإبطال الباطل وقطع دابر الفساد.
- تعمل بتلك الأحكام باقتناعٍ تام لا يتطرق إليه تشكيك المغرضين.
- تشعر برقابة الله عليها واطّلاعه عليها في العمل بما أوجبه عليهـا واجتنـاب مـا نهـاه عنها، فيكون لديها الوازع النفسي الذاتي فتخلص لله في عملها وعباداتها.
- تسارع في الخيرات، وتتراجع عن المحرمات، وتحاسب نفسها وتسـعى للـتخلص مـن تبعات التقصير أو المعصية..
- تستقي أحكامها على الأمور كلها من هدي الإسلام وشريعته، وتأخـذ نفسـها بعـد هذا بما تدين به لله في أعمالها وشؤون حياتها.

ثانياً: شخصية قرآنيّة في أخلاقها وسلوكها:

كان خلقه القرآن[1] المراد أن شخصيّة المرأة المسلمة التي تميِّزها عن غيرها شخصية تأخذ

---

(١) هذا ما وصفت عائشة رضي الله عنها به خُلُق رسول الله ، انظر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري - جامع البيان في تأويل آي القرآن، المشهور بتفسير الطبري ٢٩/ ١٨.

أخلاقها من القرآن، تكون المُثل التي تحتذيها مُثُلاً إسلامية، والفضائل التي تتحلّى بها أخلاقاً قرآنيّة.

وقد عرّف الإمام الغزالي الخُلُق – الذي يُجمع على (أخلاق) – بأنه: عبارة عن هيئةٍ في النفس راسخة، عنها تصدُرُ الأفعالُ بسهولةٍ ويُسرٍ من غير حاجة إلى فكر ورويّة(١).

فأفعال الإنسان إذن موصولة دائماً بما في نفسه من معان وصفاتٍ، صلة فروع الشجرة بأصولها المغيّبة في التراب، ومعنى ذلك أنّ صلاحَ أفعال الإنسان بصلاح أخلاقه، لأنّ الفرع بأصله، إذا صلح الأصل صلح الفرع، وإذا فسد الأصلَ فسد الفرع**{وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً}**(٢).

إنّ المرأة المسلمة تتميز بأخلاق تنبع من القرآن، كل محاسن الأخلاق التي دعا إليها القرآن هي معنيّةٌ بها، ومن ذلك مثلاً:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}**(٣).

{وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}(٤).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}(٥).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ...}(٦).

{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}(٧).

---

(١) أبو حامد الغزالي – إحياء علوم الدين ٣/ ٤٦.
(٢) الأعراف: ٥٨.
(٣) الحجرات: ١١، ١٢.
(٤) آل عمران: ١٣٣، ١٣٤.
(٥) التوبة: ١١٩.
(٦) النور: ٢٧، ٢٨.
(٧) النور: ٣١.

{وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً}(1).

{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً}(2).

{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}(3).

وفي الواقع إنّ القرآن قد تحدث عن كثير من الأخلاق التي يجب الأخذ بها، والعديد من الفضائل التي ينبغي على المسلم والمسلمة التحلي بها، ممّا لا مجال لحصره هنا، ذلكم أنّ دائرة الأخلاق الإسلامية واسعةٌ جداً، فهي تشمل جميع أفعال الإنسان الخاصة بنفسه أو المتعلقة بغيره، سواءٌ أكان الغيرُ فرداً أو جماعةً أو دولة، فلا يخرُج شيء عن دائرة الأخلاق، ولزوم مراعاة الأخلاق ممّا لا نجد له نظيرا في أيّ شريعةٍ سماويةٍ سابقةٍ ولا في أيّ شريعةٍ وضعيّة(4).

ويتضح جليّاً من خلال النصوص أنّ الأخلاق لها مكانتها العظيمة في الدين، حيث يقول الرسول الكريم ﷺ : **«إنّما بُعِثْتُ لأتِّمم مكارم الأخلاق»** (5).

ويقول: **«إنّ أحبّكم إليَّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»** (6) وفي حديث آخر نفى الإيمان عمّن تجرّد من الأخلاق: **«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»**(7).

وكذلك قال ﷺ : **«والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»** قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: **«الذي لا يأمنُ جارُه بوائقه»** (8) أي لا يجتمع خُلقٌ رديء من الإيمان.

إنّ المرأة المسلمة التي تحدثنا عن ربّانيّة شخصيتها لا يمكن أن تنفصل أخلاقها عن إيمانها، بل إنّ أخلاقها رشحٌ لذلك الإيمان وعطرٌ يفوح لينبئ عنه، إنّها تتميز على غيرها لهذه الشخصيّة التي تحمل في طياتها وبين جوانحها كل خُلقٍ طيّب وكل فضيلة محمودة.

فلا تفعل إلاّ خيراً لنفسها وللآخرين، وأينما وُضعت ظهرت آثارها وثمارها الطيبة إصلاحاً بين الناس وبذلاً للمروءة لهم، مَنْ تعرفهم ومن لا تعرفهم، سماحة وكرم وإحسان

---

(1) الإسراء: ٣٤.
(2) الإسراء: ٢٦، ٢٧.
(3) المائدة: ٨.
(4) عبد الكريم زيدان - أصول الدعوة (مرجع سابق) ص ٨٩، ٩٠.
(5) البيهقي - السنن الكبرى ١٠/ ١٩١.
(6) الترمذي - السنن ٤/ ٣٧٠.
(7) صحيح ابن حبان ١/ ٤٢٢ رقم ١٩٤.
(8) الجامع الصحيح ٥/ ٢٢٤٠ رقم (٥٦٧٠).

ونبل وشهامة ورحمة ومودة ومؤازرة...

ثم صبر وجلَد وتحمُّل وأناة ورفق وإقدام وثبات وتواصل... وعطاء بلا انقطاع...

قولٌ طيّب، ولسان ذاكر، وكلمةٌ لا تحمل إلا الخير، كالبلسم على الجراح وكالماء على النار.

ما دامت هذه المسلمة مرتبطة بالقرآن وبأخلاق القرآن فإنك تستطيع أن تميز شخصيتها من بين الكثيرات إذا رأيت فِعالها أو سمعت أقوالها فتعلم أنّها لا يمكن إلا أن تكون مسلمة لأنّ أخلاقها قرآنيّة.

ثالثاً: شخصيّة فعّالة مؤثرة: إنّ شخصيّة المرأة المسلمة شخصيّةٌ تؤثّر في غيرها بما فيها من خير وبما لديها من قدرات إيمانيّة وحكم قرآنيّة...

إنّها إيجابيّة، كحامل المسك الذي لا بد وأنْ يستفيد منه من اقترب منه أو جالسه، فهو إمّا أن يعطيك شيئاً من طيبٍ وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، وكذلك المسلمة في شخصيتها مؤثرة فعَّالة، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتتعاون على البر والتقوى...

وهي في ذات الوقت لا تتأثر لغيرها إلا بما فيه خير لأنَّ الحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أولى الناس بها...

إنّها ذات شخصيّةٍ لا تتأثر بالعادات والتقاليد الفاسدة التي تفرض وجودها بالانتشار في بعض المجتمعات فتجاري أحوال الناس في فسادهم، ولا تعيش في مجتمعات غير إسلاميّة لمقاصد سليمة ثم لا تلبث طويلاً حتى تنخرط في سلكها وتتقبّل أوضاع حياتها التي تتنافى مع عقيدتها أو دينها...، لأنّها حينئذٍ تكون قد تهاونت في مقومّات شخصيتها المسلمة وأهدرت مُثلها.

كل ذلك لأنّها صاحبة رسالة في هذه الحياة، وهي رسالة عظيمة لا يمكن للمسلمة أن تّطلع بنشرها إلا إنْ كانت نشَطة راغبةً في العطاء، غير خاضعة للضغوط الاجتماعية التي تجعلها متهاونةً في شيء من قيمها[1]، إنها شخصيّة تعتز بمقوّماتها مِن غير تكبُّر، وتشعر بقوة الحق الذي تدين به من غير استعلاء على الآخرين وازدراء لهم وتسفيه للقيم، لا تلين ولا تضعف ولا تذوب في أيٍّ بيئةٍ تعيش فيها أو مجتمعٍ يضمّها، بل تجد من إيمانها القويّ ما يحملها على مقاومة التيارات الفكرية والانحلال الخُلُقي والفساد الاجتماعي [2].

رابعاً: شخصيّةٌ واقعيّةٌ معتدلة:

إن المثل العليا التي تؤمن بها المرأة المسلمة وتسعى لتتمثّلها واقعاً في حياتها اعتقاداً وعبادةً

---

(١) مناع خليل القطان - الشخصية المتميزة للمسلم ص ١٧٥ - ١٧٧.

(٢) مناع القطان - المرجع نفسه ص ١٧٥ - ١٧٧.

وسلوكاً ومعاملة لا تمنع من أن تكون شخصيّتها تلاحظ وتراعي الواقع الذي تعيش فيه...

إنها شخصيّة لا تسبح في بحار الخيال أو تحلّق في أجـواء المثاليّـة المجنّحـة فتتصـور شـكلاً لشخصية لا وجود لها...

ذلكم أنّ شريعة الله شُرعت للإنسان كما هو، كما خلقه الله، بجسمِهِ الأرضـي وروحـه السماوي، بأشواقه الصّاعدة، وغرائـزه الهابطـة، بدوافعـه الفرديّـة ونزعتـه الغيريـة: بعوامـل الفجور، وبواعث التقوى تصطرع في نفسه[(١)] **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}**[(٢)].

لذلك فإنّ شخصيّة المرأة المسلمة توائم بين مطالب الشرع ومطالب الحياة الـدنيا، وبـين مطالب الروح والمادة، والفرد والجماعة...

لا تُفرط في التفاؤل، ولا تبالغ في الأماني والتطلعات، بل تكون معتدلة، لا يثبطهـا عـن السعي في طلب المعاني إخفاقٌ عارض أو حادثٌ غير متوقع...

إنهـا لا تتوقـع أو تطلـب مـن الآخـرين مـا لا تقـدر عليـه هـي نفسـها، ولا تنظـر إلى شخصيات أخواتها على أنهنّ نسخة منها، بل القدرات متفاوتة، والإيمان يزيد.

---

(١) القرضاوي: مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ص ١١٩.

(٢) الشمس: ٧ - ١٠.

أهم التوصيــات:

أولاً: معالم شخصيّة المرأة المسلمة هي مقوماتها وأبرز مفرداتها التي صاغها الإسلام، وتتحكم في تشكيل سلوك المرأة المسلمة، وهي تتمثل في العقيدة والقيم والأخلاق التي يدعو إليها الإسلام.

ثانياً: يدعو الإسلام المرأة المسلمة لتكون ذات شخصية ربانية قرآنيّة متميزة تميزاً يدعو الأخريات للاقتداء بها، ويجعلها ثابتة على مبادئها معتزة بها.

ثالثاً: شخصية المسلمة المتميزة تكون بالإيمان بالله، وطاعته فيما أمر، وترك ما نهى عنه وزجر، والسير على طريق الصالحات من النساء المؤمنات.

رابعاً: الأخلاق والسلوك مكوِّنان من مكونات هذه الشخصية المتميزة للمسلمة، وهما في نفس الوقت ثمرة ذلك الإيمان بالله وطاعته.

خامساً: المسلمة تتميز بكونها صالحةً في نفسها مُصلحةً لغيرها، إيجابية وليست سلبية لأنها تحب للآخرين ما تحب لنفسها، وتتعاون على البر والتقوى، فهي فعّالة مؤثرة.

سادساً: المسلمة كذلك واقعية، ليست حالمة، لأنها تدين بهذه الشريعة التي تخاطب الإنسان وتعترف بقصوره وتلتمس له العذر، وتراعي ظروفه الاضطرارية وأحواله الاستثنائية فتشرع لها أحكاما تناسبها.

سابعاً: إنّ شخصية المسلمة من معالمها الواضحة تجعلنا نطمئن إلى ثباتها على منهجها التي تسير عليه وقناعتها به، وعدم انخداعها بالمؤثرات السالبة، وانجرافها وراء الدعوات المشبوهة، بل هي داعيّة إلى ما ذاقت حلاوته من إيمان، وطريقٍ قويمٍ سارت عليه وشعرت فيه بالأمان.

أولاً: على المؤسسات التعليمية والتربوية والدعوية في بلاد المسلمين العناية بتوضيح معالم شخصيّة المرأة المسلمة وتميزها، وأنّ تسعى لتحقيق تلك الشخص وينقص، وأهله ليسوا على منزلة واحدة..

نوصي الجهات ذات الصلة بالمرأة بإعداد البرامج المحكمة المتقنة التي تحقق العناية والرعاية المتكاملة للمرأة في مراحلها المختلفة، بعيداً عن الأنشطة المشبوهة للجمعيات التي تعمل على هدم كيان المرأة وقيمها تحت ستار العناية بها والدفاع عن حقوقها.

ثالثاً: على المؤسسات الحكوميّة المعنيّة بالتربيّة والدعوة والإرشاد تبنّي مؤتمرات دوريّة للمرأة المسلمة بما يحافظ على مكونات شخصيتها ويراعي خصوصياتها ويؤهلها لمواكبة المستجدات التي تهمها.

رابعاً: على المنظمات المهتمة بالدعوة تنظيم الدعوة بأن تجعل من أولوياتها تنفيذ برامج

دعوية تربوية معدة بواسطة خبراء من أهل العلم والاختصاص توجّه للفتاة المسلمة منذ مراحلها الأولى، بحيث تكون متواصلة متتابعة غير منقطعة، لتحقق في النهاية الصياغة المتكاملة لشخصية المرأة المسلمة القوية.

خامساً: أهمية العناية برصد وجمع وتصنيف نتائج وتوصيات البحوث والمؤتمرات والندوات التي تُعقد بشأن المرأة، بجانبيها الإيجابي والسّلبي، للاستفادة من الإيجابي منها ومحاولة تطبيقه، والسّلبي بالانتباه لمكايد العدو وتجنُّب الوقوع في حبائله.

* * * * *

الفصل الثانى

الشخصية الإيجابية المسلمة

المبحث الأول

مقومات الشخصية الإيجابية المسلمة

١- الاقتناع أولا بأنك صاحب رسالة:

الفاعلية حركة، والحركة تحتاج إلى وقود يعطى النفوس دفعاً إلى الأمام، وقوة نحو العمل والإنتاج، وبما أن الارتفاع إلى مستوى الشهادة لا يكون إلا بفاعلية – أى بمساهمة كل فرد فى المجتمع بنصيبه فى البناء – فإن البحث عن الوقود الضرورى لها هو من أهم الغايات التى تسعى نحوها جميع الحركات السائرة فى طريق التحضر.

وإذا بحثنا عن هذا الوقود الضرورى للفاعلية فى جميع الحضارات التى عرفتها البشرية، فإننا سنجده فى ذلك الإشعاع الروحى الذى يدخل النفوس فسيحولها من نفوس حائرة كاسدة، إلى نفوس مؤمنة متحركة، تعرف طريقها، وتسعى بوعى لأداء رسالتها الحضارية فى الحياة.

والحضارة الإسلامية أنموذج واضح لدور القيم الإيمانية فى تغيير النفوس، وبناء الحضارات، فحين مست شرارة الروح أولئك العرب البسطاء حولتهم من بدو متناحرين إلى دعاة إسلاميين، يحملون رسالة الخير والعدل لإنقاذ البشرية الضالة، وقد استطاعوا فى فترة قصيرة أن يكونوا حضارة متميزة فى مستواها الدينى والدنيوى.

ولم يكن الإيمان فى حس المسلمين الأوائل الذين صنعوا الحضارة فكرة نظرية، أو عقيدة لاهوتية، أو دعوة انعزالية، أو ثقافة ترفيه – بل كان رسالة تغييرية، وفكرة واقعية، ودعوة حضارية لها دور تريد تجسيده فى الواقع، وبهذا الفهم يصنع التاريخ، وتبنى الحضارات، وهو فهم غائب عن كثير من المسلمين فى واقعنا المعاصر.

إن المسلمين اليوم لا ينقصهم منطق الإيمان كعقيدة فردية ليس لها أى بعد اجتماعى، ولكن ينقصهم الحياة، والحركة أى أن يتحول هذا الإيمان إلى رسالة تغييرية فى الحياة، ويمكننا أن نقول أن شروط الإقناع لم تتحقق بكاملها عندهم، أى أن هناك خللاً فى عملية الإقناع بالرسالة الاجتماعية للإيمان لدى الغالبية العظمى منهم.

إننا نرى أن المسلمين اليوم لم يحققوا شروط الإقناع الكامل برسالة الإيمان الاجتماعية والحضارية، لأن الاقتناع عملية نفسية تشارك فيها جميع قوى النفس، ولا يمكن فى هذه العملية أن نفصل بين العقل والعاطفة، لأن إرضاء أحدهما لا يعنى بالضرورة رضا الآخر، فقد يميل العقل إلى حجة أو برهان فى حين تجد

العاطفة مضطربة غير مطمئنة لذلك الموقف.

فالمسلمون يدركون بالعقل أن الإيمان ضرورة حياتية، ولكنهم فى الوقت نفسه يشبعون جانب العاطفة والضمير بفكرة أن الإيمان رسالة اجتماعية، وذلك راجع إلى سيطرة الغرائز على الأفكار، ومن هنا لم يتحول اقتناعهم الناقص إلى إرادة وعمل، ويمكننا فى هذه الحال أن نشبههم بحالة الإنسان المدخن الذى تجده مقتنعاً بعقله بضرر التدخين، ومع ذلك لا يستطيع تركه والإقلاع عنه لسيطرة قوى العاطفة عليه بتسجيلها الإحساس باللذة، ولهذا كانت عملية الإقناع ناقصة لوجود الموانع كالشهوة وغيرها.

إن الاقتناع هو امتزاج الأمر الشرعى بالعقول والقلوب، بحيث يتحول هذا الاقتناع مباشرة إلى إرادة وعمل، وأى خلل فى هذه العملية سيعطل الإرادة، ويفقد العمل، وهذا الاقتناع ضرورى للمسلمين فى هذا العصر، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولأن الفكرة الكامنة فى النفوس إذا لم تتحول إلى رسالة متحركة فى الحياة، فهى كالماء المخزون فى سنام البعير.

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ ::: والماء فوق ظهورها محمول

ويقول مالك بن نبى – رحمه الله: إن المسلم لا يستطيع أن يقوم برسالته فى الثلث الأخير من القرن العشرين إلا إذا حقق كمنطق خاص لرسالته كل شروط الاقتناع، وكل شروط الإقناع.

وهو يقصد بشروط الاقتناع، أن يقتنع المسلم بأنه له رسالة يجب أن يقدمها للآخرين، ولا يكون ذلك إلا بتغيير فى داخله، وفى أغوار نفسه، وحوله فى محيطه الخاص أو فى محيطه العالمى.

وإن المسلم الذى يكره الموت ويحب الدنيا – كما جاء فى حديث القصعة – وهو مسلم انحرف عن مسار الرسالة التى خلق من أجلها، وهو عاجز عن أداء دوره الاجتماعى، واستحق بذلك وصف (الغثائية) ووصم (الوهن).

وإنه لا سبيل إلى الحياة عاملة نشيطة إلا بعودة الشعور الحركى للمسلم، الشعور الذى يرفعه من مستوى (الأنا) إلى مستوى (النحن)، والذى يمنحه الوقود اللازم للانطلاق نحو كسب احترام الآخرين له بما يؤدى من عمل، وبما يزرع من خير، وبما يقدم من جهد، وهذا هو دورالشهادة على الناس الذى ينتظره منه كل الناس.

إن المسلم اليوم فى حاجة ماسة إلى الاقتناع برسالته وبدوره الحضارى، وهذا الاقتناع الذى سيمنحه وقوداً لأداء وظيفته بفاعلية وثبات، وسيكون بذلك وارثاً للنبوة، وداعياً إلى الوسطية والعدل، ومنقذاً للبشرية التائهة، ومنفذاً لأمر الرسول الكريم ﷺ : **«لتأمرن**

بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم قوماً ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» (١).

٢ – عالمية الإسلام:

الإسلام هو مجموعة من المبادئ والقيم الروحية التى جاءت لتزود البشرية بمبررات جديدة، لتحيا حياة حقيقية وفق منهج إلهي شامل **{(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}** (٢)، **{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا}** (٣)، فهذه الروح الموحى بها والتى لا قوام للجسد إلا بها، ما هى إلا تلك المبررات التى تعطى للإنسان قيمته الاجتماعية، وتحوله من إنسان ضال إلى إنسان يسير على هدى وبصيرة: **{وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى}** (٤).

والمتأمل فى القرآن الكريم يدرك أنه دعوة عالمية محدودة التكاليف يسيرة الرسالة، وإنما كثرت سوره، واستبحرت آياته لكى يتسنى عرض الحقائق الدينية فى أسلوب عامر بالإقناع، فياض بالأدلة، ولأنه يريد أن يهدم الأسس الفكرية للمناهج الباطلة، ويبنى النفوس بناءً نفسياً قائماً على مبررات جديدة، فيها كل مقومات العمل الإيجابية.

وكذلك جاءت السنة النبوية لتزود المسلم بمبررات وجوده ولتذكره دائما بدوره ورسالته فى الحياة يقول الرسول ﷺ لأحد الصحابة: **«لئن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»**.

ويقول محمد المبارك: إن الله أمرنا ألا نرضى بالظلم والفساد، والشرك والجهل والتغيير، بل محاربة هذه الظاهرات الاجتماعية لإحلال العدل والفضيلة والإيمان والعلم محلها، وما يصاب به الإنسان من مرض أو هلاك نفس أو مال، عليه أن يدفعه عن نفسه وهذه المفاهيم الإسلامية هى التى تحدد مركز المسلم فى هذا العالم المتصارع، كشاهد على الناس فى فكره وسلوكه، بما لديه من قيم حضارية، فيها الخير والسعادة للآخرين.

ومرت الأمة الإسلامية – بعد عصرها الذهبى – بظروف اجتماعية وسياسية ونفسية سيطرت فيها الغرائز والأهواء، وسادت فيها العصبية والشحناء، حتى تكالبت عليها الأمم، وطمع فيها الأعداء، وظهر هذا الانحراف بشكل واضح فى طبقة القائمين على أمور

---

(١) سنن الترمذي.
(٢) الأنفال: ٢٤.
(٣) الشورى: ٥٢.
(٤) الضحى: ٧.

المسلمين، حتى قال فيهم ابن الأثير قولته المشهورة: كانوا كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، وهذا الوضع الذى وصلت إليه الأمة بعد فقدها للمبررات التى كانت تمنحها الحركة، والحياة فى أول أمرها، جعل الدعاة المصلحين والمجددين ينهضون بعزم وثبات لإعادة الأمة إلى وضعها الطبيعى، ولتغيير تلك المبررات المفقودة بأخرى جديدة، مثلما يجدد العود حياته بعد يبسه، ومثلما يغير الفجر ثوبه بعد غسله.

وما الصحوة الإسلامية التى شهدها العالم الإسلامى كله إلا ثورة لإعادة تلك المبررات المفقودة إلى الأمة، وبناء الجيل الجديد بناءً نفسياً يتجاوز كل العقبات والمعوقات للسعى نحو إعادة المشروع الإسلامى الكبير، واستئناف الحياة الإسلامية من جديد، وما زالت الجهود المقدمة لا تصل إلى مستوى الطموح الذى تسعى إليه الصحوة، وهو أن يحمل كل مسلم هم تبليغ رسالته، والارتفاع بسلوكه إلى مستوى الحضارة.

إن على المسلم اليوم أن يشعر بأنه يملك شيئاً يمكن أن يقدمه للآخرين، وبخاصة فى هذا العصر، الذى تتصارع فيه الأفكار والثقافات، وأصبح لزاماً على كل شعب أن يقدم ما يملك من إمكانيات حتى يعلم حظه بين الشعوب.

ودور المسلم يتمثل فى تحقيق الممارسة التطبيقية والسلوك العملى للآية الكريمة**{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ}**[(1)]، فإذا ما تحقق هذا المبدأ فى سلوكه فإنه سيوفر لرسالته شروط الفاعلية والنشاط، وسيجلب احترام الآخرين لـه بما لديه من قيم شرعية.

إن الفاعلية تكون أقوى فى الوسط الذى ينتج أقوى الدوافع، وأقوم التوجيهات، وأنشط الحركات وهى نتيجة طبيعية للمبررات التى تدفع المسلم نحو العمل، وتحرره من القيود التى تشل تفكيره وحركته، وإنه لا سبيل أمام المسلم اليوم إذا أراد أن يمارس دور الشهادة على الناس، فى هذا العصر الذى تتهاوى فيه القيم والأخلاق، إلا العودة إلى ينابيع الوحى ليغرف منها مادة الحياة، ويمزجها بشعوره وفكره، ثم ينطلق إلى الواقع ليعمل بيده، وقلبه، وفكره، ليصنع تاريخاً مشرفاً فيه إرضاء لله ورسوله، وللأجيال القادمة من بعده.

ومسؤولية هذه الأزمة الحضارية التى تعانى منها الأمة الإسلامية اليوم تقع على عاتق كل مسلم يؤمن برسالته فى الحياة، وبخاصة ذلك المسلم الذى تهيأ نفسياً وعملياً لقيادة

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

الأمة، وتوجيه الطاقات، وتفجير القدرات، وهو الدور الغائب فى واقعنا المعاصر.

٣- النظرة الإيجابية فى الحياة:

النظرة الإيجابية فى الحياة هى التى تحدد موقف المسلم تجاه الأشياء، وهى التى تحدد أيضا مكانته وقيمته الاجتماعية فى الحياة؛ لأنها سبب فى العمل، وعامل فى الفاعلية والعزم، وهى فى حقيقتها تجسيد لمبدأ التوكل على الله الذى يربط فيه المسلم بين الثقة بقدر الله، وبين الأخذ بالأسباب التى نصبها الله لعباده.

يقول ابن قيم الجوزية – رحمه الله –: من تمام التوكل استعمال الأسباب التى نصبها الله لمسبباتها قدراً وشرعاً، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه أكمل الخلق توكلاً، وإنما كانوا يلقون عدوهم وهم متحصنون بأنواع السلاح، ودخل رسول الله ﷺ مكة والبيضة على رأسه، وقد أنزل الله عليه**{وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}**[1] والمسلم اليوم؛ إما أنه يخطئ فى فهم التوكل على الله، فيركن إلى التواكل، ويترك العمل بالأسباب، وإما أنه يعمل بالأسباب ولكن بمنهج خاطئ، وذلك حي، ينظر إلى الأشياء بنظرة فيها تساهل وغباء مما يقود مالك بن نبى – رحمه الله: نحن ننظر إلى الأشياء على أنها (سهلة) وهو قائد ولا شك إلى نشاط أعمى، وإما أن يأخذ النظرة إليها على أنها (مستحيلة) فيصاب النشاط بالشلل، فالنظرة إلى الأشياء عند المسلم ينبغى أن تتسم بالإيجابية التى لا تعرف إفراطاً ولا تفريطاً، ومثل هذه النظرة المعتدلة ستمكنه من التفاعل مع الواقع بثقة وحزم، وفاعلية وعزم، وأن عليه تقديم العمل الصائب ليحصل على أحسن النتائج، أما إذا تخلفت النتائج فسيكون مطمئناً راضياً بقضاء الله وقدره.

ولنا فى القرآن الكريم نماذج حية لمواقف المؤمنين الإيجابية تجاه الأشياء، فمن ذلك قصة (ذى القرنين) ذلك الرجل الذى طاف مشارق الأرض ومغاربها ناشراً للعدل والفضيلة، قامعاً للظلم والرذيلة وهو يمثل أنموذجاً رائعاً للمسلم الفعال الذى لا يعرف عجزاً ولا جبناً، وانظر معى إلى موقفه الإيجابى تجاه المشكلات التى واجهته، قال تعالى:**{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ***

(١) المائدة: ٦٧.

فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً}[(١)].

إن موقف (ذى القرنين) متسم – كما هو ملاحظ – بالإيجابية فى التعامل مع هذه المشكلة وتظهر الإيجابية أولا فى التوكل على الله**{قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ}** ثم فى الأخذ بالأسباب**{آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ}**، ثم فى الاستعانة بالسنن**{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً}**، وهذا الموقف الإيجابى هو الذى حقق تلك النتائج العظيمة، التى لم يحققها فاتح فى تاريخ البشرية.

إننا لم نلاحظ فى موقف هذا العبد الصالح أى نوع من أنواع التبرير أو السلبية أو العجز، فهو لم يلجأ إلى الدعاء مثلاً لتبرير عجزه، ولتخليص هؤلاء الكسالى من بغى يأجوج ومأجوج، وهو أيضا لم يعتمد على منطق الاستحالة لرد عدوان هؤلاء المفسدين، بل انطلق لحل الأزمة معتمداً على الله ثم على ما بين يديه من وسائل بشرية. وهناك قضية أخرى تتعلق بموقف المسلم تجاه الأشياء، وهى أن بعض المسلمين يعتقدون أن العمل الناجح لا يؤدى بالضرورة إلى النتائج المرجوة، وهذه النظرة قد تؤدى بهم إلى تقديم العمل دون فاعلية كافية لأنهم لا ينتظرون نتيجة إيجابية لجهدهم المقدم. يقول جودت سعيد: إن اعتقاد المسلمين بأن النجاح ليس نتيجة حتمية للسعى الصالح هو من أشد المعوقات التى تمنع المسلمين من مراجعة أعمالهم ونقدها، لأنهم لا يفرضون فيها الخطأ بل يفرضون أنها كانت صائبة ولكن لم تأت النتيجة لأمر إرادة الله ولا ينبغى أن نخلط هنا بين من يعتقد بأنه يملك العمل ولا يملك النتائج، وبين من يعمل أى عمل دون مراعاة شروط الصواب، ثم يقول: إن النتائج بيد الله، ويحمله تعالى تبعة أخطائه.

إن على المسلمين اليوم إذا أرادوا أن يزيلوا عنهم وصف الغثائية – وهم بهذا الكم الهائل – أن ينطلقوا إلى الحياة بأفق حضارى واسع، ويخلعوا عنهم لباس الوهن، وينظروا إلى الواقع نظرة إيجابية تبعد كل دواعى اليأس والقنوط ثم ليوقنوا بأن نصر الله لن يتخلف عنهم إذا هم حققوا النصر على أنفسهم و**{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}**[(٢)].

وهذه النظرة الإيجابية من شأنها تزويد المسلمين بالطاقة والفاعلية؛ لأنها جزء من الإيمان، هذا الإيمان الذى لا يمس قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الإيمان، لا يراعى فى ذلك عذراً ولا تعللا، وكل اعتذار فى القعود عن نصرة الله

(١) الكهف: ٨١ – ٨٩.

(٢) الرعد: ١١.

فهو آية النفاق، وعلامة البعد عن الله.

٤- التوتر والحماس الذاتى:

التوتر هو نوع من الحيوية الدافعة التى تميز أى مجتمع فى بداية حضارته، وتستمر معه هذه الحالة طيلة رحلته الحضارية، وهو أيضا حماس ذاتى يدب فى المجتمع فينطلق جميع أفراده لإنقاذ أنفسهم، وتحقيق وجودهم، وتطوير مجتمعهم.

ويرى مالك بن نبى – رحمه الله – أن التوتر الذى يمد المجتمع بالفاعلية ما هو إلا حالة نفسية يمكن أن نسميها قلقا، وليس المقصود هنا الحالة النفسية المرضية، وإنما هو حالة صحية لأنه علامة الحياة الأولى، وعلامة الولادة الجديدة، فإن الطفل يستبشر أهله بولادته ولادة سليمة حينما يبكى، يقول – رحمه الله –: نحن إذ يعترينا القلق فى حياتنا نشعر بأنا قد ولدنا ولادة جديدة، فقد عشنا قرونا طويلة لا نشعر فيها بأى قلق، فحياة جدى رحمه الله كان يحتويها جو من الطمأنينة فقد كان رجلاً فاضلاً مؤمنا يقوم بواجباته كمسلم، ولكنه لا يشعر فى يوم من الأيام بوجود المشكلات تواجهه رويداً رويداً وبدأ يشعر شيئاً ما بالقلق، ثم أتى جيلنا فتعلقت على رأسه آلاف من المشكلات، ونقط الاستفهام ملحة للجواب عليها، ملحة لدراستها لأنها تتصل بجوهر الحياة كياناً، ولكن كيف يحدث هذا الشعور بالقلق، وما هى الظروف التى تنشئ حالة التوتر التى تبعث الحياة فى المجتمع.

إن الشعور بالخطر هو السبب الذى يضع الإنسان أمام تحدى مشكلاته، ويشكل عنده ما يسمى بحالة (إنقاذ) وأول ما يكون من أثر هذه الحالة فى نفسه أنها تحرمه الشعور بالاستقرار بما يعتريه ويسيطر على مشاعره من قلق لا يمكن دفعه إلا بتغيير الوضع، وبتغيير الأشياء بالوقوف أمام الحوادث لتوجيهها لغايات واضحة وقريبة فى شعور الفرد، سواء أكان الواقع يؤيد هذا الشعور أو لا يؤيده.

والشعور بالخطر ليس باعثاً دائماً لحالة القلق التى تدعو إلى الحركة نحو التغيير، إلا إذا صاحب هذا الشعور دافع إيمانى قوى، لأن كثيراً من الأمم والشعوب تحاصرها المشكلات، وتهددها الأخطار، ولا تجد عندها أى شعور بالقلق يدفعها إلى تغيير وضعها، وذلك لفقدها الطاقة الإيمانية الضرورية فى مثل هذه الظروف.

وقد ظهرت حالة التوتر بشكل واضح فى بداية الانطلاقة الإسلامية، وكان الرسول ﷺ، أول إنسان مسته شرارة الروح، فكان أن شعر بالقلق بعد نزول الوحى عليه، هذا القلق الذى سيكون من أقوى الدوافع لديه نحو الحركة، والتغيير وقد سجل القرآن الكريم والسنة النبوية هذه الظاهرة التى حدثت للرسول ﷺ، قال تعالى:**{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ**

عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفاً}[1]، وقال تعالى: **{فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}**[2]، فسلوك النبى ﷺ هنا ناتج عن حرصه الشديد على إنقاذ أمته، وقلقه المستمر على تغيير الوضع الجاهلى السائد، ولذلك وصف فى القرآن بأنه **{حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}**[3].

وتسجل كتب السيرة أن الرسول ﷺ عانى من القلق فى نفسه فى بداية أمره، هذا القلق الذى سيقوده إلى مواجهة المشكلات التى يعانى منها مجتمعه وسيظهر ﷺ عبقرية ذات رحابة لا مثيل لها، مستهدياً بالوحى الذى يجىء حاملاً دائماً الشعاع العلوى، والكلمة الأخيرة، وسيكشف الرجل عن ذكاء عجيب، وعن حكم على قيم الأشياء، وعلى نفسية الرجال، منزه تقريباً عن الخطأ، كما يكشف عن إرادة لا يعتريها الوهن. إن هذه الإرادة التى لا يعتريها الوهن، وهذا الحماس والحيوية والتوتر الذى تجسد فى شخصية الرسول ﷺ سيكون أحد مقومات الفاعلية فى الأمة الإسلامية التى ورثت كل صفات الكمال عن نبيها ﷺ ويبقى وقوداً دائماً لها ليمنحها الحياة المتجددة.

وإذا كانت حالة التوتر والحماس لأداء الرسالة الحضارية قد قلت أو انعدمت فى الأمة الإسلامية اليوم، فإنها فى أمم أخرى أكثر حرارة وتوقداً، ومثال ذلك ما يشهده شعب يهود من فاعلية وتوتر وحماس لتحقيق أهدافه الكبرى، فهو قد استمد هذه المقومات الأساسية من طبيعة الديانة اليهودية، وواقعها التاريخى، واستوحى العديد من التعاليم والعقائد الدينية التى تداخلت فى نسيج الحركة الصهيونية الرامية إلى الاستيلاء على فلسطين، وجعلها قاعدة انطلاق لاستعمار يهود فى العصر الحديث يقول: (هرتزل) مؤسس دولة يهود: نحن نشعر برابطتنا التاريخية فقط عن طريق إيمان الآباء والأجداد... فالإيمان يوحد فيما بيننا، والمعرفة تمنحنا الحرية. وهو يقصد أن الإيمان بالعقيدة اليهودية سيبقى المحرك للطاقات، والموحد للصفوف عند جميع يهود.

وهناك شعب آخر ما زال يحقق التفوق تلو التفوق فى ميادين الحضارة وهو الشعب اليابانى الذى عرف منذ انطلاقه فى القرن الماضى (سنة ١٨٦٨) توتراً وفاعلية وحماساً بين جميع أفراده، وحقق بذلك انتصارات كبيرة فى ميادين الحياة المختلفة، وجلب احترام الأمم والشعوب له، أصبح عندهم أنموذجاً يقتدى به.

---

(١) الكهف: ٦.

(٢) فاطر: ٨.

(٣) التوبة: ١٢٨.

إن التوتر والحماس الذاتى هما شرطان أساسيان للفاعلية المرجوة عند المسلمين فى هذا العصر، ولن يحصل ذلك إلا بالإيمان والإرادة، وكما يقول الأمير شكيب أرسلان – رحمه الله: إن ملاك الأمر هو الإرادة فمتى وجدت الإرادة وجد الشيء المراد.

٥- المحيط الاجتماعى (الثقافة):

إن كل ثقافة تتضمن علاقة (مبدأ أخلاقى – ذوق جمالى) تكون ذات دلالة عن نوع عبقرية مجتمع معين، وهى ليست تطبع إنتاجه الأدبى بطابع خاص فحسب، وإنما تحدد اتجاهه فى التاريخ أيضا لأن المبدأ الأخلاقى هو الذى يكون شبكة العلاقات الاجتماعية التى تتجه كلها فى اتجاه واحد نحو البناء والتكوين الحضارى، أما الذوق الجمالى فهو الذى تنبع منه الأفكار، وتتجه نحوه الأعمال.

وإذا كان للثقافة هذا البعد الاجتماعى، فينبغى أن نوضح الخلاف الجوهرى بين الثقافة التى تتضمن كشرط أولى تحديد الصلات بين الأفراد، وبين العلم الذى لا يهتم إلا بالصلات الخاصة بالمفاهيم والأشياء، فالرجل العالم قد يكون عنده إلمام بالمشكلة كفكرة غير أنه لا يجد فى نفسه الدوافع التى تجعله يتصورها كعمل، فى حين أن الرجل المثقف يرى نفسه مدفوعاً بالمبدأ الأخلاقى الذى يكون أساس ثقافته إلى عمليتين: عملية هى مجرد علم، وعملية أخرى فيها تنفيذ وعمل.

إن من أبرز الملاحظات فى القرن العشرين أن الفرد أصبح يؤثر بثلاثة مؤثرات هى: الثقافة، والعمل، والمال، وتعد الثقافة أحد الأسلحة الفعالة المستخدمة فى قضية الصراع الفكرى بين الشرق والغرب، بل إننا نشهد صراعاً ثقافياً بين المجتمعات الغربية نفسها.

وإن أمام المسلم فى هذا القرن تحديات حضارية كبيرة منها التحدى الثقافى الذى يفرض عليه منطق الفاعلية أن ينتصر فيه، لأنه كى يتمكن من مجابهة الثقافات الخاصة بمجتمعات اليوم المتحركة يجب عليه أن يعيد الفاعلية للدين الإسلامى لتأخذ مكانها بين الأفكار التى تبنى الحضارة وتصنع التاريخ.

ومع أن المحيط الاجتماعى الذى يتربى فيه المسلم اليوم أكسبه بعض العادات السيئة كحب الراحة والسكون، وتفضيل العجز والتواكل نظراً للخلل الموجود فى شبكة العلاقات الاجتماعية، إلا أن التحديات الحضارية تفرض عليه توجيه ثقافته وسلوكه نحو العمل الذى وحده يخط مصير الأشياء فى الإطار الاجتماعى، ولا يكون ذلك إلا بتغيير نفسه أولا، والارتفاع بها إلى مستوى الحضارة.

لابد للمسلم اليوم أن يعرف أن المعرفة التى يملكها لا قيمة لها إذا لم تتحول إلى ثقافة

متحركة، وقوة دافعة، وإذا لم تساهم فى توحيد العلاقات الاجتماعية، واجتماع الجهود الفردية والجماعية لتصب كلها فى خدمة الأمة الإسلامية، والعمل على إخراجها من الأزمة الحضارية التى تعانى منها.

٦- الاجتهاد وروح المبادرة:

إن ضعف الأمة وتخلفها كان من ورائه تخلف الاجتهاد وضعفه، وذلك باتباع (التقليد) الذى أصاب القاعدة الفكرية للأمة بالسلبية والكساد.

والاجتهاد عملية عقلية وفق ضوابط خاصة تتوخى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، فالمجتهد ينظر فى الأدلة النصية كالقرآن والسنة، أو يستهدى روح الشريعة ومقاصدها ويبذل جهده فى سبيل التعرف على الحكم الشرعى وهو عملية تتطلب أقصى الجهد فى معرفة الحقيقة سواء أكانت شرعية أم اجتماعية أم ثقافية أم سياسية وغيرها، أى أنه نشاط فكرى يشمل جوانب الحياة المختلفة، من حيث إنه قوة تحرك كل الطاقات نحو العمل المتقن فى شتى الميادين.

لقد كان الاجتهاد سمة بارزة للفكر الإسلامى فى عصره الذهبى، وكان قوة دافعة نحو الفاعلية والعمل فى كل الفترات التى عرفت نهضة وازدهاراً فى التاريخ الإسلامى، وقد دلت التجارب الاجتماعية أن الاجتهاد بالنسبة للأمة الإسلامية لا يعدو كونه جامعاً بين الفكر والواقع فحسب، بل هو روح تبعث الحياة المتجددة فى الأمة، وترقى بها إلى مستوى الأمم التى تصنع التاريخ.

وفى هذا القرن وقعت الأمة الإسلامية فى خطأ كبير من حيث لا تدرى، فقد اعتقدت أن طريق التطور والاجتهاد يكمن فى تقليد الغرب، يقول مالك بن نبى - رحمه الله -: حينما استيقظت الشعوب العربية الإسلامية على خطر الاستعمار، فقد كانت يقظتنا الفجائية دافعاً من دوافع الحياة، وفى الوقت نفسه دافعاً من دوافع الخطأ، فكان مثلنا كنائم استيقظ فجأة فوجد النار فى غرفته، ودون أى تفكير ألقى بنفسه من نافذة الغرفة التى هى فى الدور الرابع أو الخامس لينجو من النار، فنحن قد ألقينا بأنفسنا من حيث لا نريد فى هوة التقليد حتى ننجو من الاستعمار، إننا لم نفكر فى الخلاص تفكيراً معقداً، وإنما دفعتنا دوافع لا شعورية لتقليد حضارة الاستعمار حتى نعصم أنفسنا منه.

إن التقليد - سواء أكان للغربيين أم لغيرهم - قد جمد الكثير من الطاقات الفكرية المتعطشة إلى الإبداع وتقديم الجهد الفكرى الذى يجسد شخصية الأمة وطابعها الحضارية، وما على الأمة الإسلامية اليوم إن هى أرادت الخروج من أزمتها الحضارية إلا إعادة روح

الاجتهاد إلى أبنائها، وذلك بتشجيع روح المبادرة، وتوفير ظروف الإبداع، وإطلاق الحريات، وإعطاء الحوافز المادية والمعنوية، فكل هذه الأسباب من شأنها أن تعيد للأمة حيويتها وفاعليتها. فالاجتهاد المطلوب اليوم هو ذلك سيعيد للأمة عافيتها فى جميع مجالات الحياة، وينبغى أن يهتم بالجوانب التالية:

أولا: تصفية الأفكار الميتة (وهى بعض الأفكار الموروثة التى ليس لها أى سند شرعى، أو بعد حضارى).

ثانياً: تنقية الأفكار القاتلة (وهى بعض الأفكار المستوردة التى فيها نوع من التهور وليس التطور).

ثالثاً: تشجيع موهبة النقد الذاتى - وبخاصة فى ميدان العمل الإسلامى - حتى تقوم الأعمال، وتصحح الأخطاء.

٧- الحافز والحرية:

إن الحرية تربى وتفجر الطاقات، وهو وقود ضرورى للفاعلية فى أى مجتمع من المجتمعات المتحضرة، وقد ذكر فى مبحث سابق أن شعور المسلم بالحرية فى العصور الأولى للإشعاع الروحى كما يمنحه نوعاً من العزة والثقة بالنفس، وفى الوقت نفسه كان يعطيه دافعاً معنوياً قوياً نحو العمل لإنقاذ البشر المكبلين بحبال القهر والعبودية.

أما فى واقعنا المعاصر فإن المسلم أصبح يشعر بنوع من القهر، ولم يعد يملك الحرية الكافية للحركة والعمل، وذلك للقيود التى وضعها الواقع الاجتماعى والسياسى فى المجتمعات الإسلامية بعد خروج الاستعمار منها، وإن المتتبع لمسيرة الصحوة الإسلامية يدرك مدى القيود والعقبات التى وضعت فى طريقها من قبل أعدائها فى الداخل والخارج حتى تشل حركتها، وتقيد حريتها، وتجهضها فى مهدها.

ومع هذه الظروف كلها مازال المسلم يطمح فى أن يحال بينه وبين الواقع، وأن ترفع عنه تلك القيود التى تكبله، وإنه لينظر باحترام إلى تلك المجتمعات التى حققت لأفرادها بعض الضمانات الاجتماعية مثل العدل والحرية، ويرجو أن تعود الفاعلية إلى الأمة الإسلامية بعودة الحس الإيمانى وقيم الخير والعدل والحرية.

وإلى جانب أهمية الحرية فى تفجير الطاقات، وتوجيهها نحو العمل المبدع، والنشاط المتقن، لابد من توفير عنصر آخر ضرورى لتحقيق شروط الفاعلية وهو الحافز المادى والمعنوى الذى يساهم فى خلق المبررات التى تحرك الطاقات الاجتماعية، وتدفع النشاط الفردى والجماعى إلى أعلى قمة.

إن الحافز المعنوى يأتى فى الدرجة الأولى من حيث الأهمية، فهو الباعث للشعور الذى يدفع الإنسان نحو الحركة والعمل، وهو عامل أساس فى إيجاد الإرادة، وتوجيه الثقافة، ومن هنا يلاحظ فى الشريعة الإسلامية ذلك الربط القوى بين المبادئ والحوافز المعنوية لمنح الإنسان جملة من الدوافع المؤدية إلى العمل، ومن هذا الجانب يفهم حديث الرسول ﷺ فى مبايعة الأنصار حديث قال: **«تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»** (١) والوعد بالجنة حافز كرره الرسول ﷺ مع كثير من الوفود التى قدمت لمبايعته ونصرته.

أما الحافز المادى الذى يقلل كثير من المسلمين من أهميته، فهو على درجة كبيرة من الأهمية فى رفع مستوى الفاعلية، لأن له أبعاداً اجتماعية كثيرة منها توفير الأمن الاجتماعى والاطمئنان النفسى، وقد أغنى الله نبيه ﷺ بمال خديجة حتى يستطيع تأدية رسالته قال تعالى:**{وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى}**(٢)، ويأتى وعد الله للمؤمنين بالتأييد المادى فى ساعات الشدة كما فى قوله تعالى:**{وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}**(٣)، وقوله تعالى فى مقام الامتنان:**{وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**(٤).

إن الإسلام دين واقعى يراعى حالات النفوس، ويلبى حاجات الناس الفطرية، وما اهتمامه بتوفير الحافز المادى للنفس البشرية إلا دليل على واقعيته ووسطيته، وإنا نظن أن كثيراً من المسلمين حين فقدوا الحوافز المادية لسبب من الأسباب قل نشاطهم، وخف تحمسهم للعمل، مع العلم أن الواحد منهم حين يتوفر لديه هذا الحافز فى أى ظرف من الظروف تجده يقدم أقصى الجهد، ويعمل ليلاً ونهاراً كى يحقق شيئاً فى حياته، وإن كثيراً من العقول المهاجرة ترفض الرجوع إلى بلادها الإسلامية لجملة من الأسباب لعل أبرزها فقدان الحوافز المادية، ومن هنا فقد العالم الإسلامى كثيراً من طاقاته الإبداعية لهذا السبب.

ونخلص إلى أن توفير الحافز والحرية يساعد فى رفع مستوى الفاعلية عند المسلمين،

---

(١) مسند أحمد.
(٢) الضحى: ٨.
(٣) التوبة: ٢٨.
(٤) الأنفال: ٢٦.

وإنه لا سبيل إلى تحسين المسلم إلا بتوجيهه نحو العمل، وإقداره على أن يتجاوز وضعه المألوف.

٨- الوقت وسنة التغيير:

الوقت بالنسبة للإنسان المتحضر عملة نادرة لا يضاهيها الذهب ولا الفضة، لأنه يعلم أنه الحياة التى يحيا، والواقع الذى يعيش، وهو يعرف أن قيمته الاجتماعية، ودوره الحضارى مرتبطان بالساعات اليومية التى يقدم فيها عملاً، ويبذل فيها جهداً.

لقد عد الوقت من العناصر الأساسية التى تكون الحضارات، فما من شعب يستيقظ ليبدأ رحلة التحضر إلا ويصبح للوقت عنده قيمة لا تقدر بثمن، ولا تقوم بمال، وتستمر قيمة الزمن، لأنه يتحول إلى عدم، وقد اقتضت سنة التغيير الاجتماعى أن يكون الوقت إحدى الوسائل الهامة فى قلب الأحوال، وتغيير الظروف، ومن هنا كان لزاما على الإنسان الراغب فى تغيير نفسه أن يصبح الوقت لديه أغلى شىء فى الحياة.

إن الشعوب التى دخلت التاريخ المعاصر قد عرفت الفاعلية فى مجالات الحياة المختلفة بسبب تقديرها لقيمة الوقت، وأهميته فى اللحظات الحاسمة التى تخطط مصير المجتمعات، وإننا لنشهد الآن صراعات حضارية يعد الوقت فيها أحد مقومات الرقى والتحضر لكونه يخط مصير الأشياء ويرتبط بمستقبل أية أمة تطمح إلى صناعة التاريخ.

وإننا لنعجب مثلاً للشعب اليابانى الذى بدأ نهضته فى القرن الماضى، وجلب احترام الأمم والشعوب له بما حقق من مكاسب وانتصارات فى ميادين العلم والتحضر، كل ذلك كان نتيجة قراره التاريخى بالتوجه نحو الحضارة والاستفادة من الوقت، ومنح الإنسان اليابانى جميع الضمانات كى يحقق وجوده.

أما العالم الإسلامى اليوم فإن الوقت لديه شكل ثقباً فى مشروعه الحضارى، فحظ الشعب العربى والإسلامى من الساعات كحظ أى شعب متحضر، ولكن... عندما يدق الناقوس منادياً الرجال والنساء والأطفال إلى مجالات العمل فى البلاد المتحضرة... أين يذهب الشعب الإسلامى؟ تلكم هى المسألة المؤلمة... فنحن فى العالم الإسلامى نعرف شيئاً يسمى (الوقت) ولكنه الوقت الذى ينتهى إلى عدم، لأننا لم ندرك معناه ولا تجزئته الفنية، لأننا لا ندرك قيمة أجزائه من ساعة ودقيقة وثانية، ولسنا نعرف إلى الآن فكرة (الزمن) الذى يتصل اتصالاً وثيقاً بالتاريخ.

إذن لم يتحدد مفهوم الوقت عند المسلم من حيث دخوله فى الفكرة والنشاط، مع أن شعائر الإسلام كلها تؤكد قيمة الوقت؛ ولهذا كان واجب الإنسان المسلم نحو وقته أن يحافظ

عليه كما يحافظ على ماله، بل أكثر منه، وأن يحرص على الاستفادة من وقته كله، فيما ينفعه فى دينه ودنياه، وما يعود على أمته بالخير والسعادة، والنماء الروحى والمادى، والنبى ﷺ قال: **«نعمتان مغبون فيهما كل إنسان الصحة والفراغ»**، وقد كان السلف – رضى الله عنهم – أحرص ما يكونون على أوقاتهم لأنهم كانوا أعرف الناس بقيمتها، يقول الحسن البصرى: أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم، ويقول مالك بن نبى – رحمه الله –: نحن فى حاجة ملحة إلى توقيت دقيق وخطوات واسعة لكى نعوض تأخرنا، وإن الفاعلية التى نرجو أن يتصف بها المسلم فى واقعنا المعاصر لا يمكن أن تكتمل شروطها إلا بنظرة جديدة تعيد الوقت قيمته فى الحياة.

* * * * *

المبحث الثانى
الفاعلية الإيجابية فى سيرة النبى وكذا الصحابة وتابعيهم

إن المتأمل فى السيرة النبوية فى كل حلقة من حلقاتها يدرك مدى الجهد الذى بذله الرسول ﷺ فى سبيل إنجاح رسالته، وتجلى ذلك واضحاً فى جميع المستويات الدينية والدنيوية، قال الرازى: إنه عليه السلام تحمل فى أداء الرسالة أنواع المشاق والمتاعب، فلم يتغير عن المنهج ألبتة، ولم يطمع فى مال أحد، وفى جاهه، بل صبر على تلك المشاق والمتاعب ولم يظهر فى عزمه فتور، ولا فى اصطباره قصور، وهذا هو الجهاد بمعناه الواسع الذى ورد فى قوله تعالى:**{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}**(١)، وهو بمعنى: استفراغ الطاقة لتحقيق الأهداف التى توجه إليها الرسالة الإسلامية فى ميادين الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعسكرية وغيرها فى أوقات السلم والحرب سواء... فهو:

(تكنولوجيا الإسلام) التى توفر العمل والإنتاج فى أوقات السلم، والمنعة فى أوقات العدوان، فالجهاد ليس مقصوراً على (القتال) فقط - وقد ترسب فى أذهان كثير من المسلمين اليوم أن الجهاد هو القتال بالسيف - بل هو نوع من الفاعلية التى تشمل جميع ميادين الحياة، وهو الشيء الذى تمثل فى سيرة الرسول ﷺ، منذ اليوم الذى كلف فيه بأداء الرسالة، يقول ابن قيم الجوزية - رحمه الله - فى هديه ﷺ فى الجهاد: لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل فى الجنة، كما لهم الرفعة فى الدنيا، فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة، كان رسول الله ﷺ فى الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها، فجاهد فى الله حق جهاده بالقلب، والجنان، والدعوة، والبيان، والسيف، والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه، ولسانه، ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً، وأعظم عند الله قدراً، ثم يتحدث ابن القيم عن جهاده ﷺ خلال مسيرة الدعوة، ويورد صوراً حية كثيرة تدل كلها على الفاعلية المتوهجة التى كان يتميز بها ﷺ ومدى صبره وقوة بأسه فى مواجهة المشكلات التى تعترض طريق الرسالة.

عن جابر أن النبى ﷺ لبث بمكة عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم فى المواسم، ومجنة، وعكاظ، يقول: **«من يؤوينى؟ من ينصرنى، حتى أبلغ رسالات ربى، وله الجنة»**، فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه، حتى أن الرجل ليرحل من مضر أو اليمن إلى ذى رحمه، فيأتيه قومه

---

(١) الحج: ٧٨.

فيقولون لـه: (احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشى بين رجالهم ويدعوهم إلى الله عـز وجـل، وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله من يثرب، فيأتيه الرجـل منـا فيـؤمن بـه ويقرئـه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، وبعثنا الله إليه، فأتمرنا واجتمعنا وقلنا: حتى متـى رسـول الله ﷺ يطرد فى جبال مكة ويخاف، فرحلنا حتى قدمنا عليه الموسم، فواعدنا بيعة العقبـة، فقـال لـه عمه العباس: يا ابن أخى. ما أدرى ما هؤلاء القوم الذين جاؤوك، إنى ذو معرفـة بأهـل يثرب، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر العباس فى وجوهنا، قال: هؤلاء قـوم لا نعرفهم، هؤلاء أحداث، فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: **«تبايعونى علـى السـمع والطاعة، فى النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمـر بـالمعروف، والنهى عن المنكر، وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصـرونى إذا قدمت عليكم، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»** [1].

فهذا نموذج واحد من سيرته ﷺ المليئة بالعطاء والجهد، والفاعلية والحزم، وقد اخترنـاه فى هذا المقام للدلالة على جوانب من جهاده وحرصه علـى التـزام أنصـاره واتباعـه بـالقيم والمبادئ التى يتبناها كما هو من ظاهر فى شروط البيعة مـع الأنصـار، فقـد اشـترط علـيهم السمع والطاعة والإنفاق لتحقيق الوحدة والتكامل فى شبكة العلاقات الاجتماعية، وطلـب منهم القيام بواجب الجهاد الذى يتمثل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر، وقـول الحـق، ونصرة الرسول ﷺ، وكل هذا يمثل جوهر الأحداث اليومية التى تحقق للمجتمـع تماسكه واستقراره، ورضوخه لمنهج الإسلام فى عمارة الأرض، وإسعاد البشرية.

ونخلص من هـذا البحـث إلى أن فاعليـة الرسـول ﷺ حقيقـة تاريخيـة نـتج عنهـا أبـرز الحضارات التى عرفها التاريخ البشرى، من حيث تميزها فـى جميـع المسـتويات، ومـن حيـث ربطها بين المادة والـروح، والـدنيا والآخـرة، وإعطـاء الإنسـان المكانـة التـى يسـتحقها، وأن الواجب الذى ينتظر أبناء الأمة الإسلامية اليوم هو الاقتداء بالرسول ﷺ فى هذه القيم التـى تبنى الحضارات، وتصنع التاريخ، وبخاصة فى مبدأ الفاعلية الـذى يعـد فـى واقعنـا المعاصـر أحد الأسباب الأساسية فى نهضة أية أمة.

إن الاقتداء بالرسول ﷺ سينتج عند أبناء الأمة المبررات الكافية للعمـل والحركـة لأداء رسالتهم الحضارية فى هذه الحياة، وسيرته ﷺ ينبغى أن تمتزج بعقولهم وقلوبهم لمـا فيهـا مـن معالم هادية، يقول محمد عبد الله دراز – رحمه الله –: ما ظنك بهذه الحياة النبوية التى تعطيك

---

(١) مسند أحمد.

فى كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية لنفس صاحبها، فتريك باطنه من ظاهره، وتريك الصدق والإخلاص ماثلاً فى كل قول من أقواله، وكل فعل من أفعاله، بل كان الناظر إليه إذا قويت فطنته، وحسنت فراسته، يرى أخلاقه العالية تلوح فى محياه ولو لم يتكلم أو يعمل.

١ – فاعلية جيل الصحابة:

ترك رسول الله ﷺ بعد وفاته جيلاً فريداً من البشر اجتمعت فيهم جميع خصائص الخيرية والفضل، والوسطية والعدل، وكان قرنهم خير القرون، وجيلهم من أحسن الأجيال التى عرفها التاريخ الإسلامى، فقد قال ﷺ : **«خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»** (١) وتميز هذا الجيل من الصحابة، واختصاصهم بالخيرية والفضل فى الزمان والمكان، أمر أفرزته أسباب كثيرة لم تتوفر لغيرهم من الأجيال، نذكر منها وجود النبى ﷺ بشخصه بينهم، فقد كان أسوتهم فى كل شىء، وكانوا يستمدون من حياته وشخصيته كل الصفات والقيم التى تكون شخصية المسلم، ولعل من أبرز تلك الصفات فاعليته وحرصه الشديد على أداء دوره ورسالته فى هذه الحياة، ومن هنا نشأ هذا الجيل وهو يملك رصيداً حياً من مبررات الانطلاق والحركة التى أخذها وتربى عليها فى مدرسة النبى ﷺ.

وإن اقتناع الصحابة برسالة نبيهم ﷺ الذى نشأ عنه ذلك الانطلاق الحضارى الكبير فى التاريخ الإسلامى، يعد عاملاً أساسياً فى توفير البناء النفسى الكافى الذى سيعطى النفوس مبررات الحركة لعلم شىء له قيمة فى الحياة.

وهذا البناء النفسى الذى يعد شرطاً ضرورياً للفاعلية استمده الصحابة من توجيهات القرآن، وتطبيقات الرسول ﷺ وقد انسجم مع عنصر آخر أكثر أهمية هو الرؤية الحضارية، الذى يوجه الطاقات نحو ما ينفع البشرية، ويجعل الفاعلية سبيلاً إيجابياً يحقق الخير والمصلحة للناس.

وبهذه الروية الحضارية انطلق الصحابة – رضى الله عنهم – لتغيير العالم كله، بعدما ترسخ لديهم أن الرسالة التى يحملونها هى المنقذ الوحيد لهذا العالم، فهذا ربعى بن عامر – رضى الله عنه – البدوى القادم من الصحراء يخاطب رستم قائد الفرس قائلاً: (من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام).

ولكن يبقى السؤال: كيف وصل الصحابة إلى هذا المستوى من البناء النفسى والرؤية الحضارية؟ ولماذا لم يتكرر هذا الوضع باضطراد فى الأجيال التى جاءت بعدهم؟ والإجابة

---

(١) صحيح البخاري.

تقتضى أن نعرف الظروف الاجتماعية والنفسية التى توفرت لذلك الجيل الفريد.

إنهم – فى الجيل الأول – لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والاضطلاع ولا بقصد التذوق والمتاع. لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العملية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله فى خاصة شأنه وشأن الجماعة التى يعيش فيها، وشأن الحياة التى يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندى فى الميدان (الأمر اليومى) ليعمل به فور تلقيه، ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه فى الجلسة الواحدة، ولأنه كان يحس أنه يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتفى بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها... هذا الشعور... شعور التلقى للتنفيذ... كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من المتاع وآفاقاً من المعرفة، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاضطلاع، وكان ييسر لهم العمل، ويخفف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم، ويحوله فى نفوسهم وفى حياتهم إلى منهج واقعى، لقد كان النبع الذى استبقى منه ذلك الجيل صافياً لم تكدره بعد فلسفات وثقافات الأمم الأخرى. من فرس ويونان ويهود ونصارى وغيرهم، كما حدث فى فترات متأخرة من التاريخ الإسلامى، إضافة إلى ذلك معايشتهم الواقعية لسيرة الرسول ﷺ، وتعلمهم منه ربط الفكر بالعمل، والثقافة بالسلوك، فقد ذكروا مراراً أنهم تعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً، والأمثلة على فاعلية الصحابة – رضى الله عنهم – كثيرة متنوعة، ومن يتأمل فى سيرتهم وجهادهم لا يرى سوى صفحات مشرفة من التاريخ الذى صنعوه بجهدهم وكفاحهم، وذلك بحصرهم الشديد على أداء رسالتهم الحضارية فى هذه الحياة، مع توفيق الله لهم، وقد تعتريك الدهشة والإعجاب حين تعلم أن قبور كثير منهم موجودة خارج الجزيرة العربية.

وسنختار لك مثالاً واحداً لصاحبى جليل هو (أبو أيوب الأنصارى) – رضى الله عنه – الذى كان شعاره الذى يردده دائماً، فى ليله ونهاره، فى جهره وإسراره قوله تعالى: **{انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً}**[1] لم يتخلف أبو أيوب عن معركة كتب على المسلمين أن يخوضوها، مهما يكن بعد الشقى، وفداحة المشقة، مرة واحدة فقط تخلف عن جيش جعل الخليفة أميره واحداً من شباب المسلمين، لم يقتنع (أبو أيوب) بإمارته، ومع هذا فإن الندم على موقفه هذا ظل يزلزل نفسه طول حياته.

وفى غزوة القسطنطينية لم يكد يبصر (أبو أيوب) جيش المسلمين يتحرك، حتى ركب

(١) التوبة: ٤١.

فرسه، وحمل سيفه، وراح يبحث عن الشهادة فى سبيل الله مع كبر سنه، وقلة زاده.

وفى هذه المعركة أصيب، وذهب قائد الجيش يعوده، وكانت أنفاسه تسابق أشواقه إلى لقاء الله، فسأله القائد، وكان (يزيد بن معاوية) ما حاجتك أبا أيوب؟ ترى، هل فينا من يستطيع أن يتصور، أو يتخيل ماذا كانت حاجة أبى أيوب؟ لقد طلب من (يزيد) إذا هو مات أن يحمل جثمانه فوق فرسه، ويمضى به أطول مسافة ممكنة فى أرض العدو، وهناك يدفنه، ثم يزحف بجيشه على طول هذا الطريق، حتى يسمع وقع حوافر خيل المسلمين فوق قبره، فيدرك آنئذ، أنهم قد أدركوا ما يبتغون من نصر وفوز!! وفى قلب القسطنطينية – وهى اليوم إسطانبول – يثوى جثمان هذا الرجل العظيم، وإنك لتعجب إذ ترى جميع المؤرخين الذين يسجلون تلك الوقائع يقولون: وكان الروم يتعاهدون قبره، ويزورونه، ويستقون به إذا قحطوا، لقد حقق هذا الصحابى الجليل شروط الفاعلية حيا طيلة حياته، وحققها وهو ميت يرنو إلى انتصار الإسلام، وعزة المسلمين وإسعاد البشرية بالدين الجديد، وسيبقى التاريخ شاهداً على هذه النماذج البشرية الحية التى لم تكن تعرف فى حياتها سوى الحركة والجهاد والفاعلية.

٢ – تجدد الفاعلية عبر التاريخ الإسلامى:

بلغت الفاعلية فى زمن الرسول ﷺ وصحابته – رضى الله عنهم – أقصى درجات التوهج، واستمر هذا الوضع بعد ذلك فى جيل التابعين ومن تبعهم بإحسان، ولكن مع مرور الوقت، ولأسباب سياسية واجتماعية ونفسية كثيرة بدأت الفكرة الدينية تفقد وظيفتها الاجتماعية شيئاً فشيئاً، وبدأ مرض الكساد ينتشر فى جسم الأمة. إن الظروف التى أوصلت الأمة الإسلامية إلى تفضيل جانب الغريزة على جانب الروح، أدت إلى نتائج خطيرة كان من أبرزها انقسام العالم الإسلامى إلى دويلات، وانفكاك القاعدة الاجتماعية للأمة، حتى سقطت بغداد فى أيدى المغول، وبدأت مشكلات السقوط الحضارى تظهر فى الآفاق، وأصبحت التحديات والأخطار تحاصر المجتمع الإسلامى من كل الجهات. حين تفقد الفكرة الدينية وظيفتها الاجتماعية تبدأ القيم الروحية بالانحسار لتترك المجال مفتوحاً للغرائز والشهوات التى تقوم بدور المخدر الذى يدخل الجسم السليم فيسلبه كل طاقاته الإيجابية ويحوله من جسم فعال متحرك إلى جسم عاجز عن أداء أية حركة، وهو الشيء الذى حدث للمجتمع الإسلامى فى فترة سقوطه الحضارى.

يقول ابن الأثير (٦٣٠هـ) واصفاً حالة المجتمع الإسلامى زمن الحروب الصليبية: كانوا كجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً وكنا نجد من يقول

متذمراً:

كيف يرجى الصـــلاح مـــن أمـــر ::: قوم ضيعوا الحزم فيـــه أى ضـــيا ع
فمطـــا ع الكـــلام غـــير ســـديد ::: وســـديد المقـــال غـــير مطـــا ع

وعلى الرغم من هذه الأسباب المعطلة للطاقات، المكبلة للقدرات التى عرفهـا التـاريخ الإسلامى، كنا نشهد من فترة إلى أخرى تجدد الفاعلية بـين أبنـاء الأمـة لمواجهـة المشـكلات الصعبة التى تعترض طريقهم، وبخاصة حين يحسون أن الأخطار التى تهدد الأمة تمس كيانهم الدينى الذى يحفظ وجودهم، كما حدث فى عصر الحروب الصليبية، وما تبعه مـن حـروب ضد الهجمة المغولية وما حدث فى العصر من ثورات ضد الاستعمار الغربى.

فإذا أخذنا مثلاً ما حدث فى فترة الحروب الصليبية نجد أن الفاعليـة قـد انتشـرت بـين أبناء الأمة كلها، كانتشار الدم فى الجسم ليغذى جميع أجزائه، وهذه الفاعليـة الجماعيـة هـى التى تبنى التحضر ولا مناص لمن يبتغيها أن يستخدم كل وسائل التوجيه للوصول إليها وهـو ما فعله نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى من بعده.

ولعل مما ساهم فى زيادة الفاعلية بين أفراد الأمة فى تلك الفترة، التزام القائمين علـى الأمور من الحكام والأمراء بمبادئ الرسالة التى يحملونها، وحرصهم علـى أن يكونـوا قـدوة الناس فى الجهاد والعمل والصبر، مما حفز الناس على زيادة العطاء والجهد.

فهذا (نور الدين زنكى) يعيد للأمة سيرة الرسول ﷺ وصحابته فى تطبيقاتـه العمليـة، حتى عده المؤرخون سادس الخلفاء الراشدين، يقـول ابـن الأثـير: قـد طالعـت سـير الملـوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز، سيرة أحسن مـن سـيرته، ولا أكبر تحرياً منه العدل.... وقد اتسع ملكه فشمل الشام وديار الجزيرة ومصر، وخطب لـه بالحرمين الشريفين وباليمن، وأبلى فى حروبـه للفـرنج، وأسـر بنفسـه فـى بعـض الغـزوات بعض ملوكهم، وكان يعظم الشريعة، ويقف عند حـدودها، وأنشـأ مـن المـدارس والجوامـع والطرق، والجسور، ودور المرضى، والبائسين، والخانات، والحصون ما لم يسبق إلى مثله.

وفى فترة نور الدين زنكى نجد أن سياسة الدولة اتجهـت إلى الأمـور التاليـة كـى تعيـد الفاعلية للأمة:

أولاً: إعداد الشعب إعداداً إسلامياً وتطهير الحياة الدينية والثقافة من التيارات الفكريـة المنحرفة كالباطنية وآثار الفلسفة اليونانية، والممارسات الفاطمية للعبادات والشعائر.

ثانيا: صبغ الإدارة بالصبغة الإسلامية، وإشاعة العدل والتكافل الاجتماعى.

ثالثاً: نبذ الخصومات المذهبية، وتعبئة القوى الإسلامية، وتنسيق جهودها ضـمن منهـاج عمل موحد، وقيادة متكاملة متعارفة.

رابعاً: ازدهار الحياة الاقتصادية، وإقامة المنشآت والمرافق العامة.

خامساً: بناء القوة العسكرية، والعناية بالصناعات الحربية.

سادساً: القضاء على الدويلات المتناثرة فى بلاد الشام، وتحقيق الوحدة الإسـلامية بـين الشام ومصر والجزيرة العربية.

لقد ركزت السياسة فى زمن نور الدين على الإنسان المسلم باعتبـاره أسـاس النهضـة، ودعامة البناء فى الأمة المسلمة، ولذلك الإعداد والجاهزيـة لمواجهـة التحـديات، وفـى هـذه الخطة تكاملت المؤسسات والهيئات، فاشتملت على التعليم الذى ركز بالدرجـة الأولى علـى الأجيال الناشئة، واشتملت على التوجيه والإرشاد الـذى اسـتهدف توجيـه جمـاهير العامـة، واشتملت على الإعداد العسكرى الـذى اسـتهدف تعبئـة قـوى الأمـة تعبئـة عامـة لمواجهـة الأخطار والتحديات القائمة.

إن الاهتمام بالجوانب الفكرية عند أبناء الأمة – وهو ما يسمى بتوجيـه الثقافـة – مـن شأنه أن يعيد الروح فى طاقات الأمة التى كبلـها العجـز والتواكـل، كمـا حـدث فـى زمـن نور الدين زنكى، ومن بعده صـلاح الـدين الأيـوبى، فكـان أن تجـددت الفاعليـة، وعـادت العافية إلى الأمة لكى تواجه الأخطار التى هددت هويتها ووجودها.

وتجدد الفاعلية عبر التاريخ الإسلامى القديم والحديث دلالة على أن الأمة المسلمة قـد تعرف المرض والوهن، ولكنها لا تعرف الفناء والذوبان، وهى خصيصـة تعـود إلى الإسـلام العظيم الذى سيبقى فى حلبة الصراع مع الباطل إلى يوم الـدين، قـال ﷺ : **«لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»**.

٣ – المعوقات (الواقع):

لقد قررنا فى بداية هذه الدراسة أن الخلل الـذى أصـاب الأمـة الإسـلامية اليـوم فـى سعيها نحو المشروع الحضـارى الكـبير هـو قلـة الفاعليـة فـى العمـل، وعـدم تقـديم الجهـد المطلوب، وعـدم الاسـتفادة مـن الوسـائل المتاحـة، فلـم يكـن يـنقص الفـرد المسـلم منطـق الإخلاص بقدر ما كان ينقصه منطق العمل والحركة، فهو يفكر ولكن لا ليجسد فكرتـه فـى عمل صائب، وإذا عمل لا يقدم الجهد المطلوب.

وإن من يعقد مقارنة بسيطة بين حال الأمة الإسلامية، وحال غيرها من الأمم التى سلكت سبيل التحضر يدرى مدى الفرق الواضح فى هذا المقوم الحضارى بين ما هو عندنا، وما هو عند غيرنا، فالفرد المسلم عندنا ما زال لا يحسن التعامل مع الأشياء بفاعلية – باستثناء حالات فردية خاصة – أما فى تلك المجتمعات فإنه يقدم أعلى درجات الفاعلية، حتى إننا نسمع عن موت الأفراد عندهم من كثرة العمل كما هو الحال فى المجتمع اليابانى.

والذى يؤسف له أن كثيراً من المسلمين يعزون قلة الفاعلية فى الأمة إلى قلة الوسائل المتاحة، والإمكانيات الموجودة بين أيديهم، ويرون أن الانطلاق الحضارى لابد له من وسائل كبيرة للتغلب على مشكلات الحياة كالفقر، والأمية، والبطالة والكساد، وغيرها من المشكلات، ويجهلون أن تلك المجتمعات المتحضرة لم تكن تملك ساعة انطلاقها سوى الأشياء الأولية الضرورية لأى إقلاع حضارى، وينسون بذلك سنن الله فى التغيير التى تبدأ من الإنسان نفسه، حين يعرف كيف يستثمر المعطيات الموجودة عنده ليحقق بها أحسن النتائج فى ميدان الحضارة والبناء وبعضهم يعلل هذا العجز بالقضاء والقدر كما هو الحال عند أكثر العزام الحيارى، وهو ما جعل الأمير شكيب أرسلان يصرخ قائلا: المسلم الجامد لا يدرى أنه بهذا المشرب يسعى إلى بوار ملته وحطها عن درجة الأمم الأخرى، ولا يتنبه لشيء من المصائب التى جرها على قومه إهمالهم للعلوم الكونية حتى أصبحوا بهذا الفقر الذى هم فيه وصاروا عيالاً على أعدائهم الذين لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة، فهو إذا نظر إلى هذه الحالة عللها بالقضاء والقدر بادئ الرأى، وهذا شأن جميع الكسالى فى الدنيا يحيلون على الأقدار لابد أن نعلم أن الوهن الذى أصاب المسلمين اليوم هو ما كسبت أيديهم، وهو نتيجة حتمية لتقاعسهم عن أداء رسالتهم فى الحياة، ومهما كانت أسباب هذا الوهن، فهو مرض مزمن يحتاج إلى علاج فعال، يقضى عليه من جذوره.

إن هناك أسباباً نفسية واجتماعية كثيرة تقف عائقاً أمام تحقيق شروط الفاعلية عند المسلمين، وهى أسباب موضوعية منسجمة مع سنن الله فى التغيير، أى أن توفير الظروف المناسبة، وتوجيه المسلمين التوجيه الصحيح، مع شأنهما أن يبعثا الحركة والحياة فى النفوس الجامدة، ويعطياها المبررات الكافية للانطلاق من جديد.

وهذه الدراسة تحاول أن تكشف عن بعض المعوقات التى وقفت فى طريق الفاعلية عند المسلمين، وهى معوقات كثيرة لها علاقة مباشرة بالنواحى النفسية والاجتماعية، وحسبنا أن نشير إلى بعض تلك المعوقات التى نراها أكثر تأثيراً فى النفوس من غيرها.

١ – الخلل فى فهم العبادة:

العبادة هى حركة المسلم فى الحياة وفق النواميس الإلهية، وهى تعنى الاعتراف لله بحق من حقوقه على العباد**{أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ}**[(١)] وهى فى المنهج القرآنى السبب الذى قام عليه الخلق كله**{وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}**[(٢)]، قال ابن تيمية – رحمه الله –: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

ومن أهم خصائص العبادة فى الإسلام الشمول، أى أنها تتسع للحياة كلها، فلا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج، بل تشمل كل حركة، وكل عمل ترتقى به الحياة ويسعد به الناس.

إن كل نشاط يقوم به المسلم يدخل فى باب العبادة إذا تحقق فيه شرطا الإخلاص والصواب، قال الفضيل بن عياض: لا يقبل الله عملاً حتى يكون مخلصاً صواباً، ومن هنا يتسع مفهوم العبادة ليشمل كل حركة يقوم بها المسلم، سواء أكانت شعائر تعبدية محضة، أم أعمالاً يومية فى مجالات الحياة المختلفة، المهم أن تتحقق فيها النية الصادقة، والمنهج الصائب، وهذا هو معنى الإحسان الذى أشار إليه النبى ﷺ فى قوله: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** [(٣)].

وحين يدرك المسلم هذا البعد الكبير للعبادة، وأن حركته فى الحياة كلها عبادة، فإن هذا الفهم يمنحه تصوراً إيجابيا عن الحياة، يصبح به شديد الحرص على تقويم أعماله وتوجيهها نحو أهداف نبيلة تحقق الخير والنفع له ولمجتمعه، وتتسم حركته بفاعلية أكثر لوجود الحوافز المادية والمعنوية التى وضعها الشرع للعبادة.

أما حين لا يصبح للعبادة هذا المعنى الشمولى فى حياة المسلم، تصبح العبادة فى نظره مجرد شعائر وطقوس يقوم بها يومياً، وهى تأخذ من وقته جانباً ضئيلاً، فإن سلوكه الاجتماعى فى الحياة سيختلف، لأن مفهوم العبادة تقزم عنده، فالحياة التى يعيشها كل يوم، والنشاطات الحيوية التى يمارسها فى كل حين، وتأخذ جانبا كبيراً من وقته ليس لها أى وزن فى مقاييس الدين عنده، ومن هنا بدأ الخلل يتسرب إلى الفكر، وينعكس على الفاعلية.

إن الخلل فى فهم العبادة الذى تسرب إلى المسلمين جعلهم يفصلون بين عمل الدنيا وعمل الآخرة، ويقيمون جداراً فاصلاً بينهما، ويجعلون العمل الأخروى فى مرتبة عليا لا يرتقى إليها بأية حال العمل الدنيوى من حيث القيمة المعنوية والأجر الأخروى، وترتب

---

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) رواه البخارى.

على هذا الخلل فى الفهم عدم الاهتمام بقضايا الدنيا الهامة التى لها علاقة مباشرة بواقعهم الاجتماعى المعاش، ومن هنا قل نشاطهم، وتراجعت فاعليتهم اعتماداً على هذا التصور الخاطئ.

إن غياب الأبعاد الحقيقية لمفهوم فروض الكفاية، وموقعها كواجبات اجتماعية، تساهم بتماسك نسيج الأمة الاجتماعى، وتشعر بالمسؤولية التضامنية، وتنتهى بها إلى مرحلة الاكتفاء الذاتى، على مختلف الأصعدة، لقد همشت فروض الكفاية، حتى كادت تقتصر على قضايا المصير وكل ما يتعلق بحالات الوفاة ولوازمها من التغسيل والتكفين، وحمل الجنازة ودفنها، بعيداً عن إبراز دورها فى آفاق الحياة المتعددة فى كل ما له علاقة بمهمة الاستخلاف الإنسانى والتعمير الحضارى، وأهمية تقديمها على الفروض الفردية، وإدراك دورها فى حياة الأمة.

لقد ظل المسلمون قروناً طويلة يزهدون فى فروض الكفاية التى تتصل اتصالا مباشرا بالقضايا الحياتية الهامة مثل الواجبات اليومية، والأعمال المنوطة بعاتق كل فرد، والزهد فى الشيء والتقليل من شأنه يورث نوعاً من التقاعس فى أدائه، ولهذا السبب لم يعمل المسلمون بفاعلية تامة فى هذه الميادين الخطيرة، لفقدهم الحوافز المعنوية اللازمة التى يملكونها حيث يمارسون بعض الأعمال التعبدية المحضة.

فالخلل فى فهم العبادة بمفهومها الشامل قلل من فاعلية المسلمين فى هذا العصر، على العكس فهم سلفنا الصالح للعبادة الذى جمع بين البعد الدنيوى والأخروى، هو المستفاد من سيرة الرسول ﷺ الذى كان أتقى الناس فى ربطه بين الدنيا والآخرة، وهو القائل: **«إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر»**[1].

إنه طريق واحد أوله فى الدنيا وآخره فى الآخرة، وهو طريق لا يفترق فيه العمل عن العبادة ولا العبادة عن العمل، كلاهما طريق لا يفترق فيه العمل عن العبادة ولا العبادة عن العمل، كلاهما شيء واحد فى نظر الإسلام، وكلاهما يسير جنباً إلى جنب فى هذا الطريق الواحد الذى لا طريق سواه... وتوكيد قيمة العمل وإبرازه والحض عليه فكرة واضحة شديدة الوضوح فى مفهوم الإسلام ولكن الذى يلفت النظر هنا ليس تقدير قيمة العمل فحسب، وإنما هو إبرازه على أنه الطريق إلى الآخرة الذى لا طريق سواه.

---

(١) مسند أحمد.

إن الفكرة تحتاج إلى فاعلية لتأخذ مكانها فى الواقع، ولا سبيل أمام المسلمين اليوم إلا الربط بين الفكر والعمل، والعبادة والفاعلية، ليتبؤوا مكاناً لائقاً بين الأمم التى سلكت سبيل التحضر.

٢- فقدان المبررات:

المبررات هى الأسباب والدوافع القريبة والبعيدة التى تدفع إلى إيجاد نشاط فعال فى المجتمع، فهى إذن شروط الفاعلية لأن الإنسان حين يملك المبررات يحدث عنده شعور خاص يحس من خلاله بأن لديه شيئاً يمكن أن يقدمه للآخرين، فحدوث هذا الشعور عنده يكون سبباً لفاعليته ونشاطه.

والمبررات عنصر ضرورى لقيام أية حضارة لأنها توجد العمل والفاعلية، وتحرك الطاقات الاجتماعية، وتدفع النشاط الفردى والجماعى إلى أعلى قمة، يقول مالك بن نبى - رحمه الله -: إن المبررات هى التى تحرك الطاقات الاجتماعية وتوجهها إلى مستوى أعلى من مستوى الحيوان الذى يحيا حياة فردية، وهى التى تدفعها إلى مستوى مصلحة الآخرين، فإن فكرة الفاعلية أو التوتر تمس الواقع الاجتماعى فى كل الظروف، بحيث يضعها كل مجتمع أو لا يضعها وراء أعماله وسلوكه، فالتوتر حالة اجتماعية دل التاريخ على أنها تنشأ فى ظروف معينة ثم تزول فى ظروف أخرى، وإن المبررات هى التى تكون الدوافع الإنسانية التى يدفع النشاط إلى أعلى قمة.

وحين يفقد المجتمع مبرراته فإنه يفقد وجوده الاجتماعى وينقلب من مجتمع متحرك فعال إلى مجتمع جامد، لأن كل فرد فيه يصبح عاجزاً عن تقديم أى شىء للآخرين، بل إنه قد يفقد الرغبة فى الحياة ويفضل الاستقالة منها عن طريق الانتحار، سواء أكان هذا الانتحار مادياً، كما هو الحال فى بعض الدول الغربية - أم روحياً كاتباع طريق العزلة والتصوف وفك الروابط التى تربطه بالمجتمع كما هو حال بعض (الدراويش) فى مجتمعاتنا الإسلامية، ومن هنا فإن فقدان المبررات فى أى مجتمع يعنى السقوط فى هاوية العجز والوهن، وبداية الدخول فى ليل التاريخ.

وهناك ظروف اجتماعية، وأسباب دينية - فى غالب الأحيان - وراء بروز المبررات فجأة فى مجتمع من المجتمعات، فينطلق أفراده بدوافع نفسية قوية لأداء رسالة فى التاريخ، وهذا الحال ينطبق على جميع المجتمعات التى عرفت الحضارة، فإذا أخذنا مثلا المجتمع الإسلامى فى بداية رحلته الحضارية نجد أن المسلمين اكتسبوا من المبررات ما جعلهم ينطلقون بفاعلية كبيرة لم يشهد التاريخ مثلها، لأنهم اقتنعوا بأنهم يملكون شيئاً فيه الخير

والنفع للإنسانية، فكان الواحد منهم يشعر بأن لديه رسالة عظيمة فى التاريخ لا يجوز أن يقوم بها أحد غيره، أنها رسالة تخرج الناس وتحررهم من قيود العبودية للبشر إلى عز العبودية لرب البشر.

لقد حدث فى المجتمع الإسلامى الأول انفجار للطاقات الاجتماعية التى توجهت كلها نحو العمل، كخلية النحل، تعمل بدقة ونظام، كل واحد من عناصرها يقوم بعمله ووظيفته، وتجتمع كل هذه الطاقات لتصب فى مصب واحد هو مصلحة الخلية، لقد كنت ترى المسلم يندفع بقوة وعزم ليجسد فكره فى عمل مثمر فى ميادين الحياة المختلفة، وتراه يستفرغ طاقته كلها ليحصل على أجر الجهاد فى سبيل الله، وحب الجهاد عنده جعله يسأل بتوتر منقطع النظير عن الشيء الذى يعدله أو يفوقه حتى يعمل به، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قيل: يا رسول الله، ما يعدل الجهاد فى سبيل الله؟ قال: **«لا تستطيعونه»**، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاث، كل ذلك يقول: **«لا تستطيعونه»** ثم قال: **«مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم لا يفتر من صلاة وصيام، حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله»**[(1)].

ومن هذا الفهم للعبادة، ولرسالة الجهاد يبدو لنا الجهد الكبير فى موقف الصحابى الجليل (عمار بن ياسر) الذى حمل حملين بدل حمل واحد كما كان يفعل كل صحابى فى مشروع بناء المسجد النبوى، وهذا مثال واحد من فيض كثير من المواقف البطولية التى سجلها التاريخ للمسلمين الأوائل.

لقد كان للمبررات التى جاء بها الإسلام دور كبير فى إحداث التوتر الاجتماعى الذى يدفع إلى العمل والحركة بقوى وفاعلية، ولهذا السبب كون أبناء الإسلام حضارة متميزة خلال فترة قصيرة من الزمان.

ولكن – مع الأسف – ومع مرور الزمن بدأ الفتور يمتد إلى عزائم المسلمين وبدأت نفوسهم تفقد شيئاً فشيئاً توهج الروح، كل ذلك نتج عن فقدان المبررات، حتى وصل بهم الأمر إلى الخروج من دائرة التحضر، وقديماً حاول العلماء المجددون إعادة المبررات المفقودة إلى المجتمع الإسلامى، كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وحديثاً حاول ويحاول رجال الإصلاح وحركات الصحوة الإسلامية إعادة تلك المبررات إلى أبناء الأمة، وتوجيه الطاقات نحو بناء المشروع الإسلامى من جديد.

إن فقدان المبررات هو أحد المعوقات الأساسية التى جعلت المسلم فى هذا العصر يشعر

---

(١) موطأ مالك.

أنه لا يملك شيئاً يمكن أن يقدمه للآخرين مما ساهم فى تقليل نشاطه، وتفتير عزائمه، وجعله مسلماً عاجزاً لا يقدر على جلب احترام الآخرين لـه.

٣- ضعف الإيمان:

الإيمان هو المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية، وهو الذى يبث إشـعاع الـروح فـى الضـمائر والنفوس فينقلها من عالم الموت إلى عالم الحياة، وقد قرر بعض علماء الاجتمـاع أن الحضـارة تولد مرتين: أما الأولى: فميلاد الفكرة الدينية، وأما الثانية: فهـى تسـجيل هـذه الفكـرة فـى الأنفس – الإيمان – أى دخولها فى أحداث التاريخ.

فأية حضارة فى طور النشوء لابد أن تنبنى على فكرة دينية يؤمن بهـا أنـاس بـدائيون، وهذا الإيمـان يمـنحهم مـن المـبررات مـا يجعلـهم ينطلقـون بحـرارة وقـوة لتحقيـق رسـالتهم الحضارية، وينطبق هذا على جميع الحضارات التى عرفتهـا البشـرية، ومـن هنـا كـان الإيمـان مقوماً حضارياً، وليس فلسفة نظرية ليست لها أية أبعاد اجتماعية.

وإذا أخذنا الحضارة الإسلامية – مثلاً – نجد أن الإيمان بـالفكرة الجديـدة قلـب هـؤلاء العرب البسطاء من أجلاف متناحرين، إلى دعاة إسلاميين تتمثل فيهم رسالة الإسلام بما فيها من قيم حضارية، ومبادئ أخلاقية تنقذ الإنسان من ضيق الأرض وترفعه إلى سـعة السـماء، لأنهم اقتنعوا بأن إيمانهم يجعل منهم أصحاب رسالة خالدة، وليس مجرد إيمان بارد ليس لـه أية رسالة فى الحياة.

إن الإيمان رسالة فى الحياة، وليس مجرد فلسفة نظرية – كما هو الحـال عنـد كـثير مـن الناس – وبما أنه رسالة فى الحياة فإن لـه أبعاداً اجتماعية كثيرة لعل أبرزهـا تـوفير المـبررات اللازمة للانطـلاق الجمـاعى نحـو التحضـر، ومـنح المسـلم الفاعليـة الكافيـة لتغـيير الواقـع الفاسـد**{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** (١).

أما حين يصبح الإيمان إيماناً جذبياً – أى مادياً – دون إشعاع، أعنى نزعـة فرديـة، فـإن رسالته التاريخية تنتهى على الأرض إذ يصبح عاجزاً عن دفع الحضارة وتحريكها، إنـه يصـبح إيمان رهبان، يقطعون صلاتهم بالحياة، ويتخلون عن واجباتهم ومسـؤولياتهم، فالإيمـان قـوة روحية تدفع المجتمع بكامله نحو أداء رسالته الحضارية، وذلك بدينهم، فهم بلا شك مقتنعـون

(١) آل عمران: ١١٠.

– على الأقل من الناحية النظرية – بأن دينهم حق، ومن يحاول أن يقنع المسلمين فى هذا الجانب فإنما يضيع وقته، ولكن الذى ينقصهم هو الاقتناع بأن لهم رسالة يقتضيها ويتطلبها هذا الإيمان، وبذلك أصبح الإيمان عندهم مجرد عقيدة باردة ليس لها أى بعد اجتماعى.

ومن هنا ينبغى لنا ألا نخلط بين الإيمان كعقيدة فردية تطلب النجاة فى الآخرة، والإيمان كرسالة اجتماعية تسعى نحو النجاح فى الدنيا والآخرة، يقول مالك بن نبى – رحمه الله –: إن الإيمان لم يفقد مطلقاً سيطرته فى العالم الإسلامى، حتى فى عهود الانحطاط، بل أن هذه الملاحظة تصبح جوهرية حين يكون الأمر أمر تقويم أخروى للقيم الروحية، أما حين نتناول المشكلة من الوجهة التاريخية والاجتماعية فينبغى ألا نخلط بين نجاة المرء فى عاقبة أمره، بتطور المجتمعات.

إن المسلمين اليوم فقدوا الرغبة فى العمل والعطاء، وتسرب إليهم الوهن والعز لضعف إيمانهم، وفتور هممهم، فالقوة الإيمانية التى دفعت أسلافهم نحو البناء الحضارى، لم تعد تملك الوقود اللازم الذى يتمثل فى شرارة الروح، ووضوح الفكرة، وبذلك أصبح المسلمون عاجزين عن أداء رسالتهم الحضارية، لأن من يفقد قوة الدفع اللازمة، سيبقى ثابتاً فى مكانه يدور حول نفسه.

ويبين الرسول ﷺ فى حديث القصعة المشهور حالة الأمة حين تفقد رسالتها الإيمانية فيقول: **«يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»** قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: **«لا، بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن»**، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: **«حب الدنيا وكراهية الموت»** (1).

إن هذا الحديث يقدم تفسيراً واضحاً للأزمة الحضارية التى تمر بها الأمة الإسلامية فى هذا العصر، مع ما لديها من كثرة فى العدد، ووفرة فى الوسائل، فالرسول ﷺ وصف الأمة بالغثائية، وهى تعنى فقدان الفكر والمنهج، لأن السبيل المتدافع ليس له هدف يسير إليه، وهو فى سيره يحمل ركاماً من الأشياء التى ليس لها أية قيمة فى نظر الإنسان، وهذه الغثائية التى تتجلى فى فقدان الفكر والمنهج هى نتيجة حتمية للوهن أو اللافاعلية **«وليقذفن فى قلوبكم الوهن»**، أما الظروف الكامنة وراء وصول الأمة إلى حالة الغثائية فهى بتعبير الرسول ﷺ : **«حب الدنيا وكراهية الموت»** وبتعبيرنا نحن (ضعف الإيمان) أو فقدان

(1) سنن أبي داود.

الرسالة الاجتماعية.

إن حب الدنيا وكراهية الموت يعنى التخلى عن رسالة الجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى الرسالة الاجتماعية التى يقتضيها الإيمان بالله تعالى، ومن هنا كان ضعف الإيمان أحد المعوقات الأساسية أمام المسلمين فى هذا العصر، فقد دب فيهم مرض الوهن، وتسرب إليهم العجز، وأصبحوا يشعرون بأن رسالتهم فى هذا الزمان محدودة، وأنهم لا يملكون شيئاً يمكن أن يقدموه للآخرين، وهذا العجز أطمع الأمم الأخرى فيهم، لأن الضعف – كما يقول المثل – يغرى بالعدوان.

٤ – التقليد:

التقليد هو الصورة المضادة للاجتهاد، وهو يعنى أخذ القول دون دليل أو برهان، قال ابن قيم الجوزية – رحمه الله –: التقليد ثلاثة أنواع، أحدها: الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء. الثانى: تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله. الثالث: التقليد بعد قيام الحجة، وظهور الدليل على خلاف قول المقلد.

والتقليد مذموم فى الشريعة الإسلامية لأنه من الظواهر السلبية فى الحياة الفكرية للأمة – وقد ذمه القرآن الكريم وعبر عنه بالآبائية التى تعنى اتباع الآباء، أو من لهم رأى أو سلطة دون دليل أو برهان، قال تعالى:**{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ}** (1)، وقال تعالى:**{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ}** (2).

أما الاجتهاد فقد عبر عنه القرآن الكريم بالبرهانية أى الدعوة إلى اتباع الدليل والبرهان للوصول إلى الحقيقة، وترك التقليد المذموم الذى يقود إلى الجهل والعصبية، قال تعالى:**{قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** (3).

إن التقليد عامل طارئ على العالم الإسلامى، فلم يكن معروفاً فى القرنين الأول والثانى، وقد توافرت جملة من الأسباب النفسية والاجتماعية التى أدت إلى ظهوره فى العصور المتأخرة، ولعل أبرز هذه الأسباب قصور الهمم عن الاجتهاد بعد أن بدأ المجتمع الإسلامى يفقد شيئاً فشيئاً مبرراته الاجتماعية.

---

(١) البقرة: ١٧٠.
(٢) المائدة: ١٠٤.
(٣) البقرة: ١١١.

لقد كان علماء السلف يحذرون من خطر التقليد حتى انتشرت بينهم المقولة الشائعة: (لا تقلدنى ولا تقلد مالكاً ولا الشافعى، ولا الأوزاعى، ولا الثورى، وخذ من حيث أخذوا).

وحين أصبح التقليد يهدد ثقافة الأمة قامت صيحات كثيرة تدعو إلى الاجتهاد وترك التقليد، كما حدث مع (ابن حزم الظاهرى) الذى صرخ بأعلى صوته (التقليد حرام)، لأنه شعر بأن التقليد المذهبى قيد الكثير من الطاقات الفكرية، وجعلها تدور فى دائرة ضيقة لا تخرج عنها، وكما حدث مع ابن تيمية – رحمه الله – الذى كثيراً ما ذم التقليد وأتباعه، وهو الذى يقول: (لا يجب على أحد من المسلمين تقليد شخص بعينه من العلماء فى كل ما يقول، ولا يجب على أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معين غير الرسول ﷺ فى كل ما يوجبه ويخبره به، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

وقد حذر كثير من العلماء فى عصرنا الحديث من خطر التقليد الذى أضعف القاعدة الفكرية للأمة، منهم محمد رشيد رضا – رحمه الله – الذى يقول:

إن فى تحريم التقليد وتصريح الكتاب العزيز بأن الله تعالى لا يقبله، ولا يعذر صاحبه به فى الآخرة لتأكيداً شديداً لإيجاب العلماء الاستقلالى الاستدلالى فى الدين، وقال مالك بن نبى – رحمه الله –: إن التقليد الخلفى يقتضى التخلى عن الجهد الفكرى حتماً، أى عن الاجتهاد الذى كان الوجهة الأساسية للفكر الإسلامى فى عصره الذهبى.

إن التقليد هو مرض من الأمراض الفكرية التى أثرت بشكل مباشر فى مسيرة الأمة الإسلامية، وكانت من العوامل المساهمة فى أفولها، وإن من يستقرئ تاريخ الاجتهاد فى حياة الأمة الإسلامية، يلاحظ أن هناك علاقة عنصرية بين ازدهار هذا الاجتهاد وتقدم الأمة وقوتها، وإن ضعف الأمة وتخلفها كان من وراء تخلف الاجتهاد وضعفه، وهذا يعنى أن الاجتهاد مناط القوة والتقدم للأمة الإسلامية، لأن مدلوله لا ينصرف إلى استنباط الأحكام العلمية فحسب، ولكنه يشمل كل مجالات الحياة المختلفة من حيث إنه قوة تحرك كل الطاقات نحو العمل المتقن فى شتى الميادين.

وإذا كان الاجتهاد قوة محركة للطاقات الفكرية نحو العمل والفاعلية، فإن التقليد عامل يصيب الأمم بالسلبية والكساد، ويؤثر تأثيراً سلبياً فى التفاعل الحضارى وتقدمه، وإن من يتأمل فى حال بعض الأمم التى سلكت سبيل التحضر يدرك أنها تخلصت من الأفكار الميتة الموروثة، وجددت قاعدتها الفكرية والثقافة بتوفير كل الظروف للاجتهاد والبحث العلمى الجاد حتى يبقى المجتمع متجدداً فى فكره وفاعليته، وهو ما حدث (لليابان) حين اتخذ موقفاً

تاريخياً من الأفكار الموروثة من عهد (الشوغون).

وفى الواقع المعاصر ما زال التقليد منتشراً بين الكثير من أبناء الأمة الإسلامية حتى على مستوى المذاهب الفقهية، ومع حداثة الوسائل فى نشر التراث، وتحقيق المصادر القديمة، وطبع المراجع الحديثة، ما زالت الهمم مقيدة بحبل التقليد والتبعية، وباستثناء بعض الأنماذج الفردية التى تسير فى طريق الاجتهاد – ما زال العمل الاجتهادى بعيداً عن أداء رسالته الحضارية الجماعية.

ونخلص إلى نتيجة مهمة وهى أن التقليد بمظاهره المختلفة هو أحد الأسباب المعطلة للفاعلية فى الأمة، وإنه لا سبيل إلى التحضر إلا بنبذه وبث روح الاجتهاد والبحث العلمى الجاد بين جميع المسلمين خاصتهم وعامتهم.

٥- التعصب المذهبى والحزبى:

إن وحدة الأمة الإسلامية فى العلم والمنهج، والثوابت والأهداف هى الركن الأساسى الذى قامت عليه الدعوة الإسلامية الموجهة إلى الناس أجمعين، ولقد استجاب لها المسلمون فى أول عهدهم فأكسبتهم قوة وغلبة عزت بها الدينية فانتشرت، وانتصرت وصدت من عارضها، ففتحت أمامها الطرق، واتسع لها الأفق، وأصبحت عنواناً للإسلام ومصدراً لتفجير الطاقات المعطلة، ووسيلة لتوجيه النفوس المكبلة.

ولقد دعا القرآن الكريم إلى اجتماع الأمة كلها على منهج واحد، وعدم الاختلاف والتفرق فيه قال تعالى:**{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}**[١]، وقال أيضا:**{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً}**[٢] وقال أيضا:**{وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}**[٣].

وقد شبه الرسول ﷺ المؤمنين بأعضاء الجسد الواحد، ولم يكن شىء أبغض إليه بعد الكفر بالله من الاختلاف والتنازع، ولو فى الأمور العادية والاختلاف الذى ذمه ﷺ ليس ذلك الاختلاف الطبيعى الذى جبل عليه الناس، وإنما كان داعياً إلى الخصومة والنزاع، يقول محمد رشيد رضا – رحمه الله –: لما كان الاختلاف فى الفهم والرأى من طباع البشر**{وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}** خص الاختلاف المذموم فى الإسلام

(١) الأنبياء: ٩٢.
(٢) آل عمران: ١٠٣.
(٣) آل عمران: ١٠٥.

بما كان عن تفرق أو سبباً للتفرق، وجرى على ذلك السلف الصالح، فحظروا فتح باب الآراء فى العقائد وأصول الدين، وحتموا الاعتصام فيها بالمأثور من غير تأويل، وخصوا الاجتهاد بالأحكام العملية، ولا سيما المعاملات، وكان بعضهم يعذر كل من خلفه فى المسائل الاجتهادية ولا يكلفه موافقته فى فهمه.

لقد جاء التوكيد فى مصادر الوحى على أن ملة الإسلام هى ملة واحدة، وأن المستحق للعبادة والخضوع هو الله وحده، وعلى أساس هذه القاعدة يجب الاجتماع والوحدة ولكن الذى أحدثه المسلمون – بعد القرنين الأول والثانى – هو تمزيق هذه الوحدة الجامعة، حيث جعلوا دينهم مجموعة من المذاهب والأحزاب و**{كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}**[1]، وكان هذا التفرق سبباً رئيساً فى تردى الأمة وضعفها، وأدى إلى مشكلات حضارية وفكرية ما زالت تعانى منها الأمة الإسلامية حتى الآن.

إن هناك أسباباً اجتماعية وفكرية وسياسية كثيرة كانت وراء ظهور المذهبية والحزبية فى تاريخ الأمة الإسلامية لعل أبرزها الاختلاف فى نظرية المعرفة بين المسلمين، مما أدى إلى ذلك الخلل فى فهم مراد الله، وهذا أدى بدوره إلى تفكيك القاعدة الفكرية، وتجزئة التصور الإسلامى، حتى وصل الأمر بالمسلمين إلى تكفير القاعدة والأصل، وانتشر بينهم الحديث الموضوع: **«اختلاف أمتى رحمة»**.

يقول ابن تيمية – رحمه الله –: إن سبب الاجتماع والألفة جمع الدين والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطناً وظاهراً، وسبب الفرقة ترك حظ ما أمر العبد به، والبغى بينهم، ونتيجة الجماعة رحمة الله ورضوانه وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه، ونتيجة الفرقة عذاب الله ولعنته وسواد الوجوه.

فسبب الانسجام والوحدة بين المسلمين – كما يرى ابن تيمية – هو الولاء المطلق لله ولرسوله وللمؤمنين الذين ينتمون إلى المبدأ نفسه لأن هذا الولاء من شأنه أن يؤسس شبكة العلاقات الاجتماعية التى تجتمع لتصب فى مصب واحد هو مصلحة الدين والأمة، وإذا كانت المذهبية الفكرية سبباً أساسياً فى الفرقة بين المسلمين قديماً، فإن الحزبية التى اتخذت أشكالاً سياسية ودينية وعرقية وغيرها هى من أهم عناصر الاختلاف فى هذا العصر، حتى إنك تجد الخلاف عميقاً ضمن الاتجاه الواحد، وقد يصل أحياناً إلى المجابهة المادية، مما أوهن قوى الأمة الإسلامية، وقلل من احترامها أمام الأمم الأخرى التى تتربص بها الدوائر.

---

(١) المؤمنون: ٥٣.

إن التجمع الحزبى هو فى حقيقته وسيلة من الوسائل التى يلجأ إليها لتحقيق أهداف كبرى، والمتأمل فى تاريخ الأحزاب عامة يجد أن أى حزب منها هو فى الغالب ثمرة فكر رجل واحد تجلت لديه بعض القدرات الاجتهادية، ثم يتجمع حوله مجموعة من الأتباع يتخذون من تجمعهم وسيلة لتحقيق غايات زعيمهم النظرية، ولكن الذى يحدث مع مرور الزمن – وبخاصة بعد وفاة الزعيم – هو تقليد الأتباع لزعيمهم ودورانهم فى فلك أفكاره، ويحدث عن هذا التقليد نوع من التعصب للأفكار يصبح بعدها الحزب غاية فى حد ذاته، الأفكار التى تخالف مبدأه، ويصبح لسان حاله وقاله يقول: لن أبنى نفسى إلا إذا هدمت غيرى!.

وإذا كانت الأحزاب فى بعض الدول المتحضرة أدوات فعالة تتسابق كلها لخدمة المجتمع، فإنها فى بلادنا الإسلامية عاجزة عن توجيه الطاقات – باستثناء بعض النماذج الإسلامية – وهى فى أغلبها بؤر لتجميد تلك الطاقات، حيث إنها تقيدهم بقيود الحزبية ولا تعطيهم مجالاً للتحرك خارج إطارها، حتى وإن كان ذلك إبداعاً أو اجتهاداً أو نقداً ذاتياً بناء.

إن توجيه العمل والفاعلية فى مرحلة التكوين الاجتماعى عامة يعنى سير الجهود الجماعية كلها فى اتجاه واحد، ومع وجود التعصب الحزبى والمذهبى لا يمكن تحقيق الوحدة الفكرية والثقافية بين المسلمين.

٦ – فقدان الحرية (القهر):

يعد مصطلح الحرية من أكثر المصطلحات شيوعاً فى هذا العصر، ومن أكثرها دوراناً على الألسنة، واستخداماً بين الناس، فما من مذهب دينى أو علمانى أو لاهوتى، وما من زعيم مخلص أو مقهور أو مخادع، إلا وتجده داعياً إلى مبدأ الحرية، واضعاً إياه على رأس قائمة الأولويات، وذلك لما لكلمة الحرية من سحر وجذب وسيطرة على النفوس، ولا شك أن توجيه الجماعات فى هذا العصر أصبح يعتمد على تلك الوعود بتوفير الحرية، وكسر قيود العبودية والإذلال.

ولقد ظلت الحرية على مدار التاريخ عرضة لعمليات تحجيم ماكرة يراد منها أن تخدم مصالح بعض أصحاب القرار، الذين لا يؤمنون أصلاً بالحرية إلا بمقدار ما تمنحهم هذه الحرية من سلطات إضافية، تضاف إلى رصيدهم من التسلط والطغيان والجبروت، ولم تعرف البشرية معنى الحرية الحقة إلا فى ظل الإسلام الذى جعل العبودية لله طريقاً لتحرير الإنسان، كما شهد بذلك المنصفون من علماء الغرب –، يقول جوستاف لوبون: (تشتق

سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفى هذه السهولة سر قوة الإسلام، والإسلام وإدراكه سهل، خال مما نراه فى الأديان الأخرى، ويأباه الذوق السليم، خالياً من التناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله).

ومبدأ مساواة الناس جميعاً أمام الله هو أساس التحرر البشرى من عبودية الإنسان، هذه العبودية التى تتخذ ألواناً شتى، وإن من أشدها خطراً، وأبعدها أثراً من خضوع الإنسان لإنسان مثله، يحل لـه ما شاء متى شاء، ويحرم عليه ما شاء كيف شاء، ويأمره بما أراد، فيأتمر، وينهاه كما يريد فينتهى، وبعبارة أخرى يضع لـه نظام حياة لقد جاء الإسلام ليعلن تحرير الإنسان من عبودية البشر، قال تعالى:**{يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ}**[1]، وهذا هو المفهوم الإسلامى للحرية، المفهوم الذى يجعل الإنسان حراً كلما خضع فى تصوراته ومناهجه لله، وإن هناك فرقاً كبيراً بين هذا المفهوم، ومفهوم الفلسفة الغربية الحديثة التى تجعل الإنسان حراً فى كل شيء، ولا توجد قيود تقيده ما دام هو واضع المناهج والتصورات، وقد قادت هذه الحرية إلى التناقض والاختلاف، وإلى سيطرة الأهواء البشرية والشهوات الإنسانية وما زال الإنسان عبداً للإنسان.

إن شعور المسلم بالحرية فى العصور الأولى للإشعاع الروحى كان يمنحه نوعاً من العزة والثقة بالنفس، وفى الوقت نفسه كان يعطيه دافعاً معنوياً قوياً نحو العمل لإنقاذ البشر المكبلين بحبال العبودية، وقد كان قولهم: (جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد) رصيداً حضارياً يجوبون به الآفاق، ويحررون به البشر.

لم تكن الحرية عند المسلمين شعاراً براقاً ليس لـه أية علاقة بالواقع العملى، ولم تكن أكذوبة يضحكون بها على الناس، كما تفعل القوى الكبرى اليوم مع الشعوب المقهورة، وكما هو الحال فى مبادئ حقوق الإنسان التى خلفتها الثورة الفرنسية، التى أثبت الواقع العملى أنها فكرة تجسد سيطرة الإنسان القوى على الإنسان الضعيف.

إن الحرية تربى وتطلق الطاقات، وهى وقود ضرورى للفاعلية فى أى مجتمع من المجتمعات المتحضرة، وحين تفقد الحرية يحل محلها القهر والاستعباد وتتراجع النفوس عن أداء دورها ورسالتها الحضارية.

---

(١) آل عمران: ٦٤.

وإن نظرة فاحصة إلى واقع الحريات فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة تقودنا إلى تسجيل بعض الملاحظات منها:

أولاً: كان لخروج الاستعمار من البلاد الإسلامية إيجابيات كثيرة منها: عودة الشعور بالحرية، وعودة الأمل عند المسلمين لبناء حياة جديدة يسودها الخير والعدل والمساواة، ولكن لم يكتمل الشعور، ولم يتحقق الأمل لوجود عقبات أخرى أنشأتها الظروف الجديدة.

ثانياً: الأنظمة المختلفة التى قامت بعد الاستعمار وعدت المسلمين بالحرية شريطة الرضا بالأوضاع القائمة حتى وإن كان فيها مخالفة واضحة للإسلام، وحين قامت قوى الرفض تطالب بتصحيح الأوضاع قوبلت بالقهر المادى والمعنوى، ودفنت الحرية فى ليل الزفاف بثوبها.

ثالثاً: أصبح المسلم يشعر بنوع من القهر الاجتماعى يقيد حركته ويعطل نشاطه وبخاصة حين يحمل فكرة تغييرية في المجتمع، بحيث يمارس المجتمع ضده نوعاً من القهر، ليجعله فى نظر الناس إنساناً شاذاً يعيق حركة المجتمع نحو التقدم والتطور، ومن هنا استطاعت بعض الأنظمة والأوضاع أن تقيم حاجزاً بين الناس وبين الدعاة العاملين.

رابعاً: كان القهر الاجتماعي والسياسي سبباً فى هجرة كثيرة من المسلمين إلى بلد تشيع فيها بعض الحريات مما أعطاهم دوافع جيدة للفاعلية والإبداع، فى مجالات مختلفة من الحياة، وتسبب هذا فى تفريغ بلاد المسلمين من طاقاتها العاملة ويبقى أن نشير إلى أن فقدان الحرية هو أحد معوقات الفاعلية الأساسية التى تعيق الحركة، وتقلل النشاط، وتكبل الطاقات.

٧ – حالات نفسية سلبية:

ذكرنا فيما سبق أن البناء النفسى هو من أهم مقومات الفاعلية ونقصد بالبناء النفسى جاهزية النفس من حيث توفر المبرر، ووجود الوقود لأداء رسالتها الحضارية فى الحياة.

وعملية البناء النفسى هذه ليست بالعملية السهلة، لأن النفس البشرية هى ذات تركيب معقد، ويتطلب بناؤها وتغييرها شروطاً كثيرة، ولكنها شروط موضوعية تخضع للسنن الاجتماعية التى بينها الله سبحانه فى كتابه حيث قال: **{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}**(١).

وقد تشترك أسباب وظروف اجتماعية كثيرة فى نشأة بعض الحالات النفسية السلبية

(١) الرعد: ١١.

التى تقف عائقاً أمام الشروط اللازمة لبناء نفسى متكامل، ولعل أخطر هذه الحالات تأثيراً فى النفوس حالة اليأس والقنوط التى تسبب السلبية، وتفقد مبررات العمل، وتقلل من الفاعلية، وقد تقود أحياناً إلى العزلة والتصوف، أو إلى الانتحار والاستقالة من الحياة.

حالة اليأس والقنوط تقود كذلك إلى فقد الثقة بالنفس، والرضا بالواقع بما فيه من سلبيات وعيوب، ولخطر هذه الحالة على الأمة الإسلامية لا زال كثير من العلماء والدعاة يحذرون منها، ويدعون إلى القضاء على أسبابها، يقول الأمير شكيب أرسلان: قد انضم إلى الجبن والهلع اللذين أصابا المسلمين اليأس والقنوط من رحمة الله، فمنهم فئات قد وقر فى أنفسهم أن الإفرنج هم الأعلون على كل حال، وإنه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه، وإن كل مقاومة عبث، وإن كل مناهضة خرق فى الرأى، ولم يزل هذا التهيب يزداد ويتخمر فى صدور المسلمين أمام الأوروبيين إلى أن صار هؤلاء ينصرون بالرعب، وصار الأقل منهم يقومون للأكثر من المسلمين.

ويقول محمد أحمد الراشد: وفى المسلمين اليوم إحباط وتراجع وانسحابية ونفسية انهزامية لا يعالجها إلا وجود مثل هؤلاء القدوات الذين يتركون الخنادق والمعتزلات وينزلون إلى مخالطة الناس.

إن هذه الحالات النفسية السلبية التى أصابت المسلمين فى هذا العصر، هى نتيجة حتمية لفقد المبررات، فأصبح المسلم مع هذا الفقدان يشعر بأنه لا يملك شيئاً يمكن أن يقدمه للآخرين، وبدل أن يبحث عن مبررات جديدة راح يلعن الواقع، ويفرغ سخطه على الأعداء، مما أكسبه نفسية انهزامية وأفقده الرغبة فى الحركة نحو التغيير. وإن من أخطر النتائج المترتبة على حالات اليأس والقنوط التى أصابت بعض المسلمين فقدان الثقة بالإسلام نفسه. ونسب العجز له لا لأتباعه، وترتب على ذلك نشوء جماعة من أبناء المسلمين يدعون جهاراً إلى الحداثة والتغريب، وهم يرمون من وراء الدعوة إلى الحداثة والتجديد، الاستغناء عن قيم الإسلام التى يرونها لا تتناسب مع العصر، وإنه لا سبيل إلى الحضارة إلا بالسير على منهج الغرب، واقتفاء أثرهم فى كل شىء، وإن هذه الدعوة الخطيرة هى فى حقيقتها محاولة لإيجاد مبررات جديدة، ولكن بمنهج خاطئ.

إن الإسلام لا يمكن أن يكون سبباً فيما أصاب المسلمين من تخلف وتراجع وانهزامية، بل إنه قوة دافعة، وعامل محرك، يحارب العجز، ويمقت التواكل، وينبذ القنوط**{قُلْ يَا عِبَادِيَ**

الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ}[1]،**{وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}**[2] وكان رسول الله ﷺ يستعيذ فى إصباحه وإمسائه من الهم والحزن، والعجز والكسل، ولحرصه الشديد على نفسية المسلمين الإيجابية، كان يستعمل كل وسائل التربية والتوجيه حتى تبقى النفوس مؤمنة فعالة، يقول عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه: (كان رسول ﷺ يتخولنا بالموعظة خشية السآمة) [3].

هذا فى مستوى الوعظ الذى كان يراعى فيه ﷺ مقامات النفوس، خشية أن تتسرب إليها السآمة والملل واليأس، وحتى لا تفقد الوقود الروحى الذى يمنحها الدوام والاستمرارية والفاعلية.

ونخلص إلى أن اليأس والقنوط والانهزامية هى رحالات نفسية نتجت عن فقدان المبررات فى المجتمع، فالمسلم مع ابتعاده عن حرارة الإيمان، وإشعاع الروح، أصبح يشعر أنه إنسان لم يخلق لأداء رسالة فى الحياة، وأن الواقع الذى يعيشه ناقم عليه، ولم يجدد سبيلاً للخروج من هذا المأزق سوى اللعن والقنوط، ونسى أنه بدل أن يلعن الظلام فليوقد شمعة.

إن الفاعلية تتعلق أساساً بقضايا نفسية معقدة، وقد حاولنا فى هذا الفصل أن نذكر بعض المعوقات التى رأينا أنها أكثر تأثيراً فى نفوس المسلمين من غيرها، ولا شك أن هناك عوامل أخرى تساهم فى قلة الفاعلية أو انعدامها، تتعلق بالبيئة والمحيط الاجتماعى، وبالثقافات السائدة، والثقافات المستوردة، وبالأفكار الميتة، والأفكار القائلة، وبنظرة المسلم عامة، وبمركزه فى الحضارة الحديثة خاصة.

* * * * *

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) يوسف: ٨٧.

(٣) مسند أحمد (٤٠٠٨).

المبحث الثالث
المسلم وأركان الإيمان

١ – الإيمان بالله:

الإيمان بالله هو من الركن الأول من أركان الإيمان، فيجب أن نؤمن بالله وحده لا شريك له لا نعبد رباً سواه، خلقنا في أجمل صورة، وسخر لنا الأرض وما عليها من حيوان ونبات وماء وهواء، لله سبحانه وتعالى تسعة وتسعون اسماً علينا أن نؤمن بها، فالله هو القدير خلق كل شيء بقدرته، فرفع السماء بلا عمد ومد الأرض، وأنزل المطر، وأنبت الزرع، وجعل الليل والنهار، وخلق الشمس والقمر، والله سبحانه وتعالى يحيي ويميت وهو مالك الملك وعلى كل شيء قدير، الله لا يغيب عن سمعه أي أمر، فيسمع كل قول نقوله إن كان سراً أو علناً، وهو البصير الذي يرى كل الأمور، لا يغيب عنه أمر في السماء والأرض، فهو يرى الأشياء مهما صغر حجمها، وهو العليم الذي يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما يخفي وما يعلن كل إنسان منا، وهو وحده الذي يعلم الغيب ويعلم متى تكون القيامة ولا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض.

الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو الفطرة التي فطر الله عليها عباده، والإلحاد غاشية طارئة على الإنسان، خرج بها أصحابها عن أصل الخلقة ومقتضى الفطرة. ويدل على هذا قوله تعالى:**{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ}**[1]. وإن علم الإيمان هو أشرف العلوم لتعلقه بمعرفة الله سبحانه وتعالى وإفراده بالعبادة، وأيضا لما يترتب عليه من تحقق الحياة الطيبة في الحياة الدنيا والفوز بنعيم الخلد وجنة الأبد في الآخرة، وأما الملاحدة واللادينيون الذين لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى، ويبررون ذلك بأنه لا تدركه الحواس، فقد اتبعوا بهذه الأقوال سنن أعداء الإيمان الذين كانوا من قبلهم عندما جعلوا رؤية الله شرطا للإيمان. وهذه المكابرة هي منطق الكافرين قديما وحديثا، ولكنها في الحقيقة شبهة باطلة لأن هؤلاء يؤمنون بوجود العقول المفكرة ولم يروها، ويؤمنون بالجاذبية الأرضية ولم يروها. وهناك الكثير من الأمثلة على أمور مثل هذه يؤمنون بها دون أن يروها أو أن تدركها حواسهم. ولكنهم آمنوا بكل هذه الأشياء التي لا يرونها لما يرون من آثارها، كأثر الجاذبية في

---

(١) الأعراف: ١٧٢، ١٧٣.

جذب الأشياء إلى الأرض. ولذلك فإن الطريق إلى الإيمان بالله عز وجل هو التدبر في آياته، وهي تقود كل منصف إلى الإيمان بالله، وإلى الإيمان بربوبيته وألوهيته سبحانه وتعالى.

و إن من ثمرات الإيمان بالله الحياة الطيبة في الدنيا والهداية والعزة والتمكين والنصر على الأعداء والفوز برضوان الله والجنة في الآخرة، وهناك الكثير من الآيات في القرآن الكريم تؤكد هذا المعنى. ومن المعروف أن سبب عدم تحقق الكثير من هذه الوعود في واقع المسلمين حاليا هو ضعف إيمانهم، ولا سبيل إلى تحقيق هذه الوعود إلا بالعودة إلى الإيمان علما وعملا، تصديقا وانقيادا. ومن الآيات التي تؤكد هذا ما يلي:

قوله تعالى:**{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**(١).

و قوله تعالى:**{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى}**(٢).

و قوله تعالى:**{وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}**(٣).

و قوله تعالى:**{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ}**(٤).

و قوله تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}**(٥).

و قوله تعالى:**{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}**(٦).

و قوله تعالى:**{ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ}**(٧).

فبالإيمان يكون النصر والعزة والتمكين والنجاة والهداية والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وأما من أعرض عن الإيمان فله معيشة ضنكا، ويحشر يوم القيامة أعمى، ويعيش

---

(١) النحل: ٩٧.
(٢) طه: ١٢٣، ١٢٦.
(٣) المنافقون: ٨.
(٤) النور: ٥٥.
(٥) الحج: ٣٨.
(٦) الروم: ٤٧.
(٧) يونس: ١٠٣.

ذليلا مهزوما.

وجود الله عز وجل:

إن هناك نوعين من الوجود: وجود ذاتي، لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم، وهو ما كان وجوده ثابتا لـه في نفسه وليس مكسوبا لـه مـن غـيره، وهـذا هـو وجـود الله عـز وجـل كمـا قـال تعالى:**{هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**(١).

وجود حادث، وهو ما كان حادثا بعد عدم، فهذا الذي لا بـد لــه مـن موجـد يوجـده وخالق يحدثه، وذلك الخالق هو الله عز وجل، كما قال تعالى:**{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}**(٢).

و لذلك فإن الوجود صفة لله جل وعلا بإجماع المسلمين وجميع العقلاء حتى المشركين.

بعض الأدلة على ربوبية الله تعالى:

دلالة الفطرة: وهي ذلك الشعور الغامر الذي يملأ علـى الإنسـان أقطـار نفسـه، إقـرارا بخالقه وتألها لـه والتجاء إليه. والفطرة هي الميثاق الذي أخذه الله بربوبيته على بني آدم.

دلالة الآيات الكونية: فإن الأدلة على وجود وربوبية الله عز وجل بعدد مخلوقـات الله. وإذا تأمل الإنسان في هذا الكون وفي جميع المخلوقات الموجودة فيه، سيجد أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وهي مذكورة في قولــه تعـالى:**{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}**(٣).

إذا فهذه الأدلة هي: الخلق والتسوية والتقدير والهداية، وشرح هذه الأدلة باختصار كما يلي:

أ – دليل الخلـــق: وهـو خلـق الله لجميـع المخلوقـات، والإعجـاز في هـذا الخلـق. فالإنسان عاجز عن خلق أي شيء من عدم، ولكن الله سبحانه وتعالى خلـق الكـون بأكملـه من عدم. وكما قال تعالى:**{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ}**(٤). فخلق الله الإنسان والسماوات والأرض دليـل علـى وجـود الله وعلى ربوبيته. والمتأمل في خلق الله سبحانه وتعالى، مـن النجـوم والكواكـب، والأرض ومـا فيها من مخلوقات، وحتى في الخلايا التي يتكون منها الإنسان، يقر بوجود آيـات بينـات علـى

---

(١) الحديد: ٢.

(٢) الزمر: ٦٢.

(٣) الأعلى: ١ – ٣.

(٤) الطور: ٣٥، ٣٦.

وجود الله عز وجل.

ب – دليل التسوية: معنى تسوية الشيء هو إتقانه وإحسان خلقه وإكمال صنعته بحيث يكون مهيئا لأداء وظيفته، ويكون مستويا معتدلا متناسب الأجزاء ليس بينها تفاوت يخل بالمقصود. وهذه التسوية في الخلق تدل على وجود الله عز وجل، وعلى بديع علمه وإرادته وقدرته وحكمته.

ج – دليل التقدير: التقدير هو خلق كل شيء بمقدار وميزان وترتيب وحساب بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه. وتقدير الله سبحانه وتعالى في جميع مخلوقاته دليل آخر على وجوده عز وجل.

د – دليل الهداية: المقصود من الهداية هنا هو الإلهام الفطري أو الغريزي الذي تتوجه به المخلوقات قاطبة إلى أداء دورها وتحقيق وظيفتها في هذه الحياة. وهذه الهداية تشمل جميع المخلوقات، الحية وغيرها.

دلالة الحس: لدلالة الحس على وجود الله وجهان: الوجه الأول هو ما نشهده ونسمعه من إجابة الداعين وغوث المكروبين. وأما الوجه الثاني، فهو ما أيد الله به رسله من المعجزات التي تدل على وجود الله عز وجل لأنه هو الذي صنع المعجزات، ولأن الرسل أنفسهم دعوا الناس إلى الإيمان بوجود وربوبية الله سبحانه وتعالى.

دلالة إجماع الأمم: فإن جميع الأمم والديانات المعروفة أجمعت على ربوبية الله عز وجل، ولو أن بعضهم جعلوا لله شركاء يعبدونهم من دون الله. وأما ظاهرة الإلحاد وإنكار وجود الله عز وجل لم تكن فيما مضى إلا شذوذا تخلف به أصحابه عن مواكب العقلاء.

دلالة العقل: وهي تقوم على ثلاثة أسس:

الأول: أن العدم لا يخلق شيئا.

الثاني: أن الفعل مرآة لقدرة فاعله وبعض صفاته.

الثالث: أن فاقد الشيء لا يعطيه، فالمخلوقات جميعا لا يعقل أن ينسب إليها الخلق.

توحيد الربوبية:

معنى توحيد الربوبية: توحيد الله بأفعاله، واعتقاد تفرده بالخلق والملك والرزق والتدبير. كما قال تعالى:**{أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ}**[1].

و لا يكفي الإقرار بالربوبية للبراءة من الشرك، فإن معظم الطوائف تقر بالربوبية لله

---

(١) الأعراف: ٥٤.

سبحانه وتعالى، ولم يعرف عن أحد من الطوائف القول بأن للعالم صانعين متماثلين في الصفات والأفعال. ولكن هذه الطوائف وقع منها الشرك في بعض الربوبية كاعتقادهم الخلق والنفع والضر في آلهتهم المزعومة من دون الله. وإقرارهم بالربوبية هذا لم يخرجهم من أن يوصفوا بالشرك، لأن هذه الطوائف والأمم كانت تقر بالربوبية وتكفر بالألوهية.

و لكن توحيد الربوبية الخالص من الشرك هو المدخل إلى توحيد الألوهية، فإن من يرسخ في يقينه بتفرد الله بالخلق والملك والرزق والتدبير لا بد أن يتوجه بدعائه وعبادته إليه وحده.

توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية: هو إفراد الله بالعبادة قولا وفعلا وقصدا، والبراءة من كل معبود من دونه، فالإله هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة وحده دون سواه.

تعريف العبادة: التأله والتذلل لله وحده، والانقياد له سبحانه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وعرفها العلماء أيضا بأنها: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

و بهذا فإن كل أصول الدين وفروعه يندرج في معنى العبادة، وتوحيد الألوهية يقتضي إفراد الله بكل هذه العبادات، والتوجه بها إليه وحده.

خطأ اختزال مفهوم العبادة في باب الشعائر التعبدية:

ومن الأمور المهمة التي يجب الإشارة إليها هنا هو أن اختزال مفهوم العبادة في باب الشعائر التعبدية فحسب من المفاهيم المغلوطة الشائعة بين الناس، ولعلها أثر من آثار العلمانية وما تروج له من الفصل بين الدين والحياة. والصواب هو أن العبادة هي كل قول أو فعل يحبه الله ويرضاه، وأن العاديات تتحول مع النية الصالحة إلى عبادات. فمثلا، كفالة أمور المسلمين والقيام بحاجاتهم العامة من الزراعات والصناعات ونحوه يلتحق مع النية الصالحة بأبواب العبادات.

٢ – مفهوم العبادة في الإسلام وآثارها على شخصية المسلم:

إذا ذكرت كلمة العبادة فإنه قد يتبادر إلى ذهن بعض المسلمين أن العبادة محصورة في الشعائر التعبدية كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وتلاوة القرآن، والذكر، أما المعاملات المختلفة، والأخلاق، والآداب، والعادات، فليس لها علاقة بالعبادة!، لا شك أن هذا المفهوم من المفاهيم المغلوطة التي يجب تصحيحها، ولكي نصحح هذا المفهوم نقول:

* إن العبادة التي خلقنا الله من أجلها لا تقتصر على ركعات يؤديها المسلم خمس مرات

في اليوم والليلة، أو صيام أيام معدودات من كل عام، أو إخراج الزكاة الواجبة التي هي جزء يسير من المال، أو حج البيت الحرام لمن استطاع إليه سبيلا، أن هذه الشعائر التعبدية – على عظم منزلتها في الإسلام – إنما هي جزء من العبادة لله، وليست هي كل العبادة التي أمرنا الله بها، وهذه الشعائر التعبدية لا تستغرق من حياة المسلم إلا جزءا يسيرا، فهل يصح أن يمضي أغلب وقت المسلم دون عبادة الله عز وجل؟ والمسلم يعلم أنه لم يخلق إلا لعبادة الله، والمسلم يقرأ في كتاب ربه المجيد الذي يأمره بأن يسخر حياته، وأوقاته كلها في عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: **{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}**(١).

* وقد سئل شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية – رحمه الله – عن قول الله – عز وجل: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}**(٢)، فما العبادة؟ وما فروعها، وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ فأجاب – رحمه الله – إجابة شافية وافية فقال: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الأميين، والبهائم، والدعاء، والذكر والتلاوة، وأمثال ذلك من العبادة لله(٣).

من هذا الجواب الشافي يتضح لنا أن للعبادة مفهوما واسعا، فهي تشمل كل جوانب الحياة من عبادات، ومعاملات، وأخلاق وآداب، أما العبادات: فهي إما فرائض كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، ومحبة الله ورسوله، وإخلاص الدين لله، وإما عبادات تطوعية كالذكر والتلاوة، وأما المعاملات: فكالوفاء بحقوق العباد، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى اليتيم والمسكين وابن السبيل، بل وحتى الرفق بالحيوان، وأما الأخلاق فكصدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد.

* إن مقتضى العبادة الحقيقية القائمة على الحب التام، والخضوع التام لله رب العالمين: أن يخضع العبد لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، وأن يقدم محاب الله على محاب نفسه وهواه، وأن يخضع وينقاد لشرعة الله، فإذا أمره الله، أو نهاه، أو

(١) سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) سورة البقرة: ٢١.

(٣) في مؤلفه المشهور (العبودية) صفحة رقم ٣٨.

أحل لـه، أو حرم عليه، كان موقفه في ذلك ما أمره الله به من أن يقـول:**{سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}**(١) ولا شك أن من أدى الشـعائر التعبديـة مـن صـلاة وصـيام، وزكاة، وحج، ولكنه لم يخضع لشرع ربه، وقـال: أنـا حـر: أشـرب الخمـر، وأوالـي الكفـار، وأزني، وأتحاكم إلى القوانين الوضعية، لا شك أنه يعتبر مخالفا لمقتضى العبـادة الحقيقيـة الـتي أمرنا الله بها، ومثله مـن أدى الشـعائر التعبديـة، ولم يخضـع لأحكـام المعـاملات الإسـلامية كالذي يعـق والديـه، ويسـيء إلى جيرانـه، ويتعامـل بالربـا ويغـش النـاس، ويأكـل أمـوالهم بالباطل، ومثله أيضا من أدى الشعائر التعبدية، ولم يخضع لآداب وأخـلاق الإسـلام كالـذي يخون الأمانة، ويكذب، ويتشبه بالكفار، وكالمرأة التي تتبرج، ولا تلتزم بالحجاب.

إنه ليس بعابد لله من ظن أن عبوديته لله لا تتعدى جدران المسجد، فـإذا انطلـق إلى ميـادين الحياة المتشعبة، فهو يعبد شهوته وهواه، يفعل مـا يشـاء، وينتهـك حرمـات الله، ويقـال لمـن هـذا حاله: أين أنت من قول الله تعالى:**{إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ}**(٢).

* أن مفهوم العبادة في الإسلام واسع وشامل لكل جوانـب الحيـاة مـن شـعائر تعبديـة ومعاملات وأنظمة بناء الدولة، وآداب وأخلاق، بل وحتى الحاجات الضرورية الـتي يؤديهـا المسلم استجابة لدافع الغريزة البشرية كالأكل، والشـرب، ومباشـرة الـزوج لزوجتـه بشـرط توفر النية الصالحة.

* والسؤال الهام هنا كيف يسـتطيع المسـلم أن يجعـل حياتـه كلـها عبـادة لله تعـالى فـلا تنقضي لحظة من لحظات حياته إلا وهو في عبادة يؤجر عليها؟

أن المسلم يستطيع أن يجعل حياته كلها عبادة لله تعالى، إذ أن الإسلام أسـبغ علـى جميـع أعمال الإنسان صفة العبادة إذا قصد بهذه الأعمال وجه الله تعالى، ولقد جـاءت النصـوص الشرعية موضحة هذا الأمر، ومن هذه النصوص:

1 – ما أوضحه النبي ﷺ في مفهوم الصدقة، وأنهـا ليسـت مقتصـرة علـى بـذل المـال للمستحقين، فقال – عليه الصلاة والسلام –: **«تبسمك في وجه أخيك صـدقة، وأمـرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة»** (٣) وقـال ﷺ : **«كل سلامي من النـاس**

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٣) رواه البخاري.

عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة» (١).

2 – وقال – عليه الصلاة والسلام – في فضل زيارة المريض وما لها من مكانة عند الله لما فيها من تخفيف ومواساة للمريض: **«ما من مسلم يعود مسلما غدوة، إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة»** (٢)، والخريف هو: الثمر المجتنى.

3 – وقال – عليه الصلاة والسلام – في فضل الإصلاح بين المتخاصمين: **«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة»**، قالوا: بلى، قال: **«إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»** (٣).

١- ويقول ﷺ في فضل التاجر الذي يتعامل مع الناس بصدق وأمانة: **«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»** (٤).

وجاء في فضل بر الوالدين أن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: **«الصلاة على وقتها»**، قلت: ثم أي؟ قال: **«بر الوالدين»**، قلت ثم أي؟ قال: **«الجهاد في سبيل الله»** (٥)، وقال ﷺ في فضل صلة الرحم: **«الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»** (٦).

6 – وقال ﷺ في فضل كفالة اليتيم والقيام بأموره: **«أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»** وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما(٧).

وجاء في فضل السعي على الأرملة والمسكين أن النبي ﷺ قال: **«الساعي على الأرملة، والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»** قال راوي الحديث أبو هريرة رضي الله عنه: أحسبه قال: **«وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر»** (٨).

7 – وجاء في فضل الحاكم العادل أن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا**

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.
(٣) رواه أبوداود والترمذي وابن حبان في صحيحه.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) متفق عليه.
(٦) متفق عليه.
(٧) رواه البخاري.
(٨) متفق عليه.

ظل إلا ظله» وذكر أولهم: **«إمام عادل»** (١).

وقولــه ﷺ : **«أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»** (٢).

8 – وجاء في فضل الإحسان إلى الجار، وإكرام الضيف قولـه ﷺ : **«من كان يــؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، مـــن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت»** (٣).

9 – وجاء في فضل ووجوب أداء الأمانة قولـه تعـالى:**{إِنَّ اللَّهَ يَــأْمُرُكُمْ أَن تُــؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}**(٤) وقول النبي ﷺ : **«لا إيمان لمن لا أمانة لَــه»**، ويقـول عليـه أفضـل الصلاة والسلام: **«إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه»** (٥).

10 – وجاء في فضل مساعدة الضعفة والمساكين، وقضاء حوائج الناس قولــه ﷺ : **«أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخي المسلم، في حاجته أحب إليّ من أن أعتكف شهرا»** الحديث (٦).

❋ ومما يدل على عظمة الإسلام، وشمول العبادة لكل جوانب الحياة أن جعل الحاجات الغريزية للإنسان من المباحات داخلة ضمن مفهوم العبادة الواسع، إذا صحبتها نيـة التقـرب إلى الله تعالى، كالأكل، والشرب، والنوم إذا قصد بها التقـوي علـى طاعـة الله، والنكـاح إذا قصد به إقامة السنة، أو الإعفاف، أو تحصيل الولد الصالح، وتكثير الأمة، كـل ذلـك يكـون عبادة يثاب عليها فاعلها، وأوضح شاهد على ذلك ما قاله الـنبي ﷺ لأصـحابه: **«وفي بضع أحدكم صدقة»** قالوا: أيأتي أحدنا شهوته، ويكون لـه فيها أجر؟ قـال: **«أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟»** قالوا: نعم، قـال: **«كذلك إذا وضعها في الحلال كـــان لــــه أجر»** (٧).

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) سورة النساء ٥٨.
(٥) رواه البيهقي بسند حسن.
(٦) رواه الطبراني وحسنه الألباني في صحيح الجامع.
(٧) رواه مسلم.

ومن عظمة الإسلام أن وسع دائرة العبادة لتشمل الإحسان والرفق بالحيوان والطيور، فكل إحسان يقدمه المسلم لحيوان أو طير يعتبر عبادة تقربه إلى الله، ويثاب عليها، وقد جاءت النصوص الشرعية التي تحث على ذلك ومنها:

1 - أن الرسول ﷺ قال: **«بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا، فنزل فشرب، ثم خرج فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له»** قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البائهم أجرا؟ فقال: **«في كل كبد رطبة أجر»** (1)، وفي رواية للبخاري: **«فشكر الله له، فغفر له، فأدخله الجنة»** (2).

2 - قوله ﷺ **«ما من مسلم يغرس غرسا أو زرعا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له به صدقة»** (3).

* ولهذا المفهوم الصحيح للعبادة آثار مباركة يلمسها المسلم في نفسه، وفي الحياة من حوله، ومن هذه الآثار:

أولا: إذا وعى المسلم حقيقة العبادة في الإسلام، وشموليتها لكل جوانب الحياة، فإن حياته وأعماله تصطبغ بالصبغة الربانية، لأن كل عمل مشروع يقوم به يربطه بربه وخالقه، فهو ينوي به التقرب إلى الله تعالى، ولا شك أن هذه النية الصالحة تدفع المسلم إلى الاستزادة من الأعمال الصالحة التي حث عليها الشرع سواء في العبادات، أو المعاملات، أو الأخلاق، كما تدفعه إلى إتقان عمله الدنيوي، وإلى حسن التعامل مع الآخرين.

ثانيا: سلامة شخصية المسلم من الازدواجية والتخبط، لأن العبادة الحقيقية التي يريدها الله بمفهومها الواسع تمنح المسلم وحدة الغاية في حياته كلها، فربه واحد، ودينه واحد، وغايته واحدة، وهي رضا الله - سبحانه وتعالى - قد أخلص في عمله لله تعالى، وعلق قلبه بالله، لا يريد إلا رضاه، لذلك نجد أن هذا المسلم صاحب الشخصية السليمة والسوية، ليس ممن يعبد الله في المسجد فقط، فإذا خرج إلى ميادين الحياة المختلفة عبد شهوته وهواه، وانتهك حرمات الله، كلا إنه يعبد الله وحده لا شريك له في المسجد، وفي غير المسجد، قد سخر حياته كلها في عبادة الله، ودليله في ذلك وحي الله، وغايته رضوان الله تعالى، ممتثلا أمر

(١) متفق عليه.
(٢)البخاري.
(٣) متفق عليه.

ربه عز وجل:**{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ}**[1].

ثالثا: تحرير نفوس المؤمنين من عبودية غير الله عز وجل، ونيل الحرية الحقيقية بصرف العبادة كلها لله وحده لا شريك له، وبالتالي تحرير العقول من ظلمات الجهل والأوهام الزائفة، وأيضا تحرير القلب من التعلق بغير الله عز وجل، ولا شك أن هذه الحرية الحقيقية هي الطريق إلى تحقيق التوحيد الخالص لله عز وجل، والقائم على الحب التام والخضوع التام لله رب العالمين.

رابعا: تحصيل السعادة والحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده المؤمنين، قال تعالى:**{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}** (سورة النحل: ٩٧) وهذا بخلاف من أعرض عن توحيد الله وعبادته، فإن الله قد توعده بالمعيشة الضنك، وحياة الشقاء، قال تعالى:**{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً}** [2].

٣ – معنى العبودية:

علمنا مما سبق أن وظيفة الإنسان الأولى والغاية من وجوده هي العبودية، فماذا تعني هذه الكلمة وما مدلولاتها؟ هل هي نطق بالشهادتين فقط؟! أم أنها حركات بالجوارح؟! أم يكفي الاعتقاد بالقلب؟! أم غير ذلك من الأقوال والآراء؟ الواقع أنها تشمل ذلك كله فهي نطق باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وذلك في حدود ما شرعه الرحمن. وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر بنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك من العبادات لله[3].

والعبودية تعني أن يستسلم المرء لخالقه بكل جوارحه وطاقاته وتصرفاته وأفكاره وشعوره. كما تعني أن ينقاد للشرع ويحكمه في نفسه وأهله وما ملكت يمينه، تاركا أهواءه

(١) سورة الأنعام – الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) سورة طه: ١٢٤.

(٣) العبودية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠١ هـ، ص ٤.

وشهواته وراءه ظهريا. ويوضح سيد قطب حقيقة العبادة في أسلوب أدبي رفيع قائلا: إن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور أن هناك عبدا وربا. عبدا يعبد وربا يعبد، وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار. ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود وإلا رب واحد والكل لـه عبيد.

والثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير وكل حركة في الحياة. التوجه بها إلى الله خالصة والتجرد من كل شعور آخر ومن كل معنى غير معنى التعبد لله(١).

نعم... بهذا الاستسلام وبهذا الانقياد يكون الفرد عبدا لله، عبدا يوظف كل ما يملك من نعم مادية أو معنوية ابتغاء مرضات الله ويجعلها ذخرا وزادا ليوم المعاد استعدادا. قال تعالى:**{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}**(٢) وليعلم الإنسان أنه إن لم يعبد الله حق العبادة فإنه لا شك سيعبد الشيطان الذي أخذ عهدا على نفسه بأن يغوي بني آدم ويزين لهم الضلال ويحبب إليهم المنكرات. فينبغي على كل مسلم أن يكون حذرا حتى لا يقع في حبائل الشيطان ومصائده فيسلم من شره ويصبح من عباد الله المخلصين كما قال تعالى في حوار مع الشيطان:**{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ}**(٣).

فعبد الله المخلص يوحد الله بالعبادة ولا يدع للشيطان مجالا أو منفذا يصل إليه منه. ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – الأساس العقدي لهذا الأمر فيقول: ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده فلابد أن يكون عابدا لغيره، يعبد غيره فيكون مشركا وليس في بني آدم قسم ثالث، بل إما موحد أو مشرك أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل النصارى ومن أشبههم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام(٤).

٤ – المصير

إن أي مخلوق مهما امتد أجله وطال عمره فإن لـه نهاية محتمة، فكل نفس ذائقة الموت،

(١) في ظلال القرآن: مرجع سابق / ٣٣٨٧.
(٢) القصص: ٧٧.
(٣) الحجر: ٣٩ – ٤٢.
(٤) الروح: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ ص ٩٧.

الموت الذي قدره الله عز وجل على خلقه وكتبه على عباده وانفرد جل شأنه بالبقاء والدوام، قال تعالى{**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**}[1]

وقال أيضا:{**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**}[2]، ففي آيتين من خمس كلمات فقط يصور القرآن الكريم حال الدنيا وما بعدها، فهي حياة ملهية ثم زيارة وأي زيارة، زيارة منتهية لا محالة ويكون بعدها الانتقال إلى دار الحساب، ولكن تلك الزيارة أي فترة البقاء في القبور لا يعلم مداها إلا الله ومع ذلك فنحن نعلم من ديننا أن تلك الحفرة الضيقة ستكون على صاحبها أحد أمرين: إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، كما ورد في حديث البراء بن عازب الطويل [3]، وغيره من الأحاديث. يقول ابن القيم: مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانا ويحصل له معها النعيم أو العذاب ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العباد، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى[4].

فإذا مات الإنسان فهذه قيامته وهي القيامة الصغرى، أما القيامة الكبرى فتكون عندما يؤذن بالنفخ في الصور فيحشر جميع العباد، قال تعالى:{**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**}[5] عندئذ ترتجف القلوب والأفئدة وتحتار العقول والأفهام كما قال تعالى:{**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**}[6]. ويصور هول ذلك اليوم أيضا قوله تعالى:{**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**}[7].

وإذا تأملنا القرآن الكريم وجدنا آيات كثيرة جدا تعرض لذلك اليوم من زوايا متعددة ومشاهد مختلفة، وتعني هذه المشاهد بتصوير الهول في يوم القيامة، ذلك الهول الذي يشمل الطبيعة كلها ويغشى النفس الإنسانية ويهزها ولا يكاد يخلو مشهد واحد من اشتراك الأحياء

---

(١) آل عمران: ١٨٥.
(٢) التكاثر: ١، ٢.
(٣) انظر سنن أبي داود حديث رقم (٣٢١٢).
(٤) الروح: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ، ص ٩٧.
(٥) النازعات: ٦، ٧.
(٦) الحج: ٢.
(٧) لقمان: ٣٣.

فيه...، وتعني هذه المشاهد أيضا بتصوير مواقف الحساب قبل النعيم والعـذاب، وهنـا نلتقـي بألوان شتى من طرق العرض الكثيرة وسمات شتى للموقف المعروض[1].

وتبين السنة كذلك بعض أهوال ذلك اليوم العصيب، ففي حديث الشفاعة يقـول ﷺ : **«يجمع الله الناس – الأولين والآخرين – في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم....»** [2]، ومن حـديث عائشـة عـن الـنبي ﷺ قال: **«يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا»** فقلت يا رسول الله النساء والرجال جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: **«يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»** [3].

ومن حديث المقداد – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: **«تدنى الشمس يوم القيامـة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنـهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم مـن يلجمه العرق إلجاما»**، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه[4].

فهذه الأهوال وغيرها تنتظر كل إنسان ولـن ينجـو منهـا أحـد فالكـل صـائرون إلى الله يقول تعالى:**{يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ * كَلاَّ لاَ وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّـأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ}**[5].

وبعد أن يقوم الناس لرب العالمين تجازى كل نفس بما كسبت ويلاقي كل عبد مـا قـدم، قال تعـالى:**{وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْـسٍ مَّـا كَسَـبَتْ وَهُـمْ لاَ يُظْلَمُونَ}**[6]، وقال:**{يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَـقُّ المُـبِينُ}**[7]، ويقول ﷺ فيم يرويه عن ربه عز وجل: **«.... يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكـم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسـه»** [8]، ويقول تعالى أيضا:**{إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى * وَمَن يَأْتِهِ**

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ص ٤١ – ٤٣.

(٢) البخاري: ٣/ ٢٥٠.

(٣) مسلم: ٤/ ٢١٩٤.

(٤) مسلم: ٤/ ٢١٩٦.

(٥) القيامة: ١٠ – ١٣.

(٦) البقرة: ٢٨١.

(٧) النور: ٢٥.

(٨) مسلم: ٤/ ١٩٩٤.

مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى}(١)، فهذه هي الخاتمة، خلود دائم وحياة لا تنتهي، فمن زكى نفسه فإلى دار النعيم ومن دساها فإلى الجحيم والعياذ بالله، فليختر كل امرئ ما يريد، قال تعالى:**{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}**(٢)، نخلص من هذا القول بأن العبد يمر بثلاث مراحل: الحياة الدنيا فالقبر ثم الخلود، وهذه المراحل لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى، وهناك مغيبات كثيرة في هذه المراحل لا نعلم منها إلا ما ثبت في الكتاب والسنة، والمسلم الحق يؤمن ويصدق بها وإن لم يستطع عقله أن يتصورها أو يدرك كنهها.

يقول ابن أبي العز الدمشقي: والحاصل أن الدور ثلاث: دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، وقد جعل الله لكل دار أحكاما تخصها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها فجاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعا(٣)

إنسان يحدد بنفسه إما أن يكون عابدا لله أو عابدا للشيطان، وبيده تحقيق غاية.

* * * * *

---

(١) طه: ٧٤ - ٧٦.

(٢) الشمس: ٧ - ١٠.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية: أبو العز علي بن علي بن محمد، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٠ هـ، ص ٤٥٣.

المبحث الرابع
المسلم يرجو رحمة الله عز وجل

الرجاء: هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عند الإنسان، لكن هذا يكون لشيء متوقع لـه سبب فإن لم يوجد لـه سبب صار تمنياً لأن الإنسان إذا انتظر شيء بدون سبب لا يسمّى راجياً بل متمنياً..!

وأما ما لـه سبب وينتظر الإنسان محبوباً بسبب عمله هذا هو الرجاء.

فالرجاء هو الاستبشار بجود الله وفضل الرب تعالى والارتياح لمطالعة كرمه ومنّته وهو الثقة بجود الرب وهو حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب (الجنة).

ولابد من التفريق بين الرجاء والتمنّي..

الرجاء والتمني:

حاله كحال رجل شق الأرض وسواها وبذرها وحرثها وتعهدها بالسقيا والماء وأبعد عنها الآفات وقعد ينتظر حصول الثمرة ونماء الزرع فهذا صاحب رجاء. فهو يرجو رحمة الله وثوابه بعد بذل الأسباب.. ليس رجاء شرعياً..

يكون مع الكسل..، فلا يسلك صاحبه طريق الجد والاجتهاد ولا يبذل جهداً ولا توكلاً فهذا حال من يتمنى أن ينبت زرع بدون أن يبذل، وصاحبه مفلس..

{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}[(١)] ليس الإيمان بالتمنّي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل الحسن.

والرجاء ضروري للسائر إلى الله والعابد لو فارقه لحظة تلف أو كاد يتلف لأن المسلم يدور ما بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها وثباتها، وقرب من الله يرجو الوصول إليه، لذلك كان الرجاء من أقوى الأسباب التي تعين المرء على السير إلى ربه والثبات على الدين، وهذا زمن الفتن والشهوات والمحن والشبهات.

---

(١) النساء: ١٢٣.

أسباب وعوامل الثبات:

الرجاء الذي هو ضد اليأس، واليأس هو تذكر فوات رحمة الله وقطع القلب عن التماسها وهو معصية**{وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ}**(١) قالها يعقوب عليه السلام لأبنائه..

درجات الوصول إلى تحقيق الرجاء:

١ – ذكر سوابق فضل الله على العبد، أن الله له علينا فضائل سابقة..

٢ – ذكر وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرمه وجوده بدون سؤال من العبد استحقاق فإن الله يعطي بدون أن يكون العبد مستحقاً إذا استقام الإنسان.

٣ – أن تذكر نعم الله عليك في أمر دينك وبدنك ودنياك في الحال الآن وأن يمدك بالألطاف والنعم من غير استحقاق ولا سؤال.

٤ – ذكر سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه وأنه الرحمن الرحيم الغني الكريم الرؤوف بعباده المؤمنين لذلك تحقيق الرجاء يقوم على معرفة أسماء الله وصفاته.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض لابد لها من بذر وكذلك لابد للقلب من طاعات والأرض لابد لها من تعاهد وسقي بالماء وحفر أنهار وسوق الماء إليها وكذلك القلب لابد له من تعاهد وأن يسقى بماء الطاعة والعبادة وكذلك الأرض تحتاج حتى تنبت إلى صيانتها عن الأشياء الضارة، وترى المزارع ينتقي الدغل فينتزعه من أرض حتى لايؤذي زرعه والمؤمن ينقي قلبه من أي شبهة وشهوة حتى لا تفسد عليه زروع الطاعة التي سقاها بماء العبودية..

وقلّ أن ينفع إيمان مع خبث القلب كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة إذاً ينبغي أن يقاس رجاء العبد برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى بذراً جيداً وسقى وتعاهدها بالرعاية ثم جلس ينتظر فضل الله..، انتظار هذا يسمى رجاءً، أما إن بذر في أرض سبخة مرتفعة لا يصلها الماء، هذا غبي أحمق، أما إن بذر في أرض طيبة ولكن لا يصلها الماء وقال أنتظر المطر.، انتظار هذا تمنّي وليس رجاء..!

الرجاء يصدق على انتظار محبوب تمهّدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس في اختيار وإرادة العبد..

---

(١) يوسف: ٨٧.

لذلك فالإنسان يبذل من الطاعات والعبادات وينتظر فضل الله أن يثبته وأن لا يزله ولا يزيغه حتى الممات ولا يضله حتى يلقاه وهو راضٍ عنه.

الراجي إنسان عنده مواظبة على الطاعات قائم بمقتضيات الإيمان، يرجو من الله أن لا يزيغه وأن يقبل عمله ولا يردّ عليه، وأن يضاعف أجره ويثيبه، فهو باذل للأسباب التي يستطيعها يرجو رحمة ربه، ولذلك يكون الذي يقطع البذور ولا يتعاهدها بماء الطاعات أو يترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق منهمكاً في لذات الدنيا ثم يطلب المغفرة يكون حمقاً وغروراً**{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَياًّ}**(١)، والكافر صاحب الجنة قال:**{وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً}**(٢)، فهو صاحب أماني ولا أعمال صالحة عنده**{ومَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}** (الكهف: ٣٦)..!

الرجاء دواء يحتاج لــه رجلان:

١ - رجل غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة وجزم أنه ليس هناك فائدة..

٢ - رجل غلب عليه الخوف حتى أضرّ بنفسه وأهله، فتعدّى خوفه الحد الشرعي المطلوب فلابدّ أن يعدّل ويمدّ بشيء يحدث موازنة وهو الرجاء الذي هو حالة طبيعية عند المؤمن.

فبعض الناس الكلام معه في الرجاء دواء، أما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة لا ينفع معه أبداً دواء الرجاء، ولو استعملت معه الرجاء لزدته ضلالاً..، لا ينفع له إلا دواء الخوف، فيوعظ بسياط الخوف ويقرّع المنايا، هذا المتمني المتساهل المفرط، فلا يصلح معه أن تحدثه عن الرجاء، وهذا أمر مهم ينبغي أن يتنبه له الوُعّاظ..

قال بعض العلماء: (يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً معهم ناظراً إلى مواضع العلل معالجاً كل علة بما يليق بها وهذا الزمان لا ينبغي أن يستخدم فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل المبالغة في التخويف وإنما يذكر الواعظ فضيلة وأسباب الرجاء إذا كان المقصود استمالة القلوب إليه لإصلاح المرضى)، التخويف ولكن بحيث لا تصل إلى تيئيسهم من رحمة الله..

قال علي رضي الله عنه: (إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ولا

(١) مريم: ٥٩.
(٢) الكهف: ٣٦.

يأمّنهم مكر الله)..

لابد أن يكون هناك توازن وحسب حال الناس، فإذا كانوا ميّالين إلى التفريط والمعاصي والتساهل غلّب التخويف وإذا كان عندهم خوف زائد ويأس من رحمة الله غلّب الرجاء.

ثمرات الرجاء:

١ – يورث طريق المجاهدة بالأعمال.

٢ – يورث المواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال.

٣ – يشعر العبد بالتلذذ والمداومة على الإقبال على الله والتنعّم بمناجاته والتلطف في سؤاله والإلحاح عليه.

٤ – أن تظهر العبودية من قبل العبد والفاقة والحاجة للرب وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

٥ – أن الله يحب من عباده أن يسألوه ويرجوه ويلحّوا عليه لأنه جواد كريم أجود من سُئِل وأوسع من أعطي وأحب ما إلى الجواد الكريم أن يسأله الناس ليعطيهم ومن لا يسأل الله يغضب عليه والسائل عادة يكون راجٍ مطالب أن يُعطى فمن لم يرجُ الله يغضب عليه، فمن ثمرات الرجاء التخلّص من غضب الرب.

٦ – الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سيره إلى الله فيطيب المسير ويحث على السير ويبعثه على الملازمة، فلولا الرجاء بـ(المضاعفة – رحمة الله – الأجور والثواب المضاعف – الجنة والنعيم) ما سار أحد، والقلب يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء.

٧ – يطرح على عتبة محبة الله عز وجل ويلقيه في دهليزها فكلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه؛ ازداد حباً لربه وشكراً له ورضا، وهذا من مقتضيات وأركان العبودية.

٨ – الرجاء يبعث العبد على مقام الشكر لأنه يحفزه للوصول إلى مقام الشكر للنعم وهو خلاصة العبودية.

٩ – الرجاء يوجب المزيد من التعرف على أسماء الله وصفاته.

الخوف مستلزم للرجاء والرجاء مستلزم للخوف عند المؤمن، لأن كل خائف راجي وكل راجي خائف، ولهذا حسن وقوع الرجاء في مواضع يحسن فيه وقوع الخوف:**{مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً}**(1).. قال المفسرون: ما لكم لا تخافون لله عظمة، فكل راجٍ خائف من

(١) نوح: ١٣.

فوات مرجوّه، هذا يفسّر لنا كيف أن الرجاء مرتبط بالخوف وأن الراجي خائف أن يفوت مطلوبه ورحمة الله وجنته.

انظر إلى التداخل العجيب بين مقامات الإيمان في قلب المؤمن، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط..!!!

قال تعالى:**{قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ}**[1] أي لا يخافون وقائع الله بهم كما وقعت في الأمم الذين من قبلهم من التدمير والإهلاك.

١٠ – ثم إن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه فحصل المطلوب يحصل مزيد من التشجّع وسؤال المزيد والإقبال على الله، وهكذا لا يزال العبد في ازدياد في الإيمان والقرب من الرحمن.

١١ – على قدر رجاء العباد وخوفهم يكون فرحهم يوم القيامة بحصول المرجو الأعظم وهو نيل رضا الرب والجنة ورؤية الله فيها.

وكذلك فإن الله يريد من العبد أن يكمل نفسه بمراتب العبودية من الذل والانكسار لله والتوكل عليه والاستعانة به والخوف منه والصبر على أقداره والشكر له وعلى إنعامه ولذلك يقدر الذنب على العبد لتكمل مراتب العبودية عند العبد فيستغفر العبد، فلولا الذنب ما حصل انكسار ولا توبة، يبتليهم بالذنوب ليعالج ما في قلوبهم بالانكسار وطلب التوبة فينكسر بين يدي الله فيتحقق معنى مهم جداً جداً من معاني العبودية..!!

كيف تتحقق العبودية إذا لم يكن هناك انكسار وذل وخضوع..؟!!، أحياناً لا يصدر الانكسار والذل هذا إلا بذنب يتوب منه العبد ويعرف تقصيره والبلية التي وقع فيها وحجم المعصية.

الرجاء فيه انتظار وترقّب وتوقع لفضل الله عز وجل فيتعلق القلب أكثر بخالقه..

أنواع الرجاء:

الرجاء ثلاثة أنواع، نوعان محمودان ونوع غرور مذموم..

١ – رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فماذا يرجو؟ ثواب الله..

٢ – رجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها فماذا يرجو؟ يرجو مغفرة الله ومحو الذنوب والتجاوز عنها وسترها..

---

(١) الجاثية: ١٤.

٣ – رجل متمادي في التفريط والمعاصي والسيئات ويرجو رحمة ربه والمغفرة بلا عمل!! فهذا غرور وتمني ورجاء كاذب لا يعتبر رجاء محموداً أبداً..

والمؤمن عندما يسير إلى الله لـه نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله من العجب والرياء والاغترار بالعمل، وهذا يفتح عليه باب الخوف من الله، وينقلـه بعـد ذلـك إلى سعة كرم الله وفضله وبره ومغفرة ذنوبه ويفتح لـه باب الرجاء، وهذا هو النظر الثاني، ولهذا قيل في حد الرجاء وتعريفه: هو النظر إلى سعة رحمة الله عز وجل ولابد من الموازنة بين الخوف والرجاء كما قال العلماء: (العبد في سيره إلى الله كالطائر يطير بجناحين، جناحا الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما اختلّ نوعاً ما وإذا ذهب الجناحان صار الطائر في حدّ الموت)، ما هما الجناحان في سير العبد إلى ربه؟ هما الخوف والرجاء.

وقد سُئِل أحمد بن عاصم رحمه الله: ما علامة الرجاء في العبد؟ قال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان أُلهِم الشكر راجياً لتمام النعم عليه في الدنيا والآخرة وتمام عفوه عنه في الآخرة..

هنا علماء القلوب أصحاب النظر والتأمل في الأمور الإيمانية اختلفوا..، أي الرجاءين أعظم..؟ رجاء الثواب والأجر من المحسن؟ أو رجاء المغفرة من التائب المسيء؟!!!

فرجحت طائفة رجاء المحسن لقوة أسباب الرجاء معه، فعنده طاعات وأسبابه قوية فيرجو على حقّ، والأخرى رجحت رجاء المذنب لأن رجاءه من انكسار ومسكنة مقرون بذلة رؤية الذنب واستحضار المعصية خالص من العجب والاغترار بالعمل، الحاصل أم كلا القولين لـه حظ من النظر، فكلا الرجاءين محمود ولابد من تحصيلهما معاً ولا يستغنى بهذا عن هذا، لأن المسلم إما أن يكون في طاعة يرجو قبولها أو معصية يريد غفرانها ومحوها.

أسباب قوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبت رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء لتعطلت عبودية القلب والجوارح وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً..، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر إرادات العبد وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء(العلاقة بين المحبة والرجاء) وكل محب راجٍ خائف بالضرورة فهو يرجو من يحبه أن يعطيه ما ينفعه ويخاف أن يسقط من عينه وأن يطرده وأن يبعده ويحتجب عنه لذلك خوف المحب شديد ورجاؤه عظيم، لكن هل إذا وصل إلى محبوبه ينتهي الرجاء أم لا..؟!! أم يشتد..؟!! وماذا يحصل لـه بالموت..؟!!

المؤمن قبل الموت عنده رجاء وخوف عظيمين، أما إذا مات قالوا: إن خوفه ورجاءه

ذاتي للمحبة، يرجو ربه قبل لقائه والوصول إليه فإذا لقيه ووصل إليه بالموت اشتد الرجاء له بما يحصل له بهم من حياة روحه ونعيم قلبه من الألطاف، فالرجاء بما عند الله يزداد، وعنده أعمال صالحة يريد عليها الأجر والثواب والخوف أيضاً يزيد لأن الموت قرّبه إلى النار، والقبر أول منازل الآخرة، فقد دخل إلى المرحلة الخطيرة جداً..

لذلك لا يمكن أن تقول: إن الميت تنقطع مشاعره بل يمكن أن تعظم مشاعرهم متضاعفة لأنهم اقتربوا إلى دار الخلد.. إلى نعيم أو عذاب.. فيمكن أن تكون بهذا في القبر فمن الآن زّود نفسك بالطاعات واترك المعاصي لتزيد عندك أسباب الرجاء وتأمن في القبر، الخوف في القبر مصيبة، إذ يخاف من سوء المطلع والذي يمكن أن يرتكس فيه إذا قامت الساعة ويدخله من عذاب الله فإذاً الآن هو الآن يشتد في العمل حتى إذا لقي الله صار طلبه للجنة وأمن الخوف..

الكفار ما حالهم في قبورهم..؟

آل فرعون، فرعون وجنوده، **{النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُواًّ وَعَشِياًّ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ}**[1] معناها أنهم الآن في قبورهم خوفهم يتضاعف كل يوم**!!** وهم يعرفون في أي حفرة سيقعون فكيف الآن خوفهم وذعرهم..؟**!!** نسأل الله السلامة والعافية.

وإذا وصل العبد إلى ربه ولقيه ازداد رجاؤه إذا كان محسناً لأن الأجير إذا جاء وقت الراتب ازداد رجاؤه في الذي سيحصل عليه فإذا قدم العباد هؤلاء المحسنون على الله وكلما مضى زمن كلما ازداد رجاؤهم فيما سيحصلون عليه وينتظرونه في قبورهم **«ربي أقم الساعة»** كي يرجع إلى أهله وماله لأنه فتح له باب إلى الجنة في القبر فهو يأتيه من النعيم والطيب فيقال له: **«اسكن ونم كنومة العروس لا يوقظه إلا أحب الناس إليه»**.

درجات الرجاء:

الرجاء درجات، درجة أرفع من درجة، ومراتب بعضها فوق بعض:

١ - الدرجة الأولى:

رجاء يبعث العامل على الاجتهاد بالعبادة بل يولد عنده اللذة بالعبادة ولو كانت شاقة أو صعبة فيتلذذ بها ويترك المناهي، ومن عرف القدر المطلوب هان عليه ما يبذل فيه ومن رجا الأرباح العظيمة في سفره هانت عليه مشقة السفر، كذلك

---

(١) غافر: ٤٦.

المحب الصادق الذي يسعى في مرضاة الرب تهون عليه مشقة صلاة الفجر والوضوء في البرد ومشقة الجهاد ومشقة الحج والعمرة وطلب العلم وتكرار الحفظ وانتصاب الجسم في الليل وجوع الصيام..، بل تنقلب إلى لذّة..!!

فالدرجات العملية في التعبد لله: مشقة ومن ثم لذة، يقول أحد العلماء: كابدت قيام الليل ٢٠ سنة ثم تنعمت به ٢٠ سنة. فالمرء لا يصل أحياناً إلى لذة العبادة إلا بعد أن يذوق مشقتها، فإذا قوي تعلق الرجاء بالعوض سمحت الطباع بترك العادات وترك الراحة، فالإنسان مفطور أن لا يترك محبوباً إلا لمحبوب أعظم منه.

٢ – الدرجة الثانية:

المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفاتها واستبدال مألوفات هي خير منها فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بالهمة، وهذا يلزم له العلم وهو الوقوع على الأحكام الدينية لأن رجاءهم متعلق بحصول ذلك لهم ولابد من علم وبذل الجهد بالمعرفة والتعلّم وأخذ النفس بالوقوف عند الحدود طلباً وقصداً..

٣ – الدرجة الثالثة:

رجاء من اشتاق قلبه للقاء الخالق سبحانه وتعالى؛ وهذا الذي يمكن أن يزهّد الإنسان في الدنيا تماماً،**{فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}**(١)،**{مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ}**(٢)، هذا الرجاء محض الإيمان وزبدته وإليه تشخص أبصار العابدين المجتهدين وهو الذي يسليهم ولذلك ضرب الله لهم أجلا تسكن إليه نفوسهم..

عمير بن حمام الأنصاري لما ذكر لهم الرسول ﷺ : **«قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»** اشتاقت نفسه إلى لقيا الله فقال: (لئن عشت حتى آكل هذه التميرات إنها لحياة طويلة) فقاتل حتى قُتِل ولقي الله شهيداً..

فلما علم الله شوق هذه الطائفة من عباده وهم الندرة والقلة وأن نفوسهم تضطرب حتى تلقاها؛ ضرب لهم موعداً تسكن إليه نفوسهم وتعمل حتى تقدم إلى الله.

سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله عن قول علي رضي الله عنه: (لا يرجون عبدٌ إلا ربه ولا يخافنّ إلا ذنبه) فقال: الحمد لله، هذا الكلام يؤثر عن أمير

---

(١) الكهف:١١٠.
(٢) العنكبوت: ٥.

المؤمنين علي بن أبي طالب وهو من أحسن الكلام وأبلغه وأتمه فإن الرجاء يكون للخير والخوف يكون من الشر والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه **{وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}**(1) لذلك قال علي رضي الله عنه: (لا يخافن عبد إلا ذنبه) وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه **{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**(2) فليخف الله وليتب من ذنوبه التي ناله بها ما ناله كما في الأثر: **«يقول الله: أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي من أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشتغلوا بسبّ الملوك وأطيعوني أعطّف قلوبهم عليكم»**، فإن الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ولا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله **{وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ}**(3)، **{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ}**(4).

والرجاء مقرون بالتوكل، فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة، والتوكل لا يجوز إلا على الله **{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}**(5) ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرم إن لم يكن في الدنيا؛ في الآخرة حين يقال: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤونهم فاطلبوا منهم الأجر..!، **{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}**(6)، **{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزاً * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداًّ}**(7)، فمن عمل لغير الله رجاء أن ينتفع بما عمل له كانت صفقته خاسرة، قال تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}**(8).

{مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ} أي أصبح أخف من

---

(1) الشورى: ٣٠.
(2) الأنعام: ١٢٩.
(3) يونس: ١٠٧.
(4) فاطر: ٢.
(5) آل عمران: ١٢٢.
(6) العنكبوت: ٢١.
(7) مريم: ٨١، ٨٢.
(8) النور: ٣٩.

التراب{فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ}[1]،{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً}[2] فكل عمل باطل إلا ما أريد به وجه الله ومن عمل لغير الله ورجاه بطل سعيه.

أنواع الرجاء من حيث الراجي:

الراجي يكون راجياً تارة بعمل يعمله لمن يرجوه، وتارة باعتماد قلبه عليه والتجائه إليه وسؤاله فذاك نوع من العبادة وهذا نوع من الاستعانة فإذاً{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[3].

لقد ورد الرجاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ :

١ - بيان رجاء المؤمنين وهوالرجاء المصحوب بعمل:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ}[4]، الذين صدقوا بالله ورسوله وما جاء به وتركوا ديارهم وأحبابهم وأوطانهم وتغربوا عن أمصارهم وتحولوا عن بيوتهم هجرة إلى الله وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم وقدموا وبذلوا وقاتلوا وحاربوا وتحملوا الجراحات وألم طريق الجهاد والمخمصة والجوع والظمأ والنصب؛ هؤلاء يرجون رحمة الله ويطمعون أن يرحمهم فيدخلهم جنته سبحانه وتعالى..

٢ - الله عز وجل فتح باب الرجاء لعباده حتى في مغفرة أي ذنب كما قال تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}[5] فهذه الآية قيل أنها نزلت بعد قوله تعالى:{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}[6] فقالوا لرسول الله ﷺ : والشرك؟ فكره رسول الله ذلك فنزلت هذه الآية{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} والمقصود أن الله لا يغفر للمشرك إذا مات على الشرك، ولا يدخل المشرك تحت المشيئة وأما إذا تاب المشرك فإن الله يغفر له ذنبه حتى لو كان الشرك.. والآية في المشيئة وليست في نفي المغفرة عن التائب عن الشرك..

(١) إبراهيم: ١٨.
(٢) الفرقان: ٢٣.
(٣) الفاتحة: ٥.
(٤) البقرة: ٢١٨.
(٥) النساء: ٤٨.
(٦) الزمر: ٥٣.

٣ -**{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}**(١) قال ابن جرير: قضى أنه بعباده رحيم فكيف تتمثل هذه الرحمة؟ قال: لا يعجل عليهم العقوبة مع أنهم مستحقون بل يصبر ويحلم ويقبل منهم الإنابة والتوبة فهذا يعلقهم بالرجاء**{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}**(٢)، قال ابن جرير: فتأويل الكلام إذا كان الأمر على ما وصفنا وإذا جاءك يا محمد القوم الذين يصدقون بتنزيلنا وأدلتنا فيقرون بذلك قولاً وعملاً مسترشدين عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم هل لها من توبة؟ فلا تيأسهم منها وقل لهم سلام عليكم أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها أي عليكم الأمان لن يعاقبكم بعد توبتكم منها..، كتب ربكم على نفسه الرحمة أي قضى الرحمة بخلقه سبحانه وتعالى..

{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ}(٣) قال ابن جرير: يعني جل ثناؤه بالعمل الصالح الذي خلطوه والعمل السيئ اعترافهم بذنوبهم وتوبتهم منها، والآخر السيئ تخلفهم عن رسول الله ﷺ حين خرج غازياً عسى الله أن يتوب عليهم، وعسى من الله واجبة، يعني سيتوب فعلاً وحقاً.

٤ – الرجاء مفتوح حتى في أمور الدنيا، يرجو مالا، ولدا، زواجا، وظيفة، زوال مرض، وجود مفقود، فيعقوب عليه السلام علم أبناءه الرجاء حتى في المفقودات الدنيوية**{يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ}**(٤)، قال ابن جرير: حين طمع يعقوب في يوسف قال لبنيه: يا بني اذهبوا للموضع الذي جئتم منه وخلفتم أخويكم به ولا تيأسوا من روح الله ولا تقنطوا من أن يروّح الله عنا ما نحن فيه من الحزن ويفرّحنا برؤيتهما إنه لا ييأس من روح الله ولا يقنط من فرجه ورحمته ولا يقطع الرجاء منه إلا القوم الكافرون.

٥ -**{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ**

---

(١) الأنعام: ١٢.
(٢) الأنعام: ٥٤.
(٣) التوبة: ١٠٢، ١٠٣.
(٤) يوسف: ٨٧.

الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ}[1] فلا تيأسوا من رحمة الله إن الله يغفر لكم ذنوبكم كلها ولا يبقي منها شيئاً ولا نصفها ولا بعضها ولا الكبائر فقط وليس الخطاب للذين عندهم معاصي قليلة بل أسرفوا وكثرت معاصيهم وكبائرهم وصغائرهم، لا تقنطوا من رحمة الله، فهذا أمر من الله بالرجاء، فالكريم إذا أمر بالرجاء لا يليق به إلا الكرم، فابذل السبب، واستغفر وتب توبة حقيقية وامتنع عن الذنوب وأصلح واستقبل حياة نظيفة واندم على ما فات واعزم على أن لا تعود إليه.

٦ – الحديث القدسي: **«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»**[2] هذا الرجاء العظيم الذي يفتحه الله عز وجل، هذا فتح باب الرجاء للعباد.

٧ – إن الإنسان لـه عند الموت أحوال في الخوف والرجاء خاصة مبنية على حسن ظنه بالله: **«أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فليظن بي عبدي ما شاء»**[3]، قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به، لذلك الثلاثة الذين خلفوا لما ظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه تاب الله عليهم، فبالنسبة للموت يجب أن نجهز أنفسنا لتلك اللحظات لتفيض أرواحنا ونحن نحسن الظن بالله، والرسول ﷺ قبل أن يموت بثلاثة أيام أعطى الأمة هذه الوصية التي رواها مسلم: **«لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»**[4]، فهذا تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة..

لهذا بعض السلف كان يأمر بنيه عند الموت أن تقرأ عليه آية الرحمة؛ حتى تطلع روحه وهو محسن الظن بالله أن يغفر لـه ويرحمه ويتقبله ويستقبله بالإنعام، وكذلك فإن الإنسان إذا صدق بالتوبة ولو تكرر الذنب فإن الله يغفر لـه ما أذنب، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، قال: ألا أبشّر به الناس؟ قال: **«لا تبشرهم فيتكلوا»**.

هذا دليل كما قال ابن رجب: قال العلماء: يؤخذ من منع معاذ من تبشير الناس لئلا يتكلوا أن أحاديث الرخص لا تشاع في عموم الناس لئلا يقصر فهمهم عن المراد بها، يقول ابن رجب: وقد سمعها معاذ فلم يزدد إلا اجتهاداً في العمل، وخشية لله عز وجل فأما من لم

---

(١) الزمر: ٥٣.
(٢) مسند أحمد.
(٣) صحيح البخاري.
(٤) مسند أحمد.

يبلغ منزلته فلا يأمن أن يقصر اتكالاً على ظاهر الخبر..

ومعاذ من العشرة المبشرين بالجنة، وفقيه لا يخشى عليه..

كذلك عثمان فقد قال عنه ﷺ : **«ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»** (١)، ماذا فعل..؟!، لقد ازداد في الخير والبر والطاعات، هذه النفوس الله يعلم لو بشرهم برضوانه فإنهم لن يتركوا الخير ولن ينتكسوا، لذلك فأحاديث الرخص لا تشاع في عموم الناس ففيهم قلة فقه في الدين ويحتاجون عند التفريط إلى التخويف..

ثم إن الشرك شرك أكبر وأصغر وخفي، ومن الذين ينجو منه؟ ثم إن الحديث مقيد عند العلماء بالآيات والأحاديث الأخرى التي فيها التعذيب على المعصية، وبعض العلماء حملوها على ترك دخول نار الشرك، لأن جهنم فيها دركات(نار الشرك – نار الكبائر – نار المعاصي –...) حملوه حتى لا يفهم خطأ على أنه لا يدخل نار الشرك..

القاعدة العامة**{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}** (النساء: ١٢٣)، فالسلف خوفتهم هذه الآية جداً فلذلك كانوا يعملون ويخافون..

ومن أحاديث الرجاء التي تقال لإنسان مذنب تاب، وبالرغم من التوبة صار عنده نوع من اليأس والإحباط ويرى ذنوبه كبيرة وليس هناك فائدة من العمل، فهو كما يظن محكوم عليه بالنار: **«إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا فيقول نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى نفسه هلك قال سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق{وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}(٢)»**.

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله**{أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}**(٣) فقال الرجل: ألي هذه؟ قال: **«لجميع أمتي كلهم»** (٤).

تصريح أن الحسنات تكفر السيئات، وهل هي حسنات معينة كالصلوات الخمسة؟ أو هي الحسنات مطلقاً كما قال العلماء وبعضهم بهذا وبعضهم بهذا..

---

(١) سنن الترمذي.

(٢) هود: ١٨.

(٣) هود: ١١٤.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

في مرض الموت قيل للشافعي: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً وإخواني مفارقاً ولكأس المنية شارباً ولا أدري أإلى الجنة تسير روحي فأهنيها أم إلى النار فأعزيها، ثم أنشأ يقول..

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي ::: جعلت الرجا مني لعفوك سلّماً

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ::: بعفوك ربي كان عفوك أعظم

«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» [1]،**{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}**[2].

ولابد من الجمع بين جناحى الخوف والرجاء كطائر يطير بجناحين فى السماء.

٢ – والمسلم يخشى عذاب الله عز وجل:

من مادة (**خ وف**) التي تدل على الذعر والفزع في اللغة العربية، خفت الشيء خوفاً وخيفة وخوّف الرجل جعل الناس يخافونه**{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}**[3] أي يجعلكم تخافون أولياءه أي يخوّفكم بأوليائه.

والخوف توقع مكروه لعلامة مظنونة أو معلومة، وهو ضد الأمن ويستعمل في الأمور الدنيوية أو الأخروية فهو توقع حلول مكروه أو فوات محبوب، اضطراب القلب وحركته أو فزعه من مكروه يناله أو محبوب يفوته.

قال ابن قدامة: اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال..

مثال ذلك: من جنى على ملك جناية ثم وقع في يده فهو يخاف القتل ويجوّز العفو – احتمالات – ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وتفاحش جنايته وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية بل عن صفة الذي يُخاف عظمة وجلالاً فإنه إذا علم أن الله سبحانه وتعالى لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه وبجلال الله وأنه لا يسأل عما يفعل يكون الخوف على حسب هذا فهو مطالعة القلوب لسطوات الله عز

(١) رواه البخاري.

(٢) فصلت: ٣٠.

(٣) آل عمران: ١٧٥.

وجل ونقمه فيولد في القلب الخوف"خوف الوعيد".

والخشية أخص من الخوف فإن الخشية للعلماء بالله**{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**[(١)]، خوفاً مقروناً بمعرفة..، وقال النبي ﷺ : **«إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية»**[(٢)]، فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء والعارفين، وعلى حسب قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية..

فصاحب الخوف يلجأ إلى الهرب، وصاحب الخشية يلجأ إلى الاعتصام بالعلم، قال الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله –: (الخشية خوف مبني على العلم بعظمة من يخشى وكمال سلطانه)..

فإذا خفت من شخص لا تدري هل يقدر عليك أم لا فهذا خوف وإذا خفت من شخص تعلم أنه قادر عليك فهذه خشية..

قال ابن القيم – رحمه الله –: (في مثلهما مثل من لا علم له بالطب ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلجأ إلى الحمية والهرب لقلة معرفته والآخر يلتجئ إلى الأدوية) فالخشية خوف مبني على علم..

وقد ورد الخوف في القرآن على وجوه منها..

١ – القتل والهزيمة:**{وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ}**[(٣)]،**{وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ}**[(٤)].

٢ – الحرب والقتال:**{فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}**[(٥)] إذا انجلت الحرب،**{فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ}**[(٦)].

٣ – العلم والدراية:**{فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً}**[(٧)] أي علم،**{إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ}**[(٨)] أي يعلما،**{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي اليَتَامَى}** (النساء: ٣) أي علمتم.

---

(١) فاطر: ٢٨.
(٢) رواه أحمد.
(٣) النساء: ٨٣.
(٤) البقرة: ١٥٥.
(٥) الأحزاب: ١٩.
(٦) الأحزاب: ١٩.
(٧) البقرة: ١٨٢.
(٨) البقرة: ٢٢٩.

٤ – النّقْص:{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ}[١].

٥ – الرعب والخشية من العذاب والعقوبة:{يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً}[٢].

قال ابن قدامة: (اعلم بأن الخوف سوط الله يسوق الله به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله عز وجل، والخوف سراج القلوب به يبصر ما فيه من الخير والشر)..

وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه فأين المفر..؟!!!، وما فارق الخوف قلباً إلا خربه فإذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات فيها وطرد الدنيا عنها..

فكم أطلق الخوف من سجين في لذته كانت قد استحكمت عليه سكرته وكم فك من أسير للهوى ضاعت فيه همته وكم أيقظ من غافل التحف بلحاف شهوته وكم عاق لوالديه رده الخوف عن معصيته، وكم من فاجر في لهوه قد أيقظه الخوف من رقدته، وكم من عابدٍ لله قد بكى من خشيته وكم من منيبٍ إلى الله قطع الخوف مهجته وكم من مسافر إلى الله رافقه الخوف في رحلته وكم من محبٍّ لله ارتوت الأرض من دمعته، فلله ما أعظم الخوف لمن عرف عظيم منزلته..

والخوف ليس مقصوداً لذاته، ليس المقصود أن نخاف لأجل أن نخاف بل نخاف ليكون الخوف وسيلة تصلح أحوالنا.

لو كان الخوف مقصوداً لذاته لما ذهب عن أهل الجنة!!، لكن لما كان دخول أهل الجنة الجنّة غاية الأمر وما هو مطلوب منهم وليس فيها عمل ولا اجتهاد في العبادات ومقاومة للهوى والشهوات كان الخوف من أهلها ذاهب**{لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}**[٣].

ومن خاف اليوم أمِنَ غداً...... ومن أمِن اليوم خاف غداً.

والخوف يتعلق بالأفعال، والمحبة تتعلق بالذات والصفات، ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم ولا يلحقهم فيها خوف.

قال ابن رجب: (والله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه ونصب الأدلة الدالة على عظمته وكبريائه ليهابوه ويخافوه خوف الإجلال ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدها لمن عصاه ليتقوه بصالح الأعمال).

---

(١) النحل: ٤٧.
(٢) السجدة: ١٦.
(٣) البقرة: ٦٢.

لذلك كرر الله سبحانه وتعالى ذكر النار وما أعده الله فيها لأعدائه من العذاب والنكال وما احتوت عليه من الزقوم والضريع والحميم والسلاسل والأغلال إلى غير ذلك مما فيه من العظائم والأهوال ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه وامتثال والمسارعة إلى ما يأمر به ويحبه ويرضاه واجتناب ما ينهى عنه ويكرهه ويأباه، فمن تأمل الكتاب الكريم وأدار فكره فيه وجد ذلك العجب العجاب وكذلك السنة الصحيحة المفسّرة للقرآن، وكذلك سير السلف الصالح أهل العلم والإيمان من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، من تأملها علم أحوال القوم وما كانوا عليه من الخوف والخشية والإخبات وأن ذلك هو الذي رقاهم إلى تلك الأحوال الشريفة والمقامات الساميات من شدة الاجتهاد في الطاعة والكف عن المحرمات ودقائق الأعمال المكروهات فضلاً عن المحرمات..

الخوف منازل ودرجات..

القدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم فإن زاد على ذلك، بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والكف عن دقائق المكروهات – يعني فعل المستحبات وترك المكروه والشبهة –، كان ذلك خوفاً محموداً فإن تزايد الخوف بحيث أدّى إلى مرض أو موت أو همٍّ لازم أو قعود عن العمل بحيث يقطع السعي عن اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة إلى الله عز وجل لم يكن خوفاً محموداً.

بعض الناس من شدة خوفهم من العذاب والنار يصابون باليأس والإحباط والقعود عن العمل ويقولون لا فائدة!!..، ليس هذا هو المطلوب..، وهذه الزيادة مذمومة..

الخوف المطلوب: الذي يحمل على فعل المستحبات وفعل الواجبات قبلها وعلى ترك الشبهات والمكروهات وترك المحرمات قبلها وهناك خوف ضعيف أقل من هذا، لا يؤدي إلى ترك المحرمات كلها أو فعل الواجبات كلها فهو خوف ناقص..

ذكر البخاري في قوله: (باب الخوف من الله عز وجل).

قال ابن حجر: هو من المقامات العليّة وهو من لوازم الإيمان، قال الله تعالى:**{وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}**(١)**{فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ}**(٢)**{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**(٣)، وتقدم حديث: **«أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»** (٤)، وكلما كان العبد أقرب إلى

(١) آل عمران: ١٧٥.
(٢) البقرة: ١٥٠.
(٣) فاطر: ٢٨.
(٤) صحيح البخاري (١٩).

ربه كان أشد لـه خشية ممن دونه وقد وصف الله الملائكـة بقولـه:**{يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ}**[1]، والأنبياء بقولـه:**{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ}**[2]، وإنما كان خوف المقربين أشد لأنهم يطالبون بما لا يطالب به غيرهم فيراعـون تلـك المنزلة ولأن الواجب لله منه الشكر على المنزلة فيضاعف بالنسبة لعلو تلك المنزلة..

فالعبد إن كان مستقيماً فمـن أي شـيء يخـاف؟!!، فخوفـه مـن سـوء العاقبـة لقولـه تعالى:**{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}**[3]، وكذلك يخاف من نقصان الدرجة..

وإن كان مائلاً منحرفاً وعاصياً فخوفه من سوء فعله وينفعه ذلك مع الندم والإقلاع..

متى ينفع الخوف؟

ينفع مع الندم والإقلاع، فإن الخوف ينشأ من معرفة قبح الجناية والتصـديق بالوعيـد أو أن يحرم التوبة أو لا يكون ممن شاء الله أن لا يغفر لـه.

ماحكم الخوف من الله؟

الخوف من الله واجب، وهو من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلـب وهـو فـرض علـى كل أحد كما قال ابن القيم، إذاً يجب الخوف من الله ومن لا يخف فهو آثم.

قال ابن الوزير: (أما الأمان فلا سبيل إليه، وهو شعار الصالحين).

أدلة وجوب الخوف

١ -**{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}**[4]، قال ابن سعدي - رحمه الله -: (وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده وأنه من لـوازم الإيمان فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفهم من الله).

٢ -**{وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}**، والأمر يقتضي الوجوب.

٣ -**{فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ}** (المائدة: ٤٤)، قال ابن سـعدي: أمـر الله بخشـية الله التي هي رأس كل خير فمن لم يخشَ الله لم ينكفّ عن معصيته ولم يمتثل أمره.

٤ - إن الله امتدح أهل الخوف، فقـال:**{الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ}**[5]**{أُوْلَئِكَ**

(١) النحل: ٥٠.

(٢) الأحزاب: ٣٩.

(٣) الأنفال: ٢٤.

(٤) آل عمران: ١٧٥.

(٥) المؤمنون: ٥٧.

يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}[١].

عن عائشة زوج النبي ﷺ : سألت النبي ﷺ عن هذه الآية**{الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}**[٢] أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: **«لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم»**.

{أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}[٣] قال الحسن: عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم..

إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً..!

٥ – والتخويف من عذاب الله أحد مهمات الرسل**{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ}**[٤]

والإنذار هو الإعلام بالشيء الذي يخيف، فالإنذار في لغة العرب كما قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: الإنذار إخبار فيه تخويف كما أن التبشير إخبار فيه سرور.

وقد وصف الله تعالى رسوله محمدا ﷺ بأنه نذير في مواضع كثيرة..

– جمع قومه على الصفا وقال: **«إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»** (أنا النذير العريان)، وقد كان العرب إذا رأى أحدهم جيشاً يغير على قبيلته قد اقترب وهو في الخارج ولا تدري قبيلته جاء يركض ويخلع ثيابه وهو يصرخ حتى يبين لهم هول المصيبة التي ستنزل بهم وفداحة الخطر، وهذه أشد أنواع النذارات عند العرب.

–**{وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ}**[٥].

–**{فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}**[٦].

– كان من أوائل أوامر الرسول ﷺ هو الإنذار**{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ}**[٧]، خوف الناس عذاب الله جهنم، بأس الله وانتقامه..، قال القرطبي: خوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا.

وقد وصف الله العذاب في كتابه في عدة مواضع لتحقيق الخوف في نفوس عباده ليتقوه،

---

(١) المؤمنون: ٦١.
(٢) المؤمنون:٦٠.
(٣) المؤمنون: ٦١.
(٤) الكهف: ٥٦.
(٥) الحجر: ٨٩.
(٦) الذاريات: ٥٠.
(٧) المدثر: ١، ٢.

كما قال تعـالى:**{لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ}**(1).

قال ابن كثير: **{يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ}** إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوّف به عباده. قال: لينزجروا عن المحارم والمآثم.**{يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ}** أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي.

وبين سبحانه أن ما يرسله من الآيات لتصديق الأنبياء عليهم السلام كناقـة صـالح إنمـا يرسله من أجـل التخويـف**{وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً}**(2).

كذلك الآيات الكونية كالخسوف والكسوف وغيرها.

وكذلك قال الله في البرق والرعـد:**{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ}**(3).

من فوائد الخوف:

١ - أن الله جعله شرطاً لحصول الإيمـان**{فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}**(4).

قال ابن جرير: لا تخافوا أيها المؤمنين المشركين ولا يعظمن عليكم أمرهم ولا ترهبوا جمعهم مع طاعتكم إياي فأطعتموني واتبعتم أمري وإني متكلف لكم بالنصر والظفر ولكن خافوني واتقوني أن تعصوني أن تخالفوا أمري فتهلكوا إن كنتم مؤمنين فالله عز وجـل أولى أن يخـاف منه من الكفار والمشركين.

٢ - ابتلى الله الصحابة رضي الله عنهم بابتلاء عظيم ليظهر الذي لا يخـاف مـن الـذي يخـاف في الصـيد**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**(5). ليختـبرنكم الله أيهـا المؤمنون ببعض الصيد في حال الإحرام كـي يعلـم أهـل طاعـة الله والإيمـان بـه المنتهـون إلى حدوده وأمره ونهيه، يختبر ليظهر من الذي يخاف الله والذي لا يخافه**{لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ}**(6)، يعني يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخـذه بالأيـدي والرمـاح سراً وجهراً ومحرم عليهم الصيد في الإحرام لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره ومن

(١) الزمر: ١٦.
(٢) الإسراء: ٥٩.
(٣) الرعد: ١٢.
(٤) آل عمران: ١٧٥.
(٥) المائدة: ٩٤.
(٦) المائدة: ٩٤.

لا يطيع، أما الصحابة فنجحوا في ذلك، وأما اليهود ففشلوا عندما حرم الله عليهم الصيد يوم السبت فاستحلوا محارم الله بأدنى الحيل، فنصبوا الشباك يوم الجمعة وسحبوها يوم الأحد، فلم يخافوا الله فهلكوا. فالمرء قد يتعرض أحياناً لمعصية أو شهوة والوقوع فيها يسير جداً وقد تكون الفضيحة مأمونة**{لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ}**، وكما في قصة يوسف وامرأة العزيز، هنا يكون الاختبار والبلاء.

٣ - الخوف من الله عبادة قامت في قلب النبي ﷺ فارتفعت نفسه عن المحرمات والمحظورات لأنه يخاف رب الأرض والسماوات**{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ}**(1). فهو يخشى عذاب الله ولا يتعدى حدوده.

٤ - الخوف من الله من صفات أولي الألباب**{أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ}**(2).

الخوف من الله يدل على أن صاحبه صاحب عقل، من أولي الألباب أي راجح العقل يعرف الشيء الذي يخوّف حقاً.

ثمرات الخوف من الله:

أ – في الدنيا..

١ - من أسباب التمكين في الأرض، وزيادة الإيمان والطمأنينة لأنك إذا حصل لك الموعود وثقت أكثر، قال عز وجل:**{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}**(3)، إذاً الخوف من الله يؤدي إلى التمكين في الأرض والانتصار على الأعداء وأن يهلك الله عدوهم ويخزيهم ويورث المؤمنين أرضهم وديارهم.

٢ - يبعث على العمل الصالح والإخلاص فيه وعدم طلب المقابل في الدنيا لئلا ينقص الأجر في الآخرة**{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن**

---

(١) الأنعام: ١٥، ١٦.

(٢) الرعد: ١٩، ٢١.

(٣) إبراهيم: ١٣، ١٤.

رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً}[1]،**{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ}**[2]، أي تضطرب وتتقلب وهذا هو الذي دفعهم للعمل، يريدون النجاة ويحذرون الهلاك ويخافون أن يأتوا وكتبهم بشمالهم.

ب – في الآخرة..

١ – يجعل الإنسان في ظل العرش يوم القيامة، **«ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله»**، ظاهر الحديث أنه يقولها بلسانه ليزجر المرأة عن فعلها وليذكر نفسه ويصر على موقفه ولا يتراجع بعد إعلان المبادئ، **«ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»**[3]، الخشية الموجبة لدمع العين تؤدي إلى أن النار لا تمس العين يوم القيامة.

٢ – من أسباب المغفرة، شاهد ذلك الحديث: رجل كان فيمن قبلنا عنده جهل عظيم ورزقه الله مالاً فقال لبنيه لما حضره الموت: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإني لم أعمل خيراً قط فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف، ففعلوا وما أسهل أن يعيده الله كما كان، قال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته..!!، فعذره الله بجهله وشفع لـه خوفه من ربه وإلا فالذي ينكر البعث كافر.

٣ – يؤدي إلى الجنة لأن النبي ﷺ : **«من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»** [4] أي الذي يخاف من إغارة العدو وقت السحر يسير من أول الليل أدلج فبلغ المنزل والمأمن والمطلب، وهذا مثل ضربه الرسول ﷺ لسالك الآخرة فإن الشيطان على طريقه والنفس الأمارة بالسوء والأماني الكاذبة وأعوان إبليس، فإن تيقظ في مسيره وأخلص النية في عمله أمن من الشيطان وكيده ومن قطع الطريق عليه، هذه سلعة الله التي من دخلها كان من الآمنين.

٤ – يرفع الخوف عن الخائف يوم القيامة: **«وعزتي وجلالي، وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة»**[5].

٥ – سبب للنجاة من كل سوء، **«ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية»**

---

(١) الإنسان: ١٩، ٢٠.
(٢) النور: ٣٦، ٣٧.
(٣) مسند أحمد.
(٤) الترمذي.
(٥) مسند أحمد.

فهذه الخشية هي التي تحفظ العبد وتنجيه من كل سوء لأنه قال ووعد الله لا يخلف وهذا رسوله (منجيات) وعمّم تشمل الدنيا والآخرة.

٦ - يصبح الإنسان ممدوحاً مثني عليه ويكفيه فخراً أن يدخل في أصحاب الأسماء والألقاب الشريفة**{الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ}**(١) ألفاظ شريفة كانوا يسعون لحيازتها**{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**(٢).

{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}(٣).

{وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ}(٤).

وأثنى الله على أقرب عباده إليه وهم الأنبياء لخوفهم منه**{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً}**(٥).

بل الملائكة**{يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}**(٦).

قال ابن القيم: من ثمرات الخوف أن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة مكدرة.

وليس المقصود تكدير اللذائذ المباحة، الرسول ﷺ استمتع وهو سيد الخائفين على قدر: **«حبب إليه من الدنيا الطيب والنساء»**.

تكدر اللذات المحرمة بتذكر عذاب الله ووعيده لمن وقع فيها فتتكدر لذته المحرمة بتذكر ما بها من عذاب.

قال ابن القيم - رحمه الله -: كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سمّاً، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويذل القلب ويستكين ويفارقه الكبر والحقد والحسد ويصير مستوعب الهم لخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والظنّة - البخل - بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله - الخائف - كم وقع في

(١) الأحزاب: ٣٥.
(٢) السجدة: ١٦، ١٧.
(٣) الزمر: ٩.
(٤) المعارج: ٢٧.
(٥) الأنبياء: ٩٠.
(٦) النحل: ٥٠.

مخالب سبع ضار لا يدري أيغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلكه ولا شغل لـه إلا ما وقـع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف وقوة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته وبعيـوب نفسه وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وقال ابن قدامة: فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة وهـي لقـاء الله تعـالى والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة**{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}**(١).

٧ – الرضا من الله**{رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}**(٢).

الأسباب الجالبة للخوف

الخوف ليس مقصوداً لذاته بل لما بعده من فعـل الواجبـات وعـدم تركهـا والبعـد عـن المحرمات وعدم ارتكابها وإذا زاد يمكن أن يكون فعـل مسـتحبات وتـرك مشـتبهات وإذا زاد أكثر يصبح مذموماً وإذا نقص عن هذا يكون أيضاً ناقصاً لا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة، فمـن الأسباب الجالبة للخوف:

١ – سابق الذّنب الذي وقع فيه.

٢ – حذر التقصير في الواجبات.

٣ – الخوف من المصير أن يكون على ما يكره.

٤ – إجلال الله وتعظيمه**{يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ}**(٣). والملائكة خوفهم من الله شديد جداً**{حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ}**(٤) فالله إذا تكلم بالكلمة في السماء من أوامره ضربت الملائكة بأجنحتها خضوعاً لقولـه، فأصدرت صـوتاً عظيمـاً كجـرّ السلسلة العظيمـة علـى الصـخرة ثـم يغشـاهم مـن الفـزع مـا يغشـاهم ورجعـوا إلى حالـة يستطيعون فيها الكلام قالوا ماذا قال ربكـم تناقلـت الأوامـر قـالوا الحـق، فـإذاً إجـلال الله يقتضي الخوف والهيبة منه جل وعلا وهذه أهمية معرفة أسماء الله وصفاته.

٥ – الخوف من الله يتعلق بقضيتين..

أ – الخوف من عذابه..   ب – الخوف من الله..

---

(١) الرحمن: ٤٦.

(٢) البينة: ٨.

(٣) النحل: ٥٠.

(٤) سبأ: ٢٣.

الناس العامة ينزعون إلى الخوف من النار أكثر، وأهل الفقه والعلم خوفهم من الله قبل خوفهم من ناره لأن العامة قد يكون فهمهم وعلمهم قليل وبسيط فأحياناً لا يتذكر من كل القضية إلا النار، وقد لا يستوعب أن الخوف من الله قبل الخوف من ناره أول وأكبر وأعظم ولذلك قال ابن قدامة رحمه الله: في مقامي الخوف. المقام الأول: الخوف من عذاب الله وهذا خوف عامة الناس وهذا النوع من الخوف يحصل بالإيمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية. المقام الثاني: الخوف من الله نفسه عز وجل وهو خوف العلماء والعارفين لأنه يكفيهم فقط ثلاث كلمات**{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}**(١)، ولذلك قال النبي ﷺ : **«أنا أعرفهم بالله وأشدهم له خشية»**، وقال الله تعالى:**{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**(٢) لأنه لما كملت معرفتهم بربهم وأسمائه وصفاته أثرت الخوف ففاض الأثر على القلب ثم ظهر على الجوارح بهذه الأعمال.

٦ – تتأمل النجاة لمن تاب وآمن، وتقارن نفسك بصفاتهم**{وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى}**(٣). وكما في سورة العصر حيث أقسم الله أن الناس في خسران واستثنى**{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**(٤). وكما في قوله تعالى:**{وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}**(٥). هذه الآية تورث الخوف حيث أقسم الله أنه ليملأ جهنم فينخلع القلب والله تعالى يقول:**{وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً}**(٦) وقيل لفلان: لم تبكي؟ قال: لأني أعلم يقيناً أنني سآتي على جهنم ولكن ليس لدي يقين أنني سأنجو منها..!!، وفي مسألة قبول العمل أيضاً والله تعالى يقول:**{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}**(٧). فإذا حصل الخوف حصلت أسباب النجاة.

٧ – تدبر كلام الله ورسوله والنظر في سيرته، قال ابن القيم: (لأنه سيد الخائفين وإمام المتقين وأخشاهم لله فإذا تدبر المسلم كلام الله وسنة نبيه شهد قلبه أموراً من صفات

(١) آل عمران: ٢٨.
(٢) فاطر: ٢٨.
(٣) طه: ٨٢.
(٤) سورة العصر.
(٥) السجدة: ١٣.
(٦) مريم: ٧١.
(٧) المائدة: ٢٧.

الله وعقوباته وانتقامه وكيف خاف الأنبياء والملائكة والصالحون، وليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر على معاني آيات الكتاب العزيز فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل وتحثه على التضمرّ والتخفف للقاء اليوم الثقيل). يقول ابن الجوزي: (والله لو أن مؤمناً عاقلاً قرأ سورة الحديد وآخر سورة الحشر وآية الكرسي وسورة الإخلاص بتفكر وتدبر لتصدّع قلبه من خشية الله وتحيّر من عظمة الله ربّه).

٨ – التفكر في عظمة الله سبحانه وتعالى، فإنه من تفكر في ذلك خاف الله لا محالة لأن التفكر يوقعه على صفات الله جل جلاله وكبريائه ومن شهد قلبه عظمة الله وكبرياءه علم شأن تحذيره عندما قال:**{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}**[1] أي خافوه واخشوه بما أبدى لكم من صفاته وأسمائه وعدله عز وجل، قال تعالى:**{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}**[2] يمجد الرب نفسه، أنا الجبار الملك، أنا المتكبر العزيز الكريم..، قالها ﷺ فرجف به المنبر حتى قال الصحابة ليخرنّ به، وجعل النبي ﷺ على المنبر يقول: **«يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده وقبض يده فجعل يقبضها ويبسطها ثم يقول أنا الجبار أين الجبارون أين المتكبرون»** ويتمايل الرسول ﷺ عن يمينه وشماله حتى نظر صحابي إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى قال: أساقط هو برسول الله؟!!. **«ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»** فإذا عرف الإنسان عظمة الرب جلب له ذلك الخوف منه.

٩ – التفكر في الموت وشدته وأنه لا مفر منه{قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ}[3]، فهذا يوجب الخوف من الله **«أكثروا من ذكر هاذم اللذات، الموت، فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه»**.

قال أبو العتاهية:

ألا رب ذي أجل قد حضر ::: كثير التمني قليل الحذر

(١) آل عمران: ٢٨.
(٢) الزمر: ٦٧.
(٣) الجمعة: ٨.

إذا هـــزّ في المشـــي أعطافـــه	:::	**تعرفـــت مـــن منكبيـــه البطـــر**
يؤمِّـــل أكثـــر مـــن عمـــره	:::	**ويـــزداد يومـــاً بيـــومٍ أشـــر**

١٠ – التفكر فيما بعد الموت، في القبر وأهواله، قال ﷺ : **«كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنه يرقّ القلب وتدمع العين تذكر الآخرة ولا تقول هجرة»** (١).

عن البراء يقول: كنت مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى حتى بلّ الثرى وقال: يا إخواني لمثل هذا فأعدّوا...

١١ – إذا قدم إلى القيامة وأهوالها وحديث البعث والنشور إلى ذبح الموت،**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}**(٢). لفت النظر يقوي مراقبة العبد ربه.

١٢ – إذا دخل أهل النـــار النـــار..، ماذا يوجد فيها من الأهوال في شدة عذابها؟!!..، **{إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ}**. قال الحسن: كبرت منذرة داهية عظيمة أعظم الدواهي ما أنذرت الخلائق بشيء قط أفظع منها.

وكيف قرت لأهل العلـــم أعينـــهم	:::	**أو استلذوا لذيذ النـــوم أو هجعـــوا**
والموت ينـــذرهم جهـــراً علانيـــة	:::	**لو كان للقوم أسمـــاع لقـــد سمعـــوا**
أفي الجنان وفوز لا انقطـــاع لـــه	:::	**أم الجحيم فـــلا تبقـــي ولا تـــدع**
لينفع العلـــم قبـــل المـــوت عالمـــه	:::	**قد سأل قوم بها الرجعى فما رجعـــوا**

١٣ – تفكر العبد في ذنوبه وإن نسيه والله تعالى أحصاها ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاه، وأن الله يمكن أن يعطيه النعم استدراجاً**{وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً}**(٣)، في قصة صاحب الجنتين حين قال**{مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}**(٤).

١٤ – التفكر في عاقبة محقرات الذنوب التي يحقرها الناس، وقد مثلها النبي ﷺ بقوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود وهذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وهناك ارتباط بين الأعواد وإيقاد النار وبين الذنوب وما تسبب من نضج جلود العصاة**{كُلَّمَا**

---

(١) مسند أحمد.

(٢) لقمان: ٣٣.

(٣) الكهف: ٣٦.

(٤) الكهف: ٣٦.

نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ}[1].

١٥ – أن يعلم العبد أنه قد يحال بينه وبين التوبة بموت مفاجيء، تسويف، شبهات، إصرار على المعصية والشهوات، فتنة مضلّة، والحسرة حينها لا تنفع**{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ}**[2]**{وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ}**[3].

١٦ – التفكر في سوء الخاتمة حينئذ{المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}[4]، وملك الموت كيف يسحب روح الفاجر فيتقطع فيها كل عرق وعصب وكيف يجعل في كفه من النار وحنوط لـه من جهنم..

١٧ – تجالس ناسا يكسبونك خشية وخوفا من الله، من الصالحين والعلماء المتقين**{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}**[5]، صاحب أصحاب خشية ورقة قلب إذا سمعوا الذكر وتلين قلوبهم**{ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}**[6]. واقرأ سيرهم – الإمام أحمد وخشيته..

– ابن عباس رضي الله عنه كان تحت عينيه خطّان كالشراكان الباليان أخاديد من الدموع.

– عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ آيات فمرض مرضا عاده الناس من بعده.

– عائشة تقرأ قوله تعالى:**{فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}**[7] في صلاتها فتبكي وتبكي..**{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}**[8].

– أبو بكر رضي الله عنه يمسك لسانه ويقول (هذا الذي أوردني المهالك)، (يا ليتني كنت شجرة تؤكل).

– عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (ياليتني كنت تبنة) (يا ليتني لم أكن شيئاً

---

(١) النساء: ٥٦.
(٢) المؤمنون: ٩٩، ١٠٠.
(٣) مريم: ٣٩.
(٤) الأنفال:٥٠.
(٥) الكهف: ٢٨.
(٦) الزمر: ٢٣.
(٧) الطور: ٢٧.
(٨) المائدة: ١١٨.

مذكوراً) (ياليت أمي لم تلدني) (لو مات جمل ضياعاً على جانب الفرات لخشيت أن يسألني عنه الله يوم القيامة).

– ويقول: (لو نادى منادٍ من السماء يا أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم إلا واحداً لخفت أن أكون أنا هو)..!!

– عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: (وددت لو أنني لو مت لم أبعث) وهو الذي كان يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً ويتخرق مصحفه من كثرة ما قرأ به، ومات ودمه على المصحف شهيداً..

– أبو عبيدة رضي الله عنه يقول: (وددت لو كنت كبشاً فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقي).

– عمران بن حصين رضي الله عنه يقول: (يا ليتني كنت رماداً تذروه الرياح).

– حذيفة رضي الله عنه يقول (وددت أن لي إنسانا يكون في مالي ذم أغلق علي بابي فلا يدخل علي أحد حتى ألحق بالله).

– عائشة رضي الله عنها تقول: (يا ليتني كنت نسياً منسياً).

– أبو هريرة رضي الله عنه يغشى عليه ثلاث مرات وهو يحدث بحديث: **«أول ثلاث تسعّر بهم النار..»**.

– علي رضي الله عنه يقول: لقد رأيت أصحاب محمد فما أرى اليوم شيئاً يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجداً وقياماً – أثر في الجلد فخشنه مثل ركب المعزى – يتلون كتاب ربهم يراوحون بين جباههم وجنوبهم فإذا أصبحوا ذكروا الله عز وجل مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين..

– عمر بن عبد العزيز يبكي ويبكي حتى تغلبه عيناه ثم ينام.. تسأله زوجته فيقول**{إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}**(١) فتبكي فاطمة وتقول: (اللهم أعذه من النار).

– حديث حسن: **«أولياء الله الذين إذا رُؤوا ذُكِر الله عز وجل»**.

١٨ – سماع المواعظ وبعض الخطب.

١٩ – العلم بالله وأسمائه وصفاته وكلامه وكلام رسوله ﷺ.

---

(١)الزمر: ١٣.

٢٠ – الدعاء.

وذلك مقصود في دعاء الرسول ﷺ يسأل الله أن يرزقه الخشية: **«ربي أعني ولا تعن علي وانصرني ولا تنصر علي وامكر لي ولا تمكر علي واجعلني لك شكاراً لك ذكاراً لك رهّاباً لك مطواعاً لك مخبتاً إليك أواهاً منيباً، ربي تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي وسدد لساني واهدِ قلبي واسلل سخيمة صدري»** (١)..

ويدعو بقوله: **«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك»** (٢)، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة.

موانع الخوف:

الخوف تمنعه أشياء منها المعاصي، الدنيا، الرفقة السيئة، الغفلة وتبلّد الإحساس..

الخوف القاصر نوع خطير من الخوف، وهو أن يحضر موعظة ويسمع ويتأثر ثم يمشي..

هذا خوف لا يكفي وإنما العبرة بما وقع نفع ودخل واستقر..

المطلوب الخوف المستمر..

قال أحد الصحابة: (وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل إنها موعظة مودّع ماذا تعهد إلينا؟ فأعطاهم ﷺ الوصية)(٣).. انظر إليهم.. يريدون التطبيق..

والرسول ﷺ قال: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله.. سلوني.. سلوني..»** (٤) فغطّى الصحابة وجوههم يبكون..!!

جاء حذافة وقد كان ينسب لغير أبيه فقال من أبي قال: **«حذافة»** فصار إثبات نسبه بالوحي، حتى جاء عمر فقال: رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً عائذاً بالله من سوء الفتن..

فقال الرسول ﷺ : **«لم أر كاليوم قط في الخير والشر، إني صورت لي الجنة والنار رأيتهما دون هذا الحائط»** (٥)..

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٧٤).
(٢) سنن الترمذي.
(٣) مسندأحمد.
(٤) مسند أحمد.
(٥) سنن الترمذي.

قـال ﷺ : **«أطّت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع إلا وفيها ملك قائم أو قاعد أو ساجد»** [(١)]..

فالخوف إذا باشر قلب العبد فاض أثره على الجوارح وظهر، وليس أنه كان شيئاً سـريعاً وذهب..

ترجو النجاة ولم تسـلك مسـالكها ::: إن السفينة لا تجري علـى اليـبس

قال ﷺ : **«ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها»** [(٢)]..

قال ابن تيمية – رحمه الله –: (كل عاصٍ لله فهـو جاهـل وكـل خـائف منـه فهـو عـالم مطيع)، الخائف من الله يبادر إلى الخيرات قبل الممات ويغتنم الأيام والساعات..

ويتكلم عن حال – السلف ابن المبارك – رحمه الله –:

إذا مـا الليـل أظلـم كابـدوه ::: فيسـفر عنـهم وهـم ركـوع

أطـار الخـوف نـومهم فقـاموا ::: وأهـل النـوم في الـدنيا هجـوع

لهم تحت الظـلام وهـم سـجود ::: أنـين منـه تنفـرج الضـلوع

* * * * *

---

(١) مسند أحمد.

(٢) سنن الترمذي.

المبحث الخامس
أنواع العبودية

١- عبودية كونية عامة لجميع الخلق في كل زمان ومكان وهي عبودية تسخير وتسيير، وهذه لله وحده كما قال تعالى:**{وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}**[١].

٢- عبودية خاصة يصطفي الله لها من يشاء من عباده الصالحين وهي عبودية تشريف وتكريم، كما قال تعالى:**{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً}**[٢].

٣- عبودية خاصة محدودة ومؤقتة، وهي التي تكون بين مخلوق ومخلوق (الرق) وقد تكون مشروعة (أسر للكفار) أو غير مشروعة (سرقة للأحرار).

١ – أهمية توحيد الألوهية ومنزلته من الدين:

هذا التوحيد هو أعظم أنواع التوحيد وأهمها على الإطلاق، وهو الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق كلمة توحيد، وتأتي أهميته من الأسباب التالية:

١- أنه دعوة الرسل جميعا، وأول ما يخاطب به الناس من أمور الدين، وهو معقد النجاة في الدنيا والآخرة.

٢- أنه شعار الإسلام الذي يميزه عما سواه من الديانات.

٣- أن القرآن الكريم كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائه.

والطريق الفطري إلى إثبات توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية، كما قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}**[٣].

ففي هذه الآية الكريمة جعل الله من مظاهر تفرده بالربوبية في خلق الحاضرين والغابرين وتمهيد الأرض ورفع السماء وإنزال الماء منها وإخراج الرزق من الثمرات بابا إلى توحيد الألوهية وآية بينة على استحقاقه وحده للعبادة.

---

(١) آل عمران: ٨٣.
(٢) الفرقان: ٦٣.
(٣) البقرة: ٢١، ٢٢.

٢ – أركان توحيد الألوهية هي:

١- إفراد الله بالمحبة والتعظيم والتأله.

٢- إفراد الله بالطاعة والانقياد والتسليم.

توحيد القصد والتأله:

معنى توحيد القصد والتأله: إفراد العبادة لله بالتأله والتنسك والتوجه إليه وحده بسائر أنواع العبادات القولية والعملية، كالحب والتعظيم، والرغبة والرهبة، والإنابة والرجاء والتوكل والدعاء، والاستغاثة، والذبح والنذر، والركوع والسجود، وغيرها.

و الغلو في الصالحين كان أساس الشرك في بني آدم، ولهذا نهى النبي ﷺ عن الغلو فقال عليه الصلاة والسلام: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»** [متفق عليه]. والإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه.

٣ – ضلال القبوريين وغلوهم في الصالحين:

وقد ضل الكثير من الفرق والعوام بسبب الجهل في هذا الباب، فاتخذوا من الأولياء والصالحين أندادا يحبونهم كحب الله، وتوجهوا إليهم بكثير من العبادات كالدعاء والاستغاثة والذبح والنذر. وفيما يلي توضيح لهذه العبادات التي يكون توجيهها لغير الله شركا به:

الدعاء والاستغاثة والاستعاذة:

٤ – الدعاء: الدعاء نوعان:

١- دعاء المسألة: طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، وهو متضمن لدعاء العبادة، لأن السائل أخلص سؤاله لله، ورغب إليه بخضوع وتذلل، وذلك من أفضل العبادات.

٢- دعاء العبادة: هو سائر القربات من ذكر وتلاوة وصلاة ونسك، وهو يستلزم دعاء المسألة.

الاستغاثة: هي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة، ولا تكون إلا من المكروب، بخلاف الدعاء فإنه أعم من ذلك، فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة. والاستغاثة لا تطلب من المخلوق إلا فيما يقدر عليه، أما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يطلب إلا من الله.

٥ – الأدعية البدعية: وهي ثلاث مراتب:

الأولى: دعاء غير الله من الموتى أو الغائبين، وهذا هو الشرك بالله.

الثانية: طلب الدعاء من الميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين وهذا من البدع، وقد ألحقه بعض العلماء بالشرك.

الثالثة: دعاء الله تعالى متوسلا بذات أحد من الصالحين أو بجاهه، وهو من البدع المحدثة عند الجمهور.

٦ – التوسل المشروع: وهو ثلاثة أقسام:

١- التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

٢- التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بالأعمال الصالحات.

٣- التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بطلب الدعاء من الأحياء الصالحين.

الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام. فالعائذ بالله قد التجأ إلى الله واعتصم به من كل شر، والعياذ يكون لدفع الشر. والاستعاذة من العبادات التي أمر الله بها عباده كقوله سبحانه وتعالى:**{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}**(١)، لهذا فمن صرف شيئا من الاستعاذة لغير الله فقد جعله شريكا لله في عبادته.

٧ – الخوف والمحبة:

الخوف: الخوف من الله من أفضل مقامات الدين وأجلها، وهو من أجمع أنواع العبادة التي أمر الله جل وعلا إخلاصها له، كقوله تعالى:**{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}** (٢). وينقسم الخوف إلى ثلاثة أقسام:

١- خوف السر أو الخشية بالغيب، ويجب إخلاصه لله تعالى، فإذا صرف لغيره فذلك هو الشرك.

٢- ترك بعض الواجبات خوفا من الناس وهذا مجمع على حرمته.

٣- الخوف الطبيعي وهو كالخوف من سبع أو عدو وهذا لا يذم.

المحبة: محبة الله عز وجل بتأله وذلة هو أصل دين الإسلام، لأن العبادة هي كمال المحبة وكمال الخضوع، فمن أحب من دونه شيئا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أندادا. والمحبة في الله ليس فيها شيء من شوائب الشرك بل هي واجبة، إذ أنها تابعة لمحبة الله ولازمة لها. أما المحبة الشركية فهي المحبة مع الله لما فيها من التأله لغير الله.

---

(١) فصلت: ٣٦.

(٢) آل عمران: ١٧٥.

٨ – النذر والذبح:

النذر والذبح: بما أن الوفاء بالنذر عبادة من العبادات، كما قال تعالى:{**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً**}(١)، فإن النذر لغير الله شرك في العبادة لما يتضمنه من تعظيم المنذور له والتقرب إليه بذلك. وأما بالنسبة للذبح، فهو أيضا عبادة من العبادات كما قال تعالى:{**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**}(٢)، ولذلك فإن الذبح لغير الله شرك أكبر يستحق فاعله لعنة الله وغضبه.

٩ – التنجيم:

هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، ومنه ما هو محرم ومنه ما هو جائز:

الجائز منه: ما كان من جنس الحساب ويدرك بطريق المشاهدة والخبر وليس من علم الغيب في شيء.

و المحرم منه: الاستدلال بحركات النجوم والكواكب على الحوادث المستقبلية، أو القول بتأثير الكواكب في الأمور. ولا يدخل في هذا ما جاء عن طريق الأبحاث العلمية، وإنما المقصود الخرافات المنتشرة بين الجهلة مثل ما يسمى بالأبراج وغيرها.

١٠ – التمائم:

التمائم جمع تميمة، وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام ونحوه لدفع العين، وهي من أبواب الشرك.

١١ – الحلف بغير الله:

الحلف بغير الله من الشرك الأصغر، وقد يكون من الشرك الأكبر بحسب حال قائله ومقصده. وقد اختلف الناس في جواز الحلف بالنبي ﷺ، والصواب منعه.

١٢ – توحيد الطاعة والانقياد:

توحيد الطاعة والانقياد: هو إفراد الله تعالى بالطاعة والانقياد، وذلك بتحكيم شرعه والقبول التام لكل ما جاء به نبيه ﷺ، والكفر بما يتنافى مع ذلك من الأهواء البشرية

---

(١) الإنسان: ٧.

(٢) الكوثر: ٣.

والمذاهب الوضعية.

أما في الزمن الذي نعيش فيه، ومع الاستعمار للبلاد الإسلامية، حصل تبديل للشريعة الإسلامية بالقوانين الأجنبية التي جاء بها المستعمر. فترك الناس شرع الله ووجهوا الطاعة والانقياد إلى قوانين أجنبية وضعها أعداؤهم. ومن أعداء الإسلام من قال: إن الشريعة الإسلامية لم تكن مطبقة في جميع الأحوال والأوقات حتى في ظل الخلافة الإسلامية قبل مجيء المستعمر، واحتجوا بهذا على جواز عدم تطبيق الشريعة واتخاذ العلمانية (فصل الدين عن التشريع) منهجا!

و لكن الفرق بين العلمانية وما كان يحصل من انحرافات جزئية في تطبيق الشريعة في ظل الخلافة أن العلمانية ترفض مرجعية الشريعة تماما. أما الخلافة فقد كانت معترفة ومؤمنة بمرجعية الشريعة، وإن حصل فيها بعض التجاوزات، فالله سيحاسب كل من ظلم أو أساء. فالمطلوب لتحقيق توحيد الطاعة والانقياد هو تحكيم الشرع والقبول بكل ما جاء فيه والكفر بكل ما يتنافى معه.

فالعلمانية تعني فصل الدين عن الدولة وعن الحياة عموما، وقصر الدين على جانب الشعائر التعبدية البحتة بين المرء وخالقه، وهي تنزع قدسية الدين وتعتبره ميراثا بشريا بحتا؛ ولذلك فإن العلمانية ناقضة لأصل الدين:

١- فهي شرك في الربوبية، ليس في جانب الخلق والأمر الكوني وإنما في جانب الهداية والأمر الشرعي.

٢- وهي شرك في الألوهية: فتبديل شرع الله بشرع آخر شرك بالله تعالى.

٣- وهي ثورة على النبوة: فالإيمان بالنبوة يتطلب تصديق خبر الرسول ﷺ والتزام أمره جملة وتفصيلا.

٤- وهي نقد الإيمان: فإن أصل الإيمان تصديق الخبر والانقياد للأمر.

٥- وهي استحلال للحكم بغير ما أنزل الله.

١٣ – توحيد الأسماء والصفات: هلك في قضية الأسماء والصفات فريقان:

١- المشبهة أو الممثلة: وهم الذين غلوا في إثبات صفات الله حتى جعلوها على نحو يماثل صفات المخلوقين. ومذهبهم باطل ومنكر، فقد قال الله تعالى:**{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}**(١)، وقال:**{وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ}**(١). وقد نهى الله عن أن تضرب له

(١) الشورى: ١١.

الأمثال في قولـه تعالى:**{فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ}**(٢).

٢- المعطلة: وقد غلوا في جانب النفي فأنكروا أسماء الله وصفاته إنكارا كليا أو جزئيا، وحرفوا من أجل ذلك نصوص الكتاب والسنة، ومنهم: الأشاعرة والمعتزلة والجهمية والقرامطة والفلاسفة، على تفاوت بينهم في التعطيل والتحريف. وأظهر هذه الطوائف اليوم هم الأشاعرة، وقد أثبتوا بعض الصفات ونفوا بعضها الآخر وردوا لذلك من النصوص ما أمكنهم رده وأولوا ما أعجزهم رده.

و قد زعم الأشاعرة والفلاسفة، لقلة فهمهم، أنه يجب تأويل أو تعطيل أو نفي الكثير من الأسماء والصفات، وذلك لأسباب فلسفية لأنهم رأوا تعارض ثبوت هذه الأسماء والصفات مع العقل. ولكن ما فاتهم أن هذه الأمور من أمور الغيب، فلا يجوز ولا يعقل الرجوع فيها إلى العقل، فإن العقل لا يمكنه أن يدرك بالتفصيل ما يجب ولا يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الله عز وجل.

وأما الصواب في هذا الباب فهو موقف أهل السنة والجماعة، وهو الإثبات بلا تمثيل والتنزيه بلا تعطيل. وكما قال الإمام أحمد في هذا الباب: نصف الله بما وصف نفسه، ولا نتعدى القرآن والحديث.

* * * * *

---

(١) الإخلاص: ٤.

(٢) النحل: ٧٤.

المبحث السادس
الإيمان بالرسل

يقتضي إيمان المؤمن بالله أن يصدق بجميع الرسل الذين أرسلهم الله هداةً للبشر دون تفريق:**{لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ}**(١) إذ لا يقبل من مسلم أن يؤمن ببعض الرسل دون بعض كما لا يقبل منه الإيمان بالله دون الإيمان بالرسل:**{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا}**(٢).

وقد اقتضت حكمة الله أن يرسل لكل أمة رسولاً يهديها سواء السبيل:**{وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِير}**(٣).

حتى لا يكون لأحد من البشر عذر أمام الله يوم القيامة:**{لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}**(٤).

ولذلك فإن عدد رسل الله لم يُحصر فيما ورد من الصحيح فمنهم من أخبر الله به نبيه محمداً ﷺ، ومنهم من لم يقص عليه نبأه. وقد ورد في القرآن ذكر لخمسة وعشرين رسولاً نبياً وهم:

آدم – نوح – هود – صالح – شعيب – لوط – إبراهيم – إسماعيل – إسحاق – يعقوب – يوسف – موسى – هارون – داود – سليمان – اليسع – ذو الكفل – زكريا – يحيى – أيوب – يونس – إلياس – إدريس – عيسى ابن مريم – وخاتمهم محمد بن عبد الله. وأولو العزم من الرسل خمسة (نوح – إبراهيم – موسى – عيسى – محمد) صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد اصطفاهم الله من البشر يأكلون ويشربون ويتزوجون وينامون، وليس لأحد منهم ميزة عن البشر في تلك الصفات، وإنما الذي يميزهم عن البشر هو الوحي:**{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ}**(٥).

---

(١) البقرة: ٢٨٥.
(٢) النساء: ١٥٠، ١٥١.
(٣) فاطر: ٢٤.
(٤) النساء: ١٦٥.
(٥) الكهف: ١١٠.

بالإضافة إلى أنهم يتمتعون بصفات نبيلة وأخلاق كريمة وهي ضرورة لهم: كالصدق والأمانة والفطانة والعصمة والعلم عن الله. وقد حملهم الله أمانة الرسالة، وكلفهم بأربعة واجبات، وردت في قوله تعالى:**{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ}**(١).

وهذه الواجبات هي:

١ – تلاوة آيات الله وتبليغ رسالاته.

٢ – تعليم البشرية أحكام الدين الواردة في الكتب السماوية.

٣ – تعليم البشرية الحكمة وإعمال العقل وحسن التصرف.

٤ – تزكية النفوس، وتربية القلوب للرقي بالإنسان إلى ما يريده الله له من الخير والصلاح.

وقد أيدهم الله بمعجزات خارقة للعادات برهاناً على صدقهم، ودليلاً على نبوتهم أمام المنكرين.

وينبغي أن يُعْلم أن رسالات الأنبياء جميعاً تتفق في أصول العقيدة والدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، إلا أنها تختلف في بعض تشريعاتها الخاصة، إذ كانت شريعة كل نبي خاصة بقومه، صالحة لزمانه؛ حتى جاءت رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ فنسخت من الشرائع السابقة ما لا يصح لكل زمان ومكان وصارت رسالة خاتمة صالحة لكل زمان ومكان. وفي هذا الإطار كان كل نبي يصدق من كان قبله من الأنبياء والمرسلين ويبشر بمن سيأتي بعده، وما من نبي إلا وصى أتباعه بتصديق خاتم النبيين إن هو أدرك زمانه، واتباع ملة الإسلام:**{وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ}**(٢).

وقد ذكر رسول الله ﷺ جهود الأنبياء والمرسلين إذ قال: **«مثلي ومثل الأنبياء من قبلي**

---

(١) البقرة: ١٥١.

(٢) آل عمران: ٨١.

كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعـــل النـــاس يطوفون به ويعجبون لـــه ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين» [1].

ولا بد من التأكيد على وجوب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين على أنهم رسـل الله إلى عباده، مع العلم بأن الله فضل بعضهم على بعـض إذ قـال: **{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}** [2] وينقض هذا الركن من أركان الإيمان بمـا يلي:

١ - أن يكفر الإنسان بالأنبياء والمرسلين المذكورين في القرآن الكريم أو بواحد منهم.

٢ - أن ينسب إلى الأنبياء أو إلى أحد منهم صفة الألوهية أو البنوة لله.

٣ - أن ينسب إلى الأنبياء أو إلى واحد منهم الكذب أو الخيانة أو الفواحش.

٤ - أن ينكر أن محمداً ﷺ آخر المرسلين وخاتم النبيين وأنه لا نبي بعده.

٥ - أن يكذب على رسول الله ﷺ متعمداً.

* * * * *

(١) رواه مسلم.
(٢) البقرة: ٢٥٣.

المبحث السابع
الإيمان بالملائكة

الملائكة في أصل اللغة جمع ملَك، وهو مشتق من الألوكة، أي: الرسالة، أو مشتق من الملك بفتح الميم وتسكين اللام، وهو الأخذ بقوة، أما تعريفهم في الشرع: "فهي أجسام لطيفة، أعطيت قدرة على التشكل، بأشكال مختلفة، ومسكنها السماوات" وعلى هذا جمهور العلماء، كما نقل ذلك الحافظ ابن حجر.

٢ – وجوب الإيمان بالملائكة:

الإيمان بالملائكة؛ هو الاعتقاد الجازم بوجودهم، وأنهم مخلوقون لله سبحانه، قال تعالى:**{وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ}**(١).

والإيمان بالملائكة: ركن من أركان الإيمان، فلا يصح إيمان العبد إلا به، وقد دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، قال تعالى:**{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}**(٢).

وفي حديث جبريل المشهور، قال ﷺ عندما سئل عن الإيمان: **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره»** (٣)، وأجمع المسلمون قاطبة على وجوب الإيمان بالملائكة، وعليه فمن أنكر وجود الملائكة من غير جهل يعذر به فقد كفر، لتكذيبه القرآن في نفي ما أثبته، وقد قرن الله عز وجل الكفر بالملائكة بالكفر به، قال تعالى:**{وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً}**(٤).

والإيمان بالملائكة ليس على درجة واحدة، فهناك الإيمان المجمل، وهو الإيمان بوجودهم، وأنهم خلق من خلق الله سبحانه، وهذا القَدْر من الإيمان بالملائكة واجب على عموم المكلفين، وهناك الإيمان التفصيلي، وذلك بمعرفة ما يتعلق بالملائكة مما ورد به الشرع المطهر، وطلب هذا واجب على الكفاية، فلا يطالب به كل مكلف، بل هو واجب على مجموع الأمة، بحيث إذا قام به البعض، وحصلت بهم الكفاية، سقط عن الآخرين.

---

(١) البقرة: ١٧٧.
(٢) البقرة: ٢٨٥.
(٣)رواه مسلم.
(٤) النساء: ١٣٦.

مرتبة الملائكة عند ربهم:

لعل من أعظم الآيات، التي تدل على عظم مكانة الملائكة عند ربهم، قوله تعالى: **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}**(١)، ووجه الدلالة؛ أن الله احتج بشهادتهم على أعظم مشهود على الإطلاق، وهو توحيده سبحانه، وقرن شهادتهم بشهادته، والله لا يستشهد من خلقه إلا من عظم قدره عنده، فهذه الآية تدل على علو قدرهم ومكانتهم.

٣ – صفات الملائكة الخلقية والخُلقية:

خلقت الملائكة من نور، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، وكان خلقهم متقدما على خلق البشر، كما دلّ على ذلك ما قصه القرآن علينا من قصة خلق آدم عليه السلام، قال تعالى:**{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}**(٢)، فالآية واضحة الدلالة على أن وجود الملائكة سابق لوجود البشر.

وتشير النصوص إلى عظم خلق الملائكة من حيث الجملة، كما في وصف الملائكة الموكلة بالنار:**{غِلاظٌ شِدادٌ}**(٣). وقال تعالى في وصف جبريل عليه السلام:**{ذِي قُوَّةٍ}**(٤).

وقال ﷺ في وصف جبريل أيضاً: **«رأيته منهبطاً من السماء، سادًا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض»**(٥).

ووصف النبي ﷺ أحد حملة العرش، فقال: **«أذن لي أن أحدث عن أحد حملة العرش، ما بين شحمة أذنه وعاتقه، مسيرة سبعمائة عام»**(٦).

وهم على عظم خلقهم لا يأكلون ولا يشربون، ولهم قدرة على التشكل، كما دلت على ذلك قصة إبراهيم مع الملائكة، عندما أتوه في صورة شبان، فقدم لهم الطعام، فلم يأكلوا، قال تعالى:**{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ *

---

(١) آل عمران: ١٨.
(٢) البقرة: ٣٠.
(٣) التحريم: ٦.
(٤) التكوير: ٢٠.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه أبو داود وصححه الحافظ ابن حجر.

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ}(1).

ومما يدل على ذلك أيضا، مجيئهم لوطاً عليه السلام في صورة شبان حسان الوجوه، قال تعالى**{وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ}**(2)، ومجيء جبريل عليه السلام إلى مريم عليها السلام في صورة بشر، قال تعالى:**{فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً}**(3).

وكذلك كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة الصحابي دحية الكلبي، كما في صحيح مسلم، وفي صورة أعرابي(4).

ووصفهم الله سبحانه بأنهم:**{أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ}**(5)، ومن صفاتهم الخَلقية أنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، فمن وصفهم بالأنوثة من غير جهل فقد كفر؛ لتكذيبه القرآن في نفي ذلك، قال تعالى:**{أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً}**(6) ومن وصفهم بالذكورة، فقد جاء بدعا من القول وزورا، لإثباته ما لم يثبت شرعا، ونفي أن يكونوا إناثا لا يلزم أن يكونوا ذكورا، فإن الملائكة خلق يختلف عن خلق الإنس والجن.

وأما صفاتهم الخُلُقية، فهم من أعظم الخلْق خُلقاً، فقد وصفهم الرب سبحانه بأنهم:**{كِرَامٍ بَرَرَةٍ}**(7)، ووصفهم النبي ﷺ بالأوصاف ذاتها حين قال: **«الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة...»**(8).

ومن صفاتهم: أنهم معصومون من الذنوب والمعاصي لا يقربونها، قال تعالى:**{لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}**(9). وهم مع عصمتهم من الذنوب والمعاصي دائمو الطاعة لله سبحانه، قال تعالى:**{يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ}**(10).

---

(1) الذاريات: ٢٤ – ٢٨.
(2) هود: ٧٧.
(3) مريم: ١٧.
(4) كما في حديث جبريل المشهور في صحيح مسلم.
(5) فاطر: ١.
(6) الإسراء: ٤٠.
(7) عبس: ١٦.
(8) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(9) التحريم: ٦.
(10) الأنبياء: ٢٠.

ومن أخلاقهم الحياء، ففي الحديث أن أبا بكر وعمر رضي الله عنها، دخلا على النبي ﷺ وهو كاشف فخذه، فلم يسترها، فلما دخل عثمان جلس النبي ﷺ وسوى ثيابه، فسألته عائشة رضي الله عنها عن ذلك، فقال: **«ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»** (١).

ومن صفاتهم أيضا أنهم يتأذون من الروائح الكريهة، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل البصل والكراث، فغلبتنا الحاجة فأكلنا منها، فقال: **«من أكل من هذه الشجرة المنتنة فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس»** (٢).

وأما عددهم فلا يعلمه إلا الله سبحانه، حيث ردّ علم ذلك إلى نفسه، فقال:**{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ}**(٣).

وجاء في صفة البيت المعمور أنه: **«يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم»** (٤).

وعدّ ﷺ الملائكة الذين يأتون بجهنم بأربعة مليارات وتسعمائة مليون ملك، كما دل على ذلك حديث: **«يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك»**(٥)، وقال ﷺ لأصحابه يوما: **«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»** (٦)، فهذه الأحاديث وغيرها تدل على كثرة عدد الملائكة، وأنه لا يحصي عددهم إلا الله، فليس أمام المسلم أمام هذا الملكوت العظيم، إلا أن يسبح الله بحمده، ويسأله عفوه ولطفه على التقصير والتفريط.

٤ – أعمال الملائكة:

وصف الله أعمال بعض الملائكة بقوله:**{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً}**(٧) قال الحسن: "هي الملائكة

---

(١) رواه مسلم.
(٢) مسند أحمد.
(٣) المدثر: ٣١.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه الترمذي وحسنه الشيخ الألباني.
(٧) النازعات: ٥.

تدبر الأمر من السماء إلى الأرض"، وقال تعالى:**{فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً}**[1] جاء في تفسيرها: هي الملائكة تقسم الأعمال عليها، من الخصب والجدب والمطر والموت والحوادث.

وقد ذكر الله تعالى بعض الأعمال التي كلف بها ملائكته، فمن ذلك قوله تعالى:**{ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}**[2]، فهذه ملائكة تحفظ الإنسان من الشرور بأمر الله سبحانه، حتى إذا جاء القدر خلوا عنه، وقال سبحانه:**{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ}**[3] فذكر في هذه الآية أن الملائكة هي التي تتولى نزع روحه.

ومن ذلك أن الملائكة هم من يحملون عرش الرحمن سبحانه، قال تعالى:**{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}**[4].

ومن أعمال الملائكة الاستغفار للمؤمنين، قال تعالى:**{وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}**[5].

وجاء في السنة ما يدل على عناية الله بالإنسان في بدء تكوينه وتخلقه في الرحم، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله عز وجل وكَّل بالرحم ملكا يقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقه، قال: أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ فيكتب في بطن أمه»** [6].

وجاء في السنة أيضا أن الله وكل ملائكة بتصوير الأجنة في أرحامها، ونفخ الروح فيها، فعن حذيفة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا مرّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكا فصورها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، ولحمها، وعظامها»** [7].

ومن أعمال الملائكة كتابة وإحصاء أعمال المكلفين من خير أو شر، قال تعالى:**{مَا يَلْفِظُ**

---

(١) الذاريات: ٤٠.
(٢) الرعد: ١١.
(٣) الأنعام: ٦١.
(٤) غافر: ٧.
(٥) غافر: ٧.
(٦) رواه البخاري.
(٧) رواه مسلم.

مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[١] قال تعالى:**{كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}**[٢].

ومن الأحاديث ما يدل على أن من الملائكة من هو موكل بتتبع حِلَقَ الذِّكْر، فقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم»** [٣].

ودلت الأحاديث على أن من الملائكة من يجاهد مع المؤمنين، قال تعالى:**{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ}**[٤]، قال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة – أي الذين قتلتهم الملائكة من الكفار – من قتلى الناس، بضرب فوق الأعناق، وعلى البنان، مثل: وسم النار[٥].

ودلت الأدلة على أن الملائكة تشفع يوم القيامة في المذنبين من الموحدين، قال تعالى:**{وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى}**[٦]، ففي الحديث: **«فتشفع الملائكة والنبيون والصديقون»** [٧].

ومن الأحاديث ما يدل على أن من الملائكة من هو موكل بحفظ الأماكن المقدسة من الدجال، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ، قال: **«ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها..»** [٨].

ومن الأحاديث ما يدل على أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة، فعن أبي طلحة الأنصاري – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة»** [٩].

فهذه بعض أعمال الملائكة التي ذكرت في الكتاب والسنة دون تعيين أصحابها من الملائكة.

---

(١) ق: ١٨.
(٢) الانفطار: ١١ – ١٢.
(٣) صحيح البخاري ٥٩٢٩.
(٤) الأنفال: ٩.
(٥) رواه البيهقي.
(٦) النجم: ٢٦.
(٧) رواه ابن حبان.
(٨) رواه البخاري.
(٩) رواه أحمد.

وفي المقابل ورد في الكتاب والسنة ذكر أعمال معينة مصرحا بأسماء أصحابها، ومن أعظم الملائكة الذين صرح الكتاب والسنة بذكرهم وذكر أعمالهم؛ جبريل عليه السلام أمين الوحي، وميكال أمين القطر، وكلاهما موكل بالحياة فجبريل موكل بحياة القلوب، وميكال موكل بحياة الأبدان، وبهما – الوحي والقطر – تقوم الحياة وتنعم البشرية، قال تعالى:**{مَن كَانَ عَدُواًّ لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ}**(١).

وممن ورد ذكره في القرآن مصرحا باسمه مالك خازن النار، قال تعالى:**{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ}**(٢).

ومن الملائكة الذين صرح القرآن بأسمائهم: هاروت وماروت، عليهما السلام، قال تعالى:**{وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}**(٣).

وقد ذكر في السنة بعض أسماء الملائكة وأعمالهم، فممن صرحت السنة باسمه، إسرافيل عليه السلام وهو الموكل بالنفخ في الصور، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«كيف أنعم؟ وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له»**. قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: **«قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»**(٤)، وقد ورد في رواية التصريح بأن (إسرافيل هو صاحب الصور).

وممن ذكر اسمه في السنة المطهرة أيضاً منكر ونكير عليهما السلام، وهما الملكان الموكلان بسؤال العبد في قبره وقد ورد ذكرهما عند الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«إذا قبر أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر والآخر النكير..»**(٥).

وقد اشتهر على ألسنة الناس أن اسم ملك الموت عزرائيل، وهذا التسمية – كما يقول العلماء – لم ترد في حديث صحيح، وقد ذكره الله تعالى بوظيفته لا باسمه، فقال سبحانه:**{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ..}**(٦).

(١) البقرة: ٩٨.
(٢) الزخرف: ٧٧.
(٣) البقرة: ١٠٢.
(٤) أحمد والترمذي.
(٥)سنن الترمذي.
(٦) السجدة: ١١.

فهذه بعض أعمال الملائكة التي وردت في الكتاب والسنة، وهي تدل – كما يقول ابن القيم – على أن الله سبحانه وكل بالعالم العلوي والسفلي ملائكة، فهي تدبر أمر العالم بإذنه ومشيئته وأمره، فلهذا يضيف التدبير إلى الملائكة تارة؛ لكونهم هم المباشرين للتدبير، كقوله: **{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً}** (الذاريات: ٣)، ويضيف التدبير إليه، كقوله:**{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ}**(١)، فهو المدبر أمرا وإذنا ومشيئة، والملائكة المدبرات مباشرة.

٥ – أثر الإيمان بالملائكة في حياة المسلم:

للإيمان بالملائكة آثار عظيمة على سلوك الإنسان، وعلاقته بربه، من تلك الآثار:

١ – بذل العبد جهده في طاعة ربه سبحانه، اقتداء بالملائكة الكرام، الذين يتفانون في طاعته مع عصمتهم من الذنوب، وقربهم من ربهم جلا وعلا، قال تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ}**(٢).

٢ – دفع الغرور عن النفس، والافتخار بالعمل، فالملائكة على دوام طاعتهم خاضعين له سبحانه**{يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ}**(٣)، وهم مع ذلك يسألونه الصفح والمغفرة عن التقصير في العمل، كما ثبت ذلك في الحديث الذي رواه الحاكم وصححه الشيخ الألباني أن الملائكة تقول لربها يوم القيامة: **«سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»** (٤)، والمسلم مهما بلغ في عبادته، فلن يبلغ مقدار عبادة الملائكة، فهو أولى بنبذ الكبر والاغترار بالعمل.

٣ – الاجتهاد في البعد عما حرمه الله، خوفا من الله أولاً، ثم حياء من الملائكة الذين لا يفارقون بني آدم، ويكتبون ويسجلون أعمالهم، ولا سيما أن الله وصفهم بأنهم كرام، كما قال تعالى:**{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}**(٥)، فإن الإنسان قد تستولي عليه الشهوة، ويغفل عن مراقبة الله له، فإذا علم أن معه من لا يفارقه من الملائكة الكرام، كان ذلك باعثا له على الحياء، والانكفاف عما هو مقدم عليه من معصية الله تعالى.

---

(١) يونس ٣.
(٢) الأعراف: ٢٠٦.
(٣) الأنبياء: ٢٠.
(٤) رواه الحاكم وصححه الشيخ الألباني.
(٥) الانفطار: ١٠ – ١٢.

٤ - الاقتداء بهم في حسن نظامهم، وإتقان أعمالهم، عن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: **«ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها»**، فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: **«يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف»** (١) فحثّ النبي ﷺ الصحابة على الاصطفاف في الصلاة، كما تصف الملائكة عند ربها، وذلك لحسن نظامهم، عند وقوفهم بين يدي ربهم.

إن الملائكة مع عظيم خلقهم، وشدة بأسهم، ما هم إلا خلق من خلق الله، وإن هذا الكون بإبداعه، وإبداع من فيه، لهو أعظم دليل على وحدانية الله تعالى، واستحقاقه مطلق العبادة.

* * * * *

---

(١) رواه مسلم.

المبحث الثامن
الإيمان بالقضاء والقدر

يزعم أعداء الإسلام أن الإيمان بالقدر هو سر تخلف المسلمين وقعودهم عن اللحاق بركب الحضارة المادية، مستدلين على ذلك بواقع المسلمين اليوم، حيث انتشر فيهم التخلف والفقر والجهل، وربطوا الإيمان بالقدر وواقع المسلمين، زاعمين أن القدر يدفع الناس إلى الكسل وترك العمل، تحت دعوى أن كل ما هو مقدر فسيكون. وجواباً على هذا الزعم المفترى نقول: إن الأسباب الكامنة وراء تخلف المسلمين كثيرة منها داخلية ومنها خارجية، وإن كان الإيمان بالقدر من بين تلك الأسباب فمردُّ ذلك إلى الفهم الخاطئ لهذا الركن العظيم من أركان الدين، ونقول لهم أيضاً: إنه من غير الممكن أن يكون حال المسلمين حاكماً على الإسلام نفسه، وإذا أراد هؤلاء أن يحاكموا الإسلام بالنظر إلى حال معتنقيه فليحاكموه بحال معتنقيه الأوائل من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وكيف أنهم في فترة وجيزة فتحوا جزيرة العرب وخضعت لهم مملكتا فارس والروم، فلو كان الإيمان بالقدر هو سر تخلف المسلمين، لما وصل المسلمون في العهد الأول – وكانوا مؤمنين بالقدر – إلى ما وصلوا إليه، ولقعد بهم عن العمل كما قعد بِخَلَفِهِم.

وبعد هذه المقدمة التي لابد منها نعرض لبعض ثمار الإيمان بالقدر، حتى يتضح عظم منزلة منزلته من الدين، وعظم آثاره وثماره على المسلمين، ويتضح بذلك فساد زعم أعداء الإسلام، فنقول وبالله التوفيق.

إن للإيمان بالقدر ثمارا جليلة يدركها كل مؤمن به، منها ربط العبد بخالقه سبحانه، ذلك أن الحياة مليئة بالمفاجآت، فلا يدري المرء ما يحصل له من خير، أو ما يدهمه من شر، فيأتي الإيمان بالقدر ليبقي قلب المؤمن معلقاً بخالقه، راجياً أن يدفع عنه كل سوء، وأن يعافيه من كل بلاء، وأن يوفقه لخيري الدنيا والآخرة، فتتعلق نفسه بربه رغبةً ورهبةً

ومن ثمار الإيمان بالقدر معالجة أمراض المجتمع الناشئة عن عدم الرضا بقضاء الله وقدره، كالحسد الذي يدفع العبد إلى الضغينة والحقد، فإن العبد إذا علم أن الله هو المعطي وهو المانع، وأن الرزق مقسوم والأجل محدود، سلَّم أمره إلى الله، وقنع بما رُزِق، وعلم أن ما كتب له سيأتيه. ولو لم يرد أهل الأرض، وأن ما لم يكتب لن يأتيه ولو أراد أَهل الأرض.

ومن ثمار الإيمان بالقدر أنه يبعث في النفوس الشجاعة والإقدام والثبات في ساحات القتال؛ لإيمانها بأن الآجال محدودة، وأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيدفعه ذلك إلى الإقدام، وترك الإحجام والمقاتلة بكل قوة وشجاعة ومن ثمار

الإيمان بالقدر أنه يورث العبد قدرة على مواجهة المصائب والأحداث فلا يستسلم وينهار، ولا تضعف نفسه، بل يسلم أمره لله قائلا **«إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها»** (١)، ومن ثمار الإيمان بالقدر تحرر العبد من الخوف إلا من الله جلَّ وعلا، فإذا علم المسلم أن لكل أجل كتاب، وكل أمر مستقر، وأن نواصي العباد بيده سبحانه، لم يرهبه ظلم ظالم، ولا تجبر جبار.

ومن ثمار الإيمان بالقدر الحرص على الأعمال الصالحة، لعلم العبد أن الموت قد يدهمه في أي لحظة، فيكون حاله كمن يسابق الزمن في سبيل التزود من عمل الخير؛ هذه بعض ثمار الإيمان بالقدر، وهي غيض من فيض، ونقطة من بحر، ولن تتضح لك جلياً حتى تتأملها في نفسك وإخوانك، وحتى تتأمل نقيضها فيمن لا يؤمن بالقدر، فكم قتلت الحيرة نفوساً أرقها التفكر في المستقبل. أو أزعجها وقوع مصيبة عليها؛ لذلك نجد أن الإسلام في سجون الكافرين يلقى قبولا عظيما كما ذكر ذلك بعض الكتَّابِ – وذلك لما يوفره الإيمان من راحة نفسية وطمأنينة قلبية تحمل صاحبه على التسليم لله جلا وعلا، وتفويض الأمر إليه، نسأل المولى عز وجل أن يزيدنا إيماناً ويقيناً، وأن يوفقنا للعمل بطاعته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

(١) كما روى ذلك مسلم في صحيحه.

المبحث التاسع
لماذا تخاف وتقلق من النكبات؟

١- الإيمان بعلم الله الشامل المحيط بكل شيء يعلم الغائب والشاهد، والظاهر والمستتر، وأنه سبحانه لا تخفى عليه خافيه ويعلم ما توسوس به الصدور ويعلم ما كان وما سيكون وأنه لا يقع شيء في الوجود إلا بعلمه سبحانه كما قال جل وعلا:**{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}**(١) وقال سبحانه:**{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}**(٢)، وقال سبحانه:**{لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً}** (٣).

إذا علم هذا واستقر في القلوب، وأنه سبحانه علام الغيوب ومن أسمائه العليم السميع البصير: أيقنت النفوس المؤمنة واطمأنت بأن ما يحدث بعلمه واطلاعه سبحانه فلماذا تخاف وتقلق، لماذا ترتبك وتتراجع والملك الجبار عالم بكل ما يحدث وما يخططه الأعداء وما يحيكه اليهود والنصارى في الخفاء، فالإيمان بهذا الأمر يورث الأمن والطمأنينة والثبات بإذن الله عز وجل.

٢- أنه لايحدث شيء في هذا الكون من خير أو شر إلا بإرادته ومشيئته، ولا يقع أي أمر إلا بإذنه، فلا يتصور ولا يتخيل أن يحدث شيء بدون إرادته سبحانه، وأن الخلق مهما خططوا وفعلوا فلن يحدث ولن يقع إلا ما أراد وقدر سبحانه.

قال جل وعلا:**{إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}**(٤)، وقال سبحانه:**{وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ}**(٥)، وقال سبحانه:**{إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}**(٦).

إذا علم هذا فإذا نزلت النازلة وحلت المصيبة تذكر أنه بإرادة الله ومشيئته فلا تجزع، فإنك تؤوى إلى ركن شديد.

(١) الأنعام ٥٩.
(٢) التغابن ١٨.
(٣) الطلاق١٢.
(٤) هود١٠٧.
(٥) الرعد١١.
(٦) الحج ١٤.

عباد الله: ومع إيماننا بمشيئة الله النافذة وإرادته لكل ما يحدث في الكون فنحن أيضاً مأمورون بامتثال أوامر الله وما أراده منا شرعاً وديناً فلا يحتج محتج بنزول المصائب وأنها من عند الله، ونقف هكذا لا نحرك ساكناً بل أمرنا الله بمدافعة الكفار والجهاد في سبيله سبحانه وإقامة دينه وشرعه وتحليل الحلال وتحريم الحرام.

وبالإيمان بالقدر وبما شرع الله يتم الإيمان وتثبت قدم المرء على الإسلام.

٣: أن ما قدر في هذا الكون لحكمة ومصلحة نعلمها وقد لا نعلمها والله سبحانه لا يقدر الأقدار ويخلق الخلق لغير حكمة فهو سبحانه منزه عن العبث واللعب قال جل وعلا:**{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ}**(١)، وقال سبحانه:**{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً}**(٢)، وقال جل وعلا:**{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ}**(٣)، وحال المؤمنين إذا تفكروا في ملكوت الله وخلقه قالوا:**{رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ}**(٤).

إذا علم هذا فعند حلول المصائب تطمئن وترضى وتسلم لقضاء الله وقدره وتحسن الظن بالله؛ لأنه ما قدر هذه المصائب التي تحل بالأمة أو بالأفراد إلا لحكمة بالغة؛ لأنه سبحانه الحكيم الخبير.

٤- أن الله سبحانه لا يقدر شراً محضاً ليس فيه خير، بل كل ما قدر وإن ظهر لنا أنه شر كله، فإن من وراءه من الخير ما لا يعلمه إلا الله كتكفير السيئات ورفعة الدرجات وتمحيص المؤمنين وتبصيرهم بعيوبهم وكشف ما يخطط لهم، أو دفع شر أعظم مما حل بهم كحفظ دينهم ولو ذهب شيء من دنياهم، ونحو ذلك من المصالح التي لا تخطر على البال، وقد جاء في دعاء النبي ﷺ لربه: **«والشر ليس إليك»**، وهذا إبليس أساس الشر في العالم خلقه الله سبحانه وقدر وجوده في الكون ليختبر العباد، ويعلم الصادق من الكاذب وغيرها من الحكم التي ظهر فيها الخير للعباد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فإذا حلت المصائب لا تظن أيها العبد المسكين، يا من علمك ناقص وبصرك محدود، اعلم أن الحكيم الخبير والرؤوف الرحيم لا يمكن أن يقدر على خلقه أمراً ليس فيه خير ومصلحة لهم.

٥- أن الله سبحانه يفعل في خلقه وملكه ما يشاء وهو لا يُسأل سبحانه عما يفعل وهم

---

(١) الأنبياء: ١٦.
(٢) المؤمنون: ١١٥.
(٣) الحجر: ٨٥.
(٤) آل عمران: ١٩١.

يسألون؛ لأنه مالك الملك وجبار السماوات والأرض رب العالمين وخالق الناس أجمعين ومدبر الكون وإله الأولين والآخرين سبحانه جل وعلا، فلا يحق لنا أن نسأل مولانا لماذا قدر علينا المصيبة؟ ولماذا أصابنا ولم يصب غيرنا؟ فنحن خلقه وعبيده وهذا ملكه ووجوده يفعل في خلقه وملكه ما يشاء سبحانه، وهذا الأدب مع الله هو أساس اعتراف العبد بألوهية الله وربوبيته سبحانه والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

٦- الاعتقاد الجازم الذي لا يخالطه شك ولا يمازجه ريب بأنه سبحانه الحكم العدل الذي حرم الظلم على نفسه وجعله بين خلقه محرماً وهو سبحانه لا يرضى عن الظلم والظالمين فقال سبحانه:**{وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}**(١)، وقال سبحانه:**{وَمَا رَبُّكُ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}**(٢) ويقول جل وعلا:**{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً}**(٣).

إذا علم هذا فإذا رأيت المصائب تنزل، فاستحضر هذه القاعدة ولتكن منك على بال فلا تسيء الظن بربك، فهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين، وأنه سبحانه لا يرضى أن يُظلم عباده وسوف ينتصر لهم ولو بعد حين، وأن الله أعد للظالمين عذاباً أليماً وأن دعوة المظلوم لا ترد وتصعد إلى الله كأنها شرارة.

٧- أن الله سبحانه رحيم بالمؤمنين، بل هو أرحم بهم من أمهاتهم وآباءهم ومن رحمته ما يقدر في الكون، وهو قد كتب على نفسه الرحمة، وأن رحمته سبقت غضبه سبحانه، وما يقدر في الكون من خير وشر هو من رحمته بنا؛ لأننا لا نعلم ما يخبئه الله لنا من الخير والرحمة خلف هذه المصائب والشرور فسبحانك يا رحمن يا رحيم، واعلم أن ربنا أرحم بنا من أمهاتنا وآباءنا، بل هو أرحم بنا من أنفسنا؛ لأنه خالقنا وهو العالم بما يصلحنا ويسعدنا وبما يفسدنا ويشقينا والله سبحانه قد قال في الحديث القدسي: **«أنا عند ظن عبدي فليظن بي ماشاء»** (٤) فلا نظن بربنا إلا خيراً.

٨- أن كل ما سوى الله وأسمائه وصفاته مخلوق، فالعباد وأعمالهم كلها مخلوقة لله جل

---

(١) الكهف: ٤٩.
(٢) فصلت: ٤٦.
(٣) النساء: ٤٠.
(٤) مسند أحمد (١٢٧١٥).

قال سبحانه:{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}(١)، وقال سبحانه:{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً}(٢)، وقال سبحانه:{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}(٣).

إذا تأملت هذا وآمنت به علمت ضعف عدوك وقلة حيلته وأنه مخلوق لله هو وما يصنع وما يدبر، فلا تعلق قلبك إلا بالقوى الخالق لكل شيء سبحانه.

٩- أن الأقدار والأيام دول، وأن دوام الحال من المحال، فالله قد قضى وقدر في الكون أن أقداره ماضية على المؤمن والكافر والبر والفاجر وأن التدافع بين الخير والشر سنة ماضية وحكمة قاضية، قال سبحانه:{وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}(٤) فمرة لأهل الحق ومرة لأهل الباطل، وأن الصراع بينهما إلى قيام الساعة كما قال جل وعلا:{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ}(٥) ولكن الذي نوقن به ولا نشك أن دين الله منصور وغالب وأن العاقبة للمتقين، وأنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق منصورة لا يضرها من خذلها ولا من خالفها إلى قيام الساعة، فلا تنظر إلى الأحداث بنظرة عاجلة قصيرة، بل استشرف المستقبل المشرق واعمل بالأسباب التي تؤدي إلى النصر والتمكين، والله سبحانه ناصر دينه وأولياءه.

١٠- الصبر على أقدار الله مما أمرنا الله به وأوجبه علينا، وهو سر الهداية والفلاح فقد قال جل وعلا:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(٦) وأمرنا سبحانه بالاستعانة بالصبر والصلاة فقال:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}(٧). وقال سبحانه مبيناً ابتلاءه واختباره لعباده وأن الفائز والناجح في هذا الامتحان هو الصابر الراضي بقضائه وقدره، فقال سبحانه:{وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}(٨)

هذا في الدنيا أما في الآخرة فأجر الصابرين عظيم لا يعلم قدره إلا الله، فقال

(١) الزمر: ٦٢.
(٢) الفرقان: ٢.
(٣) الصافات: ٩٦.
(٤) آل عمران: ١٤٠.
(٥) البقرة: ٢٥١.
(٦) آل عمران: ٢٠٠.
(٧) البقرة: ٤٥.
(٨) البقرة: ١٥٥ – ١٥٧.

سبحانه:**{إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}**(١).

والصبر هو أحد أسباب النصر على الأعداء، وهو الذي تطلبه الأمة من ربها عند لقاء عدوها، قال جل وعلا:**{وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}** (٢)، وقال عن الفئة المؤمنة المستضعفة التي قاتلت الطاغية جالوت:**{قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ}**(٣).

ثانيا: الغاية

(لم يخلق الله عز وجل الإنسان عبثا ولم يتركه هملا، فبعد أن سواه ونفخ فيه من روحه أسجد له ملائكته المقربين، ثم أهبطه إلى الأرض مع الجان ليكون الابتلاء والامتحان، واستخلف في الأرض ليعمرها بطاعته. يقول الدوسري رحمه الله: والخليفة لله في أرضه هو المكلف بأحكام يطبقها على نفسه وينفذها على غيره)(٤).

وقد أخذ ربنا العهد على الإنسان أن يعبده ولا يشرك به شيئا، قال تعالى:**{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}**(٥).

أورد ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما رواه الترمذي عن أبي هريرة قال (٦): قال رسول الله ﷺ : **«لما خلق الله آدم مسح على ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة»** (٧).

ويقول الرفاعي: وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم (٨).

---

(١) الزمر: ١٠.

(٢) آل عمران: ١٤٦.

(٣) البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١.

(٤) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم - عبد الرحمن بن محمد الدوسري. مكتبة دار الأرقم، الكويت، ١٤٠٦ هـ. ٢/ ٧٢.

(٥) الأعراف: ١٧٢.

(٦) رواه الترمذي.

(٧) تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن كثير. دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠ هـ، - ٤ أجزاء - ١/ ٢٤٩.

(٨) تيسير العلي القدير: مرجع سابق ٢/ ٢٥٢.

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: **«يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به. قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي»** (١).

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: **«أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان – يعني عرفة – فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا قال: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ}(٢)»** (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣).

ولما كان الأمر كذلك، فإن الخلق كلهم مكلفون بالاتباع، وكل فرد بذاته قد أودع في فطرته الإسلام وإفراد العبادة لله رب العالمين، ولهذا خلق آدم عليه السلام وذريته لكي يكون كل منهم عابدا لله متبعا لأوامره مجتنبا لنواهيه. وقد استمر آدم وذريته على ذلك عشرة قرون كلهم على شريعة الحق حتى عهد نوح عليه السلام(٣)، فلما اختلفوا وحادوا عن الصراط بعث الله الرسل والأنبياء يوجهون الناس ويرشدونهم لكي يردوهم إلى جادة الصواب

قال تعالى:**{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ}**(٤)، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى المرسلين عليهم السلام لتجديد العهد وتوضيح هذه الغاية، فقال نوح عليه السلام لقومه:**{اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}**(٥)، وكذلك قال هود عليه السلام لقومه عاد:**{اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}**(٦) وقالها شعيب عليه السلام لأصحاب الأيكة:**{اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}**(٧) كما قالها

(١) أحمد: ٣/ ١٢٧.
(٢) مسند أحمد.
(٣) تفسير القرآن العظيم: مرجع سابق ١/ ٢٥٠.
(٤) البقرة: ٢١٣.
(٥) الأعراف: ٥٩.
(٦) الأعراف: ٧٣.
(٧) الأعراف: ٨٥.

غيرهم لأقوامهم، وقد حقق بعض تلك الأمم غاية وجوده ونكل عن ذلك آخرون كما قال تعالى:{**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ**}(١).

وجاء القرآن المنزل على نبينا محمد ﷺ مقررا ومؤكدا على ذلك الهدف العظيم من وجودك أيها الإنسان، وذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى:{**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**}(٢) فمقام العبودية هو المقام الذي اختاره تعالى للخلق أجمعين. وقد وصف ملائكته المقربين بوصف العبودية فقال تعالى:{**وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ**}(٣) وقال أيضا:{**إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ**}(٤)، وفي حادثة الإسراء ارتقى نبينا محمد ﷺ إلى أشرف مقام وأعظم منزلة، قال تعالى:{**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**}(٥)، وتلك مكانة لم يصل إليها نبي مرسل ولا ملك مقرب، ومع ذلك فقد ارتبط لفظ العبودية به عليه السلام، قال تعالى:{**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**}(٦)، فدل ذلك على أن أرفع منزلة هي منزلة العبودية، وكذلك قال عز وجل عن عيسى عليه السلام:{**إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**}(٧)، ولذا قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**» (٨).

(١) النحل: ٣٦.
(٢) الذاريات: ٥٦.
(٣) الأنبياء: ١٩، ٢٠.
(٤) الأعراف: ٢٠٦.
(٥) النجم: ٨، ٩.
(٦) الإسراء: ١.
(٧) الزخرف: ٥٩.
(٨) البخاري ٢/ ٤٩٠.

والعبودية وصف ملازم لكل إنسان ما دام له قلب ينبض وعين تطرف، قال تعالى:**{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}**[1] قال ابن حجر رحمه الله: قال سالم: اليقين: الموت[2]، وفي هذه الآية والآيات التي قبلها رد على مزاعم الصوفية التي تقول: إنه يمكن للعبد أن ترفع عنه التكاليف الشرعية متى وصل إلى حالة أو مرحلة معينة، ونحن نعلم من سيرة المصطفى عليه السلام أنه كان عابدا لله حتى آخر لحظة من حياته، فهل يمكن لعبد أن يسعه ما لم يسع رسول الله ﷺ ؟! وفي الآيات أيضا دلالة على تكريم الإنسان الذي شرفه ربه بأن جعله وهو المخلوق الضعيف منتسبا بالعبودية لرب الكونين رب السماوات السبع والأرضين ومن فيهن.

وفي المقابل نجد أفرادا من المسلمين يتجردون من عبوديتهم للخالق منصرفين إلى عبادة غيره، وقد دعا الرسول عليه السلام على أولئك دعوة تصل إليهم وهم في عقر منازلهم فقال: **«تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع»** [3].

* * * * *

---

(١) الحجر: ٩٩.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن حجر العسقلاني. تصحيح وتحقيق عبد العزيز بن عبد الله ابن باز. الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، ١٣٧٩ هـ، ٨/ ٣٨٣.

(٣) البخاري: ٢/ ٣٢٨.

المبحث العاشر
والآخرة خير وأبقى!!!

لقد زحزحت الآخرة عن موقعها التأثيري العملي من زمن طويل. منذ بدأ احتكاك المسلمين بالثقافات غير الإسلامية.

نقلوا قديما عن الثقافة اليونانية منهج النظر بغير عمل فوقعوا فيما حذر منه الرسول ﷺ **«علم لا ينفع»**.

ثم نقلوا حديثا عن الثقافة الغربية منهج الانكباب على الدنيا فاعتنقوا العلمانية ووقعوا في استبعاد الدين، وبالدرجة الأولى استبعاد الآخرة عن وظيفتها في الحياة الدنيا، وخرجت الآخرة من ثم من حياة المسلم المعاصر كقوة ضابطة ومحركة لحياته العملية.

وتاريخ هذا الانحراف شاع فينا بمصاحبة ما أشاعوا من معنى مغلوط لقول منسوب لرسول الله ﷺ : **«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا..»**.

وماذا قال العلماء في هذه الرواية؟

جاء في مختار الصحاح: الحَرْثُ كسب المال، وجمعه " أحْراثٌ " وبابه نصر، قال: وفي الحديث: **«احرثُ لدنياك كأنك تعيش أبدا»** ثم قال: تمام الحديث: **«واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا»**، كذا نقله الفارابي في الديوان.

وجاء في كتاب النهاية في غريب الأثر لابن الأثير: **«احْرُث لدُنْيَاك كأنّك تَعِيش أبداً واعملْ لآخِرَتِك كأنك تَمُوت غَداً»** أي اعْمَل لدُنْياكَ، فخالَفَ بين اللفْظَيْن يقال: حَرَثتُ واحْتَرَثت.

والظاهر من مَفْهُوم لفظِ هذا الحديث: أمَّا في الدنيا فَلِلْحثِّ على عِمارتها وبقاء الناس فيها حتى يَسْكُن فيها ويَنْتَفع بها من يَجيء بعدك، كما انْتَفَعْت أنت بعَمَل من كان قبلك وسَكَنْتَ فيها عَمَرَه، فإنّ الإنسان إذا عَلم أنه يَطُول عُمْرُه أحْكَم ما يَعَمُله وحَرَصَ على ما يَكْسِبُه.

وأمّا في جانِب الآخِرة فإنه حَثٌّ على إخلاص العمل وحُضُور النِّيَّة والقَلْب في العباداتِ والطاعات والإكثار منها فإن من يَعْلم أنه يموت غَداً يكثر من عَبادَته ويُخْلِص في طاعِته كقوله في الحديث الآخر: **«صَلِّ صَلاَةَ مُوَدِّعٍ»**.

قال بعض أهل العلم المراد من هذا الحديث غَير السَّابق؛ لأنّ النبي ﷺ إنما ندب إلى الزُّهد في الدنيا والتقلل منها ومن الانهْمِاك فيها والاستِمتاع بلذّاتها، وهو الغالب على أوامره ونواهيه فيما يتعلق بالدنيا فكيف يَحُثُّ على عِمارتها والاستكثار منها وإنما أراد - والله أعلم - أنّ الإنسان إذا عَلِم أنه يعيش أبداً قلّ حِرْصُه وعَلِم أنّ ما يُريدُه لَن يَفُوَته

تَحْصِيلُه بتَرْك الحِرْص عليه والمُبَادرة إليه، فإنه يقول: إن فاتَنِي اليَوْم أدْرَكْتُه غَداً، فإنيّ أعيش أبداً، فقال عليه الصلاة والسلام: «**اعْمَل... عَمَل**» من يَظُنّ أنه يُخَلّد فلا يحْرص في العمل فيكون حَثاً لـه على الترك والتَّقليل بِطَرِيقَة أنيقة من الإشـارة والتَّنبيـه، ويكـون أمْـرُه لعَمَـل الآخِرة على ظاهره فيَجْمَع بالأمْرَيْن حَالَة واحدة وهو الزُّهد والتقلل لَكِن بلَفْظَيْن مُخْتَلِفَيْن.

وقد اختَصَر الأزهري هذا المعْنى فقال: معْناه تقَدِيم أمَر الآخِرة وأعْمالَها حِـذَارَ المَـوْت بالَفوت.. على عَمل الدنيا وتَأخير أمْر الدنيا كَراهَية الاشْتِغَال بها عن عَمل الآخـرة، وعلـى كل حال فإن تاريخ هذا الانحراف يبدأ منذ تحقق فينـا قولـه ﷺ : «**فوالله ما الفقر أخشـى عليكم، ولكني أخشى أن يبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها، كما تنافسوها، فتهلككم**» (1).

إن القول الصحيح ليس في اعمـل لـدنياك إلخ بـالمعنى الـذي كثـر إجـراؤه علـى الألسـنة، وإشاعته في الثقافة الدارجة، ولكنه في قولـه ﷺ «**من جعل الآخرة همه جعل الله غنـاه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة**»، وقد بينا في المقال السابق معنـى همـوم الآخـرة في المجال العملي بالذات من حيث مـا هـو متصـل بالاستعداد لمحاسبة ومسئولية أمـام الله يـوم القيامة.

فالآخرة هي المحرك الضابط بالنسبة للمسلم فيما يتعلق.. بطلب العلم ومسئولية الرعاية، والرفق والصدق والوفاء والإحسان ومخالطة الناس والصبر على أذاهم وطلب الرزق الحلال بالعمل الصالح وعدم الاحتكار، وأن يحاسب نفسه: في مأكله ومشربه فيما نظر إليه، أو استمع لـه، أو امتدت إليه يده أو رجله، في خطرات قلبه ووساوس عقله وما عقد عليـه العـزم ومـا استقرت عليه نواياه، في عمله في وظيفته ومصـلحة عملائـه أو جمهـوره أو طلابـه، في عملـه بمصنعه، في تجارته، في مشروعاته الاقتصادية، وتجنب الربا والنفاق والمحسوبية والأنانية والرشوة والمخدرات والتعذيب والتزوير والسلب والنهب، في رعايته لأسرته وصلته لرحمـه، وعلاقتـه بأصدقائه وعلاقته بجيرانه في المسكن، وجيرانه في الطريق، وجيرانـه في الوظيفـة، وجيرانـه في المصنع، وجيرانه في المتجر، وجيرانه في المزرع، وفي سعيه لقضاء مصالحه هـل سـعى إليهـا في مشاركته لأهل بلده ووطنه همومهم، واهتمامه بـأمر المسـلمين في العـالم، في متابعتـه أحـوال المسلمين وما يحدث لهم من ويلات، في جميع أنحاء العالم، واهتمامه بأمر الضعفاء من المسلمين في بلده وغير بلده.. بالفقراء والمهـاجرين واللاجـئين واليتـامى والأيـامى والشـيوخ والنسـاء والأرامل والمحتاجين والتائهين والمضلَّلين، في اهتمامه بأخذ فتـواه مـن مصـدر الفتـوى الـذي يطمئن إليه قلبه لاتصافه بالعلم والتقوى معا. لا أن يلتقط الفتوى مـن المصـدر الـذي عينتـه

(1) سنن الترمذي (٢٣٨٦).

سلطة لا يعترف هو بجدواها، أو المصدر الذي يتفق مع هواه.

في توجيه كل عمل من أعماله في هذه الحياة إلى وجه الله والحصول على رضاه؛ لأنه محاسب عن ذلك في الآخرة.

ومن هموم الآخرة: أن تحاسب الأمة نفسها عن الأحداث التي تعرضت لها على مدار القرن الحالي؟ في سقوط الدولة الإسلامية وخضوعها للاستعمار وعملاء الاستعمار وعملاء العولمة، واستسلامها لتيارات الشيوعية والدكتاتورية والعلمانية والصهيونية والانحلالية.

من هموم الآخرة التي تشغل بال المسلم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، والنصيحة في الدين، وإعداد أقصى المستطاع من القوة في مواجهة أعداء الإسلام، والأخذ بمبدأ التكافل الاجتماعي والشورى كالأخذ بفريضة الصلاة وتجنب كبائر الإثم والفواحش، وتوفير فرص العمل للشباب وقاية من البطالة والتسول، هموم الآخرة تعني أننا محاسبون أفرادا ومحاسبون جماعات وأجيالا، وأمما، وهي تعني أن التقصير في هذه الأمور يتحول عند الفرد إلى غشاوة تلف القلب، أو نكتة سوداء تظل تتكاثف شيئا فشيئا إلى أن تصير حجابا غليظا يحول بين المرء وبين طريق الهداية والتوبة، وتقذف به إلى سوء المصير. وفي كل ذلك لا بد من جزاء، ولابد من فاتورة حساب، تدفع اليوم، وتدفع غدا، وتدفع أمام الله يوم القيامة وهو أي هذا التقصير يتحول بالنسبة للأمة إلى تدهور رتيب لا يمكن الإحساس بمراحله القصيرة.. ولكنه يصبح واضح الأثر عند القياس على المسافات الكبيرة، ويصبح على الأمة في مجموعها أن تدفع فاتورة الحساب: من أمنها؟ وإرادتها؟ وكرامتها.

لسنا محتاجين إذن بعد صياغة الرسول ﷺ للعلاقة بين الدنيا والآخرة في وجدان المسلم وضميره **«من.. كانت الآخرة همه،.. وأتته الدنيا وهي راغمة»**.. لسنا محتاجين إلى صياغة جديدة، ولا إلى إعادة صياغة، لسنا محتاجين إلى الهرولة نحو صياغة التعادل بينهما، أو صياغة الوسطية بالذات، أو ما شابه ذلك مما جعلنا ندلف إلى غير الساحة الإسلامية.

وليس هنا مجال للمراوغة أو الكذب على الله بأن أجعل الآخرة همي وأنا همي الحقيقي أن تأتيني الدنيا. كلا. إن الدنيا تأتي المسلم عرضا وعطاء من الله وقانونا من قوانينه في الكون، أما أن تجعل الآخرة همك قاصدا بذلك الدنيا فهذا تناقض.

ثم تعمق هذا الانحراف السلوكي بتزييف عقائدي منهجي، تزييف دخل إلينا على استحياء..

انظروا إلى المنظومة العقائدية التي تقدم إلينا – وهي في الحق تقدم إلينا في " شكل " صحيح لكن تعالوا بعد ذلك إلى ما وراء هذا: **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه**

ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره» [1] هذا هو حديث الرسول ﷺ، وهذا حق لكن تعالوا بعد ذلك إلى النشاط الدعائي الذي يشيع بينا؟

هل ترون التركيز على الآخرة - كما ركز الرسول ﷺ إلا من واعظ يتهم تارة بالتخلف، وتارة بالتصوف، وتارة بالتطرف؟ أما كبار القوم - والمتنورون منهم - عندما يتحدثون فيتحدثون عن منزلة العقل، ويتحدثون عن " عبقرية " القيادات الإسلامية، ويتحدثون عن التقدم والحضارة والتطور، و.. لكن هل تسمع صوتا عاليا أو مسموعا لمن يتحدث عن الآخرة إلا أن يقال له: كفانا إرهابا وتخويفا وتبئيسا وتيئيسا؟

نعم العقل مدخل هام إلى العقيدة الإسلامية، والنبوة قلبها النابض، والآخرة تذكر ضمن منظومة العقيدة كلها.. لكن يأتي بعد ذلك التعتيم على ذكر الآخرة.. كيف؟

لقد مررنا بمراحل من التدهور والانحطاط منذ أن اختلت في أيدينا قيمة الدنيا وقيمة الآخرة.. ونحن نكتشف اليوم أننا مازلنا عند ألف باء العقيدة الإسلامية. لا أقول في التوحيد، ولا أقول في النبوة، ولا أقول في الإيمان بالآخرة، ولكن أقول: في وضع الإيمان بها في موضعها الصحيح، كقوة الضبط والتحريك، بحيث لا يصبح هذا الإيمان كلمة تلوكها الألسن.

إن أي موضوع من موضوعات العقيدة يمكن أن يكون حقيقة نظرية أو كلمة تقال بدرجة أو بأخرى، إلا الإيمان بالآخرة، إنه لا يمكن أن يكون إلا عمليا.

يقول الإمام الحسن رضي الله عنه: معلوم أن أحدنا إذا قال له غيره: إن فعلت كذا عاقبتك بهذه النيران المؤججة في البيت، وهو عالم بصدقه وقدرته: يكون كالمدفوع اضطرارا لئلا يفعل ما يهدده به.

ونحن في موضوع تقديم الآخرة اليوم للناس نعتم على الآخرة ونسلك على العكس تماما من سلوك الوحي بيننا. أزحنا ما هو من باب القوانين الكونية الإلهية الصارمة في مسألة الدنيا والآخرة، إلى باب الموعظة والانتشاء الوجداني العابر. هكذا تعاملنا مع موضوع الآخرة والجنة والنار في أحسن الحالات، إذا لم نسدل عليها ستار النسيان أو التعتيم. وفي التعتيم أفرغنا الكلمات - إذا اضطررنا لذكرها - من مضمونها الحقيقي، وشحناها بمضامين عصرية تارة، وتطورية تارة، وتقدمية تارة أخرى. وذلك ما فعلته العلمانية عموما مع مفاهيم الإسلام عامة أقصى درجات الغش والتزييف.

وإنه لمن أخطر أنواع التزييف والتحريف أن يجري التعتيم على أمر لا يصح التعتيم عليه، وأن يحصل الهبوط بقيمة شيء لا يصح الهبوط بقيمته..

---

(١) صحيح البخاري (٤٨).

ذلكم هو من أخطر أنواع التزييف والتحريف..

لأنه يخدعك بظاهر سليم، يقول لك: الآخرة على عيني ورأسي، ويسرد لك من جديد منظومة العقيدة التي يؤمن بها، ولكنه مرة أخرى يجري في خفاء عملية التعتيم والتهوين..

وعندما يأتي التعتيم على ذكر الآخرة يأتي التعتيم على نظرة الإسلام إلى الدنيا، وعندما يجري التعتيم على الأمرين تختل القيم اختلالا شديدا.

لقد ضللنا المسلم المعاصر ركبنا على عينيه نظارة القيم الغربية التي لا تصلح لعيون الإنسان المسلم..

حقا لم نجرؤ على تغيير عينيه؛ لأننا لو حاولنا ذلك لثار إسلامه الكامن في وجوهنا، ففعلنا شيئا آخر: ركبنا على عينيه نظارة قيم الغرب المضللة.

مثلا: رفعنا أمام عينيه قيمة " النجاح " من النوع المستورد، فمارس الغش، وهو لا قيمة له غربية ولا غيرها، إن الأصل في عينيه أنها قد ركبت على رفض الغش تعاملا مع قوله ﷺ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: **«مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السّلاَحَ فَلَيْسَ مِنّا، وَمَنْ غَشّنَا فَلَيْسَ مِنّا»** [(١)]. وعن نافع، عن ابن عمر قال: مرّ رسول الله ﷺ بطعام وقد حسّنه صاحبُه، فأَدخل يده فيه، فإذا طعام رديء، فقال: **«بعْ هذا على حِدَة، وهذا على حِدَة، فمن غَشّنَا فليس منّا»** [(٢)].

عاملناه بالنظارة الغربية فأخذ الغش وسيلة في النجاح، ولم يعد يرى إسلامه، فضل وتاه، وصار كالشاة العائرة، وصار ثمرة حنظل للمعادلة المرة.

١ – الآخرة والحل العملي:

مكمن الخطورة في الإيمان بالآخرة أنه مفتاح تحويل هذا الإيمان إلى عمل، ومن هنا يصبح السؤال التهكمي ضد المشروع الإسلامي... وما هو المنهج العملي.. مردودا عليه كلما نظرنا إلى الإيمان بالآخرة النظرة الإسلامية الصحيحة لأنها تصبح الضابط المحرك الهائل لكل أنواع العمل في الإسلام.

إنهم يتهمون أصحاب المشروع الإسلامي بالكلاموجيا وعدم الاهتمام بالحل العملي العصري!!، وهم خدعونا بمحاولتهم جعل الإسلام عصريا، بأن أخروا الكلام عن الآخرة، وأفرغوا النظر إلى الدنيا من سيطرة الآخرة.

و عند هذا المنعطف فقدنا القدرة العملية التي وضعها الإسلام فينا فصار في رأيهم غير صالح للعصر، جعلوه غير عملي ولا عصري من حيث أوهمونا أنهم يريدون منه أن يكون عصريا.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) مسند الإمام أحمد.

وفي المنهج الإسلامي تعود الآخرة – بموازينها – بالتأثير العملي المباشر إلى نظرة المسلم إلى الدنيا وجهاده فيها.. هكذا بمجرد عودته إلى العقيدة الصحيحة.

هكذا بمجرد مواجهته للإنذار بالآخرة.

هكذا تم الأمر بضربة واحدة في بداية الإسلام، ولا بد أن تأتي في آخرته؛ إذ يعود كما بدأ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبا. فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»** (١).

إن بعض العلمانيين يوهموننا بأن العصر الذهبي للتطبيق الإسلامي لا يمكن أن يعود؛ لأنه عصر خاص، أو شاذ، ويقولون عن سيدنا عمر بن الخطاب وأمثاله رضي الله عنهم: إنهم شخصيات لا تتكرر – يقولون ذلك بعد أن وافقناهم على تجريدنا من الحجة بأن نستبعد الكلام عن الآخرة من مائدة البحث، ويجروننا جرا إلى أن نرد عليهم بكلام عام يحق لهم أن يعترضوا عليه بأنه غير عملي، نرد عليهم بأن أمثال عمر بن الخطاب يمكن أن يعودوا مرة أخرى إذا أخذنا بنفس الأسباب التي أخذ بها الرسول ﷺ في تربية أصحابه، ونرفع عندئذ شعار " مدرسة الرسول "، ولكنهم يردون: من الناحية العملية كيف؟

يقولون: مرت على هذه المحاولات قرون ولم يظهر بعد عمر جديد؟

نرد عليهم فنقول: بالرجوع إلى الأخذ بالكتاب والسنة، وهذا صحيح، ولكنهم يردون بقولهم: أين هو البرنامج العملي؟

نرد عليهم فنقول: الاستعمار الأجنبي العسكري، ثم الاستعمار الأجنبي الاقتصادي (السوق الحرة) والاستعمار الاقتصادي الثقافي الأجنبي (العولمة) ذلكم هو العقبة الكأداء، وهذا صحيح، لكنهم يردون علينا بقولهم: ولكن الاستعمار إنما حدث؛ لأننا كنا قد تدهورنا قبله، والاستعمار لا يأتي لقوم إلا إذا كانت لديهم قابلية الاستعمار.

كل هذا الحوار يدور ونحن قد أبعدنا منذ البداية الحل العملي في الآخرة. أبعدنا الحل العملي واتفقنا معهم على إبعاده بدعوى أنه لا يناسب الخطاب العصري ثم ذهبنا نتخبط بعد ذلك.

كيف وقد أبعدنا الحل العملي نبحث عن الحل العملي؟

٢ – انظروا إلى الآخرة كيف صنعت جيل الصحابة:

من الآخرة جاء قرار أبي بكر رضي الله عنه بقتال مانعي الزكاة.. وعن أبي هريرةَ قال: لما توفيَ رسولُ اللّه ﷺ واستخلِفَ أبو بكر بعدَه وكفرَ من كفرَ من العرب قال عمرُ لأبي بكر: كيفَ تقاتلُ الناسَ وقد قال رسولُ اللّه ﷺ : **«أُمرتُ أن أُقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا**

---

(١) صحيح مسلم.

إلهَ إلا اللّه، فمن قال: لا إله إلا اللّه عصمَ مني مالهُ ونفسَه إلا بحقه وحسابُهُ على اللّـــه».
فقال: واللّهِ لأقاتلنّ من فرَقَ بينَ الصلاةِ والزّكاة، فإنّ الزّكاةَ حق المال، واللّـهِ لـو مَنَعوني عِقالاً – وفي رواية عناقا – كانوا يُؤدّونَه إلى رسول اَللّه ﷺ لَقاتلتهم على منعه. فقـال عمـر: فواللّه ما هو إلا أن رأيتُ اللّهَ قد شرحَ صدرَ أبي بَكرٍ للقتال فعَرَفتُ أنهُ الحـق[١]، فعـل أبـو بكر رضي الله عنه ما فعل؛ لأنه محاسب عن ذلك في الآخرةَ.

ومن هموم الآخرة جاء مبدأ الحكـم السياسـي في قـول أبـي بكـر (وليـت علـيكم ولسـت بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني) ذلك لأنه محاسب عن ذلك في الآخرة.

ومن هموم الآخرة جاء رجوع عمر إلى السلوك الصحيح إزاء من اشتد عليه في نقده في حكمه، ومن ذلك أن عبد اللّه بن عباسٍ رضيَ اللّهُ عنهما قال: قـدِمَ عيينـة بـن حصـن بـن حذَيفةَ بن بدر فنزلَ على ابن أخيه الحرّ بن قيس بن حصن – وكان من النفر الـذين يُـدنيهم عمرُ، وكان القراء أصحابَ مجلس عمرَ ومشاورَته كهولاً كانوا أو شُباناً – فقال عيينـة لابـن أخيهِ: يا بنَ أخي هل لكَ وجهٌ عندَ هذا الأمير فتستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لـك عليـه. قال ابن عباس: فاستأذنَ لعيينة، فلما دخل قال: يا بنَ الخطاب، واللّه ما تعطينا الجـزْل، ومـا تحكمُ بيننا بالعدل. فغضبَ عمرُ حتى همّ بأن يقع به، فقال الْحرّ: يـا أمـيرَ المـؤمنين، إنّ اللّـه تعالى قال لنبيه ﷺ :**{خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْـــرِضْ عَـــنِ الجَـــاهِلِينَ}**[٢] وإنّ هـذا مـن الجاهلين. فو اللّه ما جاوزَها عمر حينَ تلاها عليه، وكان وقافاً عندَ كتاب اللّه [٣].

يُرْوَى عنْ عُمَرَ بنِ الْخَطّابِ قَالَ: حَاسِبُوا أنفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَـرِ، وَإِنَّمَا يَخِفّ الْحَسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ في الدّنْيَا. وَيُرْوَى عنْ مَيْمُون بـن مِهْـرَانَ قَالَ: لاَ يَكُونُ العَبْدُ تَقِيّاً حَتّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ[٤].

وقال المناوي في رواية أخرى وأقروه: **«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا»**.

وروي عنه – عن عمر بن الخطاب – أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جن الليل ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟

وسمعه أنس بن مالك يوما وقد خرج معه حتى دخل حائطـا – أي بسـتانا –.. سمعـه وهو يقول لنفسه: يا ابن الخطاب: بخ بخ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك.

---

(١) صحيح البخاري.
(٢) الأعراف: ١٩٩.
(٣) صحيح البخاري.
(٤) سنن الترمذي.

وروي عنه أنه كان في أيام خلافته قد نهى الرجال أن يطوفوا مع النساء وخصص لكلٍّ زمنا، ثم خرج مرة فوجد رجلا يطوف مع النساء فخفقه بدرَّته، فقال الرجل: إن كنتُ قد أحسنت فقد ظلمتني، وإن كنت قد أسأت فما علمتني، فقال عمر: ما شهدتَ عزمتي؟ قال الرجل: والله ما شهدت لك عزمة، فألقى عمر الدرة إليه، وقال له: اقتص. قال الرجل: لا أقتص منك اليوم. قال عمر: إذن فاعف عني. قال الرجل: لا أعفو، وافترقا على هذا.. ثم تلاقيا من الغد فتغير وجه عمر، حين رآه، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين: كأني أرى ما كان مني قد أسرع فيك، قال: عمر: أجل، فقال الرجل: فاشهد أني قد عفوت عنك.

كيف نفسر هذا الذي حدث من عمر رضي الله عنه؟

نقول: إن عمر تربى على الكتاب والسنة؟ هذا حق، ولكن عمليا: كيف؟

نقول: إنه تربى في مدرسة الرسول ﷺ ؟ هذا حق، ولكن عمليا: كيف؟

الجواب: إن الموجِّه العملي الذي يسيطر على عمر رضي الله عنه هو ما تم زرعه تربويا في قلبه من نظرته للآخرة.

هاجس الآخرة إن صح هذا التعبير - هو الذي يسيطر على عمر في كل صغيرة وكبيرة من تصرفاته.

هذا من هموم الآخرة التي زرعها محمد ﷺ، والتي صنعت أعظم خليفة في التاريخ.

كثيرا ما نتساءل في شبه سذاجة: عن بساطة وصول السلف الصالح إلى المثل العليا التي قاربوها؟ كيف تحقق لهم ذلك ونحن في دنيانا هذه نتخبط في أعمالنا وندور في حلقات مفرغة لا تصل بنا إلى شيء؟

تأمل معي الحادثة التالية وقد حصلت في حصار المسلمين لحصن بابليون في فتح مصر: في ذلك الحصار كان عدد الروم مائتي ألف، وعدد المسلمين اثني عشر ألفا، عدا ما كان من آلات الحرب والمنجنيق.. وكانت أقوى أثرا مما يرمي به المسلمون من حجارة وسهام، ولم يكن حصار المسلمين للحصن شاملا من جهاتها كلها، فقد كانت جهة الشمال مفتوحة على البحر الأبيض، يأتيها المدد من الروم لو أرادوا.. وكان الحصن الواقع تحت الحصار قويا بإيراده وذخائره وجنوده، يقول المقوقس وهو يشرح الأمر لهرقل في القسطنطينية: (لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم في القتال لعرفت أنهم لا يغلبون).

ويقول د/ بتلر تعليقا على ذلك فيما نقلته عنه الدكتورة بنت الشاطئ من كتابه " تاريخ مصر "[١] (كان المقوقس لا يرى موضعا للأمل، إذ كان العرب المسلمون قوما لا يشبهون

(١) بنت الشاطئ - مقالها بجريدة الأهرام ١٠/ ٤/ ١٩٩٠.

سائر الناس في شيء، فهم عند حد قولهم لا يلهيهم زخرف الدنيا ومتاعها، لا يطلبون منها إلا لقمة، يسدون بها الرمق، وشملة لستر البدن، فهم " قوم الموت " يرون ربحا في أن يقتلوا، شهادة يرجون فيها المثوبة في سبيل دينهم، في حين أن الروم يحبون متاع الدنيا، وزخارفها) ففي هذا الحصار خرج جماعة من حرس الحصن ففاجؤوا عبادة بن الصامت، والزبير بن العوام الصحابيين في صلاتهما. فوثب الصحابيان إلى فرسيهما وحملا على حرس الروم.. فلما رأى هؤلاء الحرس أن الرجلين الصحابيين سيلحقان بهما أخذوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوهما بذلك عن طلبهم، ولكن الصحابيين لم يكونا يلتفتان لشيء من ذلك حتى دخل الحرس الحصن.. وأصيب عبادة إصابة خفيفة من حجر رمي به من فوق الحصن.. وهنا رجع القائدان المسلمان إلى موضعهما لم يلتفتا إلى ما ألقاه الروم، حتى أتما الصلاة، فقد كانا طوال المعركة في صلاة.

٣ – إنه هاجس الآخرة:

هاجس الآخرة هو الذي كان يسيطر على جيل الصحابة والتابعين. وهو أسلوب القرآن والرسول ﷺ في التربية، لا نكاد نجد كلمة إلا ونجد قبلها وأثناءها وبعدها غرسا لمعنى الآخرة، وتذكرة بأحوال الآخرة، ونداء إلى قيم الآخرة.

هنا تنهض الآخرة في صلب البناء الإسلامي، إنها إذن هموم الآخرة التي أنجزت ما أنجزت، هكذا يثمر الإيمان بالآخرة ثمرته في تعمير الدنيا على الوجه الذي يريده الله.. لا على الوجه الذي تريده الحضارة الغربية في المعادلة المطروحة علينا.

هكذا يعمل الإنسان المسلم للآخرة ووجهته إلى الله فينبثق من ذلك عمله الذي ينسحب على هذه الدنيا... عن رسول الله ﷺ : **«ما من مسلم يغرس غرسا إلا وكان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة»** [(١)] **«لا يغرس المسلم غرسا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة»**[(٢)].

وعن رسول الله ﷺ : **«ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود ﷺ كان يأكل من عمل يده»** [(٣)].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) مسند أحمد.

(٣) رواه البخاري.

وقال: **«إن الله يحب العبد المحترف ومن كد على عياله كان كالمجاهد في سبيل الله عز وجل»** [١] وقال: **«إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر»** [٢].

وقال: **«إن الله يحب أن يرى عبده تعبا في طلب الحلال»، «إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن طلب أرزاقكم»** [٣].

لقد حقق الإسلام الحل العملي في عقيدة الآخرة سالكا لذلك تحويل ما هو نظري عام شامل... إلى التحقق من خلال ما هو عملي خاص فردي.

ولا تقوم الآخرة بدورها العملي إزاء الدنيا فحسب، ولكنها تتبادل الأدوار لتقوم الدنيا بدورها العملي في الآخرة يوم القيامة؛ إذ تصبح الدنيا ذات قيمة هامة في حياة المؤمن في الجنة – نعم في الجنة – إنها – أي الدنيا – آنذاك وسيلة تذوق النعيم. إذ تذوق النعيم لا يكون إلا مقارنا بتذوق الألم والحرمان. هكذا: إنما يعرف الشيء بضده، وحيث إنه لا حرمان في الآخرة فهنا – أي هناك – تقوم الدنيا بدورها: دور تذكر الحرمان. وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: **{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}** [٤].

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: إن في الجنة أسواقا لا شراء فيها ولا بيع، يجتمعون فيها حلقا حلقا يتذاكرون: كيف كانت الدنيا؟ وكيف كانت عبادة الرب؟ وكيف كان فيها فقراء أهل الدنيا وأغنياؤها؟ وكيف كان الموت؟ وكيف صرنا بعد البلى إلى الجنة ؟ [٥].

وروى أنه قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة يشتاق الإخوان بعضهم لبعض حتى يجتمعا، فيقول أحدهم لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: يوم كذا في موضع كذا كذا..) [٦].

ومن باب التذكر ما أعده الله للمؤمنين من نعيم في الآخرة له شبه بنعيم الدنيا، لكنه

---

(١) مسند أحمد.
(٢) مسند أحمد.
(٣) رواه الديلمي.
(٤) الطور: ٢٥ – ٢٧.
(٥) بستان العارفين للسمرقندي.
(٦) ابن القيم بسنده عن أبي الدنيا بسنده عن رسول الله .

في حقيقته: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر [1].

* * * * *

(١) د. يحيى هاشم حسن فرغل.

المبحث الحادى عشر
من صفات المؤمن الصالح أنه

١ – شاكر لربـــه:

الشكر خير عيش السعداء لم يترقوا إلى أعلى المنازل إلا بشكرهم، ولمّا كان الإيمان نصفين، نصفٌ شكر ونصفٌ صبر، كان حقيقاً على من نصح نفسه وآثر نجاتها وسعادتها.

تعريف الشكر:

الشكر لغةً: الاعتراف بالإحسان، شكرت الله – شكرت لله – شكرت نعمة الله. فالشكر في اللغة هو ظهور أثر الغذاء في جسم الحيوان، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل أو الذي يسمن على العلف القليل. والشكر خلاف الكفر.

والشكر الثناء على المحسن بما أولاه من معروف، وتقول شكرته وشكرت لـه وقيل اللام أنصح، والشكران خلاف الكفران.

اشتكرت السماء أي اشتد وقع مطرها. واشتكر الضرع أي امتلأ لبناً.

والشكر الزيادة والنماء.

والشكر في الاصطلاح: ظهور أثر النعم الإلهية على العبد في قلبه إيماناً وفي لسانه حمداً وثناءً وفي جوارحه عبادة وطاعة ويكون القليل من النعمة مستوحياً الكثير من الشكر، فكيف إذا كانت النعم كثيرة؟ ومن العباد من هو شاكر ومنهم من هو كافر.

شكرت لـه، يتعدى باللام، وكفرت به؛ يتعدى بالباء! ولابن القيم نكتة طرفة في هذا فيقول: المشكور في الحقيقة هي النعمة وهي مضافة إلى المنعم لذلك تقول: شكرت لـه فيتعدى باللام، أما الكفر ففيه تكذيب وجحد بالنعمة لذلك قالوا: كفر بالله وكفر بنعمته وكفر بآلائه؛ فلذلك تعدى بالباء.

١ – هذا الشكر لـــه مقامات عظيمة في الدين:

١ – قرن الله ذكره بشكره وكلاهما المراد بالخلق والأمر والصبر خادم لهما ووسيلة إليهما وعوناً عليهما، فقد قرن الله الشكر بالذكر فقال:**{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}**(1).

٢ – قرن الشكر بالإيمان، وأنه لا غرض لـه في عذاب الخلق إذا قالوا: آمنا:**{مَا يَفْعَلُ**

---

(١) البقرة: ١٥٢.

اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ [1]، أي وفيتم حقه وما خلقتم من أجله وهو الشكر بالإيمان.

٣ – أهل الشكر هم المخصوصين بمنته عليهم من بين عباده فقال تعالى:**{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}**[2].

٤ – قسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهل الكفر، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهل الشكر**{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}**[3].

٥ – يبتلي عباده ليستخرج الشكور فقال تعالى على لسان سليمان عليه السلام:**{هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}**[4].

٦ – وعد الشاكرين بالزيادة**{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}**[5].

٧ – الله يرضى عمل الشاكرين ويرضى الشكر**{إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}**[6]. فيقارن الله بين الشكر والكفر وأنهما ضدّان**{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}**[7].

والشاكرون في هذه الآيات الذين ثبتوا على نعمة الإيمان ولم ينقلبوا على أعقابهم. فمن الناس من لا يصمد عند الابتلاء والمحنة فيكفر ولا يثبت، ومنهم من يظهر لربه حقيقة ما في قلبه عند المحنة والابتلاء، فيتعالى لسانه بذكر ربه وحمده فيثبت ويشكر شكراً عملياً بالقلب واللسان والجوارح.

٨ – علّق الله المزيد بالشكر والمزيد من لا نهاية له، كما أن الشكر لا نهاية له، ووقف

---

(١) النساء: ١٤٧.
(٢) الأنعام: ٥٣.
(٣) الإنسان: ٣.
(٤) النمل: ٤٠.
(٥) إبراهيم: ٧.
(٦) الزمر: ٧.
(٧) آل عمران: ١٤٤.

الله الكثير من الجزاء على المشيئة..

-**{فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ}**(١).

- **في الإجابة{فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ}**(٢).

- **في المغفرة{يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ}**(٣).

- **في الرزق{يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ}**(٤).

- **في التوبة{وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ}**(٥).

أما الشكر فإنه أطلقه{وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}(٦)،**{وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}**(٧) ولم يقل (إن شاء)!!

٩ - أخبر سبحانه وتعالى أن إبليس من مقاصده أن يمنع العباد من الشكر، فتعهد إبليس بأشياء**{ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}**(٨) فإبليس يريد حرمانهم من الشكر والقعود بينهم وبينه.

١٠ - وصف الله الشاكرين بأنهم قليل من عباده**{وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}**(٩)، وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين فقال: ما هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين الله تعالى يقول:**{وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ}**(١٠) ويقول:**{وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}** ويقول:**{إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ}** قال عمر: صدقت..!!، وإذا كان الشكر من صفات الأنبياء والمؤمنين فإنه ليس كذلك عند كل الناس، فإن كثيراً منهم يتمتعون بالنعم ولايشكرونها.

(١) التوبة: ٢٨.
(٢) الأنعام: ٤١.
(٣) الفتح: ١٤.
(٤) الشورى: ١٩.
(٥) التوبة: ١٥.
(٦) آل عمران: ١٤٥.
(٧) آل عمران: ١٤٤.
(٨) الأعراف: ١٧.
(٩) سبأ: ١٣.
(١٠) هود: ٤٠.

١١ – أثنى الله على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر وهو نوح عليه السلام{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً}(١) إشارة إلى الاقتداء به.

١٢ – أخبر الله أنه يعبده من شكره وأن من لم يشكره، فإنه ليس من أهل عبادته:{وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}(٢).

١٣ – أمر سبحانه وتعالى عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليف بالشكر{قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ}(٣).

١٤ – أول وصية أوصى بها الإنسان بعدما عقل أن يشكر له ثم لوالديه{وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}(٤).

١٥ – أخبر الله أن رضاه في شكره{إِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}(٥).

١٦ – أخبر عن خليله إبراهيم بشكر نعمته{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}(٦). فمن صفات الأمة القدوة الذي يؤتم به بالخير يعدل مثاقيل من أهل الأرض أنه كان قانتاً لله شاكراً لأنعمه فجعل الشكر غاية خليله.

١٧ – الشكر هو الغاية من الخلق{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(٧). فهذه غاية الخلق، أما غاية الأمر{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(٨) فكما قضى الله لهم بالنصر، فليشكروا هذه النعمة.

---

(١) الإسراء: ٣.
(٢) البقرة: ١٧٢.
(٣) الأعراف: ١٤٤.
(٤) لقمان: ١٤.
(٥) الزمر: ٧.
(٦) النحل: ١٢٠، ١٢١.
(٧) النحل :٧٨.
(٨) آل عمران: ١٢٣.

والخلاصة أن الشكر غاية الخلق وغاية الأمر فخلق ليشكر وأمر ليشكر **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}**[1]، والشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره، أنت تصبر لأجل أن يحدث ما يترتب عليه وما يؤدي إليه من الأشياء، والشكر غاية في نفسه والصبر وسيلة إلى غيره وإلى ما يحمد وليس مقصوداً لنفسه.

وفي منازل **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**[2].

ذكر ابن القيم في الشكر أيضاً سبعة عشر وجهاً وهي:

١ – أنه من أعلى المنازل.

٢ – فوق منزلة الرضا والزيادة، فالرضا مندرج في الشكر ويستحيل وجود الشكر بدونه.

٣ – نصف الإيمان شكر ونصفه صبر.

٤ – أمر الله به ونهى عن ضده.

٥ – أثنى على أهله ووصفهم بخواص خلقه.

٦ – جعله غاية خلقه وأمره.

٧ – وعد أهله بأحسن الجزاء.

٨ – جعله سبباً للمزيد من فضله.

٩ – حارساً وحافظاً للنعمة.

١٠ – أهل الشكر هم المنتفعون بآياته.

١١ – اشتق لهم اسماً من أسمائه (الشكور) وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً.

١٢ – غاية الرب من عبده.

١٣ – سمى نفسه شاكراً وشكوراً، وسمى الشاكرين بهذا الاسم، فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً.

١٤ – أخبر الله عن قلة الشاكرين في عباده.

١٥ – الشكر لابد معه من مزيد.

---

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) الفاتحة: ٥.

الشكر عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته وجريان اللسان بذكره والثناء عليه.

والشكر يتعلق بأمور ثلاثة: القلب واللسان والجوارح، ومعنى الشكر ينطوي على معرفة ثلاثة أمور وهي معاني الشكر الثلاثة.

١ – معرفة النعمة: استحضارها في الذهن وتمييزها والتيقن منها، فإذا عرف النعمة توصل إلى معرفتها بمعرفة المنعم بها ولو على وجه التفصيل، وهذا ما نجده في القرآن الكريم ليستحضر العبد هذه النعم فيشكر. وإذا عرف النعمة سيبحث العقل عن المنعم، فإذا عرف المنعم أحبّه فإذا أحبه جد في طلبه وشكره ومن هنا تحصل العبادة؛ لأنها طريق شكر المنعم وهو الله.

٢ – قبول النعمة: تلقيها بإظهار الفقر إلى المنعم والحاجة إليه، وأن وصول النعم تمّ بغير استحقاق، فالله أعطانا النعم منّة وتفضلاً.

٣ – الثناء بها: الثناء على المنعم المتعلق بالنعمة نوعان:

وهو أن تصفه بالجود والكرم عام والبر والإحسان وسعة العطاء ونحو ذلك.

أن تتحدث بنعمه عليك وتخبر بوصولها خاص إليك**{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}**[1].

والتحديث المأمور به هنا فيه قولان:

١ – أن تذكر وتعدد (أنعم الله علي بكذا وكذا...) ولذلك قال بعض المفسرين: اشكر ما ذكره من النعم عليك في هذه السورة من جبرك يتيماً وهدايتك بعد الضلال وإغنائك بعد العيلة.

٢ – أن تستعملها في طاعته.

فالتحدث بالنعمة من الثناء على الله، فتثني على الله بالأسماء المناسبة لمقام الشكر(المنان – الكريم – ذو الفضل العظيم – الله واسع – عطاؤه كثير).

حديث جابر مرفوعاً: **«من صنع إليه معروفاً فليجزِ به فإن لم يجد ما يجزي به فليثني فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره وإن كتمه فقد كفره ومن تحلّى بما لم يُعطَ كان كلابس ثوبي زور»**.

ومن الثناء كقول: جزاك الله خير، والدعاء أيضاً وسيلة للشكر.

٣ – أقسام الخلق في شكر النعمة ثلاثة:

---

(١) الضحى: ١١.

١ – شاكر للنعمة مثني بها.

٢ – جاحد لها كاتم لها.

٣ – مظهر أنه من أهلها وهو ليس من أهلها، وكما في الحديث: **«فالمتشبع بما لم يعطَ كلابس ثوبي زور»**.

وقد روى النعمان بن بشير: **«من لم يشكر القليل؛ لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس؛ لم يشكر الله»** [١]. والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب.

والتحدث بالنعمة المأمور به ينبغي أن يكون ذلك في النفس وعند الآخرين ولكن إذا كان عند حاسديها فإن كتم ذكرها ليس من كفرها فهو لم يكتم ذكر النعمة شحاً بذلك وتقصيراً في حق الله لكن لدرء مفسدة وهي حسد صاحب العين وكيده وضرره ودفع الضرر من المقاصد الشرعية.

أما مقابلة النعمة فلا يمكن في حق الله **{لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا}** [٢]، فلا سبيل إلى المجازاة ويبقى في قضية الثناء عليه استعمالها فيما يرضيه، أما المجازاة فلا سبيل إليها ولا ينتفع الله من خلقه بشيء.

وواجبنا نحو الله في النعم:

١ – الخضوع لـه، خضوع الشاكر للمشكور.

٢ – حبه لـه، حب الشاكر للمشكور.

٣ – اعترافه بنعمته عليه(الإقرار).

٤ – الثناء عليه بها.

٥ – أن لا يستعملها فيما يكره بل يستعملها فيما يرضيه.

وإذا كانت النعم تتفاضل فهل يتفاضل الشكر؟ نعم.

والشكر لله يكون بالقلب واللسان والجوارح.

١ – الشكر بالقلب

(١) رواه أحمد.

(٢) الحج: ٣٧.

علم القلب: وذلك بأن يعلم أن الله هو المنعم بكل النعم التي يتقلب فيها [الناس يشكرون المعبر ولا يشكرون المصدر!!]، وهذا مهم في تربية الأطفال، أن يُعرَّف من أين جاءت النعم، أول نعمة؛ نعمة الخلق والإيجاد، ورصد النعم والتعرف إليها مرحلة تمهيدية للشكر، وجاءت كثير من الآيات بإحصاء النعم؛ ليكتشف الإنسان كثرتها فيعلم أن النعم لا يمكن حصرها**{وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا}**(1).

ولكن ذُكِر لنا أشياء فرعية وأصلية، والفروع نردها إلى أصولها، كالصحة فهي نعمة أصلية وما يتفرع منها من النعم (الحركة – المشي – العمل – الرياضة – النوم – الأكل – الشرب – السفر)، كذلك المال والوقت والعلم كلها نعم أصلية.

وتستطيع أن تضم النعم إلى ما يحاذيها ويشابهها، أنعم علينا بوصفنا مخلوقات بعد الخلق والإيجاد ثم نعمة الآدمية والإنسانية وأنعم علينا بوصفنا مسلمين من نعمة الهداية والإيمان. ونعمة التربية التي ترتقي بالفرد درجة بعد درجة وتعلُّمَ علماً بعد علم حتى يبلغ كماله، وفوق كل ذلك نعمة النبوة للذين اصطفاهم الله، والصديقين والشهداء والصالحين.

إن عرض النعم على العامة أمر مهم جداً وهو قضية في الدعوة، فالله عز وجل خص الآدمي أنه خلقه بيده**{لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}**(2).

{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}(3)

وذكر في سورة النحل(سورة النعم):**{وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}**(4)

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ

---

(1) النحل: ١٨.
(2) ص: ٧٥.
(3) لقمان: ٢٠.
(4) النحل: ١٤ – ١٨.

تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}(١).

هذه المنة للإيمان بعد الإسلام{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}(٢).

{اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً}(٣).

ومن نعمة الهداية يكون الأمن والسكينة والفرج والمغفرة والرحمة والبركة والتيسير وسعة الرزق.

ومن مقاصد ووسائل الدعوة أنك تحدث المدعوين بنعم الله عليهم ليحصل الشكر{إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}(٤).

فبعض الناس اتجهوا إلى أشياء غريبة في تفسير النعم أو نسبتها إلى مصادر باطلة ليست هي، مثل الذي فعله قارون لما ذكر بنعمة الله عليه فقال:{إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي}(٥)، فالغرور يجعلهم ينسبون النعمة إلى غير المنعم، وهذا فعل الأشقياء فالله تعالى يقول:{وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}(٦){فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ}(٧).

{فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ}(٨){وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}(٩){أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ}(١٠).

٢ – الشكر باللسان:

---

(١) النحل: ٨١.
(٢) الحجرات: ١٧.
(٣) المائدة: ٣.
(٤) يونس: ٦٠.
(٥) القصص: ٧٨.
(٦) النحل: ٥٣.
(٧) الطارق: ٥.
(٨) عبس: ٢٤.
(٩) الحجر: ٢٢.
(١٠) الواقعة: ٦٨ – ٧٠.

لسان المرء يعرب عما في قلبه، فإذا امتلأ القلب بشكر الله لهج اللسان بحمده والثناء عليه، وتأمل ما في أذكار النبي ﷺ من الحمد والشكر لرب العالمين..

١ – كان لما يفيق من نومه يقول: **«الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»**، **«الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد علي روحي وأذن لي بذكره»**.

٢ – وإذا أوى إلى فراشه لينام يقول: **«الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وآوانا فكم ممن لا كافي لـه ولا مؤوي»**.

٣ – ومن أذكار الصباح والمساء: **«اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد والشكر من قالها حين يصبح فقد أدى شكر ليله»**.

٤ – سيد الاستغفار: **«أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي»** اعتراف بالنعمة واعتراف بالتقصير في شكرها؛ لأنه يذنب.

٥ – يفتتح الأدعية بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله.

٦ – في كل خطبة أو نكاح أو أمر ذي بال يحمد الله.

٧ – دعاء الاستفتاح – سورة الفاتحة – الرفع من الركوع – أذكار ما بعد السلام – ربنا ولك الحمد – أدعية التهجد – اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن – الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

٨ – إذا أكل أو شرب أو سئل عن حال أو سافر أو عطس.

٩ – في أي ساعة يحمد ربه من ليل ونهار، لـه في كل تحميدة صدقة.

وقعت يد عائشة على يد النبي ﷺ وهو ساجد في بطن الليل وقدماه منصوبتان يقول: **«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»**.

قال ﷺ : **«يا معاذ إني أحبك فلا تدع أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**.

٣ – الشكر بالجوارح:

وهي ما سوى القلب واللسان من جوارح، فما من عمل يعمله ابن آدم من الطاعات والعبادات إلا وهو شاكر فيه لنعم ربه سبحانه وتعالى.

والخلاصة في الشكر بالجوارح؛ العمل الصالح، فعند بلوغ الأربعين**{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ**

وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ}(1)، فسؤال الله العمل الصالح عقب سؤاله التوفيق على شكر نعمته يعني أن الشكر باللسان وحده لا يكفي.

ومن وسائل الشكر بالجوارح حديث: **«كل ابن آدم يصبح وعلى كل سلامى ومفصل صدقة»** فكيف يؤدي شكر ٣٦٠ مفصلاً؟ كل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وعدد المفاصل ٣٦٠ إذا شكرها المرء **«أمسى يومه وقد زحزح عن النار»**.

والصدقات كثيرة جمعها ابن رجب في شرحه الأربعين النووية[الصدقات البدنية – المالية – الخبرة من تعليم صنعة أو تصنع لأخرق – التفهيم – التعليم – الوقت – الجاه...]، فذو القرنين مثلاً علم شعباً جاهلاً صناعة السدود حتى تقيهم شر أعدائهم.

المقصود أن المسلم عليه أن يشكر ربه بجوارحه بسائر أنواع الصدقات وكل معروف صدقة ولا يغني شكر يوم عن يوم آخر.

وليس هناك تعارض بين شكر الله وشكر الناس، لأن الله أمر بشكر الناس، وهو سبحانه الذي أرشدنا إلى شكر الناس إذا صنعوا لنا معروفاً أن نكافئهم وأولهم الوالدين**{اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}**(2) **«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»**(3)، فليس شكر المخلوق قادحاً في شكر الخالق بل المشكلة فيمن يشكر المخلوق ولا يشكر الخالق وهذه هي المصيبة، وهناك فرق بين شكر العبد وشكر الرب، فشكر الرب فيه خضوع وذل وعبودية، ولا يجوز لشكر العبد أن تعبده، وإنما تعطيه شيئاً مقابل شيء، وتدعو له وتثني عليه..

شكر الله أيضاً يختلف عن شكر الناس من جهة العبودية والدرجة وما فيه من أنواع الطاعات له سبحانه وتعالى..

والإنسان الذي لا يشكر الناس إنسان لئيم وحريٌّ به أن لا يشكر الله..

والنعم تزيد بالشكر وتحفظ من الزوال بالشكر**{لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ}**(4).

{وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ

---

(١) الأحقاف: ١٥.

(٢) لقمان: ١٤.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤١٧٧).

(٤) إبراهيم: ٧.

نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ}(١).

من الأشياء التي تؤدي إلى الشكر:

١ – أنك تنظر إلى من هو دونك، قال ﷺ : **«انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله»**. فمما يحفظ العبد من ترك الشكر عندما ينظر إلى من هو فوقه أن هذه قسمة الله**{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ}**(٢).

٢ – أن يعلم العبد أنه مسئول عن النعمة**{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}**(٣) ومحاسب عليها حتى الماء البارد، ومن نوقش الحساب عُذِّب.

ويشتط الناس في فهم شكر ما أسبغ الله عليهم من النعم لدرجة أنهم يحرمون أنفسهم منها، والله رضي لنا أن نستمتع وأن نشكر**{كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}**(٤).

فلا يمكن أن يكون الشكر بتحريم الحلال وهذا من مبادئ الصوفية، فالله رضي لنا أن نستخدم النعم المباحات ونشكره عليها سبحانه وتعالى، ولو كان شرطاً في الانتفاع بالنعمة أداء ثمنها شكراً؛ ما وفّت كل أعمال العباد ولا على نعمة واحدة: **«أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي»** فتشكر الله وتعترف بالنعم وتستغفر من التقصير بشكر النعمة.

فالحل أن نستخدم النعم فيما يرضي الله ونثني عليه ونشكره ونستغفره من التقصير في الشكر وهو تعالى رضي منا بهذا..

وقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تفطرت قدماه وتشققت، قيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: **«أفلا أكون عبداً شكوراً!!»**. فتشكر الله على المغفرة.

ومن الوسائل أن ندعو الله أن يعيننا على الشكر: **«اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**، قالها لمعاذ، وسئل الرسول ﷺ : أي المال نتخذ؟ فلفت نظرهم ﷺ فقال:

---

(١) النساء: ٣٢.
(٢) الأنعام: ١٦٥.
(٣) التكاثر: ٨.
(٤) البقرة: ١٧٢.

«ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر دينه ودنياه».

قال ﷺ : **«إن الله ليرضى على العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»**.

قال الحسن البصري رحمه الله: إن الله ليمتع بالنعمة ماشاء فإذا لم يشكر عليها قلبها عذاباً؛ ولهذا كانوا يسمون الشكر (الحافظ)، لأنه يحفظ النعم الموجودة و(الجالب)؛ لأنه يجلب النعم المفقودة.

هكذا يحفظ ويحصّل من علو منزلة قيد الشكر وعظمه عند الله، ولا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد على النعم، فهو يقيد النعمة ألا تنقلب ولا تهرب.

قال عمر بن عبد العزيز: (قيدوا نعم الله بشكر الله)، والشكر مع المعافاة عند بعض أهل العلم أعظم من الصبر على الابتلاء. فقال مطرف بن عبد الله: (لأن أعافى فأشكر أحبُّ إليّ من أن أُبتلى فأصبر).

فإذا رزقت الشكر على النعمة فإن هذا لا يقل عن الصبر على المصيبة. وقال الحسن: (أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه**{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}** (الضحى: ١١) والله يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته فإن ذلك شكرها بلسان الحال).

وقال أبو رجاء العطاردي: خرج علينا عمران بن حصين وعليه معطف من خزّ لم نره عليه من قبل ولا من بعد فقال: إن رسول الله قال: **«إذا أنعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»**.

وقال ﷺ : **«كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»**، وهنا الضابط والحد الشرعي، فإذا أردت أن تظهر نعم الله عليك، فإن ذلك مقيد في عدم الخيلاء والإسراف.

عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت رسول الله وأنا قشف الهيئة فقال: **«هل لك من مال؟»** قلت: نعم قال: **«من أي المال؟»** قلت: من كل المال، الإبل، الرقيق، النعم، الخيل.. قال: **«إذا آتاك الله مالاً فليرَ عليك»**.

وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر فإذا شكروه كان قادراً على أن يزيدهم وإذا كفروه كان قادراً على أن يبعث عليهم عذاباً.

وقد ذم الله الكنود وهو الذي لا يشكر نعمه، قال الحسن:**{إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}** (العاديات: ٦) أي يعد المصائب وينسى النعم.

وفي النساء أظهر، فلو أحسنت إلى إحداهن الدهر وطيلة العمر ثم رأت منك تقصيراً قالت: ما رأيت منك خيراً قط**!**، وهذا ظلم، والنساء أكثر أهل النار؛ لأنهم يكفرن العشير، وإذا كان ترك شكر نعمة الزوج يؤدي إلى جهنم فما حال من يكفر نعمة الله..؟**!!**

يا أيها الظالم في فعله ::: والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى ::: تشكو المصيبات وتنسى النعم

والتحدث بالنعم شكر وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

قرأ الرسول ﷺ على أصحابه سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: **«لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم فلما قرأت{فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}**(1) **قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب ربنا ولك الحمد..»**.

وقال شُريح: وما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم:

١ – ألا تكون في دينك.

٢ – أنها لا تكون أعظم مما كانت.

٣ – أنها لابد كائنة فقد كانت.

{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}(2).

كان عمر بن عبد العزيز إذا قلّب بصره في نعمة أنعمها الله عليه قال: **«اللهم إني أعوذ بك أن أبدّل نعمتك كفراً وأن أكفرها بعد أن عرفتها وأن أنساها ولا أثني بها»**، لأن الله ذم الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار.

والنبي ﷺ كان إذا رُفعت مائدته قال: **«الحمد لله الذي كفانا وأروانا غير مكفيٍّ ولا مكفور، الحمد لله ربنا غير مكفي ولا مودّع ولا مستغنٍ ربنا»**.

---

(١) الرحمن.
(٢) الحديد: ٢٢، ٢٣.

وكذلك من شكر النعم المتجددة أنك تسجد سجود الشكر وفي ذلك أن النبي ﷺ أتاه أمر فسرّ به فخرّ لله ساجداً، وأبو بكر لما جاءه قتل مسيلمة المرتد الذي ألب عليه العرب وأشد الناس على المسلمين خرّ لله ساجداً، وعلي رضي الله عنه لما رأى ذا الثدية في الخوارج أسود مخدّج مقطوع اليد عند العضد مثل حلمة المرأة، وأنه علامة وآية أنه سيقاتل الخوارج أمرهم فبحثوا في جثث القتلى وأخرجوه؛ سجد علي رضي الله عنه شكراً لله. وكعب بن مالك سجد في عهد النبي ﷺ لما بشر بتوبة الله عليه.

والسنة لم ترد بسجود الشكر يومياً لكنها وردت في النعم المتجددة والتي تذكر بالنعمة المستديمة؛ ولأن هذه النعم المتجددة العظيمة لها وقع في النفوس والقلوب أعلق بها وأهنأ والإنسان يُعزّى بفقدها، فإن ما توجبه من فرح النفس وانبساطها والذي يدفع الأشر والبطر عند نزول النعمة فجأة.

ومن النعم المتجددة كما يقول أحد السلف: بشّرت الحسن بموت الحجاج وهو مختفٍ فخرّ لله ساجداً، فموت ظالم نعمة وولادة مولود، وجاء الخبر في الانتصار.

قال ابن القيم: "الدين نصفان، نصف شكر ونصف صبر، فهو قاعدة كل خير، والشكر مما يحبه الله فهو يجب أن يُشكر عقلاً وشرعاً وفطرةُ"، فوجوب شكره أظهر من كل واجب، وقد فاوت الله بين عباده بالنسبة للنعم الظاهرة والباطنة وفي خلقهم وأخلاقهم وأديانهم وأرزاقهم ومعايشهم. لذلك فقد روى الإمام أحمد في كتاب الزهد: "قال موسى هلاّ سويت بين عبادك قال: إني أحببت أن أشكر"، فالتفاوت بين العباد يؤدي إلى الشكر.

وقد تنازع أهل العلم بين الفقير الصابر والغني الشاكر، أيهما أفضل في كلام طويل، والظاهر أن كل واحد في حق صاحبه أفضل، فالشكر في حق الغني أفضل والصبر في حق الفقير أفضل.

أسئلة من درس الشكر:

كيف نوفق بين**{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}**(١) و**«استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»**؟

إظهار النعم عام، كيف يحدث بنعم الله قولاً وفعلاً بأن يظهرها وأن الإظهار ليس فيه إسراف ولا خيلاء ولا كسر لنفوس الفقراء، وأن لا يغترّ بها، كذلك إن وُجد حاسد فله أن يكتم النعمة عنده فهذا خاص. فإذا وجد حاسد فكتمانها لأجل الحسد وليس كفراناً بالنعمة.

ما هو الفرق بين الحمد والشكر؟

الحمد يتضمن مدح المحمود والثناء عليه بذكر محاسنه ولو لم يحسن إليك بشيء لأنه مستحق للحمد بصفاته، ويكون باللسان أكثر ما يكون بغيره، والشكر لمن أحسن إليك وإحسان الشاكر إلى المشكور يكون بالقلب واللسان والجوارح.

كيف نجمع بين شكر الله على الإيجاد وتمني أبو بكر لو كان طيراً؟

أبو بكر رضي الله عنه قال ذلك لما عرض عليه الخوف من الله، قالها خوفاً من ربّه وليس في سائر أحواله.

هل الحمد بعد العطاس واجب؟

قال بعض العلماء بوجوبه لوروده في الحديث بصيغة الأمر: "فليقل الحمد لله وليقل صاحبه يرحمك الله".

ماذا عن شكر المفاصل؟

إذا لم يستطع فإن ركعتي الضحى تجزئان عن ذلك وتصلى ركعتين أو أربع أو ست أو ثمانية أو اثنتا عشرة، من بعد ارتفاع الشمس إلى قبيل الظهر قبل أن تسير الشمس في وسط السماء، وقبل أذان الظهر برُبع ساعة.

هل هناك تسليم في سجود الشكر؟

لا، بل يخرّ ساجداً ثم يرفع.

هل المال والأولاد نعمة وهم فتنة؟

نعم**{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**(٢)، والنعم كلها ممكن أن يفتن بها إذا استعملت في معصية الله.

* * * * *

---

(١) الضحى: ١١.

(٢) الكهف: ٤٦.

المبحث الثاني عشر
وقفة مع الدعاة

١ – دعاة الإسلام وتحليهم بالصفات الإيمانية:

ثم إن على دعاة الإسلام أن يدركوا أن الله تعالى عقد البيعة في قوله تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ}**(١).

وإن وفاء الدعاة بهذه البيعة مرهون بمدى التزامهم وتحليهم بالصفات الإيمانية التي أشارت إليها الآية التي تلي آية البيعة مباشرة:**{التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ}**(٢).

فما هي هذه الصفات الإيمانية؟

[١] التائبون:

أن الصفة الأولى التي يجب أن تتحقق في الدعاة هي صفة التوبة.. فالعاملون للإسلام يجب أن يكونوا أشد احتراسا من المعاصي – كل المعاصي – منهم من عدوهم؛ لأن ذنوبهم خوف عليهم من عدوهم.. فإن وقع ما يعتبر معصية، ولا بد أن يقع، كان عليهم أن يبادروا بالتوبة والإنابة إلى الله، ملبين نداء الله عز وجل:**{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ}**(٣).

فالتوبة والإنابة إلى الله صفة أصلية لازمة من صفات المؤمنين:**{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}**(٤).

ثم ليعلموا أن نبيهم وقدوتهم محمد ﷺ، المؤيد بالوحي، الذي لا ينطق عن الهوى، المعصوم عن الخطأ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، كان لا يفتأ يستغفر ربه ويقول: «**يا أيها**

---

(١) التوبة: ١١١.
(٢) التوبة: ١١٢.
(٣) آل عمران: ١٣٣.
(٤) آل عمران: ١٣٥.

الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة» [(١)]، ويقول الرسول ﷺ : **«والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»** [(٢)].

واحتراس الدعاة من المعاصي يجب أن يشمل حتى الذنوب الصغيرة؛ لأن تعود النفس على التساهل مع الصغائر من شأنه أن يستدرجها للوقوع في الكبائر.. وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: **«إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه..»** وصدق الشاعر حيث يقول:

رأيت الذنوب تميت القلوب ::: وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ::: وخير لنفسك عصيانها

إن هذا يفرض أن تكون للدعاة مع أنفسهم جلسات دائمة، يناقشون فيها الحساب، يقيّمونها ينقدونها، يستخلصون منها ما تداخل فيها، ويمسحون عنها ما ران عليها، ملبين نداء الله في ذلك:**{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}**[(٣)] ومنفذين لوصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث يقول: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، وتهيئوا للعرض الأكبر".

ويقول العلماء في التوبة: التوبة واجبة من كل ذنب. فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى فلها ثلاثة شروط:

الإقلاع، والندم وعدم العودة. وإن كانت تتعلق بآدمي فشروطها أربعة، الثلاثة الأولى، وأن يبرأ من حق صاحبها.

[٢] العابـــدون:

والصفة الأخرى التي يجب أن تكون طابع حياة الدعاة هي صفة التعبد.. فالعابدون هم الذين يتعبدون الله تعالى في كل أحوالهم ومختلف تصرفاتهم وأقوالهم وأفعالهم.. كيما تتحقق الغاية التي من أجلها خلق الله الحياة والكون والإنسان، مصداقاً لقوله تعالى:**{وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}**[(٤)].

فحين يكون الله عز وجل غايتنا ومعبودنا ومقصدنا.. وحين نمتثل أمره في جميع شؤوننا،

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.
(٣) الشمس: ٧ – ١٠.
(٤) الذاريات: ٥٦.

فذلكم هو تعبيد الحياة لله رب العالمين، بحسب قوله الكريم:**{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ}**(١).

فلا اجتهاد مع النص.. ولا هوى مع الشرع.. ولا رأي بعد حكم قاطع من أحكام الله:**{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**(٢).

وهذا يعني قطعا: أن توزن الأمور بميزان الإسلام، ويحكم فيها بحكم شريعة الإسلام:**{إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ}**(٣).

وهذا يعني أن التصرفات الخاصة والعامة وكل ما يتصل بالأخلاق والسلوك وفق ما شرع الله لعباده.

وبهذا المفهوم الكلي الشامل يمكن أن نتعبد الله في كل شأن من شؤون حياتنا..

وبهذا المفهوم يصبح النوم عبادة، والأكل عبادة، والتعلم عبادة، والعمل عبادة، والزواج وغيره عبادة، مادامت هذه الأعمال تمارس وفق منهج الله الذي ارتضى لعباده:**{وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً}**(٤).

[٣] الحامدون:

والحامدون هم الذين تختلج قلوبهم إحساساً وشعوراً بنعم الله عليهم.. وتلهج ألسنتهم شكرا وثناء.. وتندفع أعضاؤهم بذلا وعطاء..

ومن أولى من دعاة الإسلام بالحمد!؟ ومن أولى منهم بالشكر وهم الذين نعموا بالهداية، وأصابتهم نعمة الإيمان**{وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا}**(٥)**{بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}**(الحجرات: ١٧).

إن نعم الله على عباده لا يحصى عددها.. فكل ما في الكون والإنسان والحياة ينطق بأنعمه**{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً}**(٦).

---

(١) الأنعام: ١٦٢.
(٢) النور: ٥١.
(٣) يوسف: ٤٠، ٦٧.
(٤) المائدة: ٣.
(٥) الشورى: ٥٢.
(٦) نوح: ١٥، ١٦.

{إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَباًّ مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}(1).

إن كل هذه النعم وغيرها مما تزدحم به الأكوان وتتوالد به الحياة ويعيش به الإنسان من دلائل فضل الله وكرمه على عباده، وإنما يكون رد الفضل وشكر النعمة بتوظيف كل ذلك فيما يرضي المنعم عز وجل امتثالا لأمره تعالى: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}**(2)

{لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}(3) وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: **«إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»** (4).

والدعاة إلى الله يجب أن يكون حمدهم لله في السراء والضراء في الشدة والرخاء حتى يكونوا معنيين بقوله ﷺ : **«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»**(5).

أما أجر الحامدين فهو عند الله عظيم.. وحسبنا أن نسمع قوله ﷺ : **«إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله تعالى: ابنوا**

---

(١) الأنعام: ٩٥ - ٩٩.
(٢) البقرة: ١٥٢.
(٣) إبراهيم: ٧.
(٤) سنن الترمذي (١٧٣٨).
(٥) صحيح مسلم ٥٣١٨.

لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» [١].

وإن من إكرام الله تعالى لعباده أنه امتن عليهم بالنعمة وضاعف لمن حمده عليها وشكر. فالنعمة ابتداء منه والأجر انتهاء منه**{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ}**[٢].

[٤] السائحون:

والسياحة هنا سياحة النظر والفكر والنفس في خلق السماوات والأرض.. سياحة المؤمنين في أنفسهم، وفيما حولهم من مخلوقات وأكوان وعوالم**{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}**[٣].

فما أحوج الدعاة إلى سياحات في عالم الأكوان والفضاء والمجرات تبصرهم بعظمة الله وقدرته وتحفزهم على طاعته وعبادته..

وما أحوج الدعاة إلى سياحات تاريخية في سير الصالحين وتراجم العظماء من سلفنا الصالح يخبرون بلاءهم وصبرهم وتضحياتهم ليكون لهم بهم اقتداء..

وما أحوج الدعاة إلى سياحات عبر صراعات الحق مع الباطل، ليروا كيف كانت تتحطم على صخرة الإسلام عروش الطغاة ومكائد الحاقدين، وليعلموا أن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة. وصدق الله تعالى حيث يقول:**{قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}**[٤].

والداعية الذي يبصر دقائق خلق الله في جسمه وفي الحياة من حوله، في الماء والهواء والنبات والحيوان، ويرى عظمة خلقه في اختلاف ألسنة الناس وألوانهم وأمزجتهم وأشكالهم يغدو أشد إيماناً بالله وأشد خشية له وتعظيماً لقدره وقدرته، وهذا هو معنى قوله تعالى:**{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**[٥].

---

(١) فتح الباري.
(٢) الروم: ١٧، ١٨.
(٣) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.
(٤) آل عمران: ١٣٧.
(٥) فاطر: ٢٨.

ولذلك حض القرآن الكريم على السياحة والتفكر والتدبر في كثير من آياته، منها قوله تعالى:**{قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**(١).

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}(٢).

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ}(٣).

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ}(٤).

{قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}(٥).

[٥] الراكعون الساجدون:

وهم الحريصون على تمكين صلتهم بالله وتحسين علاقتهم به.

فهم المحافظون على الصلاة.. قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم..

الدائمون عليها:**{لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ}**(٦).

والدعاة إلى الله.. وبخاصة في هذا الزمن.. بمسيس الحاجة إلى أن تكون صلتهم بالله تعالى وعلاقتهم به في وزن المسؤولية التي يحملون.. وعلى مستوى التحديات التي يواجهون..

وأسلافنا الصالحون إنما كان انتصارهم وانتشار دعوتهم بقوة الاعتصام بالله، وشديد التمسك بحبله، وبعظيم إقبالهم على النوافل في العبادات فضلاً عن الفرائض؛ ولهذا وصفهم

---

(١) العنكبوت: ٢٠.
(٢) يوسف: ١٠٩.
(٣) الحج: ٤٦.
(٤) محمد: ١٠، ١١.
(٥) النمل: ٦٩، ٧٠.
(٦) النور: ٣٧.

الباري عز وجل بأنهم:

{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}(١)**{كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}** (الذاريات: ١٧، ١٨).

وهذا ما حمل الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما استبطأ فتح مصر، أن يكتب إلى عمرو بن العاص يسأله مستفسراً يقول: " أما بعد: فقد عجبت لإبطائك عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وأن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم"(٢).

[٦] الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر:

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهمة أساسية من مهمات المؤمنين.. وإذا كان المسلم لا يكون مسلماً حقاً مالم ينهض بهذا الواجب.. ينهض به في نطاق نفسه وأسرته ومجتمعه، فكيف بالدعاة الذين نصبوا أنفسهم وعاظاً ومرشدين وأئمة وقادة؟

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليف رباني قبل أن يكون تكليفاً حركياً. ولقد جاء التكليف الرباني في قوله تعالى:**{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** (آل عمران: ١٠٤) وفي قوله تعالى:**{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** (آل عمران: ١١٠).

{فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}(٣).

ثم جاء الأمر النبوي مؤكدا التكليف الرباني بالنهوض بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر في قول الرسول ﷺ : **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان»**.

ولقد أكد الرسول ﷺ وشدد على ضرورة القيام بهذا الواجب الذي يعتبر صمام أمان

---

(١) السجدة: ١٦.

(٢) منتخب كنز العمال (١٨٣).

(٣) التوبة: ١٢٢.

المجتمعات فقال: **«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»** [(١)] ولقد أشار رسول الله ﷺ في حديث له إلى أن من أهم أسباب هلاك الأمم وأقوى معاول الهدم فيها تعطل واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقال ﷺ : **«أن أول ما دخل النقص على بني اسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له: يا هذا ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون ذلك أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»**، ثم قال:**{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}**[(٢)].

ثم قال: **«كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق إطرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم يلعنكم كما لعنهم»**[(٣)].

ثم بيّن رسول الله ﷺ من خلال مثال حي كيف تقع الكارثة حين يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع فقال: **«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة.. فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها. وكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أننا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا، وإذا أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا»**[(٤)].

وإن على دعاة الإسلام أن يدركوا أن من أهم شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكونوا قدوة لما يدعون الناس إليه.. لما يأمرونهم به.. ولما ينهونهم عنه. فإن خالف الفعل القول بطل العمل وذهب الأجر والعياذ بالله تعالى.. ولهذا ندد القرآن الكريم بالذين يقولون ما لا يفعلون فقال:**{كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ}**[(٥)].

ولقد أخبر النبي ﷺ عن مصير أولئك الذين يخالف فعلهم قولهم فقال: **«يؤتى بالرجل**

---

(١) سنن الترمذي.
(٢) المائدة: ٧٨، ٧٩.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) رواه البخاري.
(٥) الصف: ٣.

يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه، فيدور فيها كما يدور الحمـــار في الرحـــى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان: ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه» (١).

وفي وصية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه يوصي الدعاة إلى الله بأن يبدؤوا بأنفسهم هم تعليما وتهذيبا قبل أن يقوموا بتعليم الناس وتهذيبهم فقال: "من نصـب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غـيره، ولـيكن تهذيبـه بسـيرته قبـل تهذيبـه بلسانه، ومعلم نفسه ومهذبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومهذبهم".

[٧] والحافظون لحدود الله:

أي القائمون على تنفيذ أوامر الله في أنفسهم ومجتمعهم..

وإذا كانت أوامر الله تعالى لا يمكن تنفيذها على أكمل وجه بغير سلطان، أي بغير حكم إسلامي ودولة إسلامية، وجب العمل من أجل ذلك لحفظ حدود الله.

إن حياة الدعاة يجب أن تسير في خطين متوازيين بالنسبة لحفظ حدود الله..

الخط الأول: أن يحفظـوا حـدود الله في أنفسـهم وبيئـتهم مـا أمكـنهم.. وهـذا منـاط التكليف الشخصي الفردي للمؤمنين والمؤمنات وبه جاءت الآيـات الكريمـة:**{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَـــا وَأُوْلَئِـــكَ هُـــمُ الْمُفْلِحُونَ}** (النور: ٥١).**{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُـــونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً}**(٢).

وهذا ما حدد أطره الرسـول ﷺ بقولــه: **«الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينـــهما أمـــور مشتبهات، لا يعرفهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، إلا وأن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، ألا وهي القلب»** (٣).

الخط الثاني: أن يبادروا بالعمل لما يحقق حفـظ حـدود الله بالكليـة، أي بإقامـة الدولـة المسلمة التي تحفظ حدود الله باحتكامها إلى شـرعه، وهـذا منـاط العمـل الجمـاعي الـذي لا

(١) صحيح مسلم (٥٣٠٥).
(٢) الأحزاب: ٣٦.
(٣) متفق عليه.

يسقط وجوبه الرباني عن كاهل المسلمين حتى يتحقق ويحقق أغراضه أو يقضي أصحابه شهداء..{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}[1].

٢ – وقفة مع عباد الرحمن:

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراًّ وَمُقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً * وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً * وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماًّ وَعُمْيَاناً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً * أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَراًّ وَمُقَاماً * قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً}[2].

قال السعدي: العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون{إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} (مريم: ٩٣) وعبودية لألوهيته وعبادته ورحمته وهي عبودية أنبيائه وأوليائه وهي المراد هنا ولهذا أضافها إلى اسمه " الرحمن " إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم{يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا} أي: ساكنين متواضعين لله والخلق فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده.{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ} أي: خطاب جهل بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف،{قَالُوا سَلامًا} أي: خاطبوهم خطابا يسلمون فيه من الإثم ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله. وهذا مدح لهم، بالحلم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان والعفو عن الجاهل ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

{وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} أي: يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم

---

(١) فتحي يكن / المصدر شبكة الأحرار.

(٢) سورة الفرقان: ٦٣ – ٧٧.

متذللين لـه كما قـال تعـالى:{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (السجدة: ١٦، ١٧).

{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ} أي: ادفعه عنا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منا مما هو مقتضٍ للعذاب.{إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} أي: ملازما لأهلها بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

{إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، وليتذكروا منة الله عليهم، فإن صرف الشدة بحسب شدتها وفظاعتها يعظم وقعها ويشتد الفرح بصرفها.

{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا} النفقات الواجبة والمستحبة{لَمْ يُسْرِفُوا} بأن يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير وإهمال الحقوق الواجبة،{وَلَمْ يَقْتُرُوا} فيدخلوا في باب البخل والشح{وَكَانَ} إنفاقهم{بَيْنَ ذَلِكَ} بين الإسراف والتقتير{قَوَامًا} يبذلون في الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي من غير ضرر ولا ضرار وهذا من عدلهم واقتصادهم.

{وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه.

{وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ} وهي نفس المسلم والكافر المعاهد،{إِلا بِالْحَقِّ} كقتل النفس بالنفس وقتل الزاني المحصن والكافر الذي يحل قتله.

{وَلا يَزْنُونَ} بل يحفظون فروجهم{إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}{وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ} أي: الشرك بالله أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق أو الزنا فسوف{يَلْقَ أَثَامًا} ثم فسره بقوله:{يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ} أي: في العذاب{مُهَانًا} فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت لا شك فيه وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة لكونها إما شرك وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القاتل والزاني في العذاب فإنه لا يتناوله الخلود لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار ولا يخلد فيها مؤمن ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة لأنها من أكبر الكبائر، فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

{إِلا مَنْ تَابَ} عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال وندم على ما مضى له

من فعلها وعزم عزما جازما أن لا يعود،**{وَآمَنَ}** بالله إيمانا صحيحا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات**{وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا}** مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله.

{فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانا ومعصيتهم طاعة وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية.

وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه فعددها عليه ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال:: يا رب إن لي سيئات لا أراها هاهنا " والله أعلم.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا} لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة**{رَحِيمًا}** بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم.

{وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} أي: فليعلم أن توبته في غاية الكمال؛ لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها ليقدم على من تاب إليه فيوفيه أجره بحسب كمالها.

{وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} أي: لا يحضرون الزور أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله والجدال الباطل والغيبة والنميمة والسب والقذف والاستهزاء والغناء المحرم وشرب الخمر وفرش الحرير، والصور ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلة في قول الزور تدخل في هذه الآية بالأولوية**{وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ}** وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية ككلام السفهاء ونحوهم**{مَرُّوا كِرَامًا}** أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة فربؤوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله:**{وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ}** إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه.

{وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها**{لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا}** أي لم يقابلوها بالإعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف النظر والقلوب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها كما قال تعالى:**{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ}** يقابلونها بالقبول

والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذانا سامعة وقلوبا واعية فيزداد بها إيمانهم ويتم بها إيقانهم وتحدث لهم نشاطا ويفرحون بها سرورا واغتباطا.

{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا} أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات،**{وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ}** أي: تقر بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من هممهم وعلو مرتبتهم أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم عالمين عاملين وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم فإنه دعاء لأنفسهم؛ لأن نفعه يعود عليهم ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم فقالوا:**{هَبْ لَنَا}** بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين؛ لأن بصلاح من ذكر يكون سببا لصلاح كثير ممن يتعلق بهم وينتفع بهم.

{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكاملين من عباد الله الصالحين وهي درجة الإمامة في الدين وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم يقتدى بأفعالهم، ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم فيهدون ويهتدون.

ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة – درجة الإمامة في الدين – لا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالى:**{وَجَعَلْنَاهم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}** فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين، خيرا كثيرا وعطاء جزيلا وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل.

ولهذا، لما كانت هممهم ومطالبهم عالية كان الجزاء من جنس العمل فجازاهم بالمنازل العاليات فقال:**{أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا}** أي: المنازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذه الأعين وذلك بسبب صبرهم نالوا ما نالوا كما قال تعالى:**{وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}** ولهذا قال هنا:**{وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا}** من ربهم ومن ملائكته الكرام ومن بعض على بعض، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل: أن الله وصفهم بالوقار والسكينة والتواضع له ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم ومقابلة إساءتهم بالإحسان وقيام الليل والإخلاص فيه، والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها وإخراج الواجب والمستحب في النفقات والاقتصاد في ذلك – وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى – والسلامة من

كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته والعفة عن الدماء والأعراض والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها بأنفسهم وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء، في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم؛ لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه لا بد أن يكون متسببا فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم وهي درجة الإمامة والصديقية.

فلله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس وأطهر تلك القلوب وأصفى هؤلاء الصفوة وأتقى هؤلاء السادة.

ولله، فضل الله عليهم ونعمته ورحمته التي جللتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

ولله، منة الله على عباده أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هيئاتهم وبين لهم هممهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشتاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي مَنَّ عليهم وأكرمهم الذي فضله في كل زمان ومكان، وفي كل وقت وأوان، أن يهديهم كما هداهم ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم.

فاللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير إن لم تيسر ذلك لنا، فإنا ضعفاء عاجزون من كل وجه.

نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين وكلتنا إلى ضعف وعجز وخطيئة، فلا نثق يا ربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا ورزقتنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة وصرفت عنا من النقم، فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك فلا خاب من سألك ورجاك.

ولما كان الله تعالى قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم ربما توهم متوهم أنه وأيضا غيرهم فلم لا يدخل في العبودية؟

فأخبر تعالى أنه لا يبالي ولا يعبأ بغير هؤلاء وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة ما عبأ بكم ولا أحبكم فقال:**{قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا}**

أي: عذابا يلزمكم لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين[1].

* * * * *

(١) تفسير السعدى٣٦٥.

المبحث الثالث عشر

المسلم الحقيقي راض غير ساخط:

الرضا: ضد السخط **«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك»**.

الرضا: يقال**{في عيشةٍ راضيةٍ}**[1]، أي: مرضيةٍ ذات رضا.

الرضوان: الرضا الكثير.

الرضا في الشرع: رضا العبد عن الله: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد أن يراه مؤتمراً بأمره منتهياً عن نهيه.

أرضاه: أي أعطاه ما يرضى به، وترضَّاه: أي طلب رضاه.

إذا العجوز غضبت فطلِّقِ ::: و لا ترضَّاها ولا تملَّقِ

و لَّما كان أعظم رضا هو رضا الله سبحانه وتعالى؛ خُصَّ لفظ الرضوان بما كان من الله عز وجل**{يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً}**[2] وقال عز وجل:**{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ}**[3]. وإذا نظرنا إلى هذا الرضا في القرآن فإننا سنجده في عدد من المواضع...

قال الله عز وجل في العمل ابتغاء مرضاته سبحانه:**{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}**[4]، يشري نفسه: يبيع نفسه بما وعد الله به المجاهدين في سبيله، ابتغاء مرضاة الله: أي أن هذا الشاري يشري يكون مشترياً حقاً إذا اشترى طلب مرضاة الله..

* كذلك في الصدقات، قال تعالى:**{وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ}**[5].

أي: يتصدقون بها ويحملون في سبيل الله ويقوّون أهل الحاجة من الغزاة والمجاهدين طاعةً لله وطلباً لمرضاته..

* وقال الله عن الذين يعملون أعمال البر ابتغاء رضاه..

---

(١) الحاقة: ٢١، القارعة: ٧.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) التوبة: ٢١.

(٤) البقرة: ٢٠٧.

(٥) البقرة: ٢٧٥.

{لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}(١)، فأخبر تعالى عن عاقبة هذا بقوله:{فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}(٢) إذا فعله ابتغاء مرضاة الله، وقد رضي الله الإسلام ديناً لهذه الأمة، فهذا مما رضيه سبحانه..

{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً}(٣).

أي: رضيتُ لكم أن تستسلموا لأمري وتنقادوا لطاعتي على ما شرعته لكم وأن تستسلموا لشرعي وتنقادوا إليه طاعةً منكم لي، وكذلك قوله تعالى:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}(٤)، فيهدي سبحانه بهذا الكتاب المبين ويرشد ويسدِّد.

* والرضا من الله سبحانه وتعالى أن يقبل العبد وهو مدح وثناء، وكذلك فإنه عز وجل يرضى عنه ويقتضي رضاه على العبد الثناء عليه ومدحه..

• وقال عز وجل عن المنافقين وهم يحلفون الأيمان..

{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ}(٥).

فهؤلاء المنافقين يريدون بالأيمان الكاذبة الخداع، ويريدون الكيد للمسلمين ويحلفون الأيمان الفاجرة أنهم لا يريدون شراً بالمسلمين وأنهم لا يريدون المكيدة لهم، ولكنّ الله أبى أن يقبل المسلمون منهم هذا.. ولو أنهم كانوا صادقين لأرضوا ربهم تبارك وتعالى وليس أن يسعوا في إرضاء المخلوقين..

* وكذلك فإن الله سبحانه ذكر في كتابه العزيز الذي يبني المساجد ابتغاء مرضاة الله..

{أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ

---

(١) النساء: ١١٤.
(٢) النساء: ٧٤.
(٣) المائدة: ٣.
(٤) المائدة: ١٩، ٢٠.
(٥) التوبة: ٦٢.

هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ}[1] فهؤلاء الذين بنوا المساجد خير أيها الناس عندكم من الذين ابتدؤوا البناء على اتقاء الله بطاعته في بنائه وأداء فرائضه ورضا من الله لبنائهم، فما فعلوه هو خير لهم. أما الذين ابتدؤوا بناءهم على شفا جرف هار فستكون عاقبتهم في النار، فأيّ الفريقين خيرٌ إذاً؟!!

• كذلك أثنى الله على الفقراء المهاجرين الذين خرجوا من مكة إلى المدينة وتركوا ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وكذلك أراد الله أن يولّي نبيه قِبلة يرضاها فجعل يحوّل النبي ﷺ ويصرف بصره في السماء يتمنى أن تحوّل القِبلة من بيت المقدس إلى الكعبة حتى أنزل الله:**{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}**[2] أي: فلنصرفنّك عن بيت المقدس إلى قِبلة تهواها وتحبّها.

• أداء الواجبات سبيل إلى رضوان الله عز وجل..

{الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ}.. والنتيجة؟!!**{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}** (التوبة: ٢٠ – ٢٢).

• وكذلك الصبر على الطاعة والعبادة يؤدي إلى حصول الرضا من العبد على الرب ومن الرب على العبد، ومن العبد عن الرب ومن الرب عن العبد..

{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى}..

❋ والله يرضي أهل الإيمان والدين لَمَّا ضحَّوا في سبيله، يرضيهم ويعطيهم يوم القيامة حتى يأخذوا كل ما كانوا يرجونه وزيادة..

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ}..

• وإن الصحابة لما جاهدوا في سبيله واتبعوا نبيه ودافعوا عن شريعته ونشروا دينه وبلّغوا شريعته..

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}..

---

(١) التوبة: ١٠٩.

(٢) البقرة: ١٤٤.

و هؤلاء الذين هاجروا في سبيل الله لا يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كـانوا آبـاءهم أو أبناءهم أو إخـوانهم أو عشـيرتهم أولئـك كتـب في قلـوبهم الإيمـان وأيّـدهم بـروحٍ منـه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه.

فالرضا هنا متبادل بين الرب والعبد..

و يوم القيامة ستكون العيشة الراضية عاقبة هؤلاء وأهل اليمين، قال تعالى:

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} (الحاقة: ١٩ – ٢١)، وقال تعـالى:**{وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَـةٌ * لِسَـعْيِهَا رَاضِيَةٌ}** (الغاشية: ٨، ٩)، وقال تعـالى:**{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً}** (الفجر: ٢٧، ٢٨)، وقال تعالى:**{وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى}** (الليـل: ١٧ – ٢١) وقال تعالى:**{فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ}** (القارعة: ٦، ٧)..

- **رضا الله عز وجل أعلى مطلوب للنبيّين والصديقين..**

{ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْـمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِـن وَرَائِـي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْـهُ رَبِّ رَضِيّاً}[1].

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً * وَكَانَ يَـأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً}[2]..

ماذا فعل موسى عندما استعجل لقاء الله؟! ولماذا استعجل؟!!

{وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْـتُ إِلَيْـكَ رَبِّ لِتَرْضَى}[3].. استعجل الخير واللقاء لينال رضا الله..

وكذلك سليمان عليه السلام لما سمع كلام النملة تبسم ضاحكاً من قولهـا، وقـال:**{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ}**[4]..

---

(١) مريم: ٢، ٦.

(٢) مريم: ٥٤.

(٣) طه: ٨٤، ٨٥.

(٤) النمل: ١٩.

وذلك فإن هذا الإنسان الذي يبلغ أشده ويبلغ أربعين سنة يقول صاحبه:**{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ}**(١)..

وهذا مطلوب الصحابة لّما عبدوا الله يبتغون فضلاً من الله ورضواناً..

ويوم القيامة: الفئة هذه المرضيّ عنها هي التي تشفع والذين لا يرضى الله عنهم ليسوا من أهل الشفاعة..

{يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}(٢)..

فأهل رضاه يشفعون..

وقال عز وجل:**{وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى}**..

وشرع الله لنا ديناً يرضيه لنا**{وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}** (النور: ٥٥).

ومن الأمور التي ينبغي على العبد: أن يرضى بما قسم الله لـه..

ويعمل الزوج لكي ترضى زوجاته عن عيشهنّ بالعدل بينهنّ**{تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ}**(٣)..

إذا انتقلنا إلى سنّة النبي ﷺ، نجد طائفة من الأحاديث عن الرضا.

• أخبر أن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها.

• أخبر أن الله رضي لنا أن نعبده لا نشرك به شيئاً وأن نعتصم بحبله وألا نتفرق، وكره لنا قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال.

• أخبر أن رضا الرب في رضا الوالد.

• أخبر أن السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب.

• أخبر أن من التمس رضا الله بسخط الله رضي الله عنه وأرضى عنه الناس.

• أخبر أن ملائكته تلعن المتمردة على زوجها الناشزة عن فراشه حتى يرضى عنها

• أخبر أنه عندما مات ولده لا يقول إلا ما يُرضي الرب، فلما مات إبراهيم جعلت

---

(١) الأحقاف: ١٥.

(٢) طه: ١٠٩.

(٣) الأحزاب: ٥١.

عيناه تذرفان، ثم أتبع الدمعة بدمعةٍ أخرى، وقال: **«إن العين لتدمع، وإن القلب ليحـــزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»** (١).

• علّمنا في السجود في الدعاء.

(نستعيذ برضا الله من سخطه).

هذا الرضا شأنه عظيم وأمره كبير ومنزلته في الدين عالية..

هذا الرضا عليه مدار أمور كثيرةٍ من الأمور الصالحات، هذا الرضا الذي هو من منـازل السائرين والسالكين، ما حكمه؟

هل هو واجبٌ؟! أم مستحبٌ؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله: وأمـا الرضـا فقـد تنـازع العلمـاء والمشـايخ مـن أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضاء، هل هو واجـبٌ أو مسـتحبٌ علـى قـولين: فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقرَّبين. والخلاصـة: أن أصل الرضا واجب ومنازله العليا مستحبّة.

و الرضا لـــه أصلٌ ومراتبٌ أعلى من الأصل..

فيجب الرضا من جهة الأصـل: (فالـذي لـيس عنـده رضـا عـن الله والـدين والشـرع والأحكام فهذا ليس بمسلم)..

فلابد لكلِّ مسلم موحِّدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر من درجـةٍ مـن الرضـا، أصـل الرضـا لابد أن يكون متوفّراً؛ لأنه واجبٌ.. فقـد قـال ﷺ : **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربـــاً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً»** (٢)..

قال تعـالى:**{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِــدُوا فِــي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}** (النساء: ٦٥) وهذا هو الرضا**{وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ..}**..**{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّـــهَ وَكَرِهُـــوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}** (محمد: ٢٨)..

حتى المنهيّات لابد أن نفهم ما معنى الرضا بالمنهيّات؟!

لا يُشْرَع الرضا بالمنهيّات طبعاً..

---

(١) سنن ابن ماجه.

(٢) مسند أحمد.

كما لا تُشْرَع محبتها؛ لأن الله لا يرضاها ولا يحبها..

و الله لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر.. وهؤلاء المنافقين يُبَيّتون ما لا يرضى من القول، بل اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم..

فالرضا الثابت بالنص هو أن يرضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبياً، يرضى بما شرعه الله لعباده من تحريم حرامٍ أو إيجاب واجبٍ أو إباحة مباحٍ، يرضى عن الله سبحانه وتعالى ويرضى عن قضائه وقدره ويحمده على كل حالٍ ويعلم أن ذلك لحكمةٍ، وإن حصل التألم بوقوع المقدور..

فإن قال قائل: لماذا يحمد العبدُ ربَّه على الضراء؟ إذا مسّه الضراء؟.. فالجواب من وجهين:

١- أن تعلم أن الله أحسنَ كل شيءٍ خلَقه وأتقنَه، فأنت راضٍ عما يقع في أفعاله؛ لأن هذا من خلقه الذي خلقه، فالله حكيم لم يفعله إلا لحكمةٍ.

٢- أن الله أعلم بما يصلحك وما يصلح لك من نفسك، واختياره لك خيرٌ من اختيارك لنفسك.

قال ﷺ : **«و الذي نفسي بيده لا يقضي الله لمؤمنٍ قضاءً إلا كان خيراً له وليس ذلك إلا للمؤمن ، ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً»**.

فهذا حديثٌ عظيمٌ: فالمسلم في أذكار الصباح والمساء وفي أذكار الأذان بعد " أشهد أن محمداً رسول الله " الثانية يقول: **«رضيتُ بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً»** (١)..

رضا بربوبيته سبحانه ورضا برسوله ﷺ والانقياد والتسليم ولذلك من حصلت له هذه الأمور الأربعة: الرضا بربوبيته وألوهيته سبحانه والرضا برسوله والانقياد له والرضا بدينه والتسليم له فهو الصدِّيق حقاً..

و هي سهلةٌ بالدعوى، ولكن ما أصعبها عند الامتحان!!!

أما الرضا بالله: فيتضمّن الرضا بمحبته وحده والرضا بعبادته وحده أن تخافه وحده ترجوه وتتبتّل إليه وتتذلل إليه عز وجل وتؤمن بتدبيره وتحب ذلك وتفرده بالتوكل عليه والاستعانة به وتكون راضياً عما يفعل عز وجل فهذا رضا بالله.. ترضى بما قدّر وحكم.. حَكَم أن الزنا حرامٌ، وأن الربا حرامٌ، وأن بر الوالدين واجبٌ، وأن الزكاة فرضٌ، فيجب أن ترضى بحكمه..

---

(١) مسند أحمد١٨٢٠٠.

قدّر عليك أشياء من فقرٍ، وضيق حالٍ، فيجب أن ترضى..

الرضا بمحمدٍ ﷺ نبياً: أن تؤمن به وتنقاد لــه وتستسـلم لأمـره ويكـون أولى بـك مـن نفسك، وأنه لو كان موجوداً ﷺ ووجِّهَ إليه سـهمٌ وجـب عليـك أن تتلقـاه عنـه وأن تفتديـه بنفسك، وأن تموت فداءً لـه.

و ترضى بسنّته فلا تتحاكم إلا إليها..

ترضى بسنّته فلا ترجع إلا إليها ولا تُحَكِّم إلا هي..

الرضا بالإسلام ديناً: فما في الإسلام من حكمٍ أو أمرٍ أو نهيٍ، فإنك ترضـى عنـه تمامـاً وليس في نفسك أيّ حرجٍ وتُسَلِّم تسليماً كاملاً لذلك ولو خالف هواك ولو كان أكثر الناس على خلافه، ولو كنتَ في غربةٍ ولو كانت عليك الأعداء مجتمعون فيجب أن ترضى بأحكـام الدين وتسعى لتنفيذها وإن خالفتَ العالَم..

سؤال / الرضا هل هو شيءٌ موهبيٌّ أم كسبيٌّ؟ أي: هل يُوهَبُ مـن الله أم يمكـن للعبـد تحصيله؟ هل هو فطريٌّ أم العبد يُحَصِّل هذا بالمجاهدة ورياضة النفس إذا روَّض نفسه؟!!

الرضا كسبيٌّ باعتبار سببه، موهبيٌّ باعتبار حقيقته..

فإذا تمكن العبد في أسباب الرضا وغرس شجرة الرضا في قلبه جنى الثمرة..

لأن الرضا آخر التوكل..

بعدما يعجز التوكل يأتي الرضا..

و الذي ترسخ قدمه في طريق التوكل ينال الرضا..

لأن بعد التوكل والتسليم والتفويض يحصُل الرضا، وبدونهما لا يحصل الرضا.

و لذلك لو قال أحدهم: نريد تحصيل الرضا، نقول لــه: يجـب أن يكـون لـديك توكـلٌ صحيحٌ وتسليمٌ وتفويضٌ ثم ينتج الرضا بعد ذلك..

و لذلك لم يُوجِب الله على عباده المنازل العالية من الرضا؛ لأن ذلك شيءٌ صعبٌ جداً، وأكثر النفوس ربما لا يحصُل لها ذلك..

فالله ندب إليه ولم يوجبه (ليس أساس الرضا وإنما ما فوق ذلك)..

فإذا حصل للعبد شيءٌ، فإنه لابد أن يكون محفوفاً بنوعيه من الرضا: رضا قبله، ورضـا بعده..

و كذلك الرضا من الله عز وجل عن العبد إنما هو ثمرة رضا العبد عن الرب سبحانه،

فإذا رضيتَ عن الله رضي الله عنك..

و الرضا باب الله الأعظم وجَنة الدنيا ومُسْتَراح العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين وهو من أعظم أعمال القلوب..

قال يحيى بن معاذ لما سئل: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ قال: (إذا أقام نفسه على أربعةِ أصولٍ يُعامِل بها ربه..

يقول: إن أعطيتني قبلتُ، وإن منعتني رضيتُ، وإن تركتني عبدتُ، وإن دعوتني أجبتُ)..

و الرضا إذا باشر القلب؛ فإنه يدل على صحة العلم وليس الرضا والمحبة كالرجاء والخوف، فمن الفروق أن أهل الجنة مثلاً لا يخافون في الجنة ولا يرجون مثل رجاء الدنيا.. لكن لا يفارقهم الرضا أبداً..

فإن دخلوا الجنة فارقهم الخوف**{لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}**(1)..

في الدنيا هناك خوف.. إذا دخلوا الجنة زال الخوف.. أما الرضا فلا يزول.. خارج الجنة وداخلها.. الرضا موجودٌ..

الخوف والرجاء في الدنيا ليس موجوداً عند أهل الجنة يفارقون العبد في أحوال..

أما الرضا فلا يفارق العبد لا في الدنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة ولا في الجنة، ينقطع عنهم الخوف؛ لأن الشيء الذي كانوا يخافونه أمِنوه بدخولهم الجنة، وأما الشيء الذي كانوا يرجونه فقد حصل لهم، أما الرضا، فإنه لا يزال معهم وإن دخلوا الجنة: معيشتهم راضيةٌ وهم راضون، ورضوا عن الله، وراضون بثوابه وما آتاهم في دار السلام..

• هل يشترط أن الرضا إذا حصل لا يكون هناك ألمٌ عند وقوع مصيبة؟**!**

الجواب: ليس من شروط الرضا ألا يحس العبد بالألم والمكاره، بل من شروط الرضا عدم الاعتراض على الحكم وألا يسخط، ولذلك فإن الرضا لا يتناقض مع وجود التألم وكراهة النفس لما يحصل من مكروه..

• فالمريض مثلاً يرضى بشرب الدواء مع أنه يشعر بمرارته ويتألم لمرارته، لكنه راضٍ بالدواء مطمئنٌ بأخذه مقبلٌ على أخذه، لكنه في ذات الوقت يَطْعَم مرارة الدواء..

• الصائم رضي بالصوم وصام وسُرَّ بذلك.. لكنه يشعر بألم الجوع.. هل بشعوره بألم

(1) البقرة: ٣٨.

الجوع يكون غير راضٍ بالصيام؟! لا.. هو راضٍ بالصيام ويشعر بالجوع..

* المجاهد المخلص في سبيل الله راضٍ عند الخروج للجهاد.. ومُقْدِمٌ عليه.. مقتنع به.. لكن يحس بالألم.. والتعب.. والغبار.. والنعاس.. والجراح..

إذاً لا يشترط أن يزول الألم والكراهية للشيء إذا حصل الرضا، لكن بعض أصحاب المقامات العالية جداً يستلذّون بالألم إذا حصل في الجهاد أو الصيام..

لكن لا يشترط أن الفرد إذا أحس بالألم في العبادة أن يكون غير راضٍ.. ليس شرطاً..

و طريق الرضا طريقٌ مختصرة قريبةٌ جداً، لكن فيها مشقةٌ، وليست مشقتها أصعب من مشقة المجاهدة، ولكن تعتريها عقبتان أو ثلاث:

١- همةٌ عاليةٌ.	٢- نفسٌ زكيّةٌ.

٣- توطين النفس على كل ما يَرِدُ عليها من الله تعالى..

و يسهُل ذلك على العبد إذا عرف ضعفه وقوة ربه، وجهله وعلم ربه، وعجزه وقدرة ربه.. وأن الله رحيمٌ شفيقٌ به، بارٌّ به، فهو البرُّ الرحيم..

فالعبد إذا شهد هذه المقامات رضي، فالله عليمٌ حكيمٌ وهو رؤوفٌ، وهو أعلم بما يُصْلِح العبد من العبد، وتوقن أن ما اختاره لك هو الأفضل والأحسن..

عباراتٌ أحياناً ترد لكن الإنسان إذا آمن بها وصل إلى المطلوب..

أحياناً هناك مقاماتٌ إيمانيةٌ يبلغها الإنسان بقلبه ويأخذ بها أجراً عظيماً يرتقي بها عند الله وهي عبارةٌ عن تفكّراتٍ (يفكّر فيها فيهتدي إليها فيأخذ بها فيحصل على المطلوب فلم يبذل جهداً بل هي أشياءٌ تأمليةٌ)..

فالتفكّر من أعظم العبادات...

فإذا تفكّر العبد أن ما يختاره لـه ربه هو الأحسن والأفضل..

فإذا آمن بها الإنسان رضي..

و تحصيل الرضا غير معقّدٍ.. كيف؟!

أن تؤمن بأن ما اختاره الله لك وقدّره عليك هو أحسن شيءٍ لك.. سواءً كان موتُ ولدٍ أو مرضٍ أو تركُ وظيفةٍ..

لكن أنت قد تجهل لماذا هو أحسن شيءٍ!! أنت لا تعلم لماذا لو أعطاك ليس مصلحتك!!

أنت في حال الفقر لا تعلم لماذا ليس في مصلحتك أن تحصّل المال.. وهكذا..

فنتيجة إذا اعترف العبد بجهله وآمن بعلم ربه وأن اختياره لـه أولى وأفضل وأحسن مـن اختياره لنفسه..

وصلنا إلى الرضا..

* فطريق المحبة والرضا تسير بالعبد وهو مستلقٍ على فراشه فيصير أمام الركب بمراحل!!

هناك أناسٌ يعملون ويجهدون وصاحب الرضا بعبادته القلبية يسبقهم بمراحل، وهم مـن خلفه مع أنه على فراشه وهم يعملون؛ لأنه راضٍ عن الله ويتفكّر في هـذا الأمـر ويـؤمن بـه فيقترب من الله وأناسٌ لم يصلوا لهذا المستوى ويعملون ويجهدون...

لذلك أعمال القلوب مهمةٌ جداً؛ لأن المرء يمكن أن يبلغ بها مراتب عند الله وهو قاعدٌ، وهذا لا يعني ألا يعمل ولا يصلي.. وقد يكون هناك أناسٌ آخرين أكثر منه عمـلاً (صـيام – صدقة – حج)، لكنهم أقل منه درجةً..

لماذا؟!!

لأنك بهذا العلم بأعمال القلوب قـد تحصّـل مراتـب عنـد الله أكثـر مـنهم؛ لأن عمـل القلب نفسه يرفع العبد في كثيرٍ من الأحيان أكثر من عمل الجوارح...

فأبو بكر ما سبق أهل هذه الأمة لأنه أكثرهم صلاةً وقياماً في الليل... هناك أنـاسٌ أكثـر منه في عمل العبادات والجوارح... لكن سبقهم بشيءٍ وَقَرَ في نفسه..

الرضا عن الله لو تحقق في صدر العبد؛ تميز بين مستويات العباد وترفع هذا فوق هـذا.. ينبغي التفطّن لها.. كما تعمل بالجوارح هناك أعمال قلوبٍ لا تقل أهميةً بل هي أعلى منهـا، مع الجمع بين الواجب من هذا وذاك..

و لكن قد يدرك الإنسان أحياناً بتفطّنه وتأمله وتفكّره وإيمانه مراتـب أعلـى مـن الـذي أكثر منه عملاً بالجوارح.. ولذلك يقول ابن القيّم (فطريق الرضـا والمحبـة تسـيّر العبـد وهـو مستلقٍ على فراشه فيصبح أمام الركب بمراحل) " وهو على فراشه "..

١ – مقاماتٌ الرضا:

١- الرضا بما قسم الله وأعطاه من الرزق وهذا ممكنٌ يجيده بعض العوامّ..

و المرتبة الأعلى:

٢- الرضا بما قدّره الله وقضاه..

و مرتبةٌ أعلى من هذه..

٣- أن يرضى بالله بدلاً من كل ما سواه..

هذه منازل قد يأتي البعض بواحدةٍ ولا يقدر على الأخرى، وقد يأتي البعض بجزءٍ من الدرجة.. ولا يحقق كل الدرجة..

قد يرضى عن الله فيما قسم لـه من الزوجة ولا يرضى بما قسم لـه في الراتب.. مثلاً..

قد يصبر على سرقة المال.. ولا يصبر على فقد الولد..

• وأما أن الإنسان يرضى بالله عن كل ما سواه، معنى ذلك أن يهجر كل شيءٍ لا يؤدي إلى الله (ملاهٍ – ألعاب – أمورٌ مباحةٌ لا تقود إلى الله) فالمشتغل بها لا يعتبر أنـه رضـي بـالله عن كل ما سواه.. هذه حالةٌ خاصةٌ لشخصٍ مع الله دائماً، كل شيءٍ أي عملٍ أي حركةٍ أي سكنةٍ كلها طريقٌ إلى الله تؤدي إلى مرضاة الله.

درجات الرضا:

• منها الرضا بالله رباً وتسخّط عبادة ما دون الله، وهذا قطب رحا الإسلام لابد منه، أن ترضى بالله ولا ترضى بأي إلهٍ آخر.. (بوذا.. ما يعبده المشركون.. اليهود.. النصارى)، لم يتخذ غير الله رباً يسكن إليه في تدبيره وينزل به حوائجه..

• وهذا محرومٌ منه غلاة الصوفية المشركون عبّاد القبور، فينزلون حوائجهم بالأولياء والأقطاب ويسألونهم ويستغيثون بهم ويتوكّلون عليهم ويرجون منهم ما لا يقدر عليه إلا الله..

لو آمنوا بالله حقاً لطلبوا المدد من الله ولم يذهبوا إلى المخلوقين في قبورهم، يقولون: يا فلان المدد، يا فلان أغثنا..!!

ثم يأتي الصوفية ويقولون: نحن متخصّصون بالقلوب وقد ضيّعوا الأساس..!!

{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَباً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}؟ قال ابن عباس: " يعني سيداً وإلهاً، فكيف أطلب رباً غيره وهو ربُّ كل شيءٍ؟!! "

{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِياً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} يعني: أغير الله أتخذ معبوداً و ناصرا ومُعيناً وملجأً؟!!

ولياً من الموالاة التي تتضمّن الحب والطاعة..

{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً} هل أرضى بحَكَمٍ آخر يحكم بيني وبينكم غير الله بكتابه وسنّة نبيه ﷺ..

فلو قال أحدهم: أنا أرضى بالقانون الوضعيّ يحكم بيننا.. هذا لا يمكن أن ينطبق عليه

أنه يؤمن بالله ربا..!! إذاً هناك أناسٌ يدّعون الرضا بالله ثم يخالفون في تعاملاتهم قاعدةً وأساساً من أعظم الأسس..، فإذا رضيت بالله رباً، يجب أن ترضى به حَكَماً**{إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ}** ومن خصائصه سبحانه: أن التحكيم والحُكْمَ لـه سبحانه وحده..

ثم إذا تأملتَ هذه الأمور عرفتَ أن كثيراً من الناس يدّعون الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ نبياً ثم هنا يخالفون حكم الله ويرضون بحكم غيره ويخالفون السنّة وهناك يميلون ويوالون أصحاب دياناتٍ أخرى، فأين هم من هذه الثلاثة؟؟!!

و القرآن مليءٌ بوصف المشركين أنهم اتخذوا من دون الله أولياء!! من تمام الإيمان صحة الموالاة ومدار الإسلام على أن يرضى العبد بعبادة الله وحده ويسخط عبادة غيره..، والفرق بين الرضا بالله والرضا عن الله:

أ – الرضا بالله: تحدثنا عنه. بأنه الله وأنه المعبود فقط لا غيره وأن الحكم لـه فقط لا لغيره وأن نرضى بما شرع. ولا يمكن أن يدخل فيه المؤمن والكافر معاً. لا يكون إلا للمؤمن..

ب – الرضا عن الله: أي: ترضى بما قضى وقدّر.. تكون راضياً عن ربك فيما أحدث لك وخلَق من المقادير.. ويدخل فيه المؤمن والكافر..

فلابد من اجتماع الأمرين معاً: الرضا بالله والرضا عن الله، والرضا بالله أعلى شأناً وأرفع قدراً، لأنها مختصّةٌ بالمؤمنين. والرضا عن الله مشتركةٌ بين المؤمن والكافر؛ لأن الرضا بالقضاء قد يصح من المؤمن والكافر، فقد تجد تصرّف كافرٍ فتقول: هذا راضٍ بالقضاء ومسلّم ولا اعتراض عنده، لكنه لم يرضَ بالله رباً.

فالرضا بالله رباً آكد الفروض باتفاق الأمّة.. فمن لا يرضى بالله رباً فلا يصح لـه إسلامٌ ولا عملٌ..

• الرضا عن الله.. الرضا بالقضاء.. ما حكمه؟!

يجب التفصيل أولاً في قضيّة القضاء:

١– قضاءٌ شرعيٌّ: وهو ما شرعه الله لعباده**{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً}** قضى علينا وشرع.. قد يلتزم العباد به وقد لا يلتزمون به..

٢– قضاءٌ كونيٌّ: كُنْ فيكون.. إذا قضى الله بموتِ شخص.. أو مرض.. أو شفاءٍ.. أو غنىً.. أو فقر.. أو نزولِ مطرٍ.. إذا قضاها فلا رادّ لقضائه، قضاءٌ كونيٌّ.. لا يستخلف.. لابد أن يقع.. كُنْ فيكون..

فبالنسبة للقضاء الشرعي أن يكون عندنا رضا به قطعاً وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان.. لابد أن نرضى بدون أي حرجٍ ولا منازعةٍ ولا معارضةٍ..

{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} (النساء: ٦٥)..

لكن الرضا بالمقادير التي تقع، هناك فرقٌ بين الرضا والصبر، الرضا بالمقدور والصبر على المقدور.. الرضا درجةٌ أعلى من الصبر..

ليس الرضا عمليةً سهلةً.. وعلى ذلك يُحْمَل كلام من قال من العلماء إن الرضا ليس بواجبٍ في المقدور..

الله لم يوجب على عباده أن يرضوا بالمقدور (المصائب)؛ لأن هذه الدرجة لا يستطيعها كل العباد، ولكن أوجب عليهم الصبر، وهناك فرقٌ بين الرضا والصبر..

قد يصبر الإنسان وهو يتجرّع المرارة وألم المصيبة، ويمسك نفسه ويحبسها عن النياحة وشقّ الجيب أو قول شيءٍ خطأٍ، فنقول: هو صابرٌ..

لكن هل وصل إلى مرحلة الرضا؟!!

يعني هل وصل إلى مرحلة الطمأنينة والرضا بهذه المصيبة؟!!

ليس كل الناس يصلون إلى هذا..

لا يجوز لطم الخدود ولا النياحة ولا شقّ الجيب؛ لأن هذا ضد الصبر الواجب، فالرضا لم يوجبه الله على كل عباده.. لكن من وصل إلى الرضا شأنه عظيمٌ..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الرضا بالقضاء ثلاثة أنواعٍ:

١- أحدها: الرضا بالطاعات، وحكمها طاعةٌ..

٢- الرضا بالمصائب: فهذا مأمورٌ به، فهو إما واجبٌ أو مستحبٌّ..

أما الواجب: فهو ما يوازي الصبر وهو الدرجة الأولى من الرضا..

أما الدرجة العليا من الرضا عند المصيبة التي فيها سكينة النفس التامة: فهذا عزيزٌ لا يصل إليه إلا قلّةٌ من المخلوقين..

و الله من رحمته لم يوجبه عليهم؛ لأنهم لا يستطيعونه..

٣- الرضا بالمعصية: معصيةٌ....

• فما حكم الرضا بالكفر والفسوق والعصيان؟!

يرى في أهله الخبث وهو راضٍ.. الرضا بالمعصية معصيةٌ حرامٌ..

الرضا بالكفر.. كفرٌ..

حكم الرضا بالمعصية.. لا يجوز..

بل الإنسان مأمورٌ ببغض المعصية، والله لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب المعتدين ولا يحب الظلم ولا الظالمين..

ثمرات الرضا:

إن للرضا ثمرات كثيرة.. على رأسها..

١- الرضا والفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى.. والنبي ﷺ كان أرضى الناس بالله وأسرّ الناس بربه وأفرحهم به تبارك وتعالى..

فالرضا من تمام العبودية ولا تتم العبودية بدون صبرٍ وتوكلٍ ورضا وذلٌ وخضوعٍ وافتقار إلى الله..

٢- إن الرضا يثمر رضا الرب عن عبده، فإن الله عز وجل رضي بمن يعبده عمّن يعبده على من يعبده وإذا ألححتَ عليه وطلبتَه وتذلّلتَ إليه أقبل عليك.

٣- الرضا يخلّص من الهمّ والغمّ والحزن وشتات القلب وكسف البال وسوء الحال، ولذلك فإن باب جنة الدنيا يفتَح بالرضا قبل جنة الآخرة؛ فالرضا يوجب طمأنينة القلب وبَرْده وسكونه وقراره بعكس السخط الذي يؤدي إلى اضطراب القلب وريبته وانزعاجه وعدم قراره.

فالرضا ينزل على قلب العبد سكينةً لا تتنزّل عليه بغيره ولا أنفع له منها؛ لأنه متى ما نزلت على قلبَ العبد السكينة استقام وصلُحت أحواله وصلُح باله، ويكون في أمنٍ ودَعَةٍ وطيبِ عيشٍ..

٤- الرضا يخلّص العبد من مخاصمة الرب في الشرائع والأحكام والأقضية..

مثلاً إبليس لما أُمِر بالسجود عصى؟ رفض؟

لم يرضَ.. كيف أسجد لبشرٍ خلقتَه من ترابٍ؟.. فعدم الرضا من إبليس أدّى إلى اعتراضٍ على أمر الله.. فإذاً منافقو عصرناً الذين لا يرضون بحكم الله في الربا والحجاب وتعدّد الزوجات في كل مقالاتهم في مخاصمةٍ مع الرب سبحانه.. لماذا؟!!!... كلامهم يدور على مخاصمة الرب في شرعه وإن لم يصرّحوا بهذا..! فالرضا يخلّص الإنسان من هذه المخاصمة..

٥- الرضا من العدل.. الرضا يُشْعِر العبد بعدل الرب.. ولذلك كان ﷺ يقول: **«عدلٌ فيَّ قضاؤك»**.. والذي لا يشعر بعدل الرب فهو جائرٌ ظالمٌ، فالله أعدل العادلين حتى في العقوبات..

فقطع يد السارق عقوبةٌ، فالله عدَل في قضائه وعقوباته فلا يُعْتَرض عليه لا في قضائه ولا في عقوباته..

٦- وعدم الرضا إما:

١- لفواتِ شيءٍ أخطأك وأنت تحبه وتريده..

٢- أو لشيءٍ أصابك وأنت تكرهه وتسخطه.. فيحصل للشخص الذي ليس عنده رضا قلقٌ واضطرابٌ إذا نزل به ما يكره وفاته ما يحب حصل لـه أنواع الشقاء النفسي، وإذا كـان راضياً لو نزل به ما يكره أو فاته ما يحب ما شقي ولا تألّم؛ لأن الرضـا يمنـع عنـه هـذا الألم، فلا هو يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أوتي..

{لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} (الحديد: ٢٣).

* الرضا مفيدٌ جداً أن المرء لا يأسف على ما فاته ولا يحزن ولا يتكدّر على ما أصـابه؛ لأنه مقدّرٌ مكتوبٌ..

٧- الرضا يفتح باب السلامة من الغشّ والحقد والحسد؛ لأن المرء إذا لم يـرضَ بقسـمة الله سيبقى ينظر إلى فلان وفلان.. فيبقى دائماً عينه ضيقةٌ وحاسدٌ ومـتمنٌّ زوال النعمـة عـن الآخرين.. والسخط يدخّل هذه الأشياء في قلب صاحبه.

٨- الرضا يجعلك لا تشكّ في قضـاء الله وقـدره وحكمتـه وعلمـه.. فتكـون مستسـلماً لأمره معتقداً أنه حكيمٌ مهما حصل.. لكن الإنسان الساخط يشكّ ويوسوس لـه الشيطان ما الحكمة هنا وهنا؟؟..!!

ولذلك (الرضا واليقين) أخوان مصطحبان..

و (السخط والشكّ) توأمان متلاصقان..!!

• إذا استطعتَ أن تعمل الرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر خيراً كثيراً..

٩- الرضا يريح القلب ويثمر الشكر!!!...

فصاحب السخط لا يشكر.. فهو يشعر أنه مغبونٌ وحقّه منقـوصٌ وحظّـه مبخـوسٌ..!! لأنه يرى أنه لا نعمة لـه أصلاً..!!

السخط نتيجة كفران المنعم والنعم..!!!

الرضا نتيجة شكران المنعم والنعم..!!!

١٠- الرضا يجعل الإنسان لا يقول إلا ما يرضي الرب..

السخط يجعل الإنسان يتكلّم بما فيه اعتراضٌ على الرب، وربما يكون فيه قدحٌ في الـرب عز وجل..

صاحب الرضا متجرّدٌ عن الهوى.. وصاحب السخط متّبعٌ للهوى..

و لا يجتمع الرضا واتباع الهوى، لذلك الرضا بالله وعن الله يطرد الهوى..

صاحب الرضا واقفٌ مع اختيار الله..

يحسّ أن عنده كنزٌ إذا رضي الله عنه أكبر من الجنة..

لأن الله عندما ذكر نعيم الجنة قال:**{وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}**..

رضا الله إذا حصل هو أكبر من الجنة وما فيها..

و الرضا صفة الله والجنة مخلوقةٌ.. وصفة الله أكبر من مخلوقاته كلها..

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ}..

رضا الله أكبر من الجنة..!!!

١١- الرضا يخلّص العبد من سخط الناس.. لأن الله إذا رضي عن العبد أرضى عنه الناس.. والعبد إذا سعى في مرضاة الله لا يبالي بكلام الناس..

أما المشكلة إذا سعى في مرضاة الناس فسيجد نفسه متعباً؛ لأنه لن يستطيع إرضاءهم فيعيش في شقاءٍ.. أما من يسعى لرضا الله فلا يحسب لكلام الناس أي حسابٍ ولن يتعبَ نفسياً.. ولو وصل إليه كلام الناس فلن يؤذيَه نفسياً ولن يبالي مادام الله راضياً عنه..

١٢- الله يعطي الراضي عنه أشياءَ لم يسألها، ولا تكون عطايا الله نتيجة الدعاء فقط مادام في مصلحته..

١٣- الرضا يفرّغ قلب العبد للعبادة.. فهو في صلاته خال قلبُه من الوساوس.. في الطاعة غير مشتّت الذهن.. فيستفيد من العبادة.. الرضا يركّز ويصفّي الذهن فينتفع صاحبه بالعبادة..

١٤- الرضا له شأنٌ عجيبٌ مع بقية أعمال القلوب الصالحة، فأجره لا ينقطع وليس له حدٌّ بخلاف أعمال الجوارح، فأجرها له حدٌّ تنتهي بمدّةٍ معينةٍ.. فعمل الجوارح محدودٌ.. لكن عمل القلب غير محدودٍ..

فأعمال الجوارح تتضاعف على حدٍّ معلومٍ محسوبٍ.. أما أعمال القلوب فلا ينتهي تضعيفها وإن غابت عن بال صاحبها.. كيف؟؟!!

إنسانٌ راضٍ يفكّر بذهنه وقلبه أنه راضٍ عن الله وعن قضائه، عرضت له مسألةٌ حسابيّةٌ فانشغل ذهنه بها.. العلماء يقولون: أجر الرضا لا ينقطع وإن شُغِل الذهن بشيءٍ

ثانٍ؛ لأن أصله موجودٌ ولو انشغل القلب بشيءٍ ثانٍ الآن..

إنسانٌ يخاف الله، أحياناً يحصل لـه بكاءٌ ووجلٌ نتيجة هذا الخوف، لـو انشـغل بالـه مـع ولده يضمّد جراح ولده ونسي موضوع التأمل في الخوف وما يوجب البكاء والخشية فـلازال أجره على الخوف مستمرّاً؛ لأنه عملٌ قلبيٌّ مركوزٌ في الداخل لم ينتهِ أجـره بـل هـو مسـتمرٌّ.. وهذا من عجائب أعمال القلوب...

و هذا يمكن أن يوضِّح لماذا أجر أعمال القلوب أكثر من أجر أعمال الجـوارح، مـع أنـه لابد من أعمال الجوارح طبعاً.. لأنه إذا لم يكن هناك أعمال جوارح فالقلب خرِبٌ..

- **هل الرضا يتنافى – يتعارض – مع الدعاء؟!!**

لا.. لسبب أن الدعاء يرضي الله وهو مما أمر الله به..

- هل الإنسان إذا دعا أن يزيل الله عنه مصيبةً لا يكون راضياً؟!!

الجواب: لا.. ليس هكذا.. لأن الله قال:**{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}**.

وقال:**{يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً}** يدعون ربهم يريدون نعماً ودفعَ نقمٍ.

الدعاء لجلبِ منفعةٍ أو دفعِ مضرّةٍ.. فلأن الله قـال: ادعـوني ولأن الـدعاء يرضـي الله، فإن الدعاء لا يتعارض مع الرضا..

فالمرء لو كان راضياً بالمعصـية وسـأل الله أن يزيـل أثرهـا أو يعوّضـه خـيراً، لم يعـارضِ الدعاءُ الرضا.. لأن الله أمرنا أن نسأله الرزق فقال:**{فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ}**..

- هل الرضا يتنافى مع البكاء على الميّت؟!!

قال شيخ الإسلام: (البكاء على الميت على وجه الرحمة حسنٌ مستحبٌّ وذلـك لا ينـافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه).. وبهذا يُعْرَف قولـه ﷺ لمـا بكـى علـى الميـت: **«إن هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء..»**.

و ينبغي أن نفرّق؛ لأن النبي ﷺ لما رأى ولده إبراهيم يموت بكى لماذا بكـى؟.. رحمـةً أو تأسّفاً على فقد الولد!!..

و إن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظّه إلا لرحمة الميت، فإن الفضيل بن عيـاض لمـا مـات ابنه علي ضحك وقال: (رأيت أن الله قد قضى، فأحببتُ أن أرضى بما قضى الله به).. فحاله حالٌ حسنٌ بالنسبة لأهل الجزع، وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله على كل حـالٍ كما قال ﷺ فهذا أكمل..

فإذا قيل: أيهما أكمل: النبي ﷺ بكى رحمةً بالميت أو الذي من السلف ضحك؟؟!!

بكاء رحمة الميت مع حمد الله والرضا بالقضاء أكمل، كما قال تعالى:**{ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}**[1] فذكر الله التواصي بالصبر.

والتواصي بالمرحمة بين الناس أربعة أقسام:

١- منهم من يكون فيه صبرٌ بقوةٍ (ما فيه رحمة).

٢- ومنهم من يكون فيه رحمةٌ بقوةٍ (ينهار).

٣- ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع (جمع الشر من الطرفين).

٤- المؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس.

ومما يجب أن يعلم أنه لا يسوغ في العقل ولا في الدين طلب رضا المخلوقين بإطلاقٍ؛ لوجهين:

١- أحدهما أن هذا غير ممكن، كما قال الشافعي: (رضا الناس غايةٌ لا تُدْرَك)، فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه ودع ما سواه ولا تعانِه...

٢- أننا مأمورون أن نتحرّى رضا الله ورسوله**{وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ}**..

• هل نحن مكلّفون أن نرضي الناس كلهم؟!!

لا، لسنا مكلّفين؛ لسببين:

١- لأنه غير ممكنٍ.

٢- لأننا مكلّفون بإرضاء الله وليس بإرضاء الناس..

ذكر السلف رحمهم الله أقوالاً في الرضا:

١- قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إن الله إذا قضى قضاءً أحبَّ أن يُرضى به من قِبَل العباد)..

٢- قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن الله بقسطه وعدله جعل الرَّوح والفرح في اليقين والرضا وجعل الهمّ والحزن في الشكّ)..

٣- قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (أصبحتُ وما لي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر).

فينعكس هذا على نفسه انشراحاً وطمأنينةً، ومن وصل إلى هذه الدرجة كان عيشه كله

---

(١) البلد: ١٧.

في نعيمٍ وسرور**{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}**..

٤- قال بعض السلف: (الحياة الطيبة هي الرضا والقناعة)..

٥- قال عبد الواحد بن زيدٍ رحمه الله: (الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومُستراح العابدين).. وربما رضي المبتلى حتى لم يَعُدْ يشعر بالألم..

عذابــــه فيــــك عــــذبُ ::: وبُعْــــدُه فيــــك قُــــرْبِ

٦- وكذلك قال عمر بن الخطاب لأبي موسى رضي الله عنهما: (أما بعد: فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعتَ أن ترضى وإلا فاصبر).. هذا مما تقدّم أن الرضا منزلةٌ أعلى من الصبر..

٧- وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (إذا تُوُفِّي العبد المؤمن أرسل الله إليه مَلَكين وتحفةً من الجنة، فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رَوْحٍ وريحانٍ وربٌّ عنكِ راضٍ)..

٨- وقال ميمون بن مهران رحمه الله: (من لم يرضَ بالقضاء فليس لحمقه دواءٌ)..

٩- ونقل عبد الله بن المبارك رحمه الله عبارة: (يا بنيّ إنما تستدلّ على تقوى الرجل بثلاثة أشياءٍ: لحُسْن توكله على الله فيما نابَه، ولحُسْن رضاه فيما آتاه، ولحُسْن زهده فيما فاته)..

منزلة الرضا هي التي تثمر محبة الله والنجاة من النار والفوز بالجنة ورضوان الله وحُسْن ظنّ العبد بربه والنفس المطمئنّة والحياة الطيبة..

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الفصل الثالث:

المسلـــم السعيــد

المبحث الأول

أسرار الجاذبية الشخصية...

١- كن خلوقاً تنل ذكراً جميلاً:

تعتبر الأخلاق من أهم القيم المعنوية في الحياة، ومن أهم المقومات الحضارية، ومن أهم الأسس الإنسانية، وقد أكد الإسلام على أهمية الأخلاق كما جاء فالحديث: إن النبي ﷺ قال: **«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وأن الله ليبغض الفاحش البذيء»**.

ولكي تكون شخصية مغناطيسية مع الآخرين لابد لك في البداية أن تكون شخصية مغناطيسية مع نفسك ولا يأتي ذلك إلا من خلال ما يسميه العلماء بالمروءات.

أولاً: الإصغاء إلى من يحدثك ومحاولاً أن لا تسأله الإعادة.

وأن تلقى العدو والصديق بوجه الرضا، من غير ذل لهم ولا خوف منهم.

ثانياً- أظهر اهتمامك بالآخرين. الوصفة السحرية لكسب اهتمام الآخرين:

1 - سلم على من تلقاه بحرارة.

2 - ابتسم ابتسامة صادقة.

3 - أخبره بشوقك إليه.

4 - عدد الصفات الخيرة التي فيه.

5 - امنحه الثقة بنفسه.

6 - لا تقاطعه وهو يتكلم.

٧- التفاؤل والحماس.

التفاؤل من الصفات الرئيسية لأي شخصية ناجحة، فالتفاؤل يزرع الأمل، ويعمق الثقة بالنفس، ويحفز على النشاط والعمل، وهذه كلها عناصر لا غنى عنها لتحقيق النجاح. ويعتبر التفاؤل تعبيراً صادقاً عن الرؤية الإيجابية للحياة، فالمتفائل ينظر للحياة بأمل، وإيجابية، للحاضر والمستقبل، وأيضاً للماضي حيث الدروس والعبر.

إن التفاؤل يعني الأمل، يعني الإيجابية، يعني الاتزان، يعني التعقل. يعني كل مافي قائمة الخير من ألفاظ تنطق بمفهوم التفاؤل.

٢- تواضع لكل الناس:

من أهم العوامل للنجاح الاجتماعي هو التواضع للناس، فالمتواضع يحوز على حب الآخرين له، وعلى تقدير واحترام الجميع، لأن من يحترم الآخرين يحترمونه، ومن يقدرهم يقدرونه، والعكس صحيح تماماً.

والتواضع صفة حميدة يجب أن يتحلى بها المسلم، لأنها تعبر عن كبر النفس وسموها ورفعتها، ولذا على المسلم أن يجتهد كي يتحول التواضع إلى ملكة لديه.

٣- لا تغضب أبداً:

يعتبر الغضب من أسوأ الأمراض النفسية التي تؤثر على سلوك الإنسان حيث يفقد الإنسان توازنه العقلي والنفسي. وقد عرف علماء الأخلاق الغضب بأنه حركة نفسية يهتاج لها الدم في القلب، فيثور وينتشر في العروق، ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار إذا شبت.

٤ - كن هادئا تصنع المعجزات:

الهدوء سمة من سمات النجاح، والهدوء تعبير عن شخصية قوية متماسكة، والهدوء عنوان لإنسان واع ومتحضر!

وبالعكس تماما ذلك الإنسان الذي يثور لأتفه الأسباب، ويهيج لأسخف الأمور، إنه يعبر عن إنسان ضعيف الشخصية، ضعيف العقل وضعيف الإرادة.

٥ - تعلم السحر الحلال:

الابتسامة: تعتبر الابتسامة الصادقة من الضروريات في العلاقات الإنسانية، وفي تكوين الصداقات الناجحة، وفي بناء الصرح العائلي، وفي كل علاقة إنسانية.. بين الأخ وأخيه، وبين الرئيس ومرؤوسه وذلك لما ترمز إليه الابتسامة من حب ومودة تجاه الشخص المرسلة إليه، إنها أشبه ما تكون برسالة حب صادقة إلى المرسل إليه.

٦ - لا تنسى تقديم الهدايا:

إن الهدايا التي تبدو وكأنها موضة العصر ماهي بالحقيقة إلا عميقة الجذور وذات أسس وأصول أخلاقية ونفسية ودينية واقتصادية منذ آلاف السنين.

٧- اهتم بشكلك ومظهرك:

يكون المظهر الحسن في نظافة البدن، وحسن الهندام، وطيب الرائحة.

٨- أتقن فن الكلام:

إن للكلمة الطيبة الصادقة المعبرة فعل السحر، حيث تفتح القلوب المغلقة، وتؤثر في النفوس المرهفة.

وفي الحديث المتفق: أن النبي ﷺ كان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه.

* * * * *

المبحث الثاني
المسلم يمزح لكن بضوابط منها

١- لا يكون فيه شيء من الاستهزاء بالدين:

فإن ذلك من نواقض الإسلام، قال تعالى:**{وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}**(١)، قال ابن تيمية رحمه الله: (الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه).

وكذلك الاستهزاء ببعض السنن، ومما انتشر كالاستهزاء باللحية أو الحجاب، أو بتقصير الثوب أو غيرها.

قال فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين: (فجانب الربوبية والرسالة والوحي والدين جانب محترم لا يجوز لأحد أن يعبث فيه لا باستهزاء بإضحاك، ولا بسخرية، فإن فعل فإنه كافر، لأنه يدل على استهانته بالله عز وجل ورسله وكتبه وشرعه، وعلى من فعل هذا أن يتوب إلى الله عز وجل مما صنع؛ لأن هذا من النفاق، فعليه أن يتوب إلى الله ويستغفر ويصلح عمله ويجعل في قلبه خشية من الله عز وجل وتعظيمه وخوفه ومحبته)(٢).

٢ – ألا يكون المزاح إلا صدقاً:

قال ﷺ : **«ويل للذي يُحدث فيكذب ليُضحك به القوم ويل لــه»** (٣).

وقال ﷺ محذراً من هذا المسلك الخطير الذي اعتاده بعض المهرجين: **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليُضحك بها جلساءه يهوي بها في النار أبعد من الثريا»** (٤).

3 – عدم الترويع:

خاصة ممن لديهم نشاط وقوة أو بأيديهم سلاح أو قطعة حديد أو يستغلون الظلام وضعف الناس ليكون ذلك مدعاة إلى الترويع والتخويف.

عن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ، فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى حبل فأخذه ففزع، فقال رسول الله ﷺ : **«لا يحل لمسلم أن**

---

(١) التوبة: ٦٥، ٦٦.
(٢) المجموع الثمين ١/ ٦٣.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) رواه أحمد.

يروع مسلماً» [١].

4 – الاستهزاء والغمز واللمز:

النـاس مراتـب في مـداركهم وعقـولهم وتتفـاوت شخصـياتهم وبعـض ضـعاف النفـوس – أهـل الاسـتهزاء والغمـز واللمـز – قـد يجـدون شخصـاً يكـون لهـم سُـلماً للإضـحاك والتنـدر – والعيـاذ بـالله – وقـد نهـى الله عـز وجـل عـن ذلـك فقـال تعـالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَـى أَن يَكُونُـوا خَيْـراً مِّـنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِـزُوا أَنْفُسَـكُمْ وَلاَ تَنَـابَزُوا بِالأَلْقَـابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُـوقُ بَعْـدَ الإِيمَـانِ}**[٢]، قـال ابـن كـثير في تفسـيره: المـراد مـن ذلـك احتقارهم واستصغارهم والاستهزاء بهم، وهذا حرام، ويعد من صفات المنافقين.

والبعض يستهزأ بالخلقة أو بالمشية أو المركب ويُخشى على المستهزئ أن يجازيـه الله عـز وجل بسبب استهزائه قال ﷺ : **«لا تُظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك»** [٣].

وحـذر ﷺ مـن السـخرية والإيـذاء، لأن ذلـك طريـق العـداوة والبغضـاء قـال ﷺ : **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذلـه ولا يحقـره، التقـوى هـا هنـا** – ويشـير إلى صدره ثـلاث مـرات – **بحسب امرئ من الشر أن يحقـر أخـاه المسـلم، كـل المسـلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»** [٤].

5 – أن لا يكون المزاح كثيراً:

فإن البعض يغلب عليهم هذا الأمر ويصبح ديدناً لهم، وهذا عكس الجد الذي هـو مـن سمات المؤمنين، والمزاح فسحة ورخصة لاستمرار الجد والنشاط والترويح عن النفس.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: "اتقوا المزاح، فإنه حمقة تورث الضغينة".

قال الإمام النووي رحمه الله: المزاح المنهي عنه هو الذي فيه إفـراط ويـداوم عليـه، فإنـه يورث الضحك وقسوة القلب، ويشغل عن ذكر الله تعالى، ويؤول في كثير مـن الأوقـات إلى الإيذاء، ويورث الأحقاد، ويسقط المهابة والوقار، فأما من سلم من هذه الأمـور فهـو المبـاح الذي كان رسول الله ﷺ يفعله.

---

(١) رواه أبو داود.
(٢) الحجرات: ١١.
(٣) رواه الترمذي.
(٤) رواه مسلم.

٦ – معرفة مقدار الناس:

فإن البعض يمزح مع الكل بدون اعتبار، فللعالم حق، وللكبير تقديره، وللشيخ توقيره، ولهذا يجب معرفة شخصية المقابل فلا يمازح السفيه ولا الأحمق ولا من لا يُعرف.

وفي هذا الموضوع قال عمر بن عبد العزيز: (اتقوا المزاح، فإنه يذهب المروءة).

وقال سعد بن أبي وقاص: " اقتصر في مزاحك، فإن الإفراط فيه يُذهب البهاء، ويجرّئ عليك السفهاء ".

7 – أن يكون المزاح بمقدار الملح للطعام:

قال ﷺ : **«لا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»** (١).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استُخف به، ومن أكثر من شيء عُرف به).

فإيــاك إيـــاك المـــزاح فإنـــه ::: يجرئ عليك الطفل والدنس النـــذلا
ويُذهب مـاء الوجـه بعـد بهائـه ::: ويورثـــه مـــن بعـــد عزتـــه ذلاً

8 – ألا يكون فيه غيبة:

وهذا مرض خبيث، ويزين لدى البعض أنه يحكي ويقال بطريقة المزاح، وإلا فإنه داخل في حديث النبي ﷺ : **«ذكرك أخاك بما يكره»** (٢).

9 – اختيار الأوقات المناسبة للمزاح:

كأن تكون في رحلة برية، أو في حفل سمر، أو عند ملاقاة صديق، تتبسط معه بنكتة لطيفة، أو طرفة عجيبة، أو مزحة خفيفة، لتدخل المودة على قلبه والسرور على نفسه، أو عندما تتأزم المشاكل الأسرية ويغضب أحد الزوجين، فإن الممازحة الخفيفة تزيل الوحشة وتعيد المياه إلى مجاريها.

أخي الحبيب:

قال رجل لسفيان بن عيينة رحمه الله: المزاح هجنة أي مستنكر! فأجابه قائلاً: " بل هو سنة، ولكن لمن يُحسنه ويضعه في موضعه ".

والأمة اليوم وإن كانت بحاجة إلى زيادة المحبة بين أفرادها وطرد السأم من حياتها، إلا

---

(١) صحيح الجامع (٧٣١٢).
(٢) رواه مسلم.

أنها أغرقت في جانب الترويح والضحك والمزاح فأصبح ديدنها وشغل مجالسها وسمرها، فتضيع الأوقات، وتفنى الأعمار، وتمتلئ الصحف بالهزل واللعب.

قال ﷺ : **«لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»** قال في فتح الباري: (المراد بالعلم هنا ما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه، والأهوال التي تقع عند النزع والموت وفي القبر ويوم القيامة).

وعلى المسلم والمسلمة أن ينزع إلى اختيار الرفقة الصالحة الجادة في حياتها ممن يعينون على قطع ساعات الدنيا والسير فيها إلى الله عز وجل بجد وثبات، ممن يتأسون بالأخيار والصالحين، قال بلال بن سعد: (أدركتهم يشتدون بين الأغراض، ويضحك بعضهم إلى بعض، فإذا كان الليل كانوا رهباناً).

وسُئل ابن عمر رضي الله عنهما: " هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون ".

قال: نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال.

فعليك بأمثال هؤلاء فرسان النهار، رهبان الليل.

جعلنا الله وإياكم ووالدينا من الآمنين يوم الفزع الأكبر، ممن ينادون في ذلك اليوم العظيم:**{ادْخُلُوا الجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ}**.

* * * * *

المبحث الثالث
من أهم صفات المسلم السعيد أنه

١ – سليم العقيدة:

أن يديم مراقبة الله ويخلص النية لـه في كل عمل ويتذكر الآخرة ويسعى لها ويتقرب إلى الله بنوافل العبادة ويكثر من الذكر في كل حال ويتحرى الدعاء المأثور عن النبي ﷺ ويحافظ على الطهارة الحسية والمعنوية، ويظل على وضوء غالب الأحيان ويحسن الصلاة ويواظب على أدائها في أوقاتها ويحرص على المسجد والجمعة ما استطاع، وأن يصوم رمضان صياماً صحيحاً، ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً ويجدد التوبة والاستغفار دائماً، ويحرص على الوقت فهو الحياة ويستصحب دائماً نية الجهاد ويستعد لذلك ما وسعه الاستعداد.

٢ – صحيح العبادة:

أن يقوم بما أمره الله جل وعلا ليرقى وجدانه وأن يتعلم ما وسعه من العلم وأن يتخلق بأخلاق الإسلام لتقوى إرادته ويلتزم نظام الإسلام في الطعام والشراب والنوم ليحفظ عليه بدنه ونفسه من الأمراض والأسقام ويطالبها بالاعتدال في أمور العبادات.

٣ – مجاهداً لنفسه:

جاهد نفسك جهاداً عنيفاً حتى يسلس لك قيادها وتغض طرفك وتضبط عاطفتك وتقاوم نوازع الغريزة في نفسك وتسمو بها دائماً إلى الحلال الطيب وتحول بينها وبين الحرام.

٤ – حريصاً على وقته ومنظماً في شؤونه:

وفي ذلك يقول: " حياة الإنسان من ميلاده إلى وفاته ما هي إلا الوقت الذي يمضي والذي لا يستطيع الإنسان إعادته وإرجاعه لذلك فالوقت أغلى من الذهب لأنه يعني الحياة بالنسبة للإنسان، فعلى المسلم أن يعلم أن أمامه لحظات وأوقاتاً كثيرة يستطيع فيها أن يظفر بخيري الدنيا والآخرة، وتلك الأوقات تتفاوت في بركتها وحسن حظها، وبالطبع بركة الوقت وقيمته تتوقف على التنظيم فكلما كان المسلم منظماً في شؤونه بارك الله لـه في أوقاته واستفاد منها بأكبر قدر ممكن لخدمة دينه ولخدمة أمته الإسلامية ".

٥ – نافعاً لغيره:

يجب أن يكون المسلم صحيح الحكم في جميع الأحوال.. لا ينسيه الحسناتِ الغضبُ ولا يغضي عن السيئات للرضا ولا تحمله الخصومة على نسيان الجميل ويقول الحق ولو على

نفسه وأن يكون عظيم النشاط مدرباً على الخدمات العامة ويسعى بسرور إذا استطاع أن يخدم الغير، رحيم القلب سمحاً يعفو ويصفح محافظاً على آداب الإسلام الاجتماعية.

٦ – قوي الجسم:

أن يبادر المسلم بالكشف الطبي العام ويأخذ في علاج ما قد يظهر من أمراض ويهتم بأسباب القوة البدنية والوقاية الصحية، وأن يزاول نوعاً من أنواع الرياضة البدنية ولو حتى المشي والامتناع عن الأشياء الضارة بالجسم من مكيفات ومسكرات وغيرها.

٧ – متين الخلق:

أن يكون المسلم دقيق الشعور سريع التأثر بالحسن صادق الأقوال والأفعال ومتواضعاً في غير ذلة ولا خضوع، ويطلب أقل من مرتبته ليصل إليها بحق، قوي الإرادة غير متردد شجاعاً عظيم الاحتمال وقوراً يؤثر الجد والرزانة وألا يمنعه الوقار من المزاح الصادق والضحك في تبسم، والابتعاد عن قرناء السوء وأصدقاء الفساد.

٨ – مثقف الفكر:

أن يجيد القراءة والكتابة ويتعلمها وأن يُكوّن لنفسه مكتبة خاصة مهما كانت صغيرة، وأن يتبحر في علمه، إن كان مختصاً وأن يلم بالشؤون الإصلاحية العامة إلماماً يمكنه من تصورها والحكم عليها حكماً يتفق مع متطلبات العصر وأن يحسن تلاوة القرآن الكريم وتدبر معانيه، وأن يدرس السيرة النبوية المطهرة وتاريخ السلف بقدر الإمكان، وأن يلم بالضروري من قواعد الأحكام وأسرار التشريع.

٩ – قادراً على الكسب:

أن يزاول عملاً يكتسب منه مهما كان غنياً وأن يزج بنفسه في ميدان العمل مهما توافر له من مال وألا يجعل كل همه منصباً في الجري وراء الوظيفة وإضاعة الوقت وأن يحرص على أداء حق عمله كاملاً من حيث الإجادة والإتقان وضبط الموعد والابتعاد عن الربا في كل معاملاته والميسر بكل أنواعه، وأن يدخر جزءاً من دخله مهما قل وألا يسعى للكماليات وأن يبتعد عن مظاهر الترف والتبذير وأن يحرص على ماله فلا يقع إلا بيد مسلمة.

١٠ – من أهم صفات المسلم السعيد أنه من الصابرين:

إن الله جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجنداً لا يُهزم، وحصناً حصيناً لا يُهدم، وهو مطيّة لا يضل راكبها فهو والنصر أخوان شقيقان، فالنصر مع الصبر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدّة ولا عدد، ومحله من الظفر محل الرأس من الجسد، وهو سبيل النجاح والفلاح، وهو فضيلة يحتاج إليه الإنسان في دينه ودنياه، فحال الإنسان إما بين صبر

على أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدر يجري عليه اتفاقاً، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم إلى الممات، فالحياة لا تستقيم إلا بالصبر، فهو دواء المشكلات لدار الابتلاء، والصبر زاد المجاهد إذا أبطأ عنه الصبر، وزاد الداعية إذا أبطأ عنه الناس بالإجابة، وزاد العالم في زمن غربة العلم، بل هو زاد الكبير والصغير، والرجل والمرأة، فبالصبر يعتصمون وإليه يلجئون وبه ينطلقون.

قال الإمام أحمد – رحمه الله – في كتاب الزهد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (وجدنا خير عيشنا بالصبر)، إن الله وصف الصابرين بأوصاف وخصّهم بخصائص لم تكن لغيرهم، وذكر الصبر في نحو تسعين موضعاً من الكتاب الكريم، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له.

إن للصابرين معيّة مع الله، ظفروا بها بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمة الله الظاهرة والباطنة، وجعل الله سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين فقال تعالى:**{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}**(١)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (بالصبر واليقين؛ تُنال الإمامة في الدين).

تعريف الصبر:

الصبر لغة: الحبس والكف، قال تعالى:**{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}**(٢)، يعني احبس نفسك معهم، والصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما، ويقال: صبر يصبر صبراً، وصبَر نفسه.

والصبر في الاصطلاح الشرعي: حبس النفس على فعل شيء أراده الله أو عن فعل شيء نهى الله عنه فهو صبر على شيء أمر به الله وصبر عن شيء نهى الله عنه، جعل الله فيه الأجر العظيم لمن أراد به وجهه، وكافأ أهل الجنة لأنهم صبروا ابتغاء وجه ربهم، والصبر فيه معنى المنع والشدة والضنّ، وتصبّر رجل يعني تكلّف الصبر وجاهد نفسه عليه وحمل نفسه على هذا الخلق، وصبّرها إذا حملها على الصبر وهو ثبات على الدين إذا جاء باعث

(١) السجدة: ٢٤.
(٢) الكهف: ٢٨.

الشهوات، وهو ثبات على الكتاب والسنة، لأن من أخذ بهما فقد صبر على المصائب وصبر على العبادات وصبر على اجتناب المحرمات، فهذه أنواع الصبر الثلاثة إذاً:

١ – صبر على طاعة الله.   ٢ – صبر عن معصية الله.

٣ – صبر على أقدار الله المؤلمة.

هذا الصبر علّق القرآن الفلاح عليه فقال الله سبحانه وتعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**[١]، فعلّق الفلاح بمجموع هذه الأمور، ونهى عن ما يضاد الصبر فقال:**{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}**[٢]، كما قال:**{وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا}** (آل عمران: ١٣٩)، وكذلك فإنه سبحانه وتعالى أخبر عن مضاعفة الأجر للصابرين:**{أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا}**[٣]، وإذا كانت الأعمال لها أجر معلوم محدود فإن الصبر أجره لا حد له، قال تعالى:**{إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}**[٤]، قال سليمان بن القاسم: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر لأجل هذه الآية**{إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}**، قال: كالماء المنهمر، وعلق الله الإمامة في الدين على الصبر وعلى اليقين كما مرّ في الآية، وجعل الله الظفر بمعية الصبر فقال:**{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}** (البقرة: ١٥٣)، وجعل للصابرين أموراً ثلاثة لم يجعلها لغيرهم، وهي الصلاة منه والرحمة والهداية**{وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}**[٥].

وجعل الصبر سبحانه وتعالى عوناً وعدة وأمر بالاستعانة به، فقال:**{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}** (البقرة: ٤٥)، فمن لا صبر له؛ لا عون له، وعلّق النصر على الصبر والتقوى فقال تعالى:**{بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}** (آل عمران: ١٢٥)، وقال ﷺ: **«واعلم أن النصر مع الصبر»**، وجعل سبحانه الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد العدو ومكره فقال:**{وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً}**[٦]، وأخبر أن ملائكته تسلّم في الجنة على الصابرين فقال:**{سَلامٌ**

---

(١) آل عمران: ٢٠٠.
(٢) الأحقاف: ٣٥.
(٣) القصص: ٥٤.
(٤) الزمر: ١٠.
(٥) البقرة: ١٥٥.
(٦) آل عمران: ١٢٠.

عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}(١)، وجعل الله الصبر منزلة فوق منزلة المعاقِب لمن عاقبه بمثل العقوبة فهو أفضل وأكثر أجراً فقال:**{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ}**(٢)، فتأمل هذا التأكيد (لئن) اللام ولامٌ أخرى للتأكيد(لهو).

ورتب المغفرة والأجر الكبير علي الصبر مع العمل الصالح فقال:**{إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}**(٣)، وجعل الصبر على المصائب من عزم الأمور وهذه مرتبة لا ينالها أي أحد فقال عز وجل:**{وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}**(٤)، وأوصى لقمان الرجل الصالح الحكيم ولده بأن يصبر على ما أصابه في سبيل الله:**{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}**(٥).

ووعد الله المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمته التي سبقت لهم نالوها بالصبر فقال تعالى:**{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}**(٦).

وعلّق تعالى محبته بالصبر، وجعلها لأهل الصبر فقال:**{وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}**(٧)، وأخبر عن خصال من الخير لا يلقاها إلا الصابرون فقال تعالى في أهل العلم الذين علموا قومهم المفتونين بقارون:**{وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ}**(٨)، وعند الدفع بالتي هي أحسن**{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}**(٩)، وأخبر أنه لا ينتفع بآياته ولا يستفيد منها إلا صاحب الصبر المكثر منه فأتى به بصيغة المبالغة في قوله تعالى:**{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}**(١٠)، وفي

(١) الرعد: ٢٤.
(٢) النحل: ١٢٦.
(٣) هود: ١١.
(٤) الشورى: ٤٣.
(٥) لقمان: ١٧.
(٦) الأعراف: ١٣٧.
(٧) آل عمران: ١٤٦.
(٨) القصص: ٨٠.
(٩) فصلت: ٣٥.
(١٠) إبراهيم: ٥.

سورة لقمان قال:{أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بنعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[١]، وبعد قصة سبأ قال:{فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} (سبأ: ١٩)، وفي ذكر النعمة بالسفن على العباد تنقل أنفسهم وبضائعهم قال:{وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ * إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[٢]، فهذه أربع مواضع في القرآن الكريم تدل على أنه لا ينتفع بالآيات إلا أهل الصبر والشكر، الدين كله صبر وشكر، الإيمان نصفان صبر وشكر، حياة المسلم كلها صبر وشكر، ماذا يوجد في الطاعات والعبادات والتقرب إلى الله غير الصبر والشكر..؟!

وأثنى الله على عبده أيوب بأحسن الثناء؛ لأنه صبر فقال:{إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أَوَّابٌ}[٣]، فمدحه بقوله:{ نِّعْمَ العَبْدُ} لأنه صبر، وحكم الله بالخسران حكماً عاماً على من لم يكن من أهل الصبر فقال:{وَالْعَصْرِ * إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} (سورة العصر) وخص الله أهل الميمنة – أصحاب اليمين – بأنهم أهل الصبر والمرحمة فقال تعالى:{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}[٤].

وقرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان فقرنه بالصلاة فقال:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}[٥]، وقرنه بالأعمال الصالحة فقال:{إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}[٦]، وقرنه بالتقوى فقال:{إنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ}، وقرنه بالتواصي بالحق فقال:{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} (العصر: ٣)، وقرنه بالرحمة فقال:{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}[٧]، وقرنه باليقين فقال:{لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}[٨]، وقرنه بالصدق

(١) لقمان: ٣١.
(٢) الشورى: ٣٢، ٣٣.
(٣) ص: ٤٤.
(٤) البلد: ١٧.
(٥) البقرة: ٤٥.
(٦) هود: ١١.
(٧) البلد: ١٧.
(٨) السجدة: ٢٤.

فقال:**{وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ}**[1]، فنعم المنزلة منزلة الصبر ونعم الخلق خلق الصبر ونعم أهله أهل الصبر، فالصبر طريق الجنة:**{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}**[2].

هذا الصبر العناية به في القرآن الكريم كبيرة جداً دليلاً على أهميته، دليلاً على أنه خلق عظيم:

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبة ::: إذا استعنت بصبر أن ترى الفرج
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ::: ومدمن القرع للأبواب أن يلج
وقل من جد في أمر يحاوله ::: واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

والصبر لدخول الجنة وسبب النجاة من النار، فالجنة حفت بالمكاره، والنار حفت بالشهوات، فكيف تدخل الجنة بدون صبر على المكاره؟ وكيف تقي نفسك النار بدون صبر عن الشهوات؟ وقد نبّه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على المعنى اللطيف في هذا الحديث: **«حفت الجنة بالمكاره»**؛ علمنا أنه لا طريق للجنة إلا عبر المكاره، لأنه قال: حُفّت، من جميع الجهات، فإذا ما ركبت المكاره تدخل الجنة، والمكاره هي ما تكرهه النفس من المجاهدة اللازمة لأداء العبادات(صلاة الفجر - الوضوء في البرد - الصبر على المصائب - الجهاد....)، فلا يمكن دخول الجنة إلا باختراق المكاره، ولا يمكن اختراقها إلا بالصبر، وأما النار فإنها حفت بالشهوات، ولا يمكن منع النفس من الدخول في النار إلا إذا صبر عن المعاصي وامتنع عن المعصية وحبس نفسه عن ذلك فهذه إذاً فضائل هذا الخلق الكريم.

وأصل الصبر واجب، الصبر من حيث الجملة واجب، والله أمر به**{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}{اصْبِرُوا وَصَابِرُوا}**، ونهى عن ضده**{وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}** ورتب عليه خيري الدنيا والآخرة، لكن عندما نأتي إلى التفصيل فالصبر منه ما هو صبر واجب، يأثم الإنسان إذا لم يصبر ومنه ما هو صبر مستحب فهو واجب في الواجبات وواجب عن المحرمات ومستحب عن المكروهات وإذا صبر عن المستحب ولم يفعله فصبره مكروه، ومما يدل على أن الصبر قد يكون لازماً قول الله تعالى:**{وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ}**، فهذا يدل على أن الصبر قد لا يكون لازماً كقوله:**{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ}**، فما حكم الصبر هنا؟ أنت مخيّر بين أن تعاقب من عاقبك؟ ما الحكم الشرعي؟

(١) الأحزاب: ٣٥.
(٢) البقرة: ٢١٤.

يجوز لك القصاص فتنتقم منه بمثل ما ظلمك، ما حكم الصبر وعدم الانتقام؟ مستحب، فإذا لو قلت: ما حكم الصبر على صلاة الفجر؟ واجب، ما حكم الصبر عند المصيبة بمنع النفس عن النياحة؟ واجب، ما حكم الصبر عن الانتقام ممن أساء إليك بمثل ما أساء؟ مستحب..

فالصبر إذاً منه ما يكون واجباً ومنه ما يكون مستحباً، والصبر جاء في صيغة المفاعلة في القرآن فقال:**{وَصَابِرُوا}**، وهذه عادة ما تكون إلا بين طرفين**{وَصَابِرُوا}**، فمعنى ذلك أن هناك مغالبات بين المسلم والعدو، وأننا لابد أن نصابر أنفسنا على باطلهم وعلى جهادهم وعلى مقاتلتهم ومرابطتنا في الثغور وثباتنا عليها حتى لا ينفذوا إلينا من هذه الجهات فهذا صبر مهم جداً..

الصبر نوعان:

١ - بدني. ٢ - نفسي.

وكل منهما قسمان: اختياري واضطراري، فصارت القسمة أربعة..

١ - بدني اختياري: تعاطي الأعمال الشاقة.

٢ - بدني اضطراري: الصبر على ألم الضرب؛ لأنه يضرب وما له حيلة إلا الصبر.

٣ - نفسي اختياري: صبر النفس عن فعل ما لا يحسن شرعاً، مكروه مثلاً.

٤ - نفسي اضطراري: صبر النفس عن فقد المحبوب الذي حيل بينها وبينه بحيث

لو لم تصبر هذا الصبر لوقعت في الجزع المحرم أو النياحة أو لطم الخدود أو شق الجيوب أو قص وحلق الشعور ونحو ذلك.

والبهائم تشارك الإنسان في النوعين الاضطراريين، ولكن الصبر الاختياري هو الذي يميز الإنسان عن البهيمة، فقال رجل من أهل الحكمة: (ما غلبني رجل كما غلبني شاب من مرو، قال لي مرة: ما الصبر؟ قلت: إن وجدنا أكلنا وإن فقدنا صبرنا، قال: هذا ما تفعله كلاب مرو عندنا! قلت: فما الصبر عندكم؟ قال: إن فقدنا صبرنا وإن وجدنا آثرنا وأعطينا لغيرنا)، فإذاً هناك صبر تشارك فيه البهائم الإنسان ولكن هناك صبر يتفوق به المسلم الإنسان على البهيمة والدابة، وقد تجد من الكفار من يصبر على المصائب ويتجلد ولا ينهار ولكن لا يرجو من وراء ذلك جزاء من عند ربه ولا أجراً يوم القيامة..

وكذلك فإن الصبر متعلق بالتكليف؛ لأن الله ابتلى العباد بواجبات لابد أن يفعلوها ومحرمات لابد أن يتركوها، وأقدار لابد أن يصبروا عليها، فلا يقعوا في الجزع والتسخط وشكوى الخالق إلى المخلوقين.

وقد ورد الصبر في السنة أيضاً في مواضع متعددة:

١ – بشر النبي ﷺ الذي يصبر على فقد عينيه بالجنة: **«إن الله تعالى قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة»** [1].

٢ – **«وما لعبد مؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»**.

٣ – لما مرضت الأمة السوداء بالصرع جاءت تشتكي للنبي ﷺ فقالت: إني أُصرع وإني أتكشف فادعُ الله لي، قال: **«إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيكِ»** فقالت: أصبر ولكن ادع الله لي ألا أتكشف. فدعا لها فكانت تصرع ولا تتكشف[2].

٤ – ورد في السنة ما يفيد أن الصبر خلق يمكن تحصيله، فهناك أناس جبلهم الله على الصبر وبعضهم جبله على قليل منه، فلو كان عند المرء نقص في هذا العمل من أعمال القلوب فيمكن تحصيله بالمران والرياضة النفسية والتدريب عليه والمجاهدة، فهو شيء ممكن اكتسابه وليس خلقاً فطرياً فقط لا يمكن الزيادة عليه، والدليل على أن الصبر خلق مكتسب وليس خلق فطري فقط أن النبي ﷺ قال: **«ومن يتصبّر يصبّره الله»**، فقد يكون إنسان جزع بأصل طبعه لكن لما علم فضل الصبر وأجره وأهميته ومكانته في الدين قرر ألا يمر بحادث وموقف في حياته إلا ويستعمل الصبر ويجاهد نفسه عليه ويجبرها عليه حتى تصبح صبّارة.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

٥ – بينت السنة أن الصبر للمؤمن خير عظيم، إذا أصابته ضراء يكون الخير لـه.

٦ – بين الرسول ﷺ أن الصبر ضياء، كما جاء في حديث مسلم فقال: **«الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك»** (١).

٧ – لما مر النبي ﷺ عند امرأة تبكي عند قبر فأراد أن يعظها فقال لها: **«اتقي الله واصبري»** قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه. فلما مضى ﷺ لم يشأ أن يجادل المرأة في هذه الحالة، وهذا هو الموقف الصحيح للداعية في مثل هذا الحال، فلما مضى ﷺ قيل لها: إنه النبي ﷺ فأخذها مثل الموت؛ لأنها ردت عليه هذا الرد وهو نبي الله ﷺ فأتت بابه لتعتذر فلم تجد عنده بوابين ولا حرساً من تواضعه فقالت معتذرة: لم أعرفك. فقال: **«إنما الصبر عند الصدمة الأولى»** (٢).

٨ – كذلك لما مات أبو سلمة، ماذا تقول أم سلمة وزوجها بهذه المكانة الكبيرة في نفسها، قالت ما تعلمته سابقاً: (إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها)، ولما مات زوجها وجاءت لتقول العبارة فقالت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ بعدما رأت من حسن معشره وطيب خصاله، ولأنها مؤمنة قالت ما تعلمته، قالت: فأخلف الله لي رسول الله ﷺ. فقد خطبها وتزوجها.

٩ – وإذا صبر العبد على فقد الولد، يقول ﷺ : **«إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي فيقولون: نعم، قال: قبضتم ثمرة فؤاده فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فقال: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»**. فلا يقبض لمؤمن صفي من أهل الأرض فيصبر ويحتسب إلا وكان لـه ثواب إلا الجنة.

١٠ – كذلك فالناس يبتلون على حسب دينهم وعلى حسب صبرهم: **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلباً وعنده صبر قوي زيد لـه في البلاء ليزداد أجراً ، يوم القيامة يود أهل العافية عندما يعطى أهل البلاء الثواب ويقسم عليهم، الذين صبروا في الدنيا، يتمنون لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بمقاريض»** (٣)..!.

١١ – والنبي ﷺ مما ورد في سنته أيضاً وعلّمنا إياه تمهيد نفسي للمواجهة: **«إن من ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم»**. أيام الصبر هي

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٣٩).

(٢) رواه البخاري.

(٣) الحديث في الترمذي وحسنه الألباني.

أيام الابتلاء في الدين والشهوات المستعرة والشبهات المستحكمة ومع ذلك المرء صابر لدينه. فسماها أيام الصبر؛ لأنه لا يستعمل فيها إلا الصبر ولا حلّ إلا الصبر. المؤمنون في مكة ابتلوا فيأتي الصحابي يقول للنبي ﷺ : ادع الله لنا، ألا تستنصر لنا؟ فصبرهم ﷺ بأنه كان من قبلهم كان الرجل يُحفر لـه في الأرض فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق اثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه وعصبه ما يصده ذلك عن دينه. فهناك مواقف والصبر هو القائد وهو الملاذ والحصن الحصين، من دخله عصم..

الناس في الصبر أنواع وهذا تقسيم شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأنه سبر نفوس الناس حسب ما رأى من الدين:

١ – أهل الصبر والتقوى، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة، صبروا على طاعته وصبروا على ترك محارمه.

٢ – ناس عندهم تقوى بلا صبر، فقد يكون هناك رجل عابد زاهد قوام صوام متصدق منفق ذاكر قانت لكن إذا نزلت به المصيبة ينهار، فعنده تقوى لكن إذا نزلت به مصيبة انهار. يقول ابن الجوزي: رأيت كبيراً قارب الثمانين كان يحافظ على الجماعة فمات ولد لابنته فقال: ما ينبغي لأحد أن يدعو فإنه لا يستجيب. فإذاً من الناس من عنده عبادة لكن لا يصبر ولا يتجلد ولا يقاوم عند المصيبة فينهار. بل إن أحد هؤلاء قال: عندي كذا أولاد لا أخشى عليهم إلا منه! – تعالى الله انظر إلى الكفر إذا وصل إلى درجات في هذا الباب، سوء ظنه بالله، ماذا تنفع الصلاة وهذه عقيدته التي في قلبه؟**{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}**. إذاً الذي ليس عنده صبر لا تنفعه عبادته.

٣ – ناس لديهم صبر بلا تقوى. مثل الفجار لكنهم جلدين يصبرون على ما يصيبهم ككثير من اللصوص وقطاع الطرق يصبرون على الآلام والمشاق لنيل الحرام، وكذلك طلاب الرياسة والعلو، يصبرون على أنواع من الأذى لا يصبر عليها أكثر الناس. فهو من أجل أن يصل إلى هدفه يضيع صلوات ويأكل حرام ولا يبالي فعنده صبر بلا تقوى وغالب هؤلاء لا يرجون من الله جزاء على صبرهم، فالصبر لديهم خلق مفطورين عليه.

مراتب الصبر:

والصبر مراتب فالصبر على طاعة الله أعلى منزلة من الصبر عن المعاصي والصبر عن المعاصي أعلى منزلة من الصبر على الأقدار. فالصبر على الواجبات أعلى أنواع الصبر؛ لأن جنس فعل الواجبات أعلى درجة عند الله من جنس ترك المحرمات، وأجر ترك المحرمات أكبر من أجر الصبر على المصائب؛ لأن الصبر على الواجب والصبر على ترك الحرام عملية

اختيارية، لكن لما نزلت به المصيبة، شيء بدون اختياره، ليس لـه إلا كـف الـنفس والصـبر. فقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن يوسف عليـه السـلام: " كـان صـبر يوسـف عـن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها الذي دعته إليه من الحرام أكمل من صبره على إلقاء أخوته لـه في الجبّ"، فصبره على الفاحشة أكمل وأعظم وأكثر أجراً من صبره على السجن وإلقـاء أخوته لـه؛ لأن الأول فيه شيء اختياري وصبره عليها صبر رضا ومحاربة للنفس لا سيما مع وجود الأسباب القوية المزينة للحرام فكان شاباً أعزب وغريباً عند البلد وعبداً مملوكاً والمـرأة جميلة وصاحبة منصب وهي التي دعته فسقطت الحـواجز النفسـية ثـم استعانت عليـه بكيـد النسوة وهددته بالسجن، ثم إن زوجها ليست عنده غـيره: **{يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ}** (يوسف: ٢٩٠)، وغلّقت الأبواب وغاب الرقيـب، فصـار داعـي الزنـا قوي جداً جداً ولكنه صبر عليه الصلاة والسلام، أما الأمـور الأخـرى مـن السـجن وإلقـاء إخوته لـه في الجبّ فجرت عليه بغير اختياره ولا كسب لـه فيها.

مجالات الصبر:

١ - الصبر على بلاء الدنيا **{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}**[(١)] مشقة وعنـاء وبـلاء وفـتن، والله تعالى قـال: **{وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}**[(٢)].

٢ - الصبر على مشـتهيات الـنفس **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ}**، ولذلك قال بعض السلف: " ابتلينـا بالضـراء فصـبرنا وابتلينـا بالسـراء فلـم نصبر..! ". وقالوا: " البلاء يصبر عليه المؤمن والعافية لا يصـبر عليهـا إلا صـدّيق". والصـبر على مشتهيات النفس لابدّ أن يكون من وجوه أربعة كما قال ابن القيم رحمه الله:

١ - أن لا يركن إليها ولا يغترّ بها.

٢ - أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها.

٣ - أن يصبر على أداء حق الله فيها.

٤ - أن لا يصرفها في حرام.

٣ - الصبر عن التطلع إلى ما بيد الآخرين، وعن الاغترار بما ينعمون به من مال وبـنين،

---

(١) البلد: ٤.

(٢) البقرة: ١٥٥.

فبعض قوم قارون ما صبروا فقالوا: **{يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ}**(1).

٣- الصبر على طاعة الله، وهذا أعظم أنواع الصبر وأشده على النفوس **{فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}**(2)، "اصطبر" أكمل وأبلغ من "اصبر" فالزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى **{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا}**(3) على الصلاة وعلى أمر الزوجة بالصلاة، والصبر على الطاعة لـه ثلاث أحوال:

أ – قبل الطاعة بتصحيح النية وطرد شوائب الرياء.

ب – حال الطاعة أن لا تغفل عن الله فيها ولا تتكاسل عن أدائها وتراعي واجباتها وأركانها والخشوع في الصلاة.

ج – بعد الفراغ منها بأن لا تفشي ما عملت وتُعجَب بـه وتُسَمّع بـه في المجالس **{لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى}**، **{وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}**.

٤ – الصبر على مشاق الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ فإنه غير خافٍ على الدعاة حال الناس اليوم من البعد عن الدين والبعد هذا يستلزم دعوة كبيرة وإنكاراً للمنكرات وصدعاً بالحق، عمر بن عبد العزيز لما استشعر المسؤولية الكبيرة في تغيير الانحرافات المتراكمة من سنوات طويلة في العهود السابقة قال: "إني أعاجل أمراً لا يعين عليه إلا الله"..!. فنوح عليه السلام صبر هذا الصبر العظيم في الدعوة ٩٥٠ سنة، ألف سنة إلا خمسين عاماً على جميع أنواع الابتلاءات **{دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً}**، وهكذا سراً وجهاراً ما ترك فرصة إلا قام بالدعوة.

ثم الدعوة ليست عملية سهلة؛ لأن الإنسان يجد كيداً من الأعداء وحسداً حتى من الناس الذين يظنهم معه والقريبين منه على ما آتاه الله من فضله فيتمنون أن يوقع بـه ويضر ويتوقف ولذلك لابد للداعية أن يصبر في الداخل والخارج، القريبين والبعيدين، مع الناس الذين هم ضده علناً أو الذين يضمرون لـه الشر في داخل أنفسهم، **{لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً}**، والحل.. **{وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}**، **{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً}**، الرسل كان من رأس مالهم وبضاعتهم الصبر على إيذاء أقوامهم بل أكّدوا على ذلك وقالت الرسل لأقوامهم: **{وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ**

---

(١) القصص: ٧٩.

(٢) مريم: ٦٥.

(٣) طه: ١٣٢.

الْمُتَوَكِّلُونَ}،**{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا}**، وهكذا يصبر الداعية على طول الطريق وعقباته وبطء النصر وتأخره،**{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}**.

٥ – إن هناك صبراً حين البأس وفي الحرب وعند لقاء العدو والتحام الصفين فيكون الصبر شرطاً للنصر والفرار كبيرة؛ ولذلك أوجب الله الثبات**{إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا}** وحذر من الفرار وتولي الأدبار وعندما تضطرب المعركة وينفرط العقد، فيكون الصبر أشد**{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}**،**{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً}**، وحدثنا الله عن الثلة المؤمنة البقية الباقية بعد عمليات الترشيح المستمرة في قصة طالوت،**{إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ}**وعصوه من قبل ومن بعد وما بقي معه إلا قليل،**{فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}**، حتى الذين جاوزا النهر كان بعضهم استسلاميين فقالوا:**{لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ}**،**{قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ}**، لذلك كان المسلمون صُبُر عند اللقاء، يصبرون وكانوا يتناقلون بينهم عبارة " إنما النصر صبرُ ساعة"، والمراغمة والمدافعة الآن بين فريقين، الذي يصبر أكثر هو الذي ينتصر، فأوصى الله عباده بالصبر على ما يلاقونه من ضرر الناس وأن لا يقابلوا السيئة بمثلها**{وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}**، فالصبر يكون أحياناً للمعلم على أذى التلميذ، للداعية على أذى المدعوّ، للمربي على أذى المتربي وهكذا..، ولذلك يقول الخضر لموسى:**{إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً}**، فتعهّد وقال:**{سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً}**، تعهد ولكنه لم يستطع أن يصبر في تلك المواقف، فإذاً الصبر له مواقف ومواطن وحالات ومجالات ينبغي علينا أن نكون من الصابرين لله فيها...

ما هي الأسباب المعينة على الصبر؟

١- المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا وما جُبلت عليه من المشقة والعناء وأن الله خلق الإنسان في كبد وأنه كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه وأن الآلام والتنغيص من طبيعة هذه الدنيا والابتلاءات**{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ}**..

جبلت على كدر وأنت تريدها ::: صفو من الآلام والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها ::: متقلب في الماء جذوة نار

٢- ومن لا يعرف هذه الحقيقة سيفاجأ بالأحداث، أما الذي يعرف طبيعة الحياة الدنيا إذا حصل لـه أي ابتلاء ومنغصات فإن الأمر عنده يهون.

٣- الإيمان بأن الدنيا كلها ملك لله تعالى، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء،**{وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}**، ولذلك الإنسان إذا حرم من شيء وابتلي يقول:**{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}**، لا يوجد كلمة أبلغ في علاج المصاب وأنفع لـه عند المصيبة من تذكير العبد نفسه بهذين الأصلين. والدنيا فانية، والعبد وأهله وماله ملك لله، والمال وأولاده جعلوا عنده عاريّة، وصاحب العارية متى ما شاء استردها، ومصير الناس العودة إلى الله سبحانه وتعالى. وأم سليم لما فقهت هذا كان لها مع أبي طلحة ذلك الموقف المشهور فلما مات ولده الذي يحبه فقالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا أهل بيت عارية فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا.. إن العارية مؤداة، قالت: إن الله أعارنا فلاناً – ولدنا – ثم أخذه منا، فاسترجع..

٤ – معرفة الجزاء والثواب على هذا الصبر.. وقد تقدم ذكر شيء من هذا..**{نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}**، يوفون أجرهم بغير حساب..

٥- الثقة بحصول الفرج، والله جعل مع كل عسر يسرين رحمة منه عز وجل**{فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً}**، العسر معرفة بأل، ويسر نكرة، فالعسر هو نفسه ويسر يسر ثان، ولن يغلب عسرٌ يسرين. والله تعالى جعل اليسر مع العسر وليس بعده، ولذلك فالله ينزِّل المعونة على قدر البلاء، والله لا يخلف الميعاد،**{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ}**، والفجر ينبلج ولو بعد ليل طويل..

اشتدي يا أزمة تنفرجي ::: قد آذن ليلك بالبلج

٦- يعقوب صبر على فقد يوسف والولد الثاني، وقال:**{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}** لا تسخّط فيه ولا جزع، وقال:**{عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً}**، فبعض الناس يصبرون صبراً غير جميل، والصبر الجميل ليس فيه تشكٍّ للمخلوقين،**{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}** وليس إليكم.

٧ – الاستعانة بالله تعالى واللجوء إلى حماه وطلب معونته سبحانه، قالها موسى لقومه:**{إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**، وحاجة الصابرين إلى الاستعانة عظيمة جداً؛ ولذلك كان التوكل جالباً للمعونة من الله**{الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}**.

٨ – الإيمان بالقضاء والقدر من أعظم ما يعين على الصبر، وأن يعلم العبد أن قضاء الله نافذ، وأن يستسلم لما قضاه وقدره مما لا حيلة لـه به،**{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا}**، ثم إن العبد يعلم أن الجزع والهلع والتبرم

والاعتراض والتشكّي والتضجر لا يجدي شيئاً ولا يعيد مفقوداً فلا حلّ إلا بالصبر، والعاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد سبعة أيام..! أي يستسلم.

آفات في طريق الصبر

١ - قضية الاستعجال**{خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ}**، الإنسان يجب أن يصبر ويتأنى والثمرة تأتي ولو بعد حين..،**{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}**.. لقد باءت دعوات بالفشل.. لماذا؟.. لأن أصحابها لم يصبروا..

٢ - الغضب ينافي الصبر، ولذلك لما خرج يونس مغاضباً قومه ابتلاه الله بالحوت، فتعلم الصبر في بطن الحوت**{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ}**، ولولا أنه كان من المسبّحين قبل أن يبتلعه الحوت للبث في بطنه إلى يوم يبعثون، لذلك العبادة في وقت الرخاء تجلب الفرج في وقت الشدة، **«تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**، ولذلك لما نادى يونس في بطن الحوت؛ عرفت الملائكة صوته؛ لأنها كانت تسمعه وهو يذكر الله في حال الرخاء..

٣ - اليأس أعظم عوائق الصبر؛ ولذلك حذر يعقوب أولاده منه**{يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ}**.**{وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ}**،**{وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}**، إذاً إضاءة شمعة الأمل دواء اليأس والاستعانة بالله هي الأمل؛ لأن الله لا يخيب ولا يضيع من رجاه ويأتي الفرج ولو بعد حين..

التأمل في قصص الصابرين من أعظم الأسباب المعينة على الصبر:

فهذا نوحٌ عليه السلام صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً دام ألف سنة إلا خمسين عاماً جاهد ودعا، وصبر على الإيذاء والسخرية، اتهموه بالجنون والسحر والضلال وهو يقابل ذلك بالصبر حتى قالوا:**{لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ}**، وصبر..

إبراهيم تعرض لمحنة عظيمة ويصبر صبر الموحد الموقن بوعد الله، حتى لما ألقي في النار قال: "حسبي الله ونعم الوكيل"، حتى لما أُمِر بذبح ولده صبر وهمّ بذبح الولد، وأخذ السكين واضطجع الولد استسلاماً لأمر الله، والله ابتلاه بهذا الأمر فصبر.

وموسى واجه التهديد والإيذاء من قومه وقوم فرعون قبلهم، فصبر على دعوة قومين!

والنبي ﷺ قال لما تذكر أخاه موسى: **«يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»**.

إبراهيم لما أُمِر بترك ولده وهو حديث عهد ولادة، وقد كان عقيماً، جاءه إسماعيل بعد سنوات طويلة جداً وهو شيخ كبير، وجاءه الأمر من الله: اتركه وأمه في وادٍ غير ذي زرع! مانال

الخليل هذه المرتبة من شيء قليل، فمضى ولم يلتفت ولم يتحسر ولم يتردد، حتى قالت هاجر: لمن تتركنا؟ آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فرجع للشام ورزقه الله من سارة بإسحاق ومن ورائه يعقوب.

وعيسى عانى من بني إسرائيل من التهم الباطلة، تآمروا على قتله وصلبه وصبر حتى رفعه الله إليه.

وخاتم الأنبياء ﷺ كم تعرض للأذى والاضطهاد، قالوا عنه: مجنون ساحر كذاب خائن، وأشد شيء على الصادق أن يتهم بالكذب، أشد شيء على العاقل أن يقال عنه: مجنون، وأشد شيء على الأمين أن يتهم بالخيانة، وأشد شيء على المؤمن أن يقال عنه: شاعر ساحر به جنّة، وهو أكمل الخلق وأصدقهم وأعقلهم، ووضعوا الشوك وأخرجوه من بلده، وذهب للطائف يعرض نفسه على القبائل، وأحسّ بالاضطهاد وخرج من مكة لا يدري من الهم ولم يستفق إلا في قرن الثعالب، حتى تآمروا على قتله**{لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ}** (الأنفال: ٣٠) وقتلوا بعض أصحابه وعذبوا بعضهم، وأشد شيء على النبي أن يرى أتباعه يضطهدون ويقتلون أمامه، يمر عليهم فيقول: **«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»**، وهكذا صبر ﷺ حتى أتاه اليقين من ربّه بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة حتى لما ذهب المدينة لا يُظَنّ أن مجالات الصبر قد خفّت؛ لأنه عانى من المنافقين معاناة عظيمة، يكفي حادثة الإفك، وصبر على كيد اليهود، ووضعوا له السم، وكانت نوبات الحمى تنتابه حتى مات في آخر نوبة منها فكان في ذلك أجله وهكذا أصحابه، بلال، سمية، صهيب، عمار، مقداد، أبو بكر، صهروهم في الشمس وعذبوهم..

وهذا الصحابي خبيب، يسجن ليقتل ويصلب..

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ::: على أي جنب كان في الله مصرعي

المرأة التي قُتِل أبوها وأخوها وزوجها في يوم أحد فصبرت على ما حصل لها من هذه الأقدار، فماتوا في رفعة الدين ونصرة الدين وجهاد الكفار، وهكذا سار على هذا المنوال التابعون وتابعو التابعين..

عروة بن الزبير من أفاضل التابعين وأخيار التابعين، كان له ولد اسمه محمد من أحسن الناس وجهاً، دخل على الوليد في ثياب جميلة فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش، ولا دعا بالبركة فقالوا إنه أصابه بالعين، خرج هذا محمد بن عروة بن الزبير من المجلس فوقع في اصطبل للدواب فلا زالت الدواب تطؤه حتى مات، ثم مباشرة وقعت الأكلة (الغرغرينا) في رجل عروة وقالوا: لابد من نشرها بالمنشار وقطعها حتى لا تسري لأماكن الجسد فيهلك، فنشروها فلما وصل المنشار إلى القصبة وسط الساق وضع رأسه على الوسادة فغشي عليه ثم أفاق

والعرق يتحدّر من وجهه وهو يهلل ويكبّر ويذكر الله، فأخذها وجعل يقلبها ويقبلها في يده وقال: (أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أنني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضي الله)، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت وأمر بها أن تقدم إلى المقبرة، لما جاء من السفر بعد أن بترت رجله وفقد ولده قال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولما قالوا: نسقيك شيئاً يزيل عقلك؟ قال: إنما ابتلاني ليرى صبري، ورفض.

أبو قلابة ممن ابتلي في بدنه ودينه، وأريد على القضاء وهرب إلى الشام فمات بعريضة وقد ذهبت يداه ورجلاه وبصره وهو مع ذلك حامد شاكر.

أحمد بن نصر الخزاعي من كبار علماء السلف كان قوالاً بالحق آمراً بالمعروف، ناهيا عن المنكر، ثبت في محنة خلق القرآن، حملوه إلى سامراء فجلس مقيداً وعرض عليه الرجوع عن القول بأن القرآن كلام الله المنزل وعرض عليه القول بخلق القرآن فرفض، وقاموا عليه بحرب نفسية وجسدية..، فيقوم القاضي عند خليفة السوء فيقول: إنه حلال الدم، ووافقه من كان حاضراً، وأحمد بن أبي دؤاد قال: شيخ كبير، يتظاهر بالشفقة عليه، فقال الخليفة: ما أراه إلا مؤدياً لكفره فأخذ السيف وقال: إني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر..!، فضرب به عنقه بعد أن مدوا رأسه بحبل، ونصب رأسه بالجانب الشرقي من بغداد، يقول أحد أهل العلم جعفر بن محمد الصائغ: رأيت أحمد بن نصر الخزاعي حين قُتِل قال رأسه: لا إله إلا الله وهذا من كراماته رحمه الله، قال الإمام أحمد رحمه الله عنه: جاد بنفسه في سبيل الله.

والإمام أحمد نفسه كيف صبر في محنة خلق القرآن؟، حُمِل هو ومحمد بن نوح وهو شاب وليس عالماً لكن صبر مع الإمام أحمد، فحُمِل إلى المأمون، يشاء الله أن محمد بن نوح يمرض ويوصي الإمام أحمد: أنت إمام وأنا أموت ولا أحد يأبه لي، فاصبر..، ويموت محمد في الطريق، ويؤخذ الإمام أحمد رحمه الله مقيد، ودخل عليه بعض الناس قبل الدخول على الخليفة (هناك أحاديث في التقية والمرء عند الشدة يمكن أن يورِّي حتى تمضي العاصفة)، قال: كيف تصنعون بحديث خبّاب؟ إنه من كان قبلكم يُنشَر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه فيئسوا منه وتركوه، وقال: اللهم لا تريني وجه المأمون، فمات المأمون قبل أن يصل أحمد، ووصل الخليفة الذي بعده والمحنة مازالت مستمرة، فيقول له: يا أحمد إنها والله نفسك، إنه لا يقتلك بالسيف ولكن يضربك ضرباً بعد ضرب حتى تموت، قال: ناظر ابن أبي دؤاد، فأسكت، هاتوا شيء من القرآن أقول به، هاتوا شيء من السنة أقول به فلا يأتون بدليل، يقول الخليفة لأحمد: تعرف صالح الرشيدي؟ قال: سمعت باسمه، قال: كان مؤدبي، فسألته عن القرآن فخالفني، ولما خالفني وأصر على أن القرآن غير مخلوق أُمِرت به فوطئ

وسُحِبَ حتى مات، قال: هاتوا العقـابين والسـياط، قـال: ائتـوني بغيرهـا، ثـم قـال الخليفـة للجلادين: تقدموا واضربوه، وربطوا الإمام أحمد، وكل فرد منهم يضرب سوطين وبأقوى ما عنده ويقول الخليفة للجلاد: شدّ يداً قطع الله يدك..، لينـال أحمـد رحمـه الله أعظـم العـذاب بالضرب على أيديهم، ثم يقول الخليفة: علامَ تقتل نفسك إني عليك لشـفيق وجعـل ذلـك القائم على رأسه الحارس ينخسه بالسيف، وذاك يقول: ويحك يا أحمد ما أجبـتني، أجـبني إلى أي شيء يكون لك فيه فرج حتى أطلقك فيقول: يا أمير المؤمنين أعطني شيئاً مـن كتـاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ، ثم يأتي الجلاد ويضرب وهكذا تستمر عملية الضرب حتى قال: ذهب عقلي فأفقت والأقياد في يدي فقال لي رجـل: كببنـاك علـى وجهـك وجعلنـا فوقـك حصيراً ووطئنا عليك فقال: ما شعرت بذلك، أتوني بأكل فقلت: لا أفطر وكان صائماً، ثـم جاؤوا به والدم يسيل في ثوبه فصلى فقال أحدهم: صليت والدم يسيل في ثوبك؟ قال أحمد: صلى عمر وجرحه يثعب دماً، ثم مكث في السجن ثم خُلّي عنه بعد ٢٨ شهراً، ثم جُعِـل في الإقامة الجبرية، في بيته، وليس هناك أصعب على العالم من أن يتوقف عن نشر العلـم، سـئل أحدهم عن الإمام أحمد رحمه الله فقال: رجل هانت عليه نفسه في سبيل الله فبذلها كما هانت على بلال نفسه، لولا أحمد لذهب الإسلام.

فيا ضعيف العزم الطريق طويل.. تعب فيه آدم.. وجاهد فيه نوح.. وألقي في النار إبراهيم.. واضطجع للذبح إسماعيل.. وشق بالمنشار زكريا وذبح الحصور يحيى وقاسى الضر أيوب وزاد على المقدار بكاء داود، واتهم بالسحر والجنون نبي الله الكريم وكسرت رباعيته وشج رأسه ووجهه وقُتِل عمر مطعوناً وذو النورين وعلي والحسين وسعيد بن جبير وعذب ابن المسيب ومالك..، فالشاهد أنه في النهاية لا سبيل إلا الصبر..

ولذلك يقول عمر رضي الله عنه: (أدركنا أفضل عيشنا بالصبر)، يعني ما طابت الحياة إلا بالصبر مع ما فيها من المنغصات والشدائد، فهو العمل القلبي الذي تطيب معه الحياة ولا تطيب بدونه، ولذلك ينبغي على العبد أن لا يفعل شيئاً ينافي الصبر، مثل شكوى الخالق للمخلوق والتبرم والتضجر فإما أن يخبر الإنسان الطبيب بعلته ليداويه فلا بأس..

والأنين.. الألم.. ما يحدث من صوت من المريض المتألم..، هناك أنين استراحة وتفريح فلا يكره، وأنين شكوى فيكره ففيه تفصيل..

ومما ينافي الصبر ما يحدث من النائحات وغيرهم، وحتى من الرجال الآن من لطم الرأس والخد وضرب الوجه باليدين والكفين والنياحة.. واويلاه.. واثبوراه..

ولذلك فإن المسلم عليه أن يتقي الله سبحانه وتعالى وأن يسلك سبيل الصابرين، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم، وأن يرزقنا هذا الخلق الكريم، إنه جواد كريم..

* * * * *

المبحث الخامس
أهم صفات المؤمنين المفلحين

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[1].

إنه الوعد الصادق، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين. وعد الله لا يخلف الله وعده؛ وقرار الله لا يملك أحد رده. الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة. فلاح الفرد المؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة. الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته؛ والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح، وما لا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين.

فمن هم المؤمنون الذين كتب الله لهم هذه الوثيقة، ووعدهم هذا الوعد، وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان؟

من هم المؤمنون المكتوب لهم الخير والنصر والسعادة والتوفيق والمتاع الطيب في الأرض؟

والمكتوب لهم الفوز والنجاة، والثواب والرضوان في الآخرة؟ ثم ما شاء الله غير هذا وذلك في الدارين مما لا يعلمه إلا الله؟

من هم المؤمنون. الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون؟

إنهم هؤلاء الذين يفصل السياق صفاتهم بعد آية الافتتاح:

الذين هم في صلاتهم خاشعون.

والذين هم عن اللغو معرضون

والذين هم للزكاة فاعلون.

والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم... إلخ.

والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.

والذين هم على صلواتهم يحافظون.

فما قيمة هذه الصفات؟

---

(١) المؤمنون: ١ - ١١.

قيمتها أنها ترسم شخصية المسلم في أفقها الأعلى. أفق محمد رسول الله، وخير خلق الله، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، والذي شهد لـه في كتابه بعظمة خلقه:

{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}.. فلقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله فقالت: كان خلقه القرآن. ثم قرأت.**{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}** حتى**{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}**. وقالت: هكذا كان رسول الله.

ومرة أخرى.. ما قيمة هذه الصفات في ذاتها؟ ما قيمتها في حياة الفرد، وفي حياة الجماعة، وفي حياة النوع الإنساني؟

{الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ}.. تستشعر قلوبهم رهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله، فتسكن وتخشع، فيسري الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات. ويغشى أرواحهم جلال الله في حضرته، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل، ولا تشتغل بسواه وهم مستغرقون في الشعور به مشغولون بنجواه. ويتوارى عن حسهم في تلك الحضرة القدسية كل ما حولهم وكل ما بهم، فلا يشهدون إلا الله، لا يحسون إلا إياه، ولا يتذوقون إلا معناه.

ويتطهر وجدانهم من كل دنس، وينفضون عنهم كل شائبة؛ فما يضمون جوانحهم على شيء من هذا مع جلال الله.. عندئذ تتصل الذرة التائهة بمصدرها، وتجد الروح الحائرة طريقها، ويعرف القلب الموحش مثواه. وعندئذ تتضاءل القيم والأشياء والأشخاص إلا ما يتصل منها بالله.

{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}.. لغو القول، ولغو الفعل، ولغو الاهتمام والشعور. إن للقلب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو والهذر.. لـه ما يشغله من ذكر الله، وتصور جلاله وتدبر آياته في الأنفس والآفاق. وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب، ويشغل الفكر، ويحرك الوجدان.. ولـه ما يشغله من تكاليف العقيدة: تكاليفها في تطهير القلب، وتزكية النفس وتنقية الضمير. وتكاليفها في السلوك، ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الإيمان. وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف. وتكاليفها في الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزتها، والسهر عليها من كيد الأعداء.. وهي تكاليف لا تنتهي، ولا يغفل عنها المؤمن، ولا يعفي نفسه منها، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية. وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري والعمر البشري. والطاقة البشرية محدودة. وهي إما أن تنفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها؛ وإما أن تنفق في الهذر واللغو واللهو. والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح.

ولا ينفي هذا أن يروح المؤمن عن نفسه في الحين بعد الحين. ولكن هذا شيء آخر غير الهذر واللغو والفراغ...

{وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}.. بعد إقبالهم على الله، وانصرافهم عن اللغو في الحياة.. والزكاة طهارة للقلب والمال: طهارة للقلب من الشح، واستعلاء على حب الذات، وانتصار على وسوسة الشيطان بالفقر، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء. وطهارة للمال تجعل ما بقي منه بعدها طيبا حلالا، لا يتعلق به حق - إلا في حالات الضرورة - ولا تحوم حوله شبهة. وهي صيانة للجماعة من الخلل الذي ينشئه العوز في جانب والترف في جانب، فهي تأمين اجتماعي للأفراد جميعا، وهي ضمان اجتماعي للعاجزين، وهي وقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ}. وهذه طهارة الروح والبيت والجماعة. ووقاية النفس والأسرة والمجتمع. بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال؛ وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب، ومن فساد البيوت فيها والأنساب.

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة معرضة للخلل والفساد؛ لأنه لا أمن فيها للبيت، ولا حرمة فيها للأسرة.

والبيت هو الوحدة الأولى في بناء الجماعة؛ إذ هو المحضن الذي تنشأ فيه الطفولة وتدرج؛ ولا بد له من الأمن والاستقرار والطهارة، ليصلح محضنا ومدرجا، وليعيش فيه الوالدان مطمئنا كلاهما للآخر، وهما يرعيان ذلك المحضن. ومن فيه من فراخ!

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة في سلم البشرية، فالمقياس الذي لا يخطئ للارتقاء البشري هو تحكم الإرادة الإنسانية وغلبتها. وتنظيم الدوافع الفطرية في صورة مثمرة نظيفة، لا يخجل الأطفال معها من الطريقة التي جاءوا بها إلى هذا العالم؛ لأنها طريقة نظيفة معروفة، يعرف فيها كل طفل أباه. لا كالحيوان الهابط الذي تلقى الأنثى فيه الذكر للقاح، وبدافع اللقاح، ثم لا يعرف الفصيل كيف جاء ولا من أين جاء!

والقرآن هنا يحدد المواضع النظيفة التي يحل للرجل أن يودعها بذور الحياة:**{إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}**.. ومسألة الزواج لا تثير شبهة ولا تستدعي جدلا. فهي النظام المشروع المعروف. أما مسألة ملك اليمين فقد تستدعي شيئا من البيان.

ولقد فصلت فصل صاحب الظلال القول في مسألة الرق في الجزء الثاني من الظلال، وبين هناك أن الإسلام قد جاء والرق نظام عالمي. واسترقاق أسرى الحرب نظام دولي. فما كان يمكن والإسلام مشتبك في حروب مع أعدائه الواقفين بالقوة المادية في طريقه أن يلغي هذا النظام من جانب واحد، فيصبح أسارى المسلمين رقيقا عند أعدائه، بينما هو يحرر أسارى الأعداء.. فجفف الإسلام كل منابع الرق - عدا أسرى الحرب - إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولي للتعامل بالمثل في مسألة الأسرى.

ومن هنا كان يجيء إلى المعسكر الإسلامي أسيرات، تقضي قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن ومن مقضيات هذا الاسترقاق ألا يرتفعن إلى مستوى الزوجات بالنكاح. فأباح الإسلام حينئذ الاستمتاع بهن بالتسري لمن يملكهن خاصة إلا أن يتحررن لسبب من الأسباب الكثيرة التي جعلها الإسلام سببا لتحرير الرقيق.

ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن، كي لا يشبعنها عن طريق الفوضى القذرة في المخالطة الجنسية كما يقع في زماننا هذا مع أسيرات الحرب بعد معاهدات تحريم الرقيق - هذه الفوضى التي لا يحبها الإسلام! وذلك حتى يأذن الله فيرتفعن إلى مرتبة الحرية. والأمة تصل إلى مرتبة الحرية بوسائل كثيرة.. إذا ولدت لسيدها ثم مات عنها. وإذا أعتقها هو تطوعا أو في كفارة. وإذا طلبت أن تكاتبه على مبلغ من المال فافتدت به رقبتها. وإذا ضربها على وجهها فكفارتها عتقها.. إلخ.

وعلى أية حال فقد كان الاسترقاق في الحرب ضرورة وقتية، هي ضرورة المعاملة بالمثل في عالم كله يسترق الأسرى، ولم يكن جزءا من النظام الاجتماعي في الإسلام.

{فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العَادُونَ}.. وراء الزوجات وملك اليمين، ولا زيادة بطريقة من الطرق. فمن ابتغى وراء ذلك فقد عدا الدائرة المباحة، ووقع في الحرمات، واعتدى على الأعراض التي لم يستحلها بنكاح ولا بجهاد. وهنا تفسد النفس لشعورها بأنها ترعى في كلأ غير مباح، ويفسد البيت لأنه لا ضمان له ولا اطمئنان؛ وتفسد الجماعة لأن ذئابها تنطلق فتنهش من هنا ومن هناك.. وهذا كله هو الذي يتوقاه الإسلام.

{وَالَّذِينَ هُمْ لآمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} راعون لأماناتهم وعهدهم أفرادا؛ وراعون لأماناتهم وعهدهم جماعة..

والأمانات كثيرة في عنق الفرد وفي عنق الجماعة؛ وفي أولها أمانة الفطرة؛ وقد فطرها الله مستقيمة متناسقة مع ناموس الوجود الذي هي منه وإليه شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته،

بحكم إحساسها الداخلي بوحدة الناموس الـذي يحكمهـا ويحكـم الوجـود، ووحـدة الإرادة المختارة لهذا الناموس المدبرة لهـذا الوجـود.. والمؤمنـون يرعـون تلـك الأمانـة الكـبرى فـلا يـدعون فطـرتهم تنحـرف عـن اسـتقامتها، فتظـل قائمـة بأمانتهـا شـاهدة بوجـود الخـالق ووحدانيته.

ثم تأتي سائر الأمانات تبعا لتلك الأمانة الكبرى.

والعهد الأول هو عهد الفطرة كذلك. هـو العهـد الـذي قطعـه الله علـى فطـرة البشـر بالإيمان بوجوده وبتوحيده. وعلى هذا العهد الأول تقوم جميع العهود والمواثيق. فكـل عهـد يقطعه المؤمن يجعل الله شهيدا عليه فيه، ويرجع في الوفاء به إلى تقوى الله وخشيته.

والجماعة المسلمة مسؤولة عن أماناتها العامة، مسؤولة عن عهـدها مـع الله تعـالى، ومـا يترتب على هذا العهد من تبعات. والنص يجمل التعبير ويدعه يشمل كل أمانة وكـل عهـد. ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون. فهي صفة دائمـة لهـم في كـل حـين. ومـا تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات؛ وترعى فيها العهود؛ ويطمئن كل من فيهـا إلى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة، الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان.

{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}.. فلا يفوتونها كسلا، ولا يضيعونها إهمالا؛ ولا يقصرون في إقامتها كما ينبغي أن تقـام؛ إنمـا يؤدونهـا في أوقاتهـا كاملـة الفـرائض والسـنن، مستوفية الأركان والآداب، حية يستغرق فيها القلب، وينفعل بها الوجدان.

والصلاة صلة ما بين القلب والرب، فالذي لا يحـافظ عليهـا لا ينتظـر أن يحـافظ علـى صلة ما بينه وبين الناس محافظة حقيقية مبعثها صدق الضمير.. ولقد بدأت صـفات المـؤمنين بالصلاة وختمت بالصلاة للدلالة على عظيم مكانتها في بناء الإيمان، بوصفها أكمـل صـورة من صور العبادة والتوجه إلى الله.

تلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح. وهـي خصـائص ذات أثـر حاسم في تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحيـاة الـتي تحياهـا. الحيـاة الفاضـلة اللائقـة بالإنسان الذي كرمه الله؛ وأراد لـه التـدرج في مـدارج الكمـال. ولم يـرد لـه أن يحيـا حيـاة الحيوان، يستمتع فيها ويأكل كما تأكل الأنعام.

ولما كانت الحياة في هذه الأرض لا تحقق الكمال المقدر لبني الإنسـان، فقـد شـاء الله أن يصل المؤمنون الذين سـاروا في الطريـق، إلى الغايـة المقـدرة لهـم، هنالـك في الفـردوس، دار الخلود بلا فناء، والأمن بلا خوف، والاستقرار بلا زوال:

{أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}..

وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين. وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال.....

ومن صفات المؤمن أنه: يحسن الظن بأخيه المسلم ويقبل عذره:

إن الواجب على المسلم أن يحسن الظن بأخيه المسلم، وكيف ذلك؟

إذا كنت تعرف سلامة عقيدة أخيك، وسلامة فطرته، ومنشأه ومجتمعه الذي نشأ فيه، وعرفته فماذا يكون موقفك؟

إن هذا الناقل قد يكون من الوشاة الذين يسعون بين الناس فساداً، وليقف من هذا الناقل موقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

فقد روي أن رجلاً جاء إلى عمر بن عبدالعزيز – رضي الله عنه – فقال: إن فلاناً قال كذا وكذا، وشاية ونميمة – ينقلها عن عمد –، ماذا قال عمر – رضي الله عنه –؟

عرض عليه ثلاث خيارات، قال: إن كنت موشياً نحن نبحث، فإن كنت صادقاً، واعتذر عذرناه، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت عفونا عنك. فقال: بل العفو.

والنمام قد ذمه الله بقوله تعالى:**{هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ}**(1).

والذي ينقل لك عن أخيك الصالح، أنه قال كذا وكذا، فالغالب أنه يكون نماماً، وقد ورد أن النمام معذب في قوله ﷺ : **«لا يدخل الجنة نمام»** وفي رواية: **«لا يدخل الجنة قتّات»**. وهو النمام، وقال ﷺ : **«ألا أخبركم ما العضْهُ؟** – وهو نوع من السحر – **هي النميمة»**. القالة بين الناس**!** " فجعل النميمة من السحر أو شبيهاً بالسحر**!**

فإذا جاءك إنسان ونقل إليك عن أخ لك مسلم محب متثبّت، فعليك أن تسيء الظن به.

ثم إذا كان صحيحاً فعليك أن تحسن الظن بذلك القائل، وتلتمس له عذراً أياً كانت تلك المقالة، فتقول: لعل له عذراً، لعل عذره كذا وكذا.

روى عن بعض السلف أنه قال: لا تظن بكلمة صدرت من أخيك شراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً. فلو كان لها محمل واحد خير، وعشرة محامل شر، فاحملها على محمل الخير لأنك تحسن الظن بصاحبها، وتعرف أنه من أهل الخير والنصيحة والمودة، وأنه لا يتعمد أن يزلّ أو يطعن في مسلم، وأن يكفر مسلماً، أو يقترف ذنباً.

---

(1) القلم: ١١.

وإذا كانت هذه حالة المسلم فإن الواجب على المسلم أن يحسن الظن بإخوانه المسلمين.

وليس حسن الظن خاصاً بالدنيا؛ بل يجب حسن الظن أيضاً في أمور الآخرة. فمن عقيدة المسلم أن يكون حسن الظن بربه، فيظن بربه خيراً، أنه يغفر له ويعفو عنه سيئاته، ويكفر عنه خطاياه، ويرفع درجاته ويجزل مثوبته، ونحو ذلك.

فعلى المسلم أن يحسن الظن بإخوته، فيظن بهم الظن الحسن الذي يؤدي بهم إلى الخير، ويدفعهم إليه ويدلهم على ما فيه خير لهم، وما فيه الصلاح لهم والاستقامة عليه.

هذا من الآداب الشرعية، فمتى كان المسلمون كذلك استقامت حالتهم، واجتمعت كلمتهم.

ومن هذه الأمور اجتناب سوء الظنّ ما أمكن التماس سبيلٍ إلى حسنِ الظنّ. وقد جاء في القرآن الكريم كلام صريح في هذا، حيث يقول الله عز وجل:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}** (الحجرات: ١٢). وممّا يستدعي الوقوف والتأمّل في هذا البيان الخالد الأمرُ باجتناب كثير من الظنّ لأنّ بعضه إثم، ولم يأت التعبير القرآنيّ ليقول: إنّ صاحب الظنّ يأثم، بل اعتبر أنّ الظنّ ذاته هو إثم، مبالغة في النهي عنه والتنفير منه. وإذاً علينا اجتناب كثير من الظنّ مخافة القليل الذي هو إثم. وممّا لا ريب فيه أنّ الحريص على آخرته يدرك مقاصد هذا الخطاب ومراميه، ويبادر إلى التطبيق والامتثال، نجاة بنفسه من الإثم والنار.

ولربّما جنحت النفس جنوحا شديدا إلى سوء الظنّ، ويزداد هذا في حقّ من لا تحبّه ولا تميل إليه. بل ربّما سعت إلى التفتيش والبحث عن الأدلّة المرجّحة لسوء الظنّ في كلمة قيلت، أو فعلٍ صدر من بعض المسلمين. لكن على المسلم العاقل أن يجاهد النفس الأمّارة بالسوء ويصرفها عن هذا بالتماس الأعذار للأخ الذي رغبت بإساءة الظنّ فيه بسبب بغضها له، أو عدم انسجامها معه، أو نفرة طباعها من طباعه. وليعلم المسلم أنه إن جاهد نفسه ورجّح حسن الظنّ فإن الأجر كبير وعظيم لما فيه من مخالفة للهوى وخضوع لأمر الله تعالى. وليتصوّر الأخ الذي انزلق في منحدر سوء الظنّ أنّ واحداً ممن يحبّهم ولهم عنده حظوة ومكانة، قال مثل تلك المقالة، أو فعل مثل ذلك الفعل الذي أساء به الظنّ عندما صدر ممن لا يحبّه، كيف كان يدافع ويلتمس الأعذار، ويكافح وينافح لتبرئة من يحبّ. فليفعل هذا مع بقيّة إخوانه، ولا يجعل الدفاع عن أخيه المسلم في ظهر الغيب وحسن الظنّ به محصوراً في عدد قليل لا يعدوهم إلى غيرهم.

وقد يقول مسيء الظنّ مدافعاً عن نفسه: إنّه إنّما يحسن الظنّ بزيد وعبيد لثقةٍ بهم آتية من خبرة ومعرفة. ولو أننا تتبّعنا الأمور وسبرنا غورها لوجدنا أنّ نفور هذا المسلم من بعض إخوانه وإساءة ظنّه بهم إنّما كان نتيجة خلافات شخصيّة أو غير شخصيّة، أو أثراً لتنافر

الطباع، أو لغيرة أو منافسة أو اختلاف في الرأي، أو نتيجة تراكم سوء الظنّ على مدى سنين، ممّا جعله يختزن صورة شوهاء لأخيه يفسّر على ضوئها سلوكه وأقواله، وهذا كلّه لا يجيز سوء الظنّ، ولا يعطي المسلم الحقّ في ذلك.

أيها الإخوة إنّ ضمور سوء الظنّ بالمسلمين الأخيار والتماس الأعذار لهم أمارة رجحان العقل وقوّة الدين.

وإنّ ممّا يؤدّي إلى الخلاف وإلى انتقاص الناس والنيل منهم أن يضع المسلم قضايا إداريّة أو تنظيميّة فيها مجال واسع للنظر والرأي، موضع قضايا وردت فيها نصوص قطعيّة الثبوت، قطعيّة الدلالة، فيسوّي بينهما، ويشنّ حربا شعواء على كلّ من لا يرى رأيه، حتى في هذه الأمور.

إنّ كثرة ذمّ الناس والنيل منهم والطعن الدائم في أقوالهم وأفعالهم وحملها على أسوأ محمل، وسرعة انتقاصهم وتصديق قالة السوء فيهم، أمارة مرض النفس وضيق الأفق، وضعف الخشية من الله، وقلّة الإحساس بمراقبة الله سبحانه للعبد، وهي في الوقت ذاته علامة طفولة التفكير؛ إذ إنّ الإنسان كلّما ارتقى فكره قدّر ظروف المسلمين الآخرين وأدرك مقاصد آرائهم، والتمس الأعذار لهم، وأحسن الظنّ بهم.

أمّا الذي يعذر نفسه ويشتدّ على غيره ويحمل عليه.. فهذا ينطبق عليه ما جاء في الأثر: **«إنّ أحدكم يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الخشبة في عينه»**. وفي هذا ذمّ لأصحاب هذا المنهج الرديء في التعامل مع المسلمين، حيث يعمد الإنسان إلى تبرئة نفسه أو تصغير عيوبها، بينما يُضخّم عيوب الآخرين ولا يقبل لهم عذرا، وكأنه نسي أو تناسى ما دعا به النبيُّ ﷺ لمن اشتغل بعيوب نفسه: **«طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»**[1].

* * * * *

---

(١) رواه البزّار بإسناد حسن.

المبحث السادس
المسلم الحقيقي يحاسب نفسه

المحاسبة قضية مهمة للغاية، تدور عليها السعادة ولا يحصل الصلاح إلا بها..

محاسبة النفس أمر عظيم جداً، المحاسبة لا تصلح النفس إلا بها، المحاسبة من قام بها اليوم أمِن غداً، المحاسبة أن تنظر في نفسك وتتأمل فيها وتعرف عيوبها، المحاسبة لا نجاة إلا بها**{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}**(1).

المحاسبة تصدر من التأمل في هذه النصوص:

{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ}(2).

المحاسبة انطلاقاً من آثار قوله تعالى:**{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}**(3)..

المحاسبة تنطلق من الإيمان باليوم الآخر وأن الله يحاسب فيه الخلائق وقد حذرنا الله ذلك اليوم فقال:**{وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}**(4).

المحاسبة تنطلق من الإيمان بأسماء الله وصفاته وأنه تعالى الرقيب المهيمن المطّلع على ما تعمل كل نفس وأنه شهيد على أعمالنا فهو الشهيد على أعمال عباده، جعل علينا كراماً كاتبين يحصون أعمالنا**{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}**(5).

---

(1) المجادلة: ٦.
(2) الزلزلة: ٦ – ٨.
(3) آل عمران: ٣٣.
(٤) البقرة: ٢٨١.
(٥) الكهف: ٤٩.

المحاسبة تنطلق من إيمان الإنسان بالهدف، بالغرض، أن يعلم أنه لأي شيء خُلِق{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ}(١){أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى}(٢).

محاسبة النفس طريقة المؤمنين وسمة الموحدين وعنوان الخاشعين، فالمؤمن متق لربه محاسب لنفسه مستغفر لذنبه، يعلم أن النفس خطرها عظيم، وداؤها وخيم، ومكرها كبير وشرها مستطير، فهي أمارة بالسوء ميالة إلى الهوى، داعية إلى الجهل، قائدة إلى الهلاك، توّاقة إلى اللهو إلا من رحم الله، فلا تُترك لهواها لأنها داعية إلى الطغيان، من أطاعها قادته إلى القبائح، ودعته إلى الرذائل، وخاضت به المكاره، تطلعاتها غريبة، وغوائلها عجيبة، ونزعاتها مخيفة، وشرورها كثيرة، فمن ترك سلطان النفس حتى طغى فإن له يوم القيامة مأوىً من جحيم{فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى}(٣)، وعلى النقيض{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى}(٤).

الدليل على المحاسبة من القرآن الكريم:

الآية التي أمرنا الله فيها بالمحاسبة هي قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}(٥) تنظر أي تفكر وتتفكر.

يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي – رحمه الله: يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه سراً وعلانية في جميع الأحوال وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وحدوده وينظروا ما لهم وما عليهم وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم يوم القيامة فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم واهتموا للمقام بها اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقف عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أن الله خبير بما يعملون لا تخفى عليه أعمالهم ولا تضيع لديه ولا يهملها أوجب لهم الجد والاجتهاد.

وقال الشيخ عن هذه الآية: وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه وأنه ينبغي

(١) المؤمنون: ١١٥.
(٢) القيامة: ٣٦.
(٣) النازعات: ٣٧ – ٣٩.
(٤) النازعات: ٤٠، ٤١.
(٥) الحشر: ١٨، ١٩.

لـه أن يتفقدها فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله بذل جهده واستعان بربه في تتميمه وتكميله وإتقانه ويقايس بين منن الله عليه وبين تقصيره هو في حق الله، فإن ذلك يوجب الحياء لا محالة، والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل بل أنساهم الله مصالح أنفسهم وأغفلهم عن منافعها وفوائدها فصار أمرهم فرطاً فرجعوا بخسارة الدارين وغبنوا غبناً لا يمكن تداركه ولا يجبر كسره؛ لأنهم هم الفاسقون.

وقد قال تعالى في كتابه العزيز:**{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ}**(1)، فإذاً ينبغي على العبد أن ينظر في حاله ويحاسبها ويتوب من التقصير فالمحاسبة تقود إلى التوبة**{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}**(2).

ولا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه (والشريكان يتحاسبان عند نهاية العمل)، ورُوي عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لها عند الموت: "ما أحد من الناس أحب إليّ من عمر"، ثم قال: كيف قلت؟ فأعادت عليه كلامه، فقال: "لا أحد أعزّ عليّ من عمر". فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة أخرى؛ لأنه رآها أنسب وأحسن وأدق وأصدق..

قال الحسن البصري رحمه الله: "المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله وإنما خفّ الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة" ثم قال: "المؤمن يفجأه الشيء يعجبه فيقول والله إنك تعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيهات! حيل بيني وبينك!"، وهذا نموذج من الحساب لشيء يعرض للإنسان مزيّن ويعجبه وتميل إليه نفسه ولكنه يتركه؛ لأنه ليس من مصلحته في الآخرة، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردتِ بهذا؟!!، يفرط أي يسبق ويحصل ويقع.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار: يا أمير المؤمنين! بخٍ! بخٍ! والله لتتقين الله أو ليعذبنّك!. فهو يذكر نفسه بأن هذا اللقب أمير المؤمنين لا يغني عنه

(1) النور: ٣١.
(2) الأعراف: ٢٠١.

من الله شيئاً..

قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى:**{ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}**[1]: لا يلقى المؤمن إلا وهو يعاتب نفسه، ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

وقال مالك بن دينار رحمه الله: رحم الله عبداً قال لنفسه ألستِ صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمّها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان لها قائداً. وهذا من حساب النفس.

وقال ميمون بن مهران: [التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح].

وقال إبراهيم التيمي: [مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها فقلت لنفسي: يا نفس أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً، قال: فأنتِ في الأمنية فاعملي إذاً لتكوني في الجنة في ذلك النعيم].

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان: [إن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس فالمواد الفاسدة كلها إليها تنصبّ ثم تنبعث منها إلى الأعضاء وأول ما تنال القلب].

وقد كان رسول الله ﷺ يقول في خطبة الحاجة: **«الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»** [2].

وقد استعاذ ﷺ من شرها عموماً ومن شر ما يتولد منها من الأعمال ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات وجمع الاستعاذة من سيئات النفس وسيئات الأعمال فهذا معناه أن هناك أمرين:

١ - أعوذ بك من هذا النوع من الأعمال.

٢ - المراد به عقوبات الأعمال التي تسوء صاحبها.

فاستعاذ من صفة النفس وعملها أو استعاذ من العقوبات وأسبابها ويدخل العمل السيئ في شر النفس؛ لأن النفس الشريرة تولد سيئ العمل فاستعاذ منهما جميعاً..

وهذا العمل الذي يسوء صاحبه يوم القيامة وهذه النفس الشريرة التي تأمر بسيئ

---

(١) القيامة: ٢.

(٢) رواه الترمذي.

العمل؛ لابد من محاسبتها وقد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب وأن لا يُدخل على الله سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد الظفر بالنفس وكفها عن الشر فإن الناس قسمان:

١ – قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعاً لنفسه الشريرة الأمّارة بالسوء تحت أوامرها ويعمل على هواها.

٢ – قسم ظفروا بأنفسهم فقهروها فصارت طوعاً لهم منقادة لأمرهم.

قال بعض أهل الإيمان والحكمة: (انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم فمن ظفر بنفسه؛ أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسِر وهلك).

{فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى} (النازعات: ٣٧ – ٣٩).

ومن لم يحاسب نفسه فاته من الخير بقدر ما فاته من المحاسبة ولذلك على المسلم أن يصون نفسه عن المحرمات ويبتعد عن الشبهات ولا سيما أهل العلم فمن لم يصن نفسه بهذا لم ينفعه علمه؛ لأن العلم للعمل كالسلاح للمجاهد فإذا لم يستعمله ماذا يفيده؟! وكالأطعمة المدخرة للجائع إذا لم يأكل منها فبماذا تنفعه؟!

يحاول نيل المجد والسيف مغمدٌ ::: ويأمل إدراك العُلا وهو نائم!

إذاً بدون محاسبة لا يمكن الوصول والذي لا يصون نفسه عن ما يخرم المروءة وعن ما يُكره بعد ما يصونها عن الحرام فهذا إنسان هالك، فصيانة النفس أصل الفضائل؛ لأن من أهمل نفسه اتكالاً على العلم الذي عنده – وهذه آفة ينزلق إليها بعض طلبة العلم – ربما لا يحاسبون أنفسهم اتكالاً إلى العلم الذي عندهم فربما يكون هنا الجاهل أو العامي أفضل من هذه الجهة؛ لأنهم يحسون أن أنفسهم قاصرة فيحاسبون ويفتشون، أما بعض الناس الذي يطغيهم العلم فلا يحاسبون أنفسهم ويتكلون على العلم الذي معهم؛ لأنهم يرون به رفعة درجة فلماذا يحاسبون فيتركون الحساب والمحاسبة فتظهر القبائح والعورات فيكون الحسد منهم واتباع الهوى والتنازلات في الفتاوى والأخطاء.

فلذلك محاسبة العلماء لأنفسهم وطلبة العلم ينبغي أن تكون أشد ما تكون لأنه إن حاسب نفسه انتفع ونفع الناس وإذا ترك محاسبة نفسه ضلّ وأضلّ، الجاهل لا يقتدي به أحد، لكن هذا الذي ينصب نفسه قدوة في الدعوة والعلم ثم لا يحاسب نفسه يُهلك..!

فنحن نرى الآن نماذج كثيرة من إضلال بعض هؤلاء في الفتاوى المتساهلة؛ لأنهم لا يحاسبون أنفسهم وبالتالي يقعون في المزالق وما استقطبهم أهل الشر إليه من الأفخاخ التي نصبوها لهم فوقعوا فيها وجاملوا على حساب الدين..

فينبغي على كل الناس أن يحاسبوا أنفسهم الذين عندهم علم والذين ليس لديهم علم، فالذي لديه علم يحاسب نفسه هل عمل به؟ وهل هو يقوم به لله؟ وهل يبلغه؟ أم يكتمه؟ وهل هو مقصّر فيه؟ وهل عبد ربه به؟ وهل بذله للناس صحيحاً أم راعه أهواء بعض القوم فسهّل لهم أشياء بزعمه؟ أما صاحب الجهل فيحاسب نفسه، كيف يعبد الله على جهل؟ متى يزيل الجهل؟ كيف يزيله؟ إلى متى يبقى؟ كيف يتعلم؟ وبماذا يبدأ.... وهكذا..

والنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو العبد إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة وهذا موضع الابتلاء والمحنة..

وقد وصف الله النفس في القرآن الكريم بثلاثة أوصاف: المطمئنة واللوامة والأمّارة بالسوء..

فالنفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه وأنست بقربه فهي نفس مطمئنة، وهي التي يقال لها عند الوفاة**{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي}**[(1)]، المؤمن اطمأنت نفسه إلى وعد الله، النفس المطمئنة بما قال الله والمصدقة بما قال، النفس المطمئنة هي المنيبة المخبتة التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جأشاً لأمره وطاعته وأيقنت بلقائه.. [هذه أقوال ابن عباس وقتادة والحسن ومجاهد].

وحقيقة الطمأنينة السكون والاستقرار فسكنت إلى ربها نتيجة طاعته وذكره واتباع أمره ولم تسكن إلى سواه، فاطمأنت إلى محبته وعبوديته والإيمان بخبره ولقائه، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، والرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، واطمأنت إلى قضائه وقدره وإلى كفايته وحسبه وأن الله يدافع عنها ويكفيها الشرور وكيد الكائدين

(١) الفجر: ٢٧ - ٣٠.

والحاسدين والأعداء، فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله وأن مرجعها إليه ولا غنى لها عنه طرفة عين..

وعلى الضد النفس الأمارة بالسوء، تأمر صاحبها باتباع الشهوات من الغي والباطل فهي مأوى كل سوء، تقوده إلى القبيح والمكروه..

وقال: أمّارة ولم يقل آمرة!!، أمّارة صيغة مبالغة، وهو أبلغ، فهي كثيرة الأمر بالسوء إلا إذا رحمها الله فجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير فعند ذلك تكون شيئاً آخر..، والنفس أصلاً خُلِقت ظالمة جاهلة إلا من رحمها الله، والإنسان ظلوم كفار**{أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً}**[1]، نعم أوجد عندهم الاستعداد الفطري لقبول الحق إذا عُرض عليهم بغير مؤثرات خارجية مفسدة**{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}**[2]، لكن بدون تعلم؛ النفس تبقى جاهلة فيها هوى ولو تركت بدون تربية وتروض تدعو إلى الطغيان وتميل إلى الشر، والعدل والعلم طارئ عليها وليس أصل فيها..

الأصل في النفس ليس أنها صاحبة علم وعدل!!، الأصل في النفس الجهل والظلم! الإنسان ظلوم جهول! كما أخبر الله سبحانه وتعالى إلا من رفع الجهل بالعلم ورفع الظلم بالعدل، وألزم نفسه العلم والعدل فقام عليها بهما فعند ذلك تلهم رشدها وتتوقّى الظلم والجهل، ولولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة..، فإذا أراد بها خيراً جعل لها اتجاهاً إلى العلم ومجاهدة في العدل..

وسبب الظلم في النفس الأمارة بالسوء إما الجهل وإما الحاجة، ولذلك كان أمرها بالسوء لصاحبها لازماً لها إلا إذا أدركته رحمة الله..، وبذلك يعلم أن العبد مضطر إلى الله دائماً محتاج إلى ربّه باستمرار**{إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي}**[3]، فإذاً الإنسان محتاج إلى الرب حتى يكفي شر نفسه، سائلاً إياه أن يعينه على شر نفسه، وضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة، وأكثر من ضرورته للطعام والشراب والنَّفَس..

أما النّفس اللوامة فقال بعضهم: من التلّوُّم وهو التلوّن والتردد، وقال بعضهم: من اللوم وهذا أرجح؛ لأنه لو كان من التلون والتردد لقال:**{وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}** (القيامة: ٢) المتلونة والمترددة، لكن الأرجح أن اللوامة من اللوم، تلوم صاحبها على الخير وعلى الشر، حتى يوم القيامة يمكن أن تلومه نفسه، إن كان محسناً لماذا لم يزدد إحساناً وهذه

---

(١) النحل: ٧٨.
(٢) الروم: ٣٠.
(٣) يوسف: ٥٣.

مراتب الجنة أمامه، وإن كان مسيئاً لماذا عمل السوء، وهذه النار أمامه؟! فهي تلومه في الدنيا وتلومه في الآخرة!!، تلوم المسيء أن لا يكون رجع في إساءته وتلوم المحسن أن لم يزدد إحساناً، فإذاً النفس اللوامة في الخير والشر؛ نفسٌ مخلّطة فيها خير وشر، فتلوم صاحبها على الخير، لماذا لم يزد منه وتلومه على الشر لماذا وقع فيه.

إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاتها، يستقصرها في كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليمضي قدماً لا يعاتب نفسه كما قال الحسن البصري رحمه الله.

فإذاً اللوم صفة لهذه النفس، فالنفس تارة تكون أمارة بالسوء وتارة لوامة وتارة مطمئنة!، إذاً ليس بشرط أن تكون النفس عند فلان من الناس دائماً مطمئنة أو دائماً أمارة بالسوء، قد تكون ساعات هكذا وهكذا!!، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل فيها هذا وهذا والحكم للغالب عليها من أحوالها.

فكونها مطمئنة وصف مدح لها، وكونها أمارة بالسوء وصف ذمٌ لها، وكونها لوّامة ينقسم إلى مدح وذم بحسب ما تلوم عليه وهذه حال النفس..

كثيراً ما يكون الإنسان المسلم العادي يمر في حالات نفس مطمئنة كأن يكون في عبادة (صلاة التراويح – في الحرم – في عمرة – في عرفة)، وتارة أمارة بالسوء(إجازات – سياحة – سفريات – معاصي)، وتارة لوامة تلوم صاحبها في الخير والشر.

ومحاسبة النفس من علاج مرض القلب؛ لأن مرض القلب لا يمكن إزالته وعلاجه إلا بمحاسبة النفس ومخالفتها فعندنا مبدآن في التعامل مع النفس، المحاسبة يتبعها المخالفة، وهلاك القلب من إهمال محاسبتها ومن موافقتها واتباع هواها، لذلك العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني..!

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه قال كلاماً مشهوراً محذراً من الإهمال في محاسبة النفس وأنه يقود إلى الهلاك يوم القيامة: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم – أعمالكم – قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وقال ﷺ : **«من نوقش الحساب عُذِّب»**، فكيف يتلافى المرء مناقشة الحساب غداً؟!! بمحاسبة النفس اليوم.

والحساب اليسير صاحبه ناج وسينقلب إلى أهلها مسروراً، أما إذا حاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فهذا الحساب الشديد نتيجة عدم المحاسبة الآن..

وتزينوا للعرض الأكبر**{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ}** (الحاقة: ١٨) فقال

الحسن رحمه الله: (لا تلقى المؤمن إلا ويحاسب نفسه، ماذا أردتِ تعملين؟ ماذا أردتِ تشربين؟ ماذا أردتِ تأكلين؟)، وقال قتادة في قوله:**{وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}** (الكهف: ٢٨) أضاع نفسه وغبن، يحفظ ماله ويضيع دينه!

قال الحسن: إن العبد لايزال بخير ما كان لـه واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته.

ويوجد واعظ في قلب كل مسلم إذا أراد أن يدخل في باب حرام قال: ويلك لا تفتحه، إنك إن تفتحه تلجه! لا تزح الستار عن باب الحرام، إنك لو نظرت انجذبت، ويلك لا تفتحه، إنك إن تفتحه تلجه!..

قال ميمون بن مهران: النفس كالشّريك الخوّان إن لم تحاسبه؛ ذهب بمالك!.

المحاسبة وقت الرخاء سهلة بالنسبة للمحاسبة في وقت الشدة، فرحم الله عبداً قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا وكذا؟! هذا نوع من الحساب على المعاصي، وحساب على النوايا كقولك: ماذا أردتِ بالعمل والأكلة والشربة..

تعريف المحاسبة:

في اللغة: مصدر من حاسب يحاسب مأخوذ من حسب حسبتُ الشيء أحسبه حسباناً وحساباً إذا عددته والحساب والمحاسبة عدُّك الشيء.

هذا إذاً العدّ هو معنى المحاسبة في اللغة، فكأنك إذا جئت تطبقه بالمعنى الاصطلاحي عدّ السيئات.. عدّ العيوب.. وهكذا..

عرّف الماوردي المحاسبة فقال: أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره فإن كان محموداً أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن وإن لم يمكن فيتبعها بالحسنات لتكفيرها وينتهي عن مثلها في المستقبل.

وعرّف بعضهم المحاسبة بأنها: قيام العقل على حراسة النفوس من الخيانة ليتفقد زيادتها ونقصانها، وأنه يسأل عن كل فعل يفعله لمَ فعلته، فإن كان لله مضى فيه وإن كان لغير الله امتنع عنه وأنه يلوم نفسه على التقصير والخطأ وإذا أمكن المعاقبة أو صرفها إلى الحسنات الماحية.

ومحاسبة النفس نوعان كما يقول ابن القيم رحمه الله: نوع قبل العمل ونوع بعد العمل..

١ – محاسبة النفس قبل العمل:

أن يراعي الهمّ والخواطر والإرادات والعزائم التي في نفسه، فالنفس لها إرادة وعزيمة وهم، تهم بالشيء، فمن أصدق الأسماء الحارث وهمّام؛ لأن النفس تهمّ وتحرث، فلها همّ وعمل، فإذاً يبدأ بالمحاسبة على ما همّ به وما أراده وما خطر بباله، فالمحاسبة تبدأ من مرحلة

الخواطر والإرادات والعزائم، وهذه محاسبة قبل العمل، فيفكّر في إرادة العمل هذا هل هي في مصلحته؟ فإن كان نعم أقدم عليه، وإن كان ليس في مصلحته تركه..

ولذلك يقول الحسن رحمه الله: رحم الله عبداً وقف عند همّه يحاسب فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر ولم يعمل.

هذا النوع من المحاسبة مهم جداً في إيقاع الأعمال على الإخلاص، بدون المحاسبة هذه تقع الأعمال بغير الإخلاص فيهلك الإنسان وهو يعمل**{ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً}**[(1)]، فما استفاد من العمل شيء مع أن ظاهره أعمال صالحة لكن لأنها ليست لله.

وكذلك ينظر ثانياً إذا تحركت نفسه لعمل من الأعمال وقف، هل هذا العمل مقدور عليه أو غير مقدور، فإن كان غير مقدور تركه حتى لا يضيع الوقت، وإن كان مقدوراً عليه وقف وقفة أخرى ونظر هل فعله خير من تركه أو تركه خير من فعله، فإن كان فعله خيراً من تركه عمله وإن كان تركه خيراً من فعله..، وإذا كان فعله فيه مصلحة.. هل سيفعله الآن والباعث عليه الله وإرادة وجهه أو الباعث عليه أمر آخر (جاه المخلوق وثنائهم ومالهم).

وهذه المحاسبة مهمة جداً في وقاية النفس من الشرك الخفي، الأول يقيها من الشرك الأكبر والأصغر ويقيها أيضاً من الشرك الخفي، ولئلا تعتاد النفس الشرك وتقع في مهاوي الرياء، لذلك فإن هناك أربع مقامات يحتاج إليها العبد في محاسبة نفسه قبل العمل:

١ - هل هو مقدور لـه.

٢ - هل فعله خير من تركه.

٣ - هل هو يفعله لله.

٤ - ماهو العون لـه عليه.

والاستعانة طبعاً بالله**{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**[(2)].

٢ - محاسبة النفس بعد العمل:

وهو على ثلاثة أنواع:

أولاً: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله، مثل تفويت خشوع في الصلاة وخرق الصيام ببعض المعاصي أو فسوق وجدال في الحج، كيف أوقع العبادة؟ هل على الوجه الذي ينبغي؟ هل وافق السنة؟ هل نقص منها؟ وحق الله في الطاعة ستة أمور:

---

(١) الغاشية: ٣، ٤.

(٢) الفاتحة: ٢.

١ – الإخلاص في العمل.

٢ – النصيحة لله فيه.

٣ – متابعة الرسول ﷺ.

٤ – أن يحسن فيه ويتقن فيه.

٥ – أن يشهد منّة الله عليه فيه أنه جاء توفيق من الله وتيسير للعمل الصالح وإعانة منه.

٦ – أن يشهد تقصيره بعد العمل الصالح، وأنك مهما عملت لله فأنت مقصر.

ثانياً: محاسبة على عمل كان تركه خير من فعله، وهذا يمكن أن يكون للمعاصي، أو اشتغال بمفضول ففاته الفاضل، مثل أن يشتغل بقيام الليل فتفوته صلاة الفجر، أو يشتغل بأذكار وغيرها أفضل منها، كما قال ﷺ لأم المؤمنين: **«لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وُزنَت بما قلتِ لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته»**.

ثالثاً: محاسبة على أمر معتاد مباح لم فعله؟ هل أراد به الله أم الدار الآخرة؟ أم فاته الربح وعمله عادة؟ فتحاسب نفسك على الأمور المباحة والعادات، هل كان لك فيها نية صالحة أو ذهبت عليك؟

فالمحاسبة تولد عنده أرباح مهمة يحتاجها يوم الحساب، لأن النبي ﷺ أخبر: **«أن الذي ينفق نفقة على أهله يحتسبها تكون له صدقة»**، وأراد لفت النظر إلى أن ما ينفقه الناس على أهلهم بالعادة إذا كان فيه نية حسنة فليس خارجاً عن الصدقة بل داخل فيها وأجرها، حتى يتشجع الناس للإنفاق على أهليهم ولا يبخلوا على أولادهم، بل يحتسبون الأجر بدون إسراف ولا تقتير.

من أين نبدأ في محاسبة النفس؟

قال ابن القيم رحمه الله – مختصر كلامه: أن يبدأ بالفرائض فإذا رأى فيها نقصاً تداركه ثم المناهي "المحرمات" فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية ثم يحاسب نفسه على الغفلة عما خُلِق له، فإن رأى أنه غفل عما خُلِق له فليتدارك ذلك بالذكر والإقبال على الله ويحاسب نفسه على كلمات الجوارح من كلام اللسان ومشي الرجلين وبطش اليدين ونظر العينين وسماع الأذنين ماذا أردتُ بهذا ولمن فعلته وعلى أي وجه فعلته؟ السُبُل العملية.. التفكير في المجالات أين يتجه الإنسان عند المحاسبة..

١ – الفرائض، ويجب أن نعرف أن جنس الواجبات في الشريعة أعلى من ترك المحرمات، كلاهما لابد منها، لكن للفائدة فجنس فعل الواجب أعلى في الشريعة وأكثر أجراً

من جنس ترك المحرم، لأن الواجبات هي المقصود الأصلي وهذه المحرمات ممنوعة، ولكن ماهو الأصل؟ أن تقوم بالواجبات، فأول ما يبدأ بالفرائض فإن رأى منها نقصاً تداركه (الوضوء – الصلاة – الصيام بدون نية – كفارة اليمين)..، فاستدراك الخطأ في الواجبات نتيجة للمحاسبة، وهناك تقصير يمكن استدراكه وهناك آخر لا.

٢ – المحرمات والمناهي..، فهناك أمور تحتاج التوقف الفوري (كسب حرام – عمل حرام)، وأشياء تداركُها(التخلص من الأموال الحرام بعد التوبة – أكل حقوق العباد فيعيد المال إلى أصحابه)، وبعضها يحتاج إلى التحلل منها وطلب السماح، وهناك أشياء لا يمكن تداركها إلا بالتوبة والندم وعقد العزم على عدم العودة والإكثار من الحسنات الماحية لأن الله تعالى قال:**{أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}**[1].

٣ – ثم يحاسب نفسه على الغفلة عما خُلِق له (الانغماس في الملاهي والألعاب مع أنها ليست حرام)، فيتدارك ذلك بأن يأتي بفترات طويلة تفوقها في الذكر والعبادة والأعمال الصالحة لتعويض الغفلة التي حدثت..

وهناك طريقة أخرى للمحاسبة وهي محاسبة الأعضاء، ماذا فعلت برجلي؟ بيدي؟ بسمعي؟ ببصري؟ بلساني؟، المحاسبة على الأعضاء تعطي نتيجة فيكون الاستدراك بإشغال الأعضاء في طاعة الله، ثم المحاسبة على النوايا (ماذا أردت بعملي هذا؟ وما نيتي فيه؟.

والقلب من الأعضاء ولابد له من محاسبة خاصة لصعوبة المحاسبة في النوايا لأنها كثيراً ما تتقلب فسمّي القلب قلباً من تقلّبه..

وينبغي للعبد كما أن له في أول نهاره توصية لنفسه بالحق أن يكون له في آخر نهاره ساعة يطالب نفسه فيها ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء.

فالمحاسبة لما ضرب لها العلماء مثل محاسبة الشريك الشحيح لشريكه فهذا فيه تدقيق، وهي صفة مهمة للمحاسبة؛ أن الإنسان يدقق مع نفسه ويفتّش الأمور تفتيشاً بالغاً، فقد يتناسى أشياء وهي خطيرة، ومع النفس لا تصلح المسامحة: **«رحم الله امرءاً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا قضى سمحاً إذا اقتضى»**، نعم يفوّت للناس ولكن مع نفسه لا يفوّت..! فينبغي أن يكون هناك تدقيق زائد للنفس.

ومعاقبة النفس على التقصير مهمة بإلزامها بالفرائض والواجبات والمستحبات بدلاً من

---

(١) هود: ١١٤.

المحرمات التي ارتكبتها، والعجب أن الإنسان يمكن أن يعاقب عبده وأمته وأهله وخادمته وسائقه والموظف عنده على سوء الخلق والتقصير ولكن لا يعاقب نفسه على ما صدر عن نفسه من سوء العمل.

ماهي العقوبات؟

اسم العقوبات فيها تسامح وتجوّز، العقوبات المقصود منها أنك تلزم نفسك بطاعات، ولنضرب لذلك أمثلة من السلف كيف كانوا يعاقبون أنفسهم:

- عاقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدّق بأرض قيمتها مائتي ألف درهم**!!**

- ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة كلها، وأخّر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين مع أن وقت الصلاة لم يخرج..**!!**

- فاتت ابن أبي ربيعة ركعتا سنة الفجر فأعتق رقبة**!!**

والتقصير عند السلف من أصحاب النفوس العالية ليس ترك واجب أو فعل محرم، لكن تقصير في واجب ومستحب، أي فوات طاعة مثلاً أو أذكار وأوراد، والمعاقبة أن يضاعف الأذكار والأوراد.

والنفس لا تستقيم إلا أن تُجَاهد وتُحَاسَب وتُعَاقَب..، ومما يعين على معاقبة النفس أو إرغام النفس على استدراك النقص؛ التأمُّل في أخبار المجتهدين.

والنبي ﷺ قال: **«من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كُتِب من القانتين، ومن قام بألف آية كُتِب من المقنطرين»**.

ومن تأمل في حال السلف وماذا كانوا يفعلون مع ندرة النماذج هذه في هذا الزمان لعله يقود إلى معاقبة النفس بإلزامها بمزيد من العبادات والمستحبات إذا قصّرت..

قالت امرأة مسروق: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة، والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له.

قال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً، الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة قوم ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر.

أم الربيع كانت تشفق على ولدها من كثرة بكائه وسهره في العبادة فنادته: (يابني لعلك قتلت قتيلاً) قال: (نعم يا أماه) قال: (فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك، فوالله لو

يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك) قال: (يا أماه.. هي نفسي!!).

قال القاسم بن محمد: غدوت يوماً وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها أسلم عليها، فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلّي الضحى وهي تقرأ:**{فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}** (الطور: ٢٧) وتبكي وتدعو وتردد الآية وقمت حتى مللت وهي كما هي فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فلما فرغت من حاجتي رجعت إليها فوجدتها كما هي ففرغت ورجعت وهي تردد الآية وتبكي وتدعو!

هذه القلوب، سريعة الذنوب، لابد من قرعها ومطالعة ما فيها، ومن قواعد المحاسبة توبيخ النفس؛ لأنها ما دامت أمارة بالسوء فتحتاج إلى شدة وتوبيخ والله أمر بتزكيتها وتقويمها، فهي تحتاج إلى سلاسل ولا تنقاد إلا بسلاسل القهر إلى العبادة ولا تمتنع عن الشهوات إلا بهذه السلاسل، ولا تنفطم عن اللذات إلا بهذا الحزم معها، فإن أهملت نفسك جمحت وشردت وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والملامة كانت هي النفس اللوامة ويُرجى أن ترتقي بعد ذلك إلى النفس المطمئنة.

كيف يحاسب الإنسان نفسه؟ بماذا يذكر نفسه؟ بنقصها.. بخستها ودناءتها وما تدعو إليه من الحرام وترك الواجب والتفريط في حق الله..

آثار المحاسبة على شخصية المسلم:

أن المرء يطّلع على عيوب نفسه ويكتشف أشياء تدهشك ولا يفقه الرجل حتى يمقت نفسه ويحتقرها في جنب الله، وكان بعض السلف يقول في دعائه في عرفة (اللهم لا ترد الناس لأجلي)! وكان محمد بن واسع يقول: (لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليّ)! مع أنه من كبار العباد في هذه الأمة، وقال يونس بن عُبيد: (إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة)!

وهذا حمّاد بن سلمة دخل على سفيان الثوري وهو يحتضر فقال: (يا أبا عبد الله أليس قد أمنت مما كنت تخافه وتقدم على من ترجوه وهو أرحم الراحمين؟!) قال: (يا أبا سلمة أتطمع لمثلي أن ينجو من النار) قال: (إي والله إني لأرجو لك ذلك).

وقال جعفر بن زيد: (خرجنا في غزاة إلى كابل وفي الجيش صلة بن أشيم فنزل الناس عند العتمة فصلوا ثم اضطجع فقلت: لأرمقنّ عمله، فالتمس غفلة الناس فانسلّ وثبا فدخل غيضة - مجموعة أشجار ملتفة - قريب منا، فدخلت على أثره فتوضأ ثم قام يصلي فجاء أسد حتى دنا منه فصعدت في شجرة فتراه التفت إليه أو عدّه جرواً! فلما سجد قلت:

الآن يفترسه فجلس ثم سلّم ثم قال: (أيها السبع اطلب الرزق من مكـان آخـر)، فـولّى وإن لـه زئيراً، فمازال كذلك يصلي حتى كان الصبح فجلس يحمد الله وقال: (اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار ومثلي يستحي أن يسألك الجنـة)! ثـم رجـع وأصبح وكأنـه بـات علـى حشاياً، أما أنا فأصبح بي ما الله به عليم من هول ما رأيت!

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (اللهم اغفر لي ظلمي وكفري)، فقال قائل: (يـا أمير المؤمنين هذا الظلم فما الكفر؟) قـال:**{إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}**، فـإذا تمعّـن الإنسـان حال السلف عرف حاله والبعد الشديد ما بينه وبينهم.

إذاً ففي المحاسبة:

١ - مقارنة حال بحال فينكشف التقصير العظيم.

٢ - ومن التفكر في العيوب أن الإنسان ينظر في عمله ما دخل عليـه فيـه مـن العُجـب والغرور فيرى نفس كادت أن تهلك ومهما عمل فهو مقصِّر.

٣ - أن يخاف الله عز وجل.

٤ - ومما يعين على المحاسبة استشعار رقابة الله على العبد وإطلاعه على خفاياه وأنـه لا تخفى عليه خافية**{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}**(١). وقال تعالى:**{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}**(٢).

٥ - من الأشياء المهمة في المحاسبة التفكر في الأسئلة يوم القيامة وأن تعلم أنـك مسئول يوم القيامة، ليس سؤال المذنبين فقط، فالله تعالى قـال:**{لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِـدْقِهِمْ}**(٣)، وإذا كان الصادقين سيسألهم الله عن صدقهم فما بالك بغيرهـم؟!**{فَلَنَسْئَلَنَّ الَّـذِينَ أُرْسِـلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ}**(٤) وحتى الرسل يُسألون..!!!

* * * * *

---

(١) ق: ١٦.
(٢) البقرة: ٢٣٥.
(٣) الأحزاب: ٨.
(٤) الأعراف: ٦.

المبحث السابع
التفكر من أعمال القلوب العظيمة

الحمد لله الذي ارتفع فوق العالمين ذاتاً وقدراً.. وتمجد فوق خلقه وعلاهم عزة وقهراً.. وأمر بإعمال التدبر في آياته ومخلوقاته قلباً وفكراً فصارت قلوب الطالبين في بيداء كبريائه حيرى.. كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سُبحات الجلال قسراً.. وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً.. ثم قيل لها: أجيلي في ذل العبودية منك فكراً.. وإن طلبتِ وراء الفكر في صفاتكِ أمراً.. فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليكِ تترى.. وجددي لكل نعمة منها ذكراً وشكراً.. وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً وشراً ونفعاً وضراً وعسراً ويسراً وفوزاً وخسراً وجبراً وكسراً وطياً ونشراً وإيماناً وكفراً وعرفاناً ونكراً..، والحمد لله الذي جعل لنا فيما خلق تفكراً وأمراً عظيماً وأنعامه تتوالى علينا وتترى.. والصلاة على محمد سيد ولد ابن آدم وإن كان لم يعد سيادته فخراً.. صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدة وذخراً.. وعلى آله وصحبه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدراً.. ولطوائف المسلمين صدراً.. وسلم تسليماً كثيراً.. أما بعد..

فإن التفكر من أعمال القلوب العظيمة وهو مفتاح الأنوار ومبدأ الإبصار وشبكة العلوم والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ولكن جهلوا حقيقته وثمرته وقليل منهم الذي يتفكر ويتدبر وقد أمر الله تعالى في التفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال:**{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً}** (آل عمران: ١٩١).

وقال عطاء: انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ : **«زر غبّاً؛ تزدد حبّاً»**، قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ، قال فبكت، وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي ثم قال: ذريني أتعبد لربي عز وجل فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي، فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه، حتى أتاه بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.. فقال: **«لقد أنزلت عليّ الليلة آيات ويلٌ لمن قرأها ولم يتدبر فيها»** أو كما قال عليه الصلاة والسلام:**{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ}** (آل عمران: ١٩٠) **«ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»**

..[(١)]

وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت: "كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر".

قال الحسن: " تفكر ساعة خير من قيام ليلة".

قال الفضيل: " الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك".

قيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكر فقال: " الفكرة مخ العقل".

وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل: "إذا المرء كانت لـه فكـرة؛ ففـي كـل شيء لـه عبرة".

وقال الحسن: "من لم يكن كلامه حكمة فهو لهو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهـو سـهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو".

وفي قولـه تعالى:**{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ}** قال: أمنـع قلوبهم التفكر في أمري.

وكان عدد من أهل العلم والحكمة يطيلون الجلوس والتفكر.

وقال عبد الله بن المبارك يوماً لسهل بن عدي لما رآه ساكتاً متفكـراً: أيـن بلغـت؟ قـال: الصراط!

وقال بشر: " لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل".

وقال ابن عباس: "ركعتان مقتصدتان في تفكر خيرٌ من قيام ليلة بلا قلب".

وبينما كان أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيـل لـه مـا يبكيـك؟ قال: " تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي".

وقال أبو سليمان: "عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر".

وقال: " الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولايـة، والفكـر في الآخـرة يورث الحكمة ويحيى القلوب. ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف".

وقال ابن عباس: "التفكر في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يـدعو إلى تركـه. وإذا كان هم العبد وهواه في الله عز وجل جعل الله صمته تفكراً وكلامه حمداً".

وقال الحسن: "إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر علـى الـذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة".

---

(١) الحديث صححه الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة.

وكان داود الطائي رحمه الله على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السماوات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له، فوثب صاحب الدار من فراشه وبيده سيف ظن أنه لصّ، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال: من ذا الذي طرحك من السطح، قال: ما شعرت بذلك.

وأشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في التأمل في أسماء الله وصفاته، وجنته وناره، ونعيمه وعذابه، وآخرته وآلائه وآياته المسطورة في كتابه والمنشورة في كونه وما خلق سبحانه وتعالى، وما ألذ هذه المجالس وما أحلاها وما أطيبها لمن رزقها، وقال الشافعي رحمه الله: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر. وكان الشافعي رحمه الله من أقوى الناس عقلاً وأجودهم استنباطاً، ومن القلائل الذين مروا في الأمة الإسلامية بهذه المنزلة، وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم على الرأي سلامة من التفريط والندم والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة، ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم.

وقال أيضاً: الفضائل أربع، إحداها الحكمة وقوامها الفكرة والثانية العفة وقوامها التغلب على الشهوة والثالث القوة وقوامها التغلب على الغضب، والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس.

التفكر لغة: مأخوذ من مادة – ف ك ر – التي تدل كما يقول ابن فارس رحمه الله من علماء اللغة: على تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبراً، ولفظ التفكر مصدر، وفكر مصدرها التفكير، والفكر هو التأمل وإعمال الخاطر في الشيء، فالتفكر هو تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب..

أما التفكر الشرعي فقد قال ابن القيم رحمه الله: قاعدة جليلة: أصل الخير والشر من قبل التفكر فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض وأنفع الفكر؛ الفكر في مصالح المعاد، وطرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد..، وفي طرق اجتنابها..، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار ويليها أربعة.. فكر في مصالح الدنيا.، وطرق تحصيلها...، وفكر في مفاسد الدنيا.، وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء.

قال: ورأس القسم الأول الفكر في آلاء الله ونعمه وأمره ونهيه وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها وفي الدنيا وخستها وفنائها يثمر له ذلك الرغبة في

الآخرة والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى التفكر في كتابه مقروناً بذكر الأمثال والنعم والمخلوقات وكذلك ما نراه في هذا الكون من قدرته عز وجل وهذه بعض الآيات التي فيها الأمر بالتفكر أو مدح المتفكرين أو أنه خلق أشياء للمتفكرين..

١ -**{أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}** (البقرة: ٢٦٦) فهذا الرجل قلبه متعلق بالبستان من حيث:

أ – أنه جنة وليس مزرعة صغيرة.

ب – أن فيها أشجاراً متنوعة.. نخيلاً وأعناباً.

ج – أن فيها أشجار نفيسة وأعلاها قيمة وقدراً.. النخيل والأعناب.

د – أن الماء الذي في هذه الجنة لا يستخرج من الآبار بالمجهود الكبير بل إن هناك أنهار تجري في هذه الجنة.

ه – أصابه الكبر.. والإنسان إذا أصابه الكبر يحتاج إلى شيء يعود إليه بالمال دون أن يتعب فيه كثيراً.

و – له ذرية ضعفاء صغار مرضى فهو يخشى أن يموت والأولاد أين مصدر رزقهم.. لا يوجد إلا هذه الجنة.

فدرجة تعلقه بهذه الجنة كبير جداً، فكيف يكون شعوره وخيبة أمله والإحباط إذا أصابها إعصار فيه نار فاحترقت..؟.. كبير جداً..، فكر لماذا ضرب المثل ولأي شيء ساق هذا المثل..؟

إنه مثل ضربه الله للذي يعمل أعمالاً كثيرة.. صدقات وغيرها ولكنه يرائي..، يوم القيامة يأتي في غمرة الأهوال وهو محتاج إلى كل حسنة فيرى أعماله التي عملها في الدنيا وأمامه النار من تلقاء وجهه والشمس دانية من رأسه وفي العرق والصراط مضروب على جهنم ولا ينجو إلا بعمل صالح فجعل الله أعماله كلها هباءً منثوراً في وقت هو أحوج ما يكون إلى الحسنات فكيف يكون إحباطه وذله وخيبة أمله في ذلك الوقت..، ما الذي ينشئ الانقياد والسعي للإخلاص في العمل؟ التفكر في مثل هذه الآيات..

٢ -{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}(١).

٣ -{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}(٢).

٤ -{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}(٣).

٥ -{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(٤).

٦ -{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}(٥)، يتفكرون في القرآن والتبيان السنة، فيتفكرون في القرآن والسنة.

٧ -{أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا

---

(١) آل عمران: ١٩٠، ١٩٢.

(٢) يونس: ٢٤.

(٣) الرعد: ٢، ٣.

(٤) النحل: ١٠ - ١٤.

(٥) النحل: ٤٣، ٤٤.

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}(١).

إذاً التفكر في النفوس والتفكر في مصائر الأقوام البائدة مجال آخر للتفكر.

٨ -**{لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمُ الفَائِزُونَ * لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}**(٢).

فليتفكر الإنسان في هذا القرآن وقوته لو أنزل على جبل لانهدّ فماذا ينبغي أن يكون أثره على نفسه؟

والنبي ﷺ علّمنا التفكر لما قام من الليل ينظر في السماء ويقرأ، فقراءة الآيات من سورة آل عمران في الليل سنة قبل صلاة الليل، وهذه من السنن المهجورة، إذا قام من النوم يمسح النوم عن عينيه كما ورد في السنة ثم يقرأ:**{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ}** (آل عمران: ١٩٠) في البخاري عن ابن عباس بعد أن قرأ الآية ﷺ ثم قام فتوضأ واستنّ فصلى ركعتين ثم خرج فصلّى الصبح، فلذلك على أحد القولين قراءتها قبل الخروج لصلاة الصبح وقبل الوضوء وقبل سنة الفجر.. والقول الآخر قبل قيام الليل.

وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب المعرفة؛ لأنه إذا اجتمع في القلب اجتمعت المعلومات الأساسية وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة، فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل نتاج آخر!.. فالعلماء من أين أنتجوا إنتاجهم وأحكام الفقه والأحكام المستنبطة والتفسير..؟ جزء كبير خرج من التأمل في آيات الله والتأمل في الأحداث والوقائع..!

---

(١) الروم: ٨، ٩.
(٢) الحشر: ٢٠، ٢١.

الأمور المشكلة والمستعصيات كيف حُلّت..؟!

أبو حنيفة قالوا لـه هذا شخص وهذا أخوه عقدنا لهما على أختين لما صـارت الدخلـة بالخطأ دخل الأخ الأول على زوجة الثاني ودخـل الأخ الثـاني علـى زوجـة الأول ووطئهـا تلك الليلة ولم يكتشفوا ذلك إلا في الصباح، الحل يحتاج لتفكـر وتـدبر، تعـال يـا فـلان هـل أعجبتك المرأة التي دخلت بها؟ رضيت بها؟ نعم، وأنت يافلان؟ نعم، يـا فـلان طلـق فلانـة التي عقدت عليها ويا فلان طلق فلانة ثم عقد لكل منهم على الأخرى!

الجمع بين النصوص كيف حُلّت..؟!

كيف نجمع بـين **{لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}** و**«الميت يعذب ببكاء أهله عليه»**، **«بما نيح عليه»**..؟!!

فيفكر العلماء.. يقولون: هذا خاص بالكافر مثلاً.. هذا إذا كـان راضـياً بالنياحـة وهـو يعلم بما يفعلون بالعادة ولم ينههم قبل موته.. وهكذا..

من وسائل زيادة الإيمان التفكر في آيات الله في الكون.. في الآفـاق.. في الـنفس..**{أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم}**.. فيما خلق الله..، فهذه الميادين في التفكر مهمة جداً للإنسـان المسـلم والتفكر رأس المال وينتج بضاعة عظيمة جداً..

فالثمرة الخاصة للتفكر العلم.. وإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب.. وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح..، فالعلم تابع للفكر فالفكر هو المبدأ ينتج علماً والعلـم ينتج حال في القلب من الخشية والإحساس بالتقصـير في حـق الله والرغبـة والجـد.. ينتجهـا العلم فيؤدي إلى زيادة أعمال الجوارح؛ لأن القلب يأمر الجوارح بالعمل..، فيصلح الإنسـان ويعلو شأنه ويتحسن حاله من نتيجة التفكر..

محبة الله تحصل من التفكر في النعم.. لأن النفس مجبولة علـى محبـة مـن أحسـن إليهـا.. وكذلك فإن التفكر وسيلة لفهم الشريعة ووسيلة للفقه في الدين **«ومن يرد الله بـه خـيراً يفقهه في الدين»**.. وهكذا تحصل البصيرة بالتفكر..

التفكر في النفس ما هو..؟

يشمل أن يتفكر في خلق الله كيف خلق نفس الإنسان وجسده، والتفكر في النفس أيضاً يشمل التفكر في عيوبها وهذا مهم جداً جداً جداً ولا يمكن عمل تقـويم وتصـحيح وتعـديل وتحسين إلا بعد التفكر، وإذا كان فكره صحيحاً عرف العيوب واكتشـف الأخطـاء وبالتـالي يمتنع عن الوقوع فيما وقع فيه سابقاً من الأخطاء ويجتهد في تحصيل ما يستر به عيوب نفسه..

غضب شديد.. حاد الطبع.. عجول.. متهور.. عصبي.. جبان.. خواف.. ظلوم.. معتدي.. باغٍ.. متعد.. يفري بلسانه في أعراض الخلق.. وهكذا..، كذلك يفكر في حال عائلته وأسرته وأولاده كيف يحسن من أحوالهم ما هي الثغرات فيه؟

لو أردنا أن نصلح أحوال المسلمين.. المصلحين الكبار والمجددين الذين مروا على العالم الإسلامي ماذا فعلوا؟.. بالتأكيد أول ما فعلوا هو النظر في حال المسلمين.. ماذا ينقصهم؟ أين الخلل؟ ما هي الثغرات؟.. ثم شمروا في تحصيل أسباب القوة والارتقاء بحال المسلمين وسد الثغرات.. جهل.. شرك.. معاصي..

ومن التفكر.. التفكر في خلق الله تعالى.. فإن فيه من العجائب والغرائب الدالة على حكمة الله وقدرته وجلاله شيء يهون الناظرين والمتفكرين والموجودات منقسمة إلى أشياء معروفة وغير معروفة..، ومجال العلم التجريبي والدنيوي أن يكتشف الأشياء غير المعروفة وهي موجودة مما خلق الله عز وجل**{وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}**(1)..

{سبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ}(2)..

{وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ}(3).. فما لا نستطيع أن نعرفه فلا يمكن إضاعة الوقت في استكشافه، وهذا من الفروق في النظرة الإسلامية والغربية في قضايا المستكشفات والمخترعات..، مثلاً ما صحة القيام بما يسمى (أبحاث الروح) ؟.. لو هناك عالم طبيب مسلم وآخر كافر.. ما الفرق؟.. المسلم يعلم أنه لا سبيل لمعرفة أي شيء في موضوع الروح زيادة عما ورد في الكتاب والسنة فلا حاجة لإضاعة الوقت لأنه يعلم**{قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}**(4)، الكافر.. لا.. ما عنده منطلقات وقواعد ممكن أن يبذل ٥٠ سنة من عمره في التجارب وبلا فائدة..!، حتى الدخول في العوالم الغيبية وعمل التجارب على الملائكة مثلاً..!

لذلك فمجال التفكر في الموجودات التي نعلمها من جهة الاستكشاف العلمي الدنيوي المقدور عليه..، وغير المقدور عليه لا يمكن ندخل فيه، وهناك أشياء موجودة لا يمكن معرفة تفاصيلها إلا من الوحيين (مثل معرفة الملائكة والجنة وما بعد الموت) فالتفكر فيها يكون منطلقاً فقط من النصوص الشرعية..، أما قضايا الدنيا.. علم الأجنة.. والنجوم.. مثلاً وكالة

---

(١) النحل: ٨.
(٢) يس: ٣٦.
(٣) الواقعة: ٦١.
(٤) الإسراء: ٨٥.

ناسا أطلقت مناظير ومسبارات.. أو في أعماق البحار وقيعان المحيطات.. تنظر فيها تتأمل في ملكوت الله وخلقه..، تبقى الأشياء القطعية حتى في الأمور الدنيوية وهي ما جاء الكتاب والسنة مثل من كل شيء زوجين اثنين.. وهكذا..

قال بعض العلماء من ١٠٠٠ سنة: فمن آياته الإنسان المخلوق من نطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من عجائب الله الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيره وقد أمرك الله في التدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال:**{وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ}** وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال:**{قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}**(1)، وقال:**{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ}**(2)، وقال:، قال:**{أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ}**(3).

{أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}(4).

{إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ}(5) ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاماً كما قال سبحانه:**{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ}** الآية(6) فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليُسمَع لفظه ويترك التفكر في معناه..!

انظر إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تُركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب؟ وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم؟ وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء المضغة وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ثم كيف ركب من

---

(١) عبس: ١٧ - ٢٠.
(٢) الروم: ٢٠.
(٣) المرسلات: ٢٠ - ٢٢.
(٤) يس: ٧٧.
(٥) الإنسان: ٢.
(٦) المؤمنون: ١٢، ١٣.

اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة، فدوّر الرأس وشقّ السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص، ومقدار مخصوص، لعمل مخصوص، ثم كيف قسم كل عضو من الأعضاء بأقسام أخر، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار وهكذا..

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل مستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق، ولما كان الإنسان محتاج إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الأخرى حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعطل عليه ذلك.. فلتلك النعمة العظيمة **«على كل سلامى من أحدكم صدقة»** ٣٦٠ مفصلاً تجزيء عنها ركعتي الضحى..

فلننظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقد ركبها من ٥٥ عظماً مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما ترى، وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فإن هذا علم قليل يعرفه الأطباء والمشرحون إنما الغرض أن ينظر في مدبرها وخالقها كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها وخصصها بهذا العدد المخصوص؛ لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها، وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا على جلالة خالقها ومصورها فشتّان بين النظرين..، وكذلك التفكر في أمر هذه الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعابها فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه، فترى به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب وكل ذلك صنعه الله في قطرة ماء قذرة، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السماوات وكواكبه؟ وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها..؟

فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السماوات تنفك عن حكمة بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً**{أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا}{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}**، فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً وتأمل أنه لو اجتمعت الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً.. هل يقدرون على ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته لربما عجزوا عن بعضه! والذي يعملونه في الاستنساخ هو تلاعب بخلق الله**{وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ}** وحتى الذبابة فلا يستطيعون أن يخلقوها من عدم، فصارت قمة تطورهم الطبي التلاعب في الخلق، وزرع بويضة ملقحة لإنسان في قرد أو كلب وزرع بويضة ملقحة لكلب في رحم امرأة.. هذه هي التجارب الطبية. فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط، تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها: كأنه إنسان، تعجبت من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله، مع أنك تعرف أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد، وأن كل ما فعله أنه جعل الصبغ على هذا الحائط على ترتيب مخصوص وأنت تستعجب من النقاش والرسام فكيف بالذي جعل من النطفة القذرة التي كانت معدومة فخلقها في الأصلاب والترائب، وأخرج منها هذا الشكل الحسن وقدرها، فأحسن تقديرها وصورها فأحسن تصويرها ورتب عروقها وأعصابها وجعل لها مجاري لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعل البطن حاوياً لآلات الغذاء والرأس جامعاً للحواس وهكذا جعل في الأذنين وجعل في الأنف حاسة الشم ليستدل صاحبه باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ويميز الطيب من الخبيث..

وهكذا إذا تأملت في الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخرج اللسان قدرة للحركات والتقطيعات لتتقطع الأصوات في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق لكثرتها، ثم خرج الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببه الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقاً حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة.. إلى غير ذلك من الآلاء والنعم..

ثم تفكر في ما يحدث في خلق الجنين في الرحم في ظلمات ثلاث.. ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر لرأيت التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا ترى المصوّر ولا آلته فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا ترى آلته ومع ذلك يتشكل خلقه سبحانه وتعالى..

ثم من تمام رحمته أنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكّس وانقلب وتهيأ للخروج وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي، ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في اللبن اللطيف المستخرج بين الفرث والدم شيئاً سائغا خالصاً، وكيف خلق الثديين وجعل فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي.. قدر الحلمة على قدر فتحة الفم في الصبي ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل، ثم كيف هداه إلى الامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع، ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين؛ لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغني عن السن وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف، ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان في وقت الحاجة.. فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثاة اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليها للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه..، فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً.. حتى يتكامل فيصير مراهقاً ثم شاباً ثم شيخاً إما شاكراً أو كفوراً.

فتأمل وتفكر في عظمة الرب سبحانه وتعالى وهذا في شيء واحد من مخلوقاته وهو الإنسان وفي الإنسان أشياء كثيرة أخرى وكثير منها غير معلوم للآن فما بالك فيما جعل في الأرض في أكنافها وأنهارها وجبالها وهيأ السكن للساكن وجعل الأرض فراشاً وكيف جعلها كفاتاً وأنه أرساها بالجبال الرواسي وأودع فيها المياه وفجر العيون وأسال الأنهار وجعل خزانات جوفية**{وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}**، وهكذا ترى في البوادي والأزهار والثمار والمعادن والجواهر وانقسامها إلى خسيس وثمين وهكذا جعل منها ما يصنعه الإنسان من حاجته وحتى الحلي والنفط والكبريت والقار وحتى الملح الذي يحتاجه لتطييب طعامه وما في هذه الحيوانات من الأمور العظيمة والتناسب الدقيق الهندسي فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونها حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتدئ ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللُحمة – الكسوة – فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على مواضع التقاء اللحمة بالسدى، ويراعي في جمع ذلك تناسب

الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البقّ والذباب ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير، فإذا طارت رمى بنفسه إليها فأخذه ولفّ خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى..، أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه؟ أو تكون من نفسه؟ أو علمه آدمي؟

فإذاً البصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات، وإذا رأيت حيواناً غريباً ولو دوداً تجدد التعجب.. سبحان الله..!

والإنسان أعجب من الحيوانات.. ومع ذلك إذا رأى حيواناً عجيباً تعجب وليس يتعجب من نفسه..!

وهكذا ما خلقه الله في البحار وما يكون في قيعانها وفي السحاب وما يجتمع فيها من المطر وكيف ينزل وفي ملكوت السماوات والأرض..، والتفكر في مخلوقات الله قد أمر الله به وأنه سبحانه وتعالى مدح عباده**{وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}**وأمر في التفكر وحث عليه.. في النفس**{أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم}**.. يتفكرون في خلق السماوات والأرض لماذا..؟ قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: " ليستدلوا بها على المقصود منها ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين فإذا تفكروا عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً فيقولون:**{رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ}** يعني نزهناك عن كل ما لا يليق بك"، بعض الناس تفكره فقط إلى حد إتقان الصنعة وأنها صنعة جميلة لكن المقصود الأعظم ليس فقط التعجب من دقة الصنع بل لشيء وراء ذلك..

والتفكر في أمور الآخرة من الأمور المهمة جداً، وحيث أننا ما رأينا الآخرة ولا عشنا فيها ولا عندنا الآن من ثمار الجنة شيء ولا سلاسل النار شيء، لكن عندنا من النصوص الشرعية ما يصف لنا بدقة بالغة كيف سيكون الحال يوم القيامة وهذه الأوصاف والتفاصيل من رحمة الله حتى نجد شيء نتفكر فيه؛ فلذلك كلما ازداد علمك بتفاصيل ما في اليوم الآخر كلما ازدادت حركة القلب في التفكر في هذه التفاصيل؛ ولذلك لما سأل ابن المبارك ذاك لما رآه يتفكر قال له: أين بلغت؟ قال: الصراط..، التفكر كان يأخذ وقتاً طويلاً جداً عند العلماء والأولياء بل كانوا يقدمون التفكر على صلاة الليل..

عن يوسف بن أسباط قال لي سفيان بعد العشاء: ناولني المطهرة – الإناء الذي يتوضأ

به – فناولته، فأخذها بيمينه ووضع يساره على يده فبقي مفكراً ونمت ثم قمت وقت الفجر فإذا المطهرة في يده كما هي.. فقلت: هذا الفجر قد طلع.. فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الساعة..

لماذا ذكر الله أشراط الساعة..؟ لتكون مجالاً للتفكر.. لا بد أن تشغلنا هذه القضايا دائماً وهذا من الخلل الموجود فينا أننا لا نتأمل.. المشكلة أن مجالات التفكر اليوم إما في الحرام والعشق والحب والغرام وإما في الدنيا فقط.. طغت الحياة الدنيا على الناس.. فصار التفكير نادراً في القضايا المهمة التي عليها مدار السعادة..

وجاء عن سفيان الثوري أيضاً أنهم كانوا جلوساً في مجلس فانطفأ السراج فعمّت الظلمة الغرفة فبعد ذلك أشعلوه فوجدوا سفيان رحمه الله دموعه انهمرت كثيراً كثيراً فقالوا: ما لك؟ قال: تذكرت القبر..

فنظراً؛ لأن قلوبهم حية ممكن أي مشهد أو حدث يصير في الواقع يربطه مباشرة بالآخرة والقبر..

وأحد السلف كان على تنور – فرن خباز – فوقف ينظر في النار التي في التنور.. ثم جعلت دموعه تنهمر فبكى بكاء حاراً.. فقيل لـه ما لك؟ قال: "ذكرت النار"..

قال ابن عباس: " ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب"..

قال عمر بن عبد العزيز: " الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادات"..

وبكى عمر يوماً فسئل عن ذلك فقال: " فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواعظ لمن ادّكر"..

فمن رحمة الله أنه جعل لذات الدنيا مهما عظُمت فيها تنغيص وتكدير حتى لا يستسلم العباد إليها ومع ذلك يستسلمون إليها!

وسأل عبدالله بن عتبة أم الدرداء ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: "التفكر والاعتبار"..

نور الإيمان التفكر.. أفضل العمل الورع والتفكر.. تفكر ساعة خير من قيام ليلة..

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: " اعلم أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه"..

وعن محمد بن كعب القرظي: " لئن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بإذا زلزلت والقارعة لا

أزيد عليهما وأتردد فيهما وأتفكر أحب إلي من أن أهذ القرآن ليلتي هذّاً أو أنثره نثراً"..

قال وهب: " ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرئ قط إلا عمل"..

قال فضيل: " الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك"..

عودوا قلوبكم البكاء وقلوبكم التفكر..

إني رأيـــت عواقـــب الـــدنيا ::: فتركت مـــا أهـــوى لمـــا أخشـــى
فكـــرت في الـــدنيا وعالمهـــا ::: فـــإذا جميـــع أمورهـــا تفـــنى
وبلـــوت أكثـــر أهلـــها فـــإذا ::: كـــل امـــرئ في شـــأنه يســـعى
أسمـــى منازلهـــا وأرفعهـــا ::: في العـــز أقربهـــا مـــن المهـــوى
تعفـــو مســـاويها محاســـنها ::: لا فـــرق بـــين النعـــي والبشـــرى
وقـــد مـــررت علـــى القبـــور ::: فما ميـــزت بـــين العبـــد والمـــولى
أتـــراك تـــدري كـــم رأيـــت ::: مـــن الأحيـــاء ثم رأيتـــهم مـــوتى؟

فالإنسان عليه أن يديم التفكر ويطيله لأنه يوصل إلى مرضاة الله وانشراح الصدر وسكينة القلب ويورث الخوف والخشية من الله ويورث العلم والحكمة والبصيرة ويحيي القلوب ويصير هناك اعتبار واتعاظ من سير السابقين.. هذا التفكر.. العمل القلبي العظيم.. نسأل الله أن يجعلنا من الذين يتفكرون ومن الذين يعقلون ومن الذين يتدبرون..

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

المبحث الثامن
علامات محبة الله تعالى للعبد

حديثنا عن مقام عظيم وعمل كبير من أعمال القلوب فهو أساسها جميعاً ألا وهو محبة الله تعالى. المحبة هي الرأس والخوف والرجاء هما الجناحان والعبد يسير إلى الله بالمحبة والخوف والرجاء.

هذه المحبة هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون وإليها شخص العاملون وإلى علمها شمر السابقون وعليها تفانى المحبون وبروح نسيمها تروح العابدون فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون وسرور النفوس ونور العقول وعمارة الباطن وغاية الأماني ونهاية الآمال وروح الحياة وحياة الأرواح.

وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، فهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى ما خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.

تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بحكمته البالغة أن المرء مع من أحب..، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة. تالله لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون. من كلام ابن القيم في المحبة.

المحبة في اللغة:

من الحب. قيل: المحبة أصلها الصفاء؛ لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان، وقيل: إنها مأخوذة من الحباب الذي يعلو الماء عند المطر الشديد فعلى هذا المحبة غليان القلب عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب، وقيل: المحبة مشتقة من اللزوم والثبات ومنه أحب البعير إذا برك.

حلّت عليه بالفلاة ضربة ::: ضرب بعير السوء إذا أحبَّ

أي إذا أقام في المقام ولزمه فكأن المحب قد لزم قلبه محبوبه فلم يرم عنه انتقالاً، وقيل: بل المحبة مأخوذة من القلق والاضطراب ومنه سمي القرط حباً لقلقه في الأذن واضطرابه كما قال الشاعر:

تبيت الحية النضناض منه ::: مكان الحب تستمع السرار

وقيل: مأخوذة من الحب جمع حبة وهو لباب الشيء وخالصه وأصله، فإن الحب أصل النبات والشجر. وقيل: بل مأخوذة من الحِب الذي هو إناء واسع يوضع فيه الشيء فيمتلئ به بحيث لا يسع غيره وكذلك قلب المحب ليس فيه سعة لغير محبوبه. وقيل: مأخوذة من حبة القلب وهي سويداءه، ويقال: ثمرته فسميت المحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب.

وأياً ما كان فإن هذه الصفات تجتمع في المحب وتكون مما يشعر به، ومحبة الله هي التي نتحدث عنها وهي أمر هائل جسيم وفضل غامر جزيل لا يقدر على إدراك قيمته إلا من عرف الله بصفاته كما وصف نفسه.

علامات محبة الله تعالى للعبد:

العلامات التي إذا وجدت في العبد أو أحس بها تدل على أن الله يحبه..

١ – حسن التدبير له فيربيه من الطفولة على أحسن نظام ويكتب الإيمان في قلبه وينور له عقله فيجتبيه لمحبته ويستخلصه لعبادته، فيشغل لسانه بذكره وجوارحه بطاعته، فيتبع كل ما يقربه إلى محبوبه وهو الله عز وجل ويجعله الله نافراً من كل ما يباعد بينه وبينه ثم يتولى هذا العبد الذي يحبه بتيسير أموره من غير ذلّ للخلق فييسر أموره من غير إذلال، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه هماً واحداً بحيث تشغله محبته عن كل شيء.

٢ – الرفق بالعبد والمراد اللين واللطف والأخذ بالأسهل وحسن الصنيع.

٣ – القبول في الأرض والمراد قبول القلوب لهذا العبد الذي يحبه الرب والميل إليه والرضا عنه والثناء عليه كما جاء في حديث أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبّه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل عليه السلام إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فيبغضوه ثم توضع له البغضاء في الأرض»** (١).

٤ – الابتلاء، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله**

(١) رواه البخاري ومسلم.

السخط»[1] فيبتليهم بأنواع البلاء حتى يمحصهم من الذنوب، ويفرغ قلوبهم من الشغل بالدنيا غيرة منه عليهم، فالله يغار ومن صفاته الغيرة، يغار أن يشتغل العبد الذي يحبه بغيره فلا يريد أن يشتغل بالدنيا فيبتليه ويتلذذ العبد بالبلاء ويصبر ولا يجد وقتاً وإمكاناً للاشتغال بالدنيا التي تصرفه عن الله فلا يقع العبد فيما يضره في الآخرة، ويبتليه بضنك من المعيشة أو كدر من الدنيا أو تسليط أهلها ليشهد صدقه معه في المجاهدة، قال تعالى:**{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}**[2].

وهذا الابتلاء على حسب قدر الإيمان ومحبة الله للعبد كما قال سعد بن أبي وقاص: يارسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على حسب دينه فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»** [3].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي – وجد الحر فوق اللحاف – فقلت: يارسول الله ما أشدها عليك، قال: **«إنا كذلك يضعّف لنا البلاء ويضعّف لنا الأجر»**، قلت: يارسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء»** قلت: يارسول الله ثم من؟ قال: **«الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحوّيها وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء»** [4] – قالوا في اللغة: التحوية أن يدير كساءً حول سنام البعير.

٥ – الموت على عمل صالح، كما جاء عن النبي ﷺ : **«إذا أحب الله عبداً عسّله»** قالوا: وما عسّله؟ قال: **«يوفق له عملاً صالحاً بين يدي أجله حتى يرضى عنه جيرانه أو من حوله»** [5].

علامات العبد الدالة على محبته لله تعالى:

لما كانت المحبة خفية في القلب سهُل أن يدّعيها كل أحد**{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ}** (المائدة: ١٨) فما أسهل الدعوى وأعز الحقيقة، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخداع النفس إذا ادعت

---

(١) سنن الترمذي٢٣٢٠.
(٢) سورة محمد: ٣١.
(٣) رواه الترمذي، وقال الألباني: حسن صحيح.
(٤) رواه ابن ماجة وصححه الألباني.
(٥) رواه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه الألباني.

نفسه محبة الله ما لم يمتحنها بالعلامات ويطالبها بالبراهين، والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابتة وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب والجوارح كدلالة الثمار على الأشجار والدخان على النار وهذه العلامات كثيرة:

١ – حب لقاء الله تعالى، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، فقال النبي ﷺ : **«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»** [١]، فالمحب الصادق يذكر محبوبه دائماً والموعد الذي بينهما للقاء، ولا ينسى موعد لقاء حبيبه، وماهو موعد اللقاء؟ هناك موعدان، الأول الموت، والثاني يوم القيامة، والثالث اللقاء في الجنة والنظر إلى وجه الرب. إذاً فالموت هو الموعد الأول للقاء مع الله وليس معنى هذا أن العبد يريد الموت الآن وأنه يتمناه ويدعو به على نفسه، لكن إذا نزل الموت بالعبد الصالح أحب نزوله؛ لأنه سيفضي به الآن إلى لقاء الله وما أعد له من الثواب والنعيم ويكون بقرب ربه**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}**[٢]، يريد أن يكون عند ربه وأن يصل إليه من الألطاف والإنعام بعد الموت من الله ما يصل، فضلاً عن ما يكون له من الجزاء العظيم في الجنة، فمحبة لقاء الله تعالى ولما علم الله عز وجل شوق عباده المحبين له والمطيعين ضرب لهم موعداً بينه وبينهم وهو الموت**{مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ}**[٣].

٢ – أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات التنعم بمناجاة الحبيب فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذّ عنده من مناجاة الليل فكيف تصح محبته؟ فإن المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وتصرفه في طاعته وكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة الطاعة والخدمة أكمل وقد قال النبي ﷺ : **«حبب إلي من الدنيا الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة»**[٤].

فقرة العين – كما قال ابن القيم: فوق المحبة، فجعل النساء والطيب مما يحبه، وأخبر أن قرة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته إنما هو بالصلاة التي هي صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه فكيف لا تكون قرة

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) القمر: ٥٤، ٥٥.

(٣) العنكبوت: ٥.

(٤) رواه النسائي، وقال الألباني: حسن صحيح.

العين؟ وكيف تقر عين المحب بسواها؟ ومن قرت عينه بصلاته في الدنيا؛ قرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة وقرت عينه به أيضاً في الدنيا ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، فقرة عين المحب ولذته ونعيم روحه في طاعة محبوبه بخلاف المطيع كرهاً، المتحمل للخدمة ثقلاً، الذي يرى أنه لولا ذل القهر ما أطاع فهو يتحمل طاعته كالمكره الذي أذله مكرهه وقاهره بخلاف المحب الذي يعد طاعة محبوبه قوتاً ونعيماً ولذة وسروراً فهذا ليس الحامل له على الطاعة والعبادة والعمل ذل الإكراه، بل تكون دواعي قلبه وجواذبه منساقة إلى الله طوعاً ومحبة وإيثاراً كجريان الماء في منحدره، يتم تلقائياً بكل يسر وسهولة، وهذا حال المحبين الصادقين فإن عبادتهم طوعاً ومحبة ورضا ففيها قرة عيونهم وسرور قلوبهم ولذة أرواحهم.

إذاً إذا أحب العبد ربه عمل له بيسر وسهولة منقاداً طائعاً مستلذاً، كيف نوفّق بين هذا الكلام وبين ما يجده الإنسان من المشاق في القيام لصلاة الفجر وتحمل المكاره التي يرغم نفسه عليها إرغاماً، ويرغم نفسه أحياناً على الطاعات، هل معنى ذلك أن هذا إنسان لا يحب الله؟

الجواب: أن الوصول إلى مرحلة يكون فيها العابد لربه كالماء الذي يجري في المنحدرات؛ هذه لا تتم من أول الأمر ولا يصل إليها العبد من أول العبادة والعمل، بل يصل إليها بعد تدريب ومكابدة ومشقة ومجاهدة؛ ولذلك فإن اللذة والتنعم بالطاعة تحصل بعد الصبر على التكره والتعب أولاً، فإذا صبر وصدق في صبره وصل إلى مرحلة اللذة التي تكون العبادة بعدها عنده كجريان الماء في منحدره، ولذلك قال بعض السلف: (كابدت نفسي في قيام الليل عشرين سنة، وتلذذت به بقية عمري). ومن عرف هذا عرف الطريق إلى محبة الله كيف يكون أوله وآخره وماذا سيلقى وأعد نفسه لهذا وهذه مسألة في غاية الأهمية.

ولا يزال السالك عرضة للفتور والانتكاس والآفات حتى يصل إلى هذه الحالة، إذاً فترة المشقة تكون مصحوبة باحتمالات انتكاس وفتور وبرود وآفات، حتى يصل إلى مرحلة اللذة بالطاعة، ويمكن للفرد أن يشعر أنه يتلذذ بالطاعة أحياناً وتشق عليه أحياناً، وأن نفسه تتقلب حتى تستقر على التلذذ بالطاعة دائماً. فواضح إذاً أن العمل لله والعبادة مراتب ودرجات، ومن فقه التدرج هذا عرف كيف يصل، أما الذي لا يعرف عن هذا الموضوع شيئاً فعباداته كلها تقليد وليس عنده تصور لقضية البدء والاستمرار وما يحصل في الطريق من آفات، ثم الوصول بعد ذلك في النهاية إلى هذه المرحلة العظيمة التي تسهل عليه بعدها كل مشقة وتهون عليه كل صعوبة فحينئذ إذٍ يصير نعيمه في سيره ولذته في اجتهاده وعذابه في فتوره

وتوقفه عن العبادة فترى أشد الأشياء عليه ضياع شيء من وقته ووقوفه عن سيره ولا سبيل إلى هذا إلا بالحب الذي يدفعه إلى العمل. ولذلك تجد بعض العابدين إذا مرض ينزعج جداً ويتألم من المرض، لا لأجل ألم المرض، ولكن لأجل أنه قطعه عن العبادة التي كان متعوداً عليها فتصبح القواطع عن العمل أكره شيء عنده، ولذلك عوضه الله بالأجر، **«إذا مرض العبد أو سافر كُتِب لـه مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»** فإذاً علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة.

٣ – أن يكون صابراً على المكاره، والصبر من آكد المنازل في طريق المحبة وألزمها للمحبين، وهم أحوج إلى منزلة الصبر من كل منزلة، فإن قيل: كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية مع منافاته لكمال المحبة، فإنه لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟ قيل: هذه هي النكتة ولب الموضوع والقصد والفائدة التي لأجلها كان الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها به، وبه يعلم صحيح المحبة من معدومها وصادقها من كاذبها، فإنه بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة المحبة ومن هنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة؛ لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن الحقيقة ولم يثبت إلا الصابرون، فلولا تحمل المشاق وتجشّم المكاره بالصبر ماثبتت صحة الدعوة وقد تبين أن أعظم الناس محبة لله أشدهم صبراً وهذا ما وصف الله به أولياءه وخاصة فقال عن عبده أيوب لما ابتلاه**{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً}** فهذه العلاقة بين الصبر والمحبة**{نِعْمَ العَبْدُ إِنَّـهُ أَوَّابٌ}**، وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه وأخبر أن الصبر لا يكون إلا لله، فيصبر لله والصبر لا يكون إلا بالله**{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}**.

٤ – أن لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، قال عمر بن الخطاب: أنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، قال: **«حتى أكون أحب إليك من نفسك»**، قال: أنت أحب إلي من كل شيء حتى نفسي، قال: **«الآن يا عمر»**، إذاً من العلامات أن لا يقدم العبد شيئاً على الله لا ولده ولا والده ولا الناس ولا أي شهوة، ومن آثر على الله شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض، وإذا كان العبد مؤثراً ما أحبه الله على ما يحبه هو فيكون عند ذلك مقاوماً لداعي الهوى معرضاً عن الكسل مواظباً على الطاعة متقرباً بالنوافل فيظهر الطاعة؛ ولذلك قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ::: هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ::: إن المحب لمن يحب مطيع

وهذه ملاحظة مهمة تهم الدعاة في التعامل مع المدعوين وهي أن العصيان لا ينافي أصل المحبة إنما يضاد كمالها. فالمحبة كالإيمان لها أصل ولها كمال، فبحسب المعاصي ينقص الكمال، وإذا دخل المرء في مرحلة الشك والنفاق الأكبر ذهب الأصل وانخلع وانعدم، فالذي ليس في قلبه محبة لله هذا كافر مرتد ومنافق نفاقاً أكبر، ليس له من الدين نصيب، أما العصاة لا يقال لهم: إنه ليس عندهم محبة لله بل يقال محبتهم لله ناقصة وعلى هذا يعَاملون والدليل على هذا حديث نعيمان الذي أُتي به عند النبي ﷺ يوماً وهو سكران فحدّه في شرب الخمر، فلعنه رجلٌ وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ : **«لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»** [(١)]، يعني عنده أصل المحبة، وعنده نقص بقدر ما عصا؛ ولأن هذا صحابي فلا نتكلم فيه في ذاته بل وإنما الشاهد الإتيان بالحديث لنبين أن المعصية لا تنفي أصل المحبة، وقد يكون الرجل قد تاب وختم له بخير فنحفظ حقوق صحابة الرسول ﷺ حتى الذين عصوا منهم، ومعروف أن الحدود تكفر المعاصي. وهذا ما ينبغي التعامل به مع صحابة الرسول ﷺ حتى الذين ورد في الأحاديث أنهم وقعوا في المعاصي، فإنهم عند الله بمكان عظيم حتى العاصي منهم كان يخرج للجهاد ويقدم نفسه وروحه فداء لله ورسوله، وعندهم طاعات عظيمة قد تكون أكبر بكثير مما فعلوا من السيئات.

٥ – أن يكون مولعاً بذكر الله تعالى، لا يفتر لسانه ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة ومن ذكر ما يتعلق به. فيحب عبادته وكلامه وذكره وطاعته وأولياءه. ولقد أمر الله تعالى عباده بذكره في أخوف المواضع**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً}**[(٢)] تحت ظلال السيوف وقعقعات السيوف ولا تشغلكم عن ذكر ربكم. فعلامة المحبة الصادقة ذكر المحبوب عند الرغب والرهب، وحتى العرب في الجاهلية كان المرء يفتخر بالأشعار أنه ذكر محبوبته في الحرب وتحت وقع السلاح. وأهل الإيمان أولى بهذا منهم بحبهم للرحمن وأكثر مما يفعله العاشقون والضلاّل مع محبوبيهم. ومن الذكر الدال على صدق المحبة سبق ذكر المحبوب إلى قلب المحبوب ولسانه عند أول يقظة من منامه وآخر شيء يذكره قبل أن ينام مرة أخرى، وهذه من فوائد أذكار النوم والاستيقاظ.

٦ – المحب الصادق إذا ذكر الله خالياً وجل قلبه وفاضت عيناه من خشية الله**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ**

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الأنفال: ٤٥.

يَتَوَكَّلُونَ}[1].

٧ – أن يغار لله فيغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون فهذه هي غيرة المحب حقاً، والدين كله تحت هذه الغيرة فأقوى الناس ديناً وأعظمهم محبة لله أعظمهم غيرة على حرمات الله، ولذلك ينكرون المنكرات ويمنعونها غيرة؛ لأن محبوبهم لا يرضى بهذا فهم لا يرضون به ولا يرضون بحصوله ويسعون في تغييره.

٨ – محبة كلام الله عز وجل، فإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك فإن من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، فلا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم فهو لذة قلوبهم وغاية مطلوبهم، ومن هنا كان عكوف هؤلاء المحبين لله على كتاب الله، تلاوة وتفسيراً وتدبراً والاستشهاد به في كل موقف. يكثرون من القراءة نظراً وحفظاً. فيكثرون التلاوة ينتج عنها التعلق بكلام المحبوب والإكثار منه.

٩ – أن يتأسف على ما يفوته من طاعة الله وذكره، فترى أشد الأشياء عليه ضياع شيء من وقته فإذا فاته ورده وجد لفواته ألماً أعظم من تألم الحريص على ماله من فوات ماله وسرقة ماله وضياع ماله، وبادر إلى قضائه في أقرب فرصة كما كان يفعل الصادق المصدوق ﷺ فقالت عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً أثبته وكان إذا نام من الليل أو مرض صلّى من الليل اثنتا عشرة ركعة)[2].

١٠ – أن يستقل في حق محبوبه جميع أعماله ولا يراها شيئاً، ولا يرى أن ما عبده به وأطال وصبر عليه أنه بذل شيئاً، فلا يراه قط إلا بعين النقص والازدراء ويرى شأن محبوبه أعظم من كل ما عمل من أجله وأعلى قدراً فلا يرضى بعمله، بل يتهم عمله ويحتقره ويخشى أنه ما وفّى حق محبوبه بل ويتوب إليه من النقص. لذلك بعد الصلاة يقول: أستغفر الله، فهو دائم الاستغفار للنقص الحاصل في عبادة الرب. وكلما ازداد حباً لله ازداد معرفة بحقه فاستقل عمله أكثر. فكلما ازداد حبّاً ازداد عملاً واحتقاراً لما عمل.{الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}[3].

ما هي الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى؟

١ – قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به. قال تعالى:{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ

(١) الأنفال: ٢.
(٢) رواه مسلم.
(٣) المؤمنون: ٦٠.

عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[(١)]

{كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}[(٢)]، فهذا هو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم من إنزال القرآن، وأن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يقرأ ويتجاوب مع كل آية بمشاعره وعواطفه دعاءً واستغفاراً ورجاءً. قال حذيفة: صليت مع الرسول ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ. وكان ﷺ إذا قرأ**{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى}** (الأعلى) قال: **«سبحان ربي الأعلى»**. فلا شيء أنفع للقلب وأجلب لمحبة الله من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والشكر والصبر وسائر الأحوال وأعمال القلوب. ثم يزجر عن الصفات المذمومة والأفعال القبيحة التي تفسد القلب وتهلكه. قال الحسن البصري: (أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً) فالتفكر بالقرآن أصل صلاح القلب والعمل به متمم لذلك ولا بد لهذا من هذا.

٢ – التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض؛ لأنها توصل إلى درجة المحبة كما جاء في الحديث القدسي: **«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ومايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنّه»** فتضمن هذا الحديث الإلهي الشريف حصر أسباب محبة الله في أمرين: أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل. وأخبر سبحانه أن أداء الفرائض أحب ما يتقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل، وأن المحب يستكثر من النوافل، لا يزال يكثر منها حتى يصير محبوباً لله فإذا صار محبوباً شغلته المحبة عن أي أفكار وخواطر أخرى أجنبية غريبة عن العبادة، فلا تخطر على باله وإذا جاءت تنصرف وتنطرد بسرعة؛ لأنه صار عنده من مراقبة الله ما يمنع هذه الأفكار من الورود ويكون عنده من المهابة والعظمة لربه ما يمنع من الانشغال بأي شيء أجنبي عن العبادة، ويكون عنده من الإجلال لله والأنس به والشوق إليه ما يجعله دائماً ذاكراً تالياً عابداً عاملاً.

فإذا قيل: إن هناك أناساً وهذا أكثر حال المسلمين، يستكثرون من النوافل وهم

---

(١) محمد: ٢٤.

(٢) ص: ٢٩.

مقصرون في الواجبات ويقترفون المعاصي فما الحل؟ ليس الحل في ترك النوافل فبتركها يزداد حاله سوءاً فالنوافل تجبر النقص، بل الحل في البقاء على النوافل لكن يصلح حال الواجبات ويصلح حال ترك المحرمات، فيمتنع عن المحرمات ويزيد في النوافل. وفي الحديث كما قال ابن حجر: عظم قدر الصلاة فإنه ينشأ عنها محبة الله للعبد الذي يتقرب بها وذلك لأنها محل المناجاة والقربى، ولا واسطة فيها بين العبد وربه، ولا شيء أقر لعين العبد منها ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه يود أنه لا يفارقه ولا يخرج منه؛ لأن فيه نعيمه وبه تطيب حياته وهذا للعابد. إذاً المحافظة على الصلاة فرضاً ونفلاً من أعظم ما يجلب المحبة ومنها قيام الليل. ولا تكاد تجد فريضة إلا وله نوافل (الصلاة – الصيام – الزكاة – الحج – صلة الرحم والبر بالوالدين)حتى المرء إذا قصّر في الواجب وجد ما يعوّض به، لكن لا يمكن للمرء أن يشتغل بالنوافل ويترك الواجبات وهذا من خلل التصور واضطراب الميزان وخلل المنهج.

٣ – أن يكثر ذكر الله باللسان والقلب والعمل فنصيبه من المحبة على حسب نصيبه من هذا الذكر، ولهذا أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وأنه سبب للفلاح**{وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**، وأثنى على أهل الذكر ومدحهم وأخبر نبيه ﷺ أنه فوق منزلة الجهاد، وجعل الله هذا الذكر حتى بعد العبادات العظيمة وخاتمة الأعمال الصالحة وبعد الصيام**{وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**، والحج**{فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ}**، والصلاة**{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}**، والجمعة إذا انقضت**{فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً}**، وهكذا..، فالذكر هذا مقارن للأعمال الصالحة**{وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي}**، وبناء على ذلك فإن ذكر الله تعالى من أعظم ما يوصل إلى محبته عز وجل..

٤ – أن تؤثر محابه على محابّك عند غلبات الهوى، وأن تتسنم إلى محابّه ولو صعُب المرتقى، وعلامة هذا الإيثار شيئان:

أ – فعل ما يحبه الله ولو كانت نفسك تكرهه.

ب – ترك ما يكرهه الله ولو كانت نفسك تحبه.

وبهذين الأمرين يصح مقام الإيثار، ومؤونة هذا الإيثار شديدة لقوة داعي الهوى والطبع والعادة ولكن المؤمن الذي يريد أن يصل إلى مرتبة المحبة وأن يجلب محبة الله له يتكلف المؤونة الشديدة ويراغم نفسه الضعيفة لكي يصل إلى هذا ويحقق هذا الإيثار، فيشمر وإن عظمت المحنة ويتحمل الخطر الجسيم إرضاء للملك ولأجل الحصول على الفوز الكبير،

فإن ثمرة هذا في العاجل والآجل ليست تشبهه ثمرة من الثمرات ولا تتحقق المحبة إلا بهذا الإيثار.

قال ابن القيم – رحمه الله –: (ما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منه وأنفع وأخير وأدوم وليجاهد نفسه على تركها لله فتورثه هذه المجاهدة محبة الله والوصول إلى المحبوب الأعلى، فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها؛ صرف ذلك الشوق والإرادة بشوق أعظم ومحبة أكبر وهي محبة الله عز وجل).

والقاعدة أن الإنسان لا يمكن أن يترك محبوباً إلا لمحبوب أعلى منه. فكان لأجل ذلك من مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك؛ أعظم من مشى إليه راكباً على النجائب. فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها، لماذا كان صالحو البشر أفضل من الملائكة؟ لأن الملائكة ليس لديهم شهوات ومنازعات، منقادون إلى الله بطبيعتهم، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ما من موضع أربعة أصابع في السماء إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد ولذلك أطّت السماء من ثقل الملائكة الذين يعبدون الله فيها، لكن الذي يسبح ويعبد دون أن يفتر مع منازعة نفسه والشهوات وهذه العوائق والعلائق ومع ذلك صامد صابر؛ هذا أعلى. ولماذا كانت المرأة من البشر في الجنة أفضل من الحور العين؟ بمجاهدتها نفسها ومراغمتها نفسها والتغلب على الشهوات وصبرها وصلاتها وصومها وعبادتها. فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات إما حجاباً له عنه أو حجاباً له يوصله إلى رضاه.

٥ – مشاهدة بره تعالى وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة فإنها داعية إلى محبته، والقلوب قد جبلت على محبة من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحساناً على أحد من الله عز وجل؛ فإن إحسانه على عبده في كل نفس ولحظة والعبد يتقلب في نعم الرب دائماً في كل الأحوال، ويكفي أن بعض أنواع نعمة النفس لا تخطر على بال العبد وله عليه في كل يوم وليلة أربعة وعشرون ألف نعمة، كيف عرفوا ذلك؟ لأنهم حسبوا كم نفساً يتنفس المرء في الأربع والعشرين ساعة، فحسبوها وقدروها، فإذا كان أدنى نعمه في جانب التنفس فقط أربع وعشرون ألف نعمة في اليوم فما الظن بالنعم الأخرى إذا أردت أن تعد؟**{وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا}**!، فكيف بالمضرّات التي يصرفها ويدفعها عنك إضافة لهذه النعم والإحسان؟ وكّل سبحانه حفَظَة**{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}**. نعم مجلوبة ونقم مدفوعة لا نحس بها والله يكلؤنا بالليل والنهار**{قُلْ**

مَن يَكْلَؤُكُم بالليْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ}، فهو سبحانه المنعم بالكلاءة والحفظ والحراسة من كل المؤذين{فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}. وبعض النعم تحصل رغم معاصي وإساءات وتقصير حصل..!، لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ يدّعون لـه الولد ثم يعافيهم ويرزقهم..!

٦ – مطالعة القلب لأسماء الله وصفاته مشاهدتها ومعرفتها وتقلب القلب في رياض هذه المعرفة، فمن عرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبّه لا محالة، وهذا الباب الذي يدخل منه خواصّ أولياء الله العارفين به وهو باب المحبين حقاً الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحدٌ منهم، كلما بدا لهم منه علم؛ ازدادوا شوقاً ومحبة إلى الله فإذا انضمّ داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأبعدها عن كل خير، فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده؛ فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً من الله ولا شيء أكمل من الله ولا شيء أجمل من الله فكل جمال وكمال في المخلوق أصلاً من آثار صنعه سبحانه وتعالى، لا يُوصف جلاله وجماله، ولا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله بل هو كما أثنى على نفسه، فإذا كان بعض الناس يحبون الجميل؛ فالله عز وجل أجمل من كل شيء، ولـه صفة الجمال، قال الرسول ﷺ : **«إن الله جميل»**، ولذلك إذا رآه أهل الجنة نسوا كل شيء، ومن تأمل هذا عرف كيف يتغلب على الأشياء الجميلة في الدنيا من المعاصي، وكل اسم من أسمائه وصفة من صفاته تستدعي محبة خاصة.. محبة أكثر.. تنطلق من هذا الاسم وهذه الصفة وهذا الفعل، فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل وكل ما أمر؛ إذ ليس في أفعاله عبث ولا في أوامره سفَه، بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة ولا المصلحة ولا العدل ولا الفضل والرحمة وكل واحد من هذه يستوجب حمداً وثناءً على الله سبحانه وتعالى.

ما للعباد عليه حق واجبٌ ::: كلا ولا سعي لديهِ ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا فبفضله ::: وهو الكريم الواسعُ

ولا يتصور بشر هذا المقام حق تصوره فضلاً عن أن يوفيه حقه، وأعرف خلقه به وأحبهم إليه محمد ﷺ قال: **«لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»**!، فلا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه البتة ولـه الأسماء والأوصاف منها ما لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولله تسع وتسعين اسم ولـه أسماء أخرى، ولكن هذه الأسماء التسع والتسعين من أحصاها وحفظها وعمل بها وعرف معناها دخل الجنة. وهناك أسماء غير

معلومة لذلك يوم القيامة الله يعلم نبيه أشياء عندما يسجد تحت العرش لم تخطر ببال أحد ويثني عليه بمحامد ما علمها لأحد قبله، فإذاً لله الأسماء والصفات التي يحب لأجلها ومن تأمل في أسمائه وصفاته ازداد محبة لـه، ولو شهد العبد بقلبه صفة واحدة لله من أوصاف كماله استدعت المحبة التامة فكيف إذا شهد بقية الصفات والأسماء والأفعال، وما نعلمه نحن عن الله وأسمائه وصفاته ليس إلا كنقرة عصفور في بحر!

ولا نعرف الله تعالى معرفة مشاهدة بالعين بل ما عرفناه إلا من خلال الأسماء والصفات، وما وصل إلى العباد من العلم بالله عن طريق الوحي وما رأوه في الواقع هو آثار أسماء الله وصفاته، فاستدلوا بما علموه على ما غاب عنهم فكيف لو شاهدوا ذات الرب ووجه الرب..؟!، فلو شاهدوه ورأوا جلاله وجماله وكماله سبحانه؛ لكان لهم في حبه شأن آخر. ولذلك إذا رأوه في الجنة أشغلهم عن كل نعيم آخر..!

وإنما تتفاوت منازلهم ومراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به، ولذلك العلماء هم أكثر الناس محبة لله؛ لأنهم يعرفون من الأسماء والصفات ومعاني الأسماء والصفات وآثارها ما لا يعرفه عامة الناس، وكذلك الإيمان بأن لـه وجهاً يليق بجلاله وعظمته وأن لـه سمعاً وبصراً. ومن تأمل في هذه الأشياء ازداد تعظيماً لربه ومحبة لـه وتعلقاً به. وأعرف الخلق بالله أشدهم حباً لـه، ولذلك كانت رسله أعظم الناس حبّاً لـه، والخليلان من بينهم أعظم الناس محبة وأعظم الأنبياء محبة لله وأعرفهم به تعالى؛ إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ فوقه. وإنما تظهر هذه المحبة من مطالعة الصفات بإثباتها أولاً ومعرفتها ثانياً ونفي التحريف والتعطيل والتمثيل والتشبيه والتكييف عنها؛ ولذلك لا يصح مطالعة أسماء الله وصفاته إلا بقواعد صحيحة مبنية على عدم التعطيل والتمثيل والتشبيه والتكييف والنفي. وكلما أكثر القلب من مطالعة أسمائه وصفاته وأفعاله؛ ازدادت محبته للمتصف بها وللمتسمي بها وللفاعل وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالإضافة إلى ذلك كقطرة في بحر!. فكم يُحرَم من هذا النعيم نفاة الصفات الذين ينفون أن لله وجهاً وسمعاً وبصراً وينفون أن لـه محبة وبغضاً.

٧ – انكسار العبد بين يدي الرب والافتقار إليه، والخضوع والتذلل والإخبات والاستسلام والانطراح بين يديه، فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور، وما أدنى النصر والرحمة والرزق من هذا العبد الذي أذل نفسه لربه، وأحب القلوب إلى الله قلب تمكن منه الانكسار وملكته الذلة والله سبحانه يحب من عبده أن يكمل مقام الذل بين يديه؛ لأن هذه حقيقة العبودية، الذل بين يدي الله. ويقال: طريق معبّد مذلل من كثرة وطأ الأقدام عليه فصار طريقاً معبداً، ولذلك كلما ذل العبد بين يدي ربه كلما ازداد محبة، والذل أنواع،

وأكملها: ذل المحب لحبيبه، وهناك ذل المالك لمملوكه، وهناك ذل الجاني عند المحسن إليه، وهناك ذل العاجز عند القادر على إطعامه وإيوائه، فأعلاها إذاً ذل الحبيب لحبيبه، فإذا كان الذل لله عز وجل قائماً كثيراً؛ كانت المحبة كبيرة..، والعبد ولا شك يذل بين يدي الله كل هذه الأنواع. والذي امتلأ قلبه من محبة الله سبحانه وتعالى فقلبه منكسر عند ربه ليس معجب بعمله ولا مغترّ بما قدّم مهما كان كثيراً، فإنه لا يراه شيئاً ويرى نفسه مقصراً ويرى سائر ما عمِل لا يكافئ نعمة واحدة.

٨ – الخلوة بالله تعالى في وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بتأدب معه بأدب العبودية استغفاراً وتوبة**{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** (السجدة: ١٦)**{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}**[(١)].

أحوال يحب الله تعالى أهلها

١ – قال الله عز وجل:**{وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}**[(٢)]، فالعبد يندفع للإحسان؛ لأنه إن صار من جملة المحسنين نال المحبة.

٢ – قال تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}**[(٣)]، الحرص على الطهارة الباطنة والظاهرة.

٣ – قال تعالى:**{وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}**[(٤)].

٤ – قال تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}**[(٥)].

٥ – قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}**، وما هي صفاتهم؟#**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ}**[(٦)]..

٦ – وأخبر الله تعالى أنه يحب المتقين..

٧ – وأخبر أنه يحب المقسطين، أصحاب العدل الذين يعدلون في أهليهم والولايات التي يتولونها والمناصب التي يتبوؤونها..

---

(١) الزمر: ٩.
(٢) البقرة: ١٩٥.
(٣) البقرة: ٢٢٢.
(٤) آل عمران: ١٤٦.
(٥) آل عمران: ١٥٩.
(٦) المائدة: ٥٤.

٨ – أخبر تعالى أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص.

٩ – ومما ورد في السنة: **«ثلاثة يحبهم الله عز وجل: رجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه فتخلفهم رجلٌ بأعقابهم فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله عز وجل والذي أعطاه – فالمعطي بهذه الصفة من الإخفاء يحبه الله –، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به نزلوا فوضعوا رؤوسهم فقام يتملقني ويتلو آياتي – فبالرغم من تعبه ونصبه فقام يتملقني أي يسألني ويلحّ علي ويتلو كتابي – ورجل كان في سرية فلقوا العدو فانهزموا فأقبل بصدره حتى يُقتَل أو يُفتح لـه»** [1].

١٠ – ما جاء في حديث عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: كان سعد بن أبي وقاص في إبله فجاءه ابنه عمر فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل الولد للقاء أبيه فقال الابن لأبيه: أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ قال: اسكت، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»**. الغني عن الناس والخفي من لا يريد علواً في الأرض ولا مناصب ولا جاه. الخامل المنقطع إلى العبادة والانشغال بأمور نفسه.

١١ – ما جاء في حديث عمرو بن شعيب قال رسول الله ﷺ : **«إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»**، من غير إسراف وخيلاء ثم يتوسط ولا يبخل على نفسه.

١٢ – عن أبي حازم بن دينار عن أبي إدريس الخولاني قال: دخلت مسجد دمشق فإذا أنا بفتى برّاق الثنايا وإذا الناس حوله إذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه فقيل: من هذا؟ قالوا: معاذ بن جبل، فجاءه بعد ذلك فوجده يصلي فانتظره حتى قضى صلاته فسلّم عليه وقال: قلت لـه والله إني لأحبك لله عز وجل، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله. فقلت: آلله. فأخذ بحبوة ردائي فجذبني إليه فقال: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله عز وجل: وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتجالسين فيّ والمتزاورين في والمتباذلين فيّ»**. فالحب في الله والزيارة في الله والمجالسة في الله والتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والصبر، واجلس بنا نؤمن ساعة ومجالس الذكر تنال بها محبة الله، وكذلك قصة الرجل الذي زار أخاً لـه في الله في قرية أخرى ليس بينهم علاقة مالية ولا شراكة ولا شغل فبعث الله ملكاً يقول لـه: **«إن الله قد أحبك كما أحببته»**، وكلما زادت المحبة بين المؤمنين كان هذا أقرب إلى الله، فيقول ﷺ : **«ما تحابّ رجلان في الله إلا كان أحبهم إلى الله**

---

(١) رواه النسائي ولـه شواهد حسن بعضها الشيخ الألباني رحمه الله.

عز وجل أشدهم حباً لصاحبه» [١].

١٣ – أحد الصحابة كلما صلّى إماماً قرأ بعد الفاتحة بقل هو الله أحد ثم يقرأ سورة أخرى دائماً أو يقرأها فقط، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: **«سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟»** فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، الأحد الصمد الذي يصمد لحوائج الخلائق، الصمد الذي ليس بأجوف، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن لـه كفواً أحد. فقال النبي ﷺ : **«أخبروه أن الله يحبه»**.

١٤ – ما أخبر رسول الله ﷺ : **«أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على مسلم أو يكشف عن كربة أو يقضي عنه ديناً أو يطرد عنه جوعاً ولأن أمشي مع أخٍ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً»** [٢].

١٥ – سُئل النبي ﷺ من أحب عباد الله إلى الله؟ قال: **«أحسنهم خلقاً»** [٣]، والله يحب سمح البيع وسمح الشراء وسمح القضاء والاقتضاء.

وبالجملة فالله يحب الصالحات، ويبغض كل منكر ومعصية.

نسأل الله أن يرزقنا محبته وأن يجعل حبه أحب إلينا من الماء البارد على الظمأ وأن يجعلنا ممن يقوم ويعمل بما يحب سبحانه وتعالى.

* * * * *

---

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني.

(٢) حديث حسن.

(٣) رواه الطبراني وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

المبحث التاسع:
صفات يحبها الله في عبده

اقرأ هذه الأوصاف بعناية واجعلها نصب عينيك..

تأملها طويلا، وفتش عنها في نفسك..

وتحل بما ينبغي لك أن تتحلى به منها

وتخلّ عما يجب عليك أن تتخلى عنه منها..

هذه نصوص من كلام ربنا جل جلاله.. يذكر لنا صفات يحبها..

وعلينا أن نجاهد أنفسنا من أجل التحلي بها..

وصفات أخرى في المقابل لا يحبها، ولا يحب لنا أن نتصف بها..

فلينظر كل امرئ منا أين هو من هذه وتلك..

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (آل عمران: ١٣٤).

{وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (آل عمران: ١٤٠).

{وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} (آل عمران: ١٤٦).

{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (آل عمران: ١٣٤).

{فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (آل عمران: ١٥٩).

{إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}.

{إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً}.

{لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً}.

{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}.

{سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ.. أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ.. فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً.. وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (المائدة: ٤٢).

{وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}.

{وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.

{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}.

{كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (الأنعام: ١٤١).

{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ.. وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا.. إِنَّهُ لايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (الأعراف: ٣١).

{ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.

{إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}.

{فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}.

{لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.. إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ}.

{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}.

{إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (القصص: ٧٦، ٧٧).

{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}.

{وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ.. وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً.. إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (لقمان: ١٨).

{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

{لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (الحديد: ٢٣).

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} (الصف: ٤).

{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ.. وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا. أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ.. فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ.. وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (التوبة: ٢٤).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ.. فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.. أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ.. يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ.. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (المائدة: ٥٤).

١ – ثبات المسلم علي الحق المبين:

إن أهل الحق في كل زمان ومكان هم أعظم الناس صبراً على أقوالهم ومعتقداتهم، وإن أصابهم في سبيل ذلك ما أصابهم، وهذا هو الثبات على الحق، ولقد كان الثبات على الحق سيما أهل الحق منذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامية المباركة حين جهر النبي بدعوته فاستجاب له نفر قليل، فابتلوا وعذبوا وساومهم الأعداء ليرتدوا عن دينهم فما زادهم ذلك إلا ثباتاً واستمساكاً بالحق الذي هداهم الله إليه.

وهذا الذي ذكرنا من ثباتهم على الحق وشدة تمسكهم به شهد به الأعداء قبل الأصدقاء، ألم تر إلى أبي سفيان رضي الله عنه حين سأله هرقل – ملك الروم – عن أصحاب النبي ﷺ : هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟! فقال – وكان وقتها مشركاً: لا، قال هرقل: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: أما أهل السنة والحديث فما يعلم أحدٌ من علمائهم ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبراً على ذلك، وإن امتحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن.

وهذا حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمة والصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة، حتى كان مالك رحمه الله يقول: لا تغبطوا أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء.

يقول: وإن الله لا بد أن يبتلي المؤمن، فإن صبر رفع درجته كما قال تعالى:**{الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}**[1].

وقال تعالى:**{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}**[2].

وقال تعالى:**{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**[3].

(١) العنكبوت: ١ – ٣.

(٢) السجدة: ٢٤.

(٣) سورة العصر.

ولا شك أن الفتن التي يتعرض لها المؤمنون في هذه الأزمنة المتأخرة كثيرة متنوعة، فهناك فتن الشبهات والشهوات، وفتنة المال والجاه، وفتنة الشهرة، وهناك فتنة غلبة الظلمة والطواغيت وما يمارسونه مع المؤمنين من سجن واعتقال وتعذيب وتكذيب وغير ذلك من الفتن الكثيرة، نسأل الله العافية.

ولأن القلوب تتقلب، فقد كان رسول الله ﷺ يسأل ربه الثبات على الحق: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»**.

وقد ذكر العلماء عوامل وأسباباً للثبات على الحق، نذكر منها على سبيل الإشارة ما يلي:

1- اللجوء إلى الله وإعلان الافتقار إليه ودعاؤه: فليس بالعبد غناء عن ربه طرفة عين، فإن لم يثبته ربه ضل وهلك وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ :**{وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً}**.

ولأجل هذا كان رسول الله ﷺ يدعو ربه أن يثبت قلبه على دينه، وكثيراً ما كان يقسم فيقول: **«لا ومقلب القلوب»**.

إن استشعار العبد فقره وحاجته إلى ربه ومولاه يجعله دائم الارتباط به، دائم الإقبال عليه، فيتولاه ربه ويصرف عنه السوء والفحشاء والفتن.

ومن أسباب الثبات:

2- تدبر القرآن ومدارسته والعمل به:

قال الله تعالى:**{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}**.

وقال:**{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}**.

وإن القرآن يشتمل على الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد كما قال تعالى:**{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ}** وغيرها من الآيات، كما أن مدارسته وسماعه تزيد الإيمان، كما قال تعالى:**{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}**[1].

(١) التوبة: ١٢٤.

وقال تعالى عن المؤمنين:**{وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً}** والقرآن شفاء لأمراض الشبهات والشهوات كما قال تعالى:**{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}** وقال تعالى :**{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ}** فإذا سلم القلب من أمراض الشبهات والشهوات كان أقوى على مواجهة الفتن، وأكثر ثباتاً على الحق.

كما أنه يشتمل على قصص السابقين التي تبشر المؤمنين بالنصر والتمكين وتبين عاقبة الظالمين والمجرمين:**{وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}** فلهذه الأسباب وغيرها كانت مدارسة القرآن من أعظم أسباب الثبات.

ومن أسباب الثبات على الدين:

١- العمل بطاعة الله والكف عن معاصيه:

فالطاعات أغذية للقلوب، كما أن المعاصي سموم تصيب القلب في مقتل، قال الله تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}** (الأنفال: ٢٤). وقال تعالى:**{وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً}** (النساء: ٦٦). فمهما أطاع العبد ربه والتزم أوامره، وانتهى عما نهى عنه كان قوياً في مواجهة الفتن، ومهما كان مفرطاً في اتباع الشرع، مقبلاً على المعاصي كان ضعيفاً أمام الفتن، قال بعضهم:

رأيت الذنوب تميت القلوب ::: وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ::: وخير لنفسك عصيانها

٢- كثرة ذكر الله عز وجل: فالله جل وعلا يقول:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً}(1).

وقال الله عز وجل:**{ألا بذكر الله تطمئن القلوب}**.

ألم تر أيها الحبيب أن الله عز وجل لما أرسل موسى وهارون إلى فرعون أوصاهما بالإكثار من ذكره سبحانه، فقال:**{وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي}**.

وأمر الله المؤمنين عند ملاقاة الكفار بأن يكثروا من ذكره فقال:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** (الأنفال: ٤٥).

فكثرة الذكر تقوي القلب والبدن، فيستعان بالذكر في مواجهة الفتن والابتلاءات وعند ملاقاة الأعداء.

---

(١) الأحزاب: ٤١ - ٤٣.

٣- القرب من العلماء العاملين:

فإن العلماء هم ورثة الأنبياء الذين يأخذون بأيدي أتباعهم إلى الله، قال أنس رضي الله عنه: وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا.

كيف لا وقد قال الله عز وجل في حق رسوله مع أمته:**{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ}**[(١)].

قال الشيخ سعيد حوى رحمه الله معلقا على مقولة أنس رضي الله عنه:

في الحديث ما يدل على أن الرقي القلبي منوط بالاجتماع مع أهل الحق، والارتباط الروحي بهم، ومن هنا نؤكد على الانتساب للعلماء العاملين، والربانيين المخلصين.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله واصفاً شيخه ابن تيمية رحمه الله: وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحاً وقوة ويقينا وطمأنينة.

وهناك أسباب أخرى للثبات على الحق نعرض لها في مقال قادم بإذن الله، نسأل الله الكريم أن يثبت قلوبنا على دينه. وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين.

٢ – صفات يحبها الله ويجب أن نجاهد أنفسنا من أجل التحلي بها:

الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين.

{فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}.

{وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}.

{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

٣ – صفات لا يحبها الله ولا يحب أن نتصف بها:

{وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}.

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}.

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً}.

{لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً}.

{وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}.

{وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.

{إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}.

{ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ}.

{لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ}.

{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}.

{إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ}.

{إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ}.

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (المائدة: ٥٤).

* * * * *

المبحث العاشر

تقوى المسلم لله أساس الدين والوصول لمراتب اليقين

التقوى شيء عظيم ومنزلة سامية وهي أساس الدين ولا حياة إلا بها بل إن الحياة بغيرها لا تُطاق، بل هي أدنى من حياة البهائم فليس صلاحٌ للإنسان إلا بالتقوى، هي كنزٌ عزيز لئن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف وخيرٍ كثير ورزق كريم وفوز كبير وغنمٍ جسيم وملكٍ عظيم، فكأن خيرات الدنيا والآخرة جُمِعَت فجُعِلَت تحت هذه الخصلةً الواحدة التي هي التقوى..!

وتأمل ما في القرآن من ذكرها، فكم عُلِّق بها من خير، وكم وُعِد عليها من خير وثواب، وكم أضيف إليها من سعادة..!

هذه التقوى ظلالٌ طاب العيش فيها.. هذه التقوى حياة كريمة.. فما هي وما تعريفها وكيف تحصل التقوى وماهي ثمراتها وما درجاتها وماهي الأسباب المعينة عليها..؟

التقوى هي الاسم من التقى والمصدر الاتقاء وهي مأخوذة من مادة وقى فهي من الوقاية، وهي ما يحمي به الإنسان نفسه، وتدل على دفع شيء عن شيء لغيره، فالوقاية ما يقي الشيء، ووقاه الله السوء وقاية أي حفظه..

وأما المعنى الشرعي فقد ذكر العلماء في تعريفها عدة عبارات فمن ذلك قولهم..

- أن تجعل بينك وبين ما حرم الله حاجباً وحاجزاً..

- امتثال أوامر الله واجتناب النواهي فالمتقون هم الذين يراهم الله حيث أمرهم، ولا يقدمون على ما نهاهم عنه..

- التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل..

- التقوى أن يجعل المسلم بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك وذلك بفعل طاعته واجتناب معاصيه..

- وقد سأل عمر رضي الله عنه أُبي بن كعب فقال له: ما التقوى؟ فقال أُبي: يا أمير المؤمنين أما سلكت طريقاً فيه شوك؟ قال: نعم.. قال: ما فعلت؟.. قال عمر: أشمّر عن ساقي وأنظر إلى مواضع قدمي وأقدم قدما وأؤخر أخرى مخافة أن تصيبني شوكة.. فقال أُبي ابن كعب: تلك التقوى..!. فهي تشمير للطاعة ونظر في الحلال والحرام وورع من الزلل ومخافة وخشية من الكبير المتعال سبحانه وتعالى..

- التقوى هي أساس الدين، وبها يرتقى إلى مراتب اليقين، هي زاد القلوب والأرواح فبها تقتات وبه تتقوى وعليها تستند في الوصول والنجاة..

- قال ابن المعتز:

خـلّ الـذنوب صـغيرها ::: وكبيرهـا فهـو التقـى
واصـنع كمـاشٍ فـوق أرض ::: الشـوك يحـذر مـايرى
لا تحقـرنّ صـغيرة ::: إن الجبـال مـن الحصـى

- قال ابن رجب - رحمه الله: أصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه..

- وتارة تضاف التقوى إلى اسم الله عز وجل كقوله**{وَاتَّقُوا اللَّهَ}**، فإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه فالمقصود اتقوا سخطه وغضبه، ليس المقصود اتقوا القرب منه ولا اتقوا شرعه لكن اتقوا عذابه وسخطه، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي كما قال تعالى:**{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}**، وقال سبحانه:**{هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى}**، هو أهلٌ أن يتقى وأن يخشى وأن يهاب وأن يجلّ وأن يعظّم سبحانه وتعالى وأن يعظم في صدور عباده حتى يعبدوه ويطيعوه؛ لأنه المستحق للجلال والإكرام وهو صاحب الكبرياء والعظمة وقوة البطش..

- وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله أو إلى مكان العقاب كالنار**{وَاتَّقُوا النَّارَ}**، أو إلى زمان العقاب كيوم القيامة**{وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}** (البقرة: ٢٨١).

- ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها أيضاً فعل المندوبات وترك المكروهات والمشتبهات فقول الله تعالى:**{الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}** (البقرة: ١، ٢) يشمل ذلك كله..

- قال ابن القيم - رحمه الله - في التقوى في تعريفها الشرعي: حقيقتها العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً أمراً ونهياً، فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالآمر وتصديقاً بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالناهي وخوفاً من وعيده..

- قال طلق بن حبيب: إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نورٍ من الله، تخاف عقاب الله.. وهذا من أحسن ما قيل في حدّ التقوى..

- والتقوى أيضاً امتثال الأوامر واجتناب النواهي وتكون على ثلاث مراتب:

١ - التوقّي من العذاب المخلّد صاحبه وهو المشرك الكافر، وذلك باتباع التوحيد وكلمة التوحيد وهي المقصودة بقوله تعالى:**{وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}**.

٢ - أن تتقي كل ما يكون سبباً للعذاب في النار ولو لبرهة يسيرة من كبائر وصغائر، وهو المتعارف عليه في الشرع.

٣ - أن يتنزه العبد عن ما يشغل نفسه عن الله تعالى ولو كان مباحات تشغله عن السير لله أو تُبَطّئ سيره، فهذه مرتبة الكُمّل وهذه المرتبة العالية، فإن الانشغال بالمباحات يشغل القلب عن الله عز وجل وربما يؤدي إلى القسوة وبالتالي يؤدي إلى الوقوع في المكروهات والمكروهات تؤدي للوقوع في المحرمات، وهذا مسلسل يعرفه الإنسان من نفسه في عدد من الأحيان.

قال بعض الواعظين: اعلم أولاً بارك الله في دينك وزاد يقينك أن التقوى في قول أهل إصلاح الباطن تنزيه القلب عن الذنب حتى تحصل لك من قوة العزم على تركه وقاية بينك وبين سائر المعاصي، وتتوطّن نفسك على ترك كل قبيح.

والتقوى تُطلَق في القرآن الكريم على عدد من الأمور:

١ - تأتي بمعنى الخشية والهيبة كما قال تعالى:**{وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}** أي اخشوني وهابوني، وكذلك في قوله:**{وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}**أي خافوا هذا اليوم وما فيه**{وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً}**.

٢ - تأتي بمعنى الطاعة والعبادة كقوله تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** يعني أطيعوه حق الطاعة واعبدوه حق العبادة، وهو قول مجاهد: أن يطاع فلا يُعصَى وأن يُذكر فلا يُنسى وأن يُشكر فلا يُكفَر.

٣ - تطلق على التنزه عن الذنوب وهذه هي الحقيقة في تعريف التقوى في الاصطلاح، قال عز وجل:**{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ}**، يتقه أي يترك المعاصي والذنوب، فترك الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى فعلمنا أن حقيقة التقوى شيء إضافي غير الطاعة والخشية في هذا النص وهو تنزيه القلب عن كل قبيح.

٤ - وكذلك يقال في مراتب التقوى أو حالات التقوى:

١ - اتقاء الشرك. ٢ - اتقاء البدعة. ٣ - اتقاء المعصية.

والله عز وجل ذكر التقوى ثلاث مرات في آية واحدة، فقال سبحانه وتعالى:**{لَيْسَ عَلَى**

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا}، فهذا التكرار ليس تكراراً مجرداً، فقال بعضهم: التقوى الأولى تقوى عن الشرك، والثانية تقوى عن البدعة، والثالثة عن المعاصي، ويقابل الأولى التوحيد، والثانية السنة، والثالثة الطاعة، فجمع بين هذه المنازل الثلاث (منزلة الإيمان ومنزلة السنة ومنزلة الاستقامة والطاعة).

وكذلك التقوى يدخل فيها كما تقدم الحذر من المكروهات والمشتبهات، فلا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس، ومن الناس من يتقي نفسه الخلود في النار، هذه همته، ولا يتقي المعاصي التي تدخله جهنم ولو حيناً من الدهر فيقر بالتوحيد ويصدق بالرسول ﷺ، ويقول: أنا مسلم، ويأتي بأركان الإسلام والإيمان لكن لا يحرص على أن يقي نفسه دخول النار بالكلية فيفرط في واجبات ويفعل محرمات..، فينبغي أن يعلم أي درجة من التقوى هو عليها، وهذا لا يستحق صاحبه اسم المتقي بإطلاق. لماذا..؟ لأنه متعرض للعذاب مستحق للعقاب بما يفعله إلا أن يتداركه الله برحمته ويدخل في المشيئة، لأن أهل التوحيد ممكن أن يدخلوا في المشيئة، أي يعفو الله عنهم وإن شاء عذبهم بحسب أعمالهم حتى يخرجوا من النار يوماً من الأيام.

ومن الناس من يتقي الكفر وكبائر الذنوب ويعمل طاعات ويفعل واجبات، لكن لا يمتنع من الصغائر ولا يكثر من النوافل، فهذا أقرب للنجاة لكن لا تستطيع أن تطلق عليه أيضاً أنه شخص تقي أو متقي وقد قال تعالى:**{إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}**، وقوله ﷺ : **«الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات»**، لكن قد لا تكفي، قد تكون الصغائر كثيرة جداً بحيث أن هذه لا تكفي للتكفير، ولم يأخذ هذا الشخص جُنّته من النار ووقايته منها بالكامل فهناك تقصير ووقوع في الصغائر، وقد يؤدي إلى الاجتراء على الكبائر فيما يُستَقبل. ولذلك الله عز وجل قال:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}**، يعني كلها، ليس أن تتقي الخلود فقط في جهنم، أو تتقي الكبائر فقط، بل لابد من اتقاء الصغائر أيضاً، اتقاء كل مايؤدي للدخول في النار، أن تجعل بينك وبين النار جنّة حصينة بهذه الطاعات.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (تمام التقوى أن يتقي اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة وحتى يترك ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً)، طبعاً ليس المقصود أن يترك كل الحلال لكن الحذر يقتضي أحياناً ترك شيء من المباح خشية الوقوع في الحرام. فإن الله قد بين للعباد أنه من يعمل مثقال ذرة شرّاً يره، فلابد أحياناً حتى تتقي الذرة من الشر أن توسع

الدائرة لتبتعد، ولذلك لا يرتع غنمه فيه وإنما يبتعد عنـه، **«ألا وإن لكل ملكٍ حمى وإن حمى الله محارمه، ومن اقترب من الحمى أوشك أن يقع فيه»**.

وقال الحسن رحمه الله: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

وقال الثوري: إنما سمّوا متقين؛ لأنهم اتقوا ما لا يُتقى ما لا يُتقى عـادة أو مـا لا يتقيـه أكثر الناس.

فالمتقون تنزهوا عن أشياء مـن الحـلال مخافـة أن يقعـوا في الحـرام فسـمّاهم الله مـتقين، والمتقي أشد محاسبة لنفسه من محاسبة الشريك لشريكه، ولذلك يخلي جميع الـذنوب ويتركهـا كما قال ابن المعتمر:

خـــلِّ الــــذنوب صـــــغيرها ::: وكبيرهـــــا فهـــــو التقـــــى
واصـــــنع كمـــــاشٍ فـــــوق أرض ::: الشـــــوك يحـــــذر مـــــايرى
لا تحقـــــــرنّ صـــــــــغيرة ::: إن الجبـــــال مـــــن الحصـــــى

لكن هنا مسألة مهمة وهي فائدة العلم في قضية التقوى، لابد أن تعرف أولاً ماهو الذي تتقيه..

١ – أن تبين لك ما يجب عليك أن تتقي، تعلم أحكام الدين، تعلم الحلال والحرام..

٢ – وكذلك الإنسان من جهله يمتنع من حلال خالص ظناً منه أنـه حـرام، مـن الجهـل ولا يكون في هذا ورع ولا تقوى ولكن حرمان نفس بدون فائدة..

قال بعضهم: إذا كنت لا تحسن تتقي؛ أكلت الربـا، وإذا كنـت لا تحسـن تتقـي؛ لقيتـك امرأة ولم تغض بصرك، وإذا كنت لا تحسن تتقي؛ وضعت سيفك علـى عاتقـك، أي تـدخل في الفتن بالجهل، ودخل مسلمين كُثر عبر التاريخ الإسلامي في معارك بين المسلمين لـو كـان عندهم علم وفقه ما دخلوا فيها، مع أن بعضهم قد يتورع عـن أشـياء دقيقـة جـداً، لكـن في الدماء لم يتورع للجهل.

مسألة الاستصغار التي تقع من كثر من الناس للـذنوب ويراهـا سـهلة وليسـت بشـيء، كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار، **«إياكم ومحقرات الذنوب»**، النبي ﷺ حذر منها وشبهها بالأعواد التي يجمعها المسافر أو النازل في مكـان فيجمـع الأعـواد فيوقـد نـاراً فهـذه أعواد ممكن أن توقد عليه نار جهنم!

لا تحقرنّ مـــن الـــذنوب صـــغيرة ::: إن الصـــغير غـــداً يعـــودُ كـــبيرا
إن الصغير ولـــو تقـــادم عهـــــده ::: عـــــن الإلـــه مســـطّراً تســـطيرا

فازجر هواك عن البطالـة لا تكـن	**:::**	**صـعب القيـادِ وشمِّـرَنّ تشـميرا**
إن المحـب إذا أحـبّ إلـهه	**:::**	**طـار الفـؤاد وأُلهِـم الـتفكيرَ**
فاسأل هـدايتك الإلـه فتتئـد	**:::**	**فـكفى بربـك هاديـاً ونصـيرا**

والإمام أحمد رحمه الله يقول: التقوى هي ترك ما تهوى لما تخشى فتترك هـواك لأن لـك خشية من العذاب ويوم طويل، وقيل أيضاً في التقوى: أن لا يراك حيـث نهـاك ولا يفتقـدك حيث أمرك.

وأما بالنسبة لمنزلة التقوى وشرف هذه المنزلة فإنه شيء عظيم ويكفي أن التقوى وصـية الله للأولين والآخرين، قال تعالى:**{وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّـاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ}**(١).

قال القرطبي رحمه الله: الأمر بالتقوى كان عاماً لجميع الأمم، وقال بعض أهـل العلـم: هذه الآية هي رحى آي القرآن كله، لأن جميعه يدور عليها، فما من خـير عاجـل ولا آجـل، ظاهر ولا باطن إلا وتقوى الله سبيل موصل إليه ووسيلة مبلِّغة لـه، وما من شـر عاجـل ولا ظاهر ولا آجل ولا باطن إلا وتقوى الله عز وجل حرز متين وحصـن حصـين للسـلامة منـه والنجاة من ضرره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمـه الله في حـديث : **«اتقِ الله حيثما كنت»**: مـا أعلـم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها قـال تعـالى:**{وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُـوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ}**، ووصى النبي ﷺ معاذاً لمـا بعثـه إلى الـيمن فقـال: **«يا معاذ اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»** (٢)..

وكان معاذ رضي الله عنه من النبي ﷺ بمنزلـة عاليـة فإنـه قـال لــه: يـا معـاذ والله إنـي لأحبك، وإذا كان يحب معاذاً فهل ستكون الوصية وصية عابرة؟ والإنسـان يجتهـد في وصـية من يحب أكثر من اجتهاده في وصية من لا يحبه تلك المحبة، ومعاذ أقسم لـه النبي ﷺ أنه يحبـه فكيف ستكون الوصية لـه؟ ستكون وصية عظيمة جداً، ولذلك قال لـه: يا معـاذ.. اتـق الله حيثما كنت..، وهو من كبار الصحابة وسادات القوم وأعلـم الأمـة بـالحلال والحـرام وكـان النبي ﷺ يثق به جداً وأرسله لمناطق كثيرة ولليمن وولاّه وجعله قاضياً وحاكماً، ويحشـر يـوم القيامة أمام العلماء برتوة، معاذ بن جبل بعثه داعياً ومفتيـاً وحاكمـاً إلى أهـل الـيمن، وكـان

(١) النساء: ١٣١.

(٢) مسند أحمد.

يُشبّه بإبراهيم عليه السلام؛ لأن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين..، وابن مسعود من قدامى المهاجرين ورأس في العلم والزهد ويشهد لمعاذ بهذه الشهادة ومع ذلك يقول له ﷺ : **«يا معاذ اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»** [(١)].

ماذا نفهم من وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه بالتقوى مع أن معاذاً بهذه المنزلة؟

إن المرء محتاج للتقوى ولو كان أعلم العلماء، وأتقى الأتقياء، يحتاج إلى التقوى لأن الإنسان تمر به حالات، ويضعف في حالات، يحتاج إلى التقوى للثبات عليها، يحتاج إلى التقوى للازدياد منها. اتق الله حيثما كنت، في السر والعلانية، أتبع السيئة الحسنة تمحها، لماذا بدأ بالسيئة؟ لأنها هي المقصودة الآن، عند التكفير الاهتمام يكون بالسيئة، لا لفضلها، ولكن لأنها المشكلة التي ينبغي حلّها. وخالق الناس بخلق حسن..، هناك أشياء بين العبد وخالقه وبينه والناس، هذه وصية جامعة. والكيّس لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو به السيئات، وليس المقصود الآن هو فعل الحسنات، وإنما كيف تكفر السيئة، لذلك بدأ فيها، وإلا فقد دلّ على حسنات كثيرة في أحاديث أخرى ولم يذكر السيئة فيها؛ لأن المقصود تعليم الناس الحسنات، لكن هنا المقصود تعليم الناس كيفية تكفير السيئة.

الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضراً أمره بما يصلحه، وكأن الذنب للعبد حتمٌ ولذلك قال: **«اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها»**، إذاً تحرص على التقوى وإذا حصل وأذنبت تعرف الطريق، اعمل الحسنات لتمحو ما ارتكبت من السيئات. فهذه الوصية لحقوق الله وحقوق عباده من النبي ﷺ وهو كذلك ﷺ أوصى أصحابه لما أحسوا بدنو أجله، وقال العرباض: وعظنا رسول الله ﷺ بعد الغداء موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إنها موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا يارسول الله؟ قال: **«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة.....»** الحديث، إذاً أول شيء بدأ به تقوى الله، وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني؟ قال: **«أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل شيء»** [(٢)]، وفي لفظٍ آخر: **«أوصيك بتقوى الله فإنها جماع كل خير»**.

وكذلك قال ﷺ لأبي ذر: **«اعقل يا أبا ذر ما أقول لك بعد»** ستة أيام، كل يوم يقول له: **«اعقل يا أبا ذر ما أقول لك بعدُ»** فلما كان اليوم السابع قال: **«أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته»** [(٣)] ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها وكان أبو بكر يقول في

---

(١) مسند أحمد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد رحمه الله وحسنه الألباني رحمه الله.

(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله وهو في صحيح الجامع.

خطبته: (أوصيكم بتقوى الله)، ولما حضرت الوفاة دعا بالوصية لعمر وقال: (اتق الله يا عمر)، وعمر كتب بها لابنه فقال: (أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل)، واستعمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً على سرية فقال: (أوصيك بتقوى الله الذي لا بد لك من لقائه)، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: (أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثيب إلا عليها فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين)، ولما ولّي خطب وحمد الله وأثنى عليه وقال: (أوصيكم بتقوى الله عز وجل فإن تقوى الله عز وجل خلف من كل شيء وليس من تقوى الله خلف)، التقوى يمكن أن تعوّض أي شيء، لكن إذا فقدت لا يعوضها شيء.

وقال رجل ليونس بن عُبَيد: أوصني قال: (أوصيك بتقوى الله والإحسان فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)، وكتب رجل من السلف إلى أخيه: (أوصيك وأنفسنا بالتقوى فإنها خير زاد الآخرة والأولى واجعلها إلى كل خير سبيلك ومن كل شر مهربك، فقد توكل الله عز وجل لأهلها بالنجاة مما يحذرون والرزق من حيث لا يحتسبون)، وكتب ابن السمّاك الواعظ إلى أخ له: (أما بعد أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيُّك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حال، في ليلك ونهارك وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنك ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرك، وليكثر منه وجلك والسلام).

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ::: تقلب عرياناً وإن كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ::: ولا خير فيمن كان لله عاصياً

لباس التقوى العمل الصالح، الحياء، السمت الحسن، العلم، لكن البعض فهم فقال: هذا لباس التقوى الخشن من الثياب..!، يلبس الإنسان ما وجد، نعم.. يتواضع في الملبس، ومن ترك اللباس تواضعاً لله؛ فإن الله سبحانه وتعالى يكافئه يوم القيامة بالحلل العظيمة وبالحور العين.

٣ – التقوى خير زاد**{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ}**.

انظر إلى محبة الله لخلقه وكرمه فإنه أمرهم بالتزود في السفر وهذه قضية دنيوية، ولكن يرشدهم إلى ما يستفيدون منه حتى في الدنيا، قال:**{وَتَزَوَّدُوا}**.،. قد تهلك في الطريق وقد تمد يدك للناس وهذا شيء مكروه.،. تزودا.. فإن خير الزاد التقوى.. واتقون يا أولي الألباب، فلما أرشدهم إلى زاد الدنيا في السفر؛ أرشدهم ونبههم إلى قضية زاد الآخرة فقال:**{فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}**، فهذا زاد الآخرة اتقاء القبائح، والآية هذه لها سبب نزول وهي أن أهل اليمن كانوا لا يتزودون ويقولون: نحن متوكلون ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا فيكونون كلاً على

الناس ويمدون أيديهم فنزلت فيهم:{ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**} وخافوا عذاب الله يا أولي الألباب..

٤ – ثم إن أهل التقوى هم أولياء الله في الحقيقة{**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**}،{**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**}، فالمتقون هم أصحاب الولاية حقاً، المجتهدون في فعل الطاعات والنواف: ((ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه)) ومن هنا يتبين كذب ودجل ادعاء من قالوا: إنهم أولياء الصوفية وهم يرقصون ويضربون بالطبل في الموالد، ويتمايلون ويتساقطون ويزعمون الصرع، ويعاشرون المردان والنسوان كما يقول عنهم العلماء، هؤلاء هم مشايخ الصوفية، ويقولون: نحن أولياء الله، ويستغاث بهم..!!، سجدوا خلف من يزعمون أنه ولي فأطال السجود في الصلاة ثم رفعوا رؤوسهم فإذا هو ساجد، ورفعوا رؤوسهم أخرى فإذا هو كذلك، وبعد الصلاة قالوا: خشينا عليك فأراهم كمّي ثوبه مبتلة بالماء قالوا أين كنت؟ قال: استنجد بي ناس في عرض البحر على وشك الغرق فأنجدتهم ثم عدت إلى صلاتي..!، فإذاً مسألة الأولياء هؤلاء قصة طويلة في عالم الخرافة والبدع، ولذلك الله عز وجل جعل لنا فرقاناً نفرق به بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان..، فقال:{**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**}،{**إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**}.

٥ – وجعل الله عز وجل التقوى هي الميزان عنده في التفاضل بين الناس فقال عز وجل:{**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**}، وسُئِل النبي ﷺ من أكرم الناس؟ من أرفعهم حسباً؟ فقال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام**»، قالوا: ليس عن هذا نسأل، بيّن لهم بعد ذلك فقال: عندما سُئِل من أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم لله**» [1]، فالفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب للقبائل ولذلك كما قال الشاعر:

فقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ ::: وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وذكِر أن سلمان رضي الله عنه كان يقول:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه ::: إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ

ومن شرف التقوى أن الله أمر بالتعاون من أجلها{**وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى**}، ومصالح العباد لا تتم إلا بها. وكذلك فإن التقوى منبع الفضائل فالرحمة والوفاء والصدق والعدل والورع

(١) رواه البخاري.

والبذل والعطاء كلها من ثمرات شجرة التقوى إذا أينعت في قلب المؤمن وهي الأنس من الوحشة والمنجية من عذاب الله، دخل عليٌّ رضي الله عنه المقبرة فقال: يا أهل القبور ما الخبر عندكم، إن الخبر عندنا أن أموالكم قد قسمت وأن بيوتكم قد سكنت وأن زوجاتكم قد زوجّت، ثم بكى ثم قال: والله لو استطاعوا أن يجيبوا لقالوا: إنا وجدنا أن خير الزاد التقوى.

١ – علامات التقوى:

١ – إذا تخلّص المسلم من آفات الغفلة والاستخفاف بالمنكر من الأقوال والأفعال، والضيق بالمنكر إذا حصل، والتأذي منه إذا وقع، والفزع إلى الله طالباً الخلاص، هذا من صفات المتقين، إذا هو نفسه وقع في المعصية لا يمكن أن يستريح حتى يعود إلى الله طالباً الصفح والمغفرة مما ألّم به والدليل على ذلك قوله عز وجل:**{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}**، فلا يمكن أن يجدوا أمناً ولا طمأنينة إلا بالخروج من تلك الحال وذلك بالاستغفار والتوبة إلى الله.

٢ – التقي دائماً يذكر ربه، لأن ذكر الله مطردة للشيطان والوسوسة، مطهرة لكل ما يدخل في الإنسان من رجس أو دنس من كلاب الشهوات أو الشبهات التي تغير على قلبه والله عز وجل قال:**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}** (الأنفال: ٢ – ٤).

كيف تكون تقيّاً؟

١ – أن تحب الله أكثر من أي شيء.

٢ – أن تستشعر مراقبة الله دائماً.

٣ – أن تعلم عاقبة المعاصي.

٤ – أن تتعلم كيف تقاوم هواك وتتغلب عليه.

٥ – أن تدرك مكائد الشيطان ووساوسه.

وهذه الأشياء سهلة بالقول وصعبة في التطبيق..، فبعض الناس يغفل وينسى مراقبة الله له، وينسى حديث **«اعبد الله كأنك تراه»** [1]............

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل ::: خلوتُ ولكن قل عليّ رقيبُ

(١) صحيح البخاري ٤٨.

ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة ::: ولا أنّ ما يخفى عليه يغيبُ

وأما مسألة معرفة مافي الحرام من المفاسد والآلام فإن الإنسان يكفي أن يتأمل فيما حصل للكبار، وما حصل للأقوام السابقة، ما الذي أخرج الأبوين من الجنة؟ من دار النعيم واللذة والسرور إلى دار الآلام والأحزان..؟؛ المعصية..!.. فالحرام يترتب عليه مفاسد ومصائب..

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسخ باطنه وظاهره فجعله في أقبح صورة وبدّله بالقرب بعداً وبالرحمة لعنة وبالجنّة ناراً تلظّى، فهان على الله غاية الهوان وصار فاسقاً مجرماً قاد البشرية إلى كل فساد وشرّ؟؛ المعصية..!

ما الذي أغرق أهل الأرض جميعهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال..؟، ما الذي سلّط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم صرعى على سطح الأرض..؟، ما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطّعت قلوبهم في أجوافهم..؟، ما الذي رفع قرية سدوم.. قرية قوم لوط.. حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأتبعها بحجارة وجعل مكانها شيئاً منتناً لا يكاد يوجد فيه حياة..؟، وما الذي أرسل على قوم شعيب عذاب الظُّلّة، لما صار فوق رؤوسهم أمطرهم ناراً تلظّى..؟، وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم تعرض عليها صباح مساء؟ فالأجساد للغرق والأرواح للحرق والموعد يوم القيامة..!

فتأمل مافي الذنوب من الآلام والمصائب؛ يقود إلى التقوى ولو كان فيها لذّة.....

تفنى اللذاذة ممن نال لذهًا ::: من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبّتها ::: لا خير في لذة من بعدها النار

وكذلك فالإنسان لابد أن يتعلم كيف يغالب هواه وابتداءً من معالجة الخواطر، أول ما تأتي الخاطرة بالمعصية أو بالشر يطردها، وهذا هو العلاج الناجع؛ أن الإنسان يدافع الهوى والخاطرة ويتغلّب عليها، ولا بأس أن يفطم نفسه عن المعاصي ولو كان ذلك شيئاً مكروهاً بالنسبة له، فالصبر على الحرام ليس سهلاً بل فيه ألم لكن يعقبه لذّة وراحة يوم الدنيا..

ما إن دعاني الهوى لفاحشةٍ ::: إلا نهاني الحياء والكرمُ
فلا على فاحش مددت يدي ::: ولا مشت بي لريبة قدمٌ

ولا شك أن هذا كما تقدم فيه غصّة في البداية لكن أحسن من الشوك والغسلين والضريع يوم القيامة، والإنسان أحياناً يترك المعاصي شهامة ورجولة لو تأمل ما فيها من الخسّة..

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتي ::: حتى يواري جارتي مأواها

إذا كان هذا العربي قبل الإسلام يفاخر أنه يغض طرفه عن جارته فبعد الإسلام كيف يجب أن نكون..؟ إذا كان الفرد يمكن أن يترك بعض المعاصي خجلاً من الناس.. فما باله إذا فكر من جهة الله..؟ سيكون الترك أعظم..!

ثم يجب على المرء أن يعرف مكائد إبليس لكي يتقيه وإبليس له عدة طرق في إغواء الناس فينبغي أن ينظر فيها، كيف يشغله مثلاً بالمفضول عن الفاضل وهذا أنزل المراتب وكيف يبدأ به من الشرك أولاً..!

صفات المتقين:

١ - ذكر الله من صفاتهم أنهم يؤمنون بالغيب إيماناً جازماً**{هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}**(١).

٢ - يعفون ويصفحون**{وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}**(٢).

٣ - لا يقترفون الكبائر ولا يصرون على الصغائر، وإذا وقعوا في ذنب سارعوا إلى التوبة منه**{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}** سارعوا مباشرة إلى التوبة والإنابة إذا أصابتهم صغيرة.

٤ - يتحرون الصّدق في الأقوال والأعمال**{وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}**، الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ، والذي صدق به قيل: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.**{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}**(٣)، هذا بيان أن المتقي يصدق.

٥ - يعظمون شعائر الله**{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}**، وما معنى تعظيم شعائر الله؟ أن المرء يعظم حرمات ربه فلا ينتهكها، ويعظّم أوامر الله فيأتي بها على وجهها، ويأتي بأنفس الأشياء، فلو طُلِب منه هدي في الحج أو أضحية استسمنه واستحسنه وأتى به على أحسن وأنفس وأغلى ما يجد، هذا من تعظيم شعائر الله. وكان إشعار الهدي وهو تعليمه بعلامة حتى لا يؤخذ أو إذا ضاع يُعرف هذا ما يفعله الحاج من السنة.

٦ - يتحرون العدل ويحكمون به**{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}**(٤). الآية أساساً في المشركين والمشركون يُكرهون ويبغضُون لأجل شرك

---

(١) البقرة: ٢، ٣.

(٢) البقرة: ٢٣٧.

(٣) البقرة: ١٧٧.

(٤) المائدة: ٨.

والكفر ومع ذلك أمرنا أن نعدل فيهم. وعلي بن أبي طالب لما اختصم مع يهودي، حكم عليه القاضي لما لم يأتِ ببينة، وسُلّمت الدرع لليهودي، فاندهش اليهودي كيف يُحكم له على أمير المؤمنين، والدرع كانت لعلي رضي الله عنه ولم تكن له بيّنة، قال: شهودي الحسن والحسين، قال: لا تجوز شهادة الأبناء للأب، قال: سيّدا شباب أهل الجنة، قال هذا في الجنّة..، فمن دهشة اليهودي مما رأى قاليا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، الدرع درعك، سقطت منك وأنت خارج إلى صفّين، فاختلستها. إذاً إذا رأى الكفار عدل المسلمين يمكن أن يسلموا.

٧ – المتقين يتبعون سبيل الأنبياء والصادقين والمصلحين يكونون معهم،**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}**(١)، فأهل الصدق هم أصحاب المتقين وإخوانهم ورفقاءهم وأهل جلوسهم وروّاد منتدياتهم.

٨ – يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس لأجل حديث : **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»** (٢)، تمام التقوى أن تتقي الله حتى تترك أحياناً ما ترى بعض الحلال خشية أن تكون حراماً، النبي ﷺ كان يرى تمرة فيريد أن يأكلها فيتركها؛ لأنه يخشى أن تكون سقطت من تمر الصدقة. والورع يجب أن يكون ورعاً صحيحاً، فبعض الناس يفعلون الكبائر ثم يتورعون عن الأشياء اليسيرة..!. قال عبد الله بن عمر: " عجبتُ لكم يا أهل العراق تقتلون ابن بنت رسول الله ﷺ ثم تسألون عن دم البعوض"..!!!، فلذلك ينبغي أن يكون الورع على أساس امرئ ترك المحرمات ثم هو آخذ في الإعراض عن المشتبهات؛ ولذلك لما سُئِل الإمام أحمد رحمه الله عن رجل يشتري البقل ويشترط الخوصة أنه يخشى أن تكون هذه التي تربط بها حزمة البقل غير داخلة في البيع فيشترط على البائع ذلك..، قال: ما هذه المسائل..؟!!!، قالوا: فلان يفعل ذلك.. إبراهيم بن أبي نعيم.. قال: هذا نعما.. هذا رجل يليق بحاله.. رجل متقي جداً. وهو الذي سُئِل رحمه الله عن رجل له زوجة وأمه تأمره بطلاقها فقال: إن كان برّ أمه في كل شيء حتى لم يبقَ إلا طلاق زوجته؛ يفعل، ولكن إن كان يبرها بطلاق زوجته ثم يقوم إلى أمه بعد ذلك فيضربها فلا يفعل..!.

٢ – ثمرات وفوائد التقوى:

١ – أنها المخرج من كل ضيق ومصدر للرزق من حيث لا يحتسب المتقي؛ لأن الله وعد ووعد الله لا يتخلف فقال تعالى:**{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ}**. وهذه مهمة جداً في شحّ الوظائف. وحتى يأتيك البديل المباح بعد تركك للعمل

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) مسند أحمد (١٢٠٩٢).

المحرّم ينبغي أن تتقي الله في جميع أمورك.

٢ – تسهيل الأمور، وأن ييسر الله لـه الأسباب**{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً}**.

٣ – ومن أهم ما يُكافأ به المتقي أنه يُعطى العلم النافع من جرّاء التقوى**{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**، فيعلمكم الحلال والحرام ومصالحكم وحفظ أموالكم وما أمركم وما نهاكم عنه ويعلّمكم كل ما تحتاجون إليه، ومن أسباب نقصان العلم ونقص الحفظ وذهاب المسائل وعدم انفتاح النفس للعلم وعدم الحماسة للعلم؛ المعاصي فهي تصد النفس عن العلم. ومن أسباب تحصيل العلم وانفتاح الذهن والقلب والحماس لـه؛ التقوى.

٤ – البصيرة من أعظم ما يرزق به المتقي، فتكون لـه بصيرة وفرقان يفرّق به بين الحق والباطل وأن يكون لـه نور من ربّه يضيء دربه فيحذر الشر ويرجو الخير ويوفّق**{إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}**، الفرقان في اللغة: الذي يفرّق بين الليل والنهار، كالصبح يفرق بين الحق والباطل.

٥ – محبة الله والملائكة للعبد، ومحبة الناس لهذا العبد،**{بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}**، وإذا أحبه نادى جبريل أن يحبه، ويحبه أهل السماء ثم يحبه أهل الأرض،**{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداًّ}** أي مودة منه ومن الملائكة وفي قلوب العباد.

٦ – نصرة الله للمتقي وتأييده لـه وتسديده**{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}**، والمعيّة هذه معية نصرة وتأييد وتسديد، وهو سبحانه وتعالى أعطاها للأنبياء المتقين فقال لموسى وهارون**{لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}**،**{قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}** فهو معه فلا يخاف.

٧ – يرزق بركات من السماوات والأرض، والبركة: تكثير القليل، الكثرة، الزيادة، الخير، العافية،**{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}**، وهذا معناه أنه وسّع عليهم في الخير ويسّره لهم بسبب التقوى**{وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً}**، وكذلك إذا لم تحصل التقوى؛ يظهر الفساد في الأرض**{ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ}** ويحصل التلوث والأمراض والسرطانات (ليذيقهم بعض الذي عملوا جزاءً ونكالا)، وتُنزع البركة بالمعصية.

٨ – البشرى.. سواء كانت ثناء من الخلق، أو رؤيا صالحة من الملائكة عند الموت،**{أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}**. ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، فإن أثنى الناس عليه لعمل ما قصد إظهاره، فإن هذا من عاجل بشرى المؤمن.

٩ – الحفظ من كيد الأعداء، فإن الإنسان لا يخلو من عـدو حاسـد**{وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً}**فيدفع الله عنه شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال التقوى.

١٠ –**{وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُـوا اللَّـهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً}**، فأرشد الله الآباء الذين يخشون ترك ذرية ضعاف بـالتقوى في سـائر شؤونهم لكي يحفظ أبناءهم، ويغاثون بالرعاية الإلهية بل يحفظ فروع الفـروع..!**{وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنـزٌ لَّهُمَا}** ولكن هناك أمر مهم وهو**{وَكَـانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً}** فحفظ الله الأبناء بصـلاح ذلـك الأب..، يقـول محمـد بـن المنكـدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وقريته التي هـو فيهـا والـدويرات الـتي حولهـا فمـا يزالون في حفظ الله وستره..، قال ابن المسيب: يا بني إني لأزيد في صلاتي من أجلك رجـاء أن أُحفَظ فيك وتلا الآية**{وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً}**، طبعاً هو يصلي لله، وابن المسيب أفقه مـن أن يرجو على عمله فقط ثواباً دنيوياً ولكنه يرجو تبعاً للثواب الأخروي أمـراً في الـدنيا والله تعالى كريم يعطي أموراً في الدنيا والآخرة على العبادات.

١١ – التقوى سبب قبول العمل وهذا من أعظم الأشـياء**{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ المُـتَّقِينَ}** أجاب بها الأخ الصالح أخاه الفاجر الذي قتله. وكان بعض السلف يقول: لـو أعلـم أن الله تقبّل مني سجدة واحدة لتمنّيت الموت؛ لأن الله يقول:**{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ المُتَّقِينَ}**.

١٢ – التقوى سبب للنجاة من عذاب الدنيا**{وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}**.

١٣ – التقوى يُجعل للإنسان بها حلاوة وشرف وهيبة بين الخلق؛ لأن الإنسان يحب أن تكون لـه مكانة بين الناس.

ألا إنما التقوى هي العـز والكـرم ::: وحبك للدنيا هو الـذل والسـقم

وليس علـى عبـدٍ تقـي نقيصـة ::: إذا حقق التقوى وإن حاك أو حجم

١٤ – التقوى توصل إلى مرضاة الرب عز وجـل وتكفـير السـيئات والنجـاة مـن النـار والفوز بالجنة وهذا هو قمة المطلوب وأعلى مراد المسلم أن الله عز وجل يدخله الجنة**{وَلَـوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً}**، والنجاة من النار**{ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا}**، والعز والفوقية فوق الخلـق يـوم القيامـة غير عز الدنيا**{زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ}**، فيورثون الجنة بالتقوى كما قال الله عز وجل:**{وَجَنَّـةٍ عَرْضُـهَا السـماوات وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}{تِلْكَ الجَنَّةُ الَتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِياًّ}**، وهؤلاء المتقين لا

يذهبون إلى الجنة مشياً وإنما يذهبون ركباناً موقرين مكرمين؛ لأن الله قال:**{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ}** وقال:**{يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً}**، والوفد يكرم يذهب بهم إلى ملك الملوك سبحانه وتعالى، فيدخلهم جنته**{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً}**، يدخلهم الأنهار**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}**.

والدار الآخرة للمتقين يوم القيامة، ويجمع الإنسان بأحبابه إذا اتقى ربه**{الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ}**، وهؤلاء على سرر متقابلين كما قال الله**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}** فيأتون إلى الجنة زمراً زمراً، مجموعات ووفود إلى الله تعالى مكرمين**{وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً}**.

نسأل الله أن يجعلنا من أهل التقوى، والنهاية لا بد أن تأتي بمفارقة هذه الحياة..

عـــش مـــا بـــدى لـــك ســـالماً ::: في ظـــــل شـــــاهقة القصـــــور

يُســـعى عليـــك بمـــا اشـــتهيت ::: لـــــدى الـــــرواح وفي البكـــــور

فـــــإذا النفـــــوس تقعقعـــــت ::: في ضـــــيق حشـــــرجة الصـــــدور

فهنـــــاك تعلـــــم موقنـــــاً ::: ماكنـــــت إلا في غـــــرور

فالاشتغال في تحصيل التقوى وفعل ما أوجب الله وترك ما حرم الله هو المكسب في هذه الحياة في الحقيقة وإلا فإن كل ما فيها لهو ولعب، والدنيا ملعونة فنسأل الله أن يكفينا شـرها، وأن يجعلنا من المشتغلين بتقواه وأن يؤتي نفوسنا تقواها إنه خير من زكّاها.

* * * * *

المبحث الحادي عشر
المسلم واجتناب الشبهات ومراقبة الخطرات (الورع)

الورع لغة: ورِع، يرِعُ، مأخوذ من مادة وَرَعَ التي تدل على الكفّ والانقباض، والورع في اللغة: العفة وهي الكفّ عن ما لا ينبغي ويقال: تورّع أي تحرّجَ، والورع التقوى.

الورع بالاصطلاح الشرعي: ترك ما يريبك ونفي ما يعيبك والأخذ بالأوثق وحمل النفس على الأحوط، والورع اجتناب الشبهات ومراقبة الخطرات، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الورع: "هو عمّا قد تُخَاف عاقبته وهو ما يُعلَم تحريمه وما يُشَك في تحريمه وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله - فهذا قيدٌ مهم في الأشياء المشكوك فيها -، وكذلك الاحتيال بفعل ما يشك في وجوبه ولكن على هذا الوجه".

وعرف ابن القيم رحمه الله بقوله: " ترك ما يُخشى ضرره في الآخرة".

ومن منازل**{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** منزلة الورع أيضاً وقد قال الله سبحانه وتعالى:**{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}**، وقال عز وجل:**{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}** أي نفسك فطهر من الذنب فكنّى عن النفس بالثوب وهذا قول جماعة من المحققين من أهل التفسير، كما قال غيلان الثقفي:

وإني بحمد الله لا ثوب غادر ::: لبست ولا من غدرة أتقَنّعُ

ولا ريب أن تطهير النفس من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به؛ إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق والمقصود أن الورع يطهر دنس القلب ونجاساته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة.

وقد جمع النبي ﷺ الورع في كلمة واحدة فقال: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**، فهذا يعم الترك لما لا يعنيه من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

وقال إبراهيم: (الورع ترك كل شبهة وترك ما لا يعنيك وترك الفضلات - الأشياء الزائدة).

وروى الترمذي مرفوعاً: **«يا أبا هريرة كن ورعاً تكن أعبد الناس»** [1].

ولا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس، وقال بعضهم: " كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في الحرام".

---

(١) سنن ابن ماجه (٤٢٠٧).

هناك مسألة مهمة جداً في الورع وهي قضية العلم، لأنه لا يمكن التورُّع بدون علم، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلاماً مهماً في هذا؛ قال: " تمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية، فقد يدع الواجبات ويفعل المحرمات ويرى ذلك من الورع، كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعاً – فيأتي مثلاً جيش من المسلمين أميره لا يمكن تغييره وعنده فسق وهو في جهاد يقاتل الكفرة فجاء أحدهم فقال: أنا أتورع أن أجاهد وراء هذا الفاسق، ماذا سيحصل؟؛ يجتاح العدو البلد وتقع الهزيمة في المسلمين. وأحدهم مات أبوه وعنده أموال مشبوهة وعليه ديون فلما جاء الناس يطالبون حقوقهم فقال الابن: أنا أتورّع أن أقضي ديون أبي من الشبهة، فهذا الورع فاسد وهذا الإنسان جاهل، فالجهل إذاً يجعل بعض الناس يتركون واجبات بزعم الورع – ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة – غير مكفّرة – أو فجور ويرى ذلك من الورع، ويمتنع عن قبول شهادة العباد وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفية، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع".

ومن القواعد في الورع ما نبه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال:

(الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهدٌ ولا ورع، وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع)، وقال رحمه الله أيضاً: (أما الورع فإنه الإمساك عما يضر – عن المحرمات – أو قد يضر – الشبهات –، فتدخل فيه المحرمات والشبهات؛ لأنها قد تضر، فإنه **«من اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه»**، وأما الورع عما لا مضرة فيه أو فيه مضرة مرجوحة لما تقترن به من جلب منفعة راجحة أو دفع مضرة أخرى راجحة فجهلٌ وظلمٌ وذلك يتضمن ثلاثة أقسام لا يُتَورَّع عنها: المنافع المكافئة والراجحة والخالصة، كالمباح المحض أو المستحب أو الواجب، فإن الورع عنها ضلالة).

قسّم بعض العلماء الورع إلى ثلاث مراتب فقالوا:

١ - واجب وهو الإحجام عن المحرمات وهذا للناس كافة.

٢ - الوقوف عن الشبهات ويفعله عدد أقل من الناس.

٣ - الكفّ عن كثير من المباحات والاقتصار على أقل الضرورات وذلك للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وتفصيل ذلك الورع عن المباحات التي تشغل عن الله والآخرة ويكون عمله موافقاً للسنّة فلا يتورّع عن الزواج والطعام مثلاً.

والورع كما تقدم إذاً عما هو محرم وعن كل شبهة وعن بعض الحلال الذي يُخشى إذا أخذ منه أن يقع في الحرام وإذا أراد خاتمة الورع وأعلى درجة فيه، فالورع عن كل ما ليس لله تعالى وبالتالي لو أن الإنسان أخذ من المباح بنية صالح (أكل بنية التقوِّي، نام بنية الاستيقاظ لقيام الليل، تزوج بنية النفقة على الزوجة وكسب الولد وإعفاف النفس وتكثير المسلمين....... إلخ..) تنقلب مباحاته إلى طاعات وعبادات وفي هذه الحالة لا يسوغ له التورّع عنها، لكن تتورع عن مباح قد يؤدي إلى حرام أو يشغل قلبك عن الله والدار الآخرة..؛ الورع في هذه الحالة سائغ.

والورع كلما أخذ به الإنسان كان أسرع جوازاً على الصراط وأخفّ ظهراً وتتفاوت في الآخرة بحسب التفاوت في درجات الورع وهو تجنب القبائح لصدق النفس وتوفير الحسنات وصيانة الإيمان وكذلك البعد عن حدود الله سبحانه وتعالى وكذلك، فإن الإنسان المسلم يتنبه من الاقتراب من حدود الله؛ لأن الاقتراب منها يوشك أن يوقعه فيها،**{تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا}**،**{تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا}**، والحدود يراد بها أواخر الحلال حيث نهى عن القربان، والحدود من جهة أخرى قد يراد بها أوائل الحرام، فلا تتعدوا ما أباح الله لكم ولا تقربوا ما حرّم الله عليكم، فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدّي هذه وهو اقتحام الحدود، فمجاوزة الحد في الحلال يمكن أن يوقعه في الكبائر العظيمة.

والإنسان المسلم عليه أن يتورع في الجوانب التي قد يؤدى الولوغ فيها للمهالك سواء في النظر.. في السمع.. في الشم.. في اللسان.. في البطن.. في الفرج.. في اليد.. في الرجل.. السعي.. وهكذا..

والنبي ﷺ قد علمنا الورع فقال: **«الإثم ما حاك في صدرك وإن أفتاك عنه الناس»**[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد وصححه الألباني.

وقال النبي ﷺ : **«إنك لن تدع شيئاً لله عز وجل إلا بدّلك الله به ما هو خير لك منه»**(١).

وجاء عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: **«أربع إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا حفظ أمانة وصدق حديث وحسن خليقة وعفّة في طُعمة»** (٢).

وفي الحديث العظيم أن النبي ﷺ قال: **«الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس»** وفي رواية: **«وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد القلب كله ألا وهي القلب»** (٣).

وكذلك قال النبي ﷺ : **«من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»** (٤).

وحكى لنا النبي ﷺ عن شخصين فيمن قبلنا تورّعا عن شيء اكتشفاه في الأرض فاشترى رجل من رجل عقار له فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني إني اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض بما فيها، فكل منهما تورع عن أخذ الذهب، فتحاكما إلى رجل عاقل فقال: ألكما ولد فقال أحدهما: لي غلام وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقا(٥).

وكذلك قصة الصحابة الذين لم يشيروا إلى الصيد وهم حُرُم، فيقول أبو قتادة رضي الله عنه: " كنا مع النبي ﷺ في القاحة ومنا المحرم ومنا غير المحرم، فرأيت أصحابي يتراءون شيئاً فنظرت – وفي رواية أنهم ضحكوا ولكن لم يشيروا ولم يعينوا – فإذا حمار وحش فوقع سوطه فقالوا: لا نعينك عليه بشيء إنا محرمون، فتناولته فأخذته ثم أتيت الحمار من وراء أكمة فعقرته فأتيت به أصحابي فقال بعضهم: كلوا وقال بعضهم: لا تأكلوا، فأتيت النبي ﷺ وهو أمامنا فسألته فقال: **«كلوه فهو حلال»**، فكيف إذاً تورعوا عن الإشارة والمعاونة وعن الأكل منه.

وكذلك كان النبي ﷺ يتورع عن التمرة يجدها في بيته، فأخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه فقال النبي ﷺ : **«كخ.. كخ..»** ليطرحها، ثم قال: **«أما شعرت**

---

(١) رواه أحمد وقال في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح.
(٢) قال الهيثمي عنه في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) سنن الترمذي (٢٢٣٩).
(٥) رواه البخاري ومسلم.

أننا لا نأكل الصدقة» [1]، وهذا فيه منع الولد أو الحفيد من أخذ التمر الذي لا يجوز له أكله مع أنه صبي صغير غير مكلّف، وأما قصته ﷺ في التمرة يجدها فقد أخرجها البخاري ومسلم أيضاً أنه قال ﷺ : **«إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها»** أي لا يأكلها مع أنه جائع.

وكذلك كان صحابته رضوان الله عليهم فزينب رضي الله عنها حماها الله بالورع في قصة الإفك فمع أنها من ضرائر عائشة وقد وقع المنافقون في عائشة والناس تناقلوا كلام المنافقين وزينب من ضرائر عائشة وكانت تنافسها وتساميها عند النبي ﷺ، ولكن لما جاء الكلام في عائشة مع وجود الداعي للكلام وأنها من الضرار، تقول عائشة رضي الله عنها: كان الرسول ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال: **«يا زينب ما علمتِ.. مارأيتِ؟»** فقالت: (يا رسول الله.. والله ما علمت عليها إلا خيراً) قامت وهي التي كانت تساميني عند النبي ﷺ فعصمها الله بالورع.

وكذلك كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه سمع صوت زمارة راعٍ والإنسان غير مكلّف بما يسمع ولكن بما يستمع إليه، فلا يجوز تقصّد السماع والتلذذ به، فمشى في الطريق بسرعة وابن عمر كان يضع أصبعيه في أذنيه وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول: يا نافع أتسمع فيقول: نعم، فيمضي على حاله واضعاً أصبعيه في أذنيه حتى قلت: لا، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق[2].

وكذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه بلغ من ورعه في تلك القصة العظيمة التي رواها البخاري وهو أفضل الورعين بعد النبي ﷺ كان له غلام يُخرِج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته فلقيني فأعطاني بذلك فهذا الذي أكلت منه. فأدخل أبو بكر يده فقاءَ كل شيء في بطنه[3].

وعن نافع عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد فرض للمهاجرين الأولين أربعة آلاف في أربعة، وفرض لابن عمر ثلاثة آلاف وخمسمائة فقيل له: هو من المهاجرين فلم نقصته من أربعة آلاف؟ قال: إنما هاجر به أبواه؛ لأنه كان صغيراً، ليس هو كمن هاجر بنفسه[4].

وعن ابن شهاب قال ثعلبة بن أبي مالك: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الإمام أحمد وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

مروطاً بين نساء من نساء المدينة فبقي مرطٌ جيد فقال لـه بعض مـن عنـده يـا أمـير المـؤمنين أعطِ هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك، يريدون أم كلثوم بنت علي لأن عمر تزوجها فتكون حفيدة النبي ﷺ، فقال عمر: أم سليط أحقّ، وأم سليط هي مـن نسـاء الأنصـار ممـن بـايع رسول الله ﷺ، قال عمر: فإنها كانت تزفر – تخيط – لنا القرب يوم أحد[1].

وهذا الورع أيها الأخوة ينتج عن الخوف من الله سبحانه وتعالى، فـالخوف يثمـر الـورع والورع يثمر الزهد،...........

من فوائد الورع:

١ – اتقاء عذاب الرحمن وتحقيق راحة البال للمؤمن وطمأنينة النفس وهذه مسألة مهمة جداً.

٢ – يكفّ عن الحرام.

٣ – يبعده عن إشغال الوقت فيما لا يفيد.

٤ – يجلب محبة الله؛ لأن الله يحب المتورّعين.

٥ – يفيد استجابة الدعاء، لأن الإنسان إذا طهّـر مطعمـه ومشـربه وتـورّع يرفـع يديـه فيجاب لـه الدعاء.

٦ – مرضاة الرحمن وزيادة الحسنات.

٧ – يتفاوت الناس في الدرجات في الجنة بتفاوتهم في الورع.

والمسلم إذا نقل قلبه من الدنيا فأسكنه في الآخرة وأقبل على القرآن الكريم انفتحت لـه الأبواب وكان فيمن يستطيع تحمّل هذا الورع، وهناك حلال محضٌ بيّن وحرام محضٌ ومسائل مشتبهة بينهما، فلبس القطن والكتان والصوف والزواج بعقد صحيح وأخذ المال من الميراث أو هبة من إنسان ماله حلال أو شراء شيء ببيع صحيح، أمور الحلال المحض واضحة، وأمور الحرام واضحة كالميتة والدم والخنزير والخمر ونكـاح المحـارم ولبـاس الحريـر للرجـال وأخـذ الأموال المغصوبة والمسروقة والغش والرشوة، أما المشتبهات التي ينبغي للمرء المسلم أن يتورّع عنها مثل: ما اختلف في حلّه وحرمته، مثلاً البغل متولّد ما بين الحمير والخيل، جلود السـباع ولو كانت مدبوغة، التورّق وهو أن تشتري شيء بالأقساط وتبيعه نقداً لتحصّل سيولة وبعض العلماء لم يجزه مع أن الراجح جوازه لكن المسألة مختلف فيها، ونحو هذا..

إذاً من أسباب الشبهة تنازع العلماء في شيء معين هل هو حلال أو حرام وكـل طائفـة لهم أدلتهم، ما ترك النبي ﷺ حلالاً إلا بيّنه ولا حرامـاً إلا بيّنـه ولكـن بعـض النـاس يخفـى

---

(١) رواه البخاري.

عليهم بعض الحلال أو بعض الحرام، ويتفاوتون في هذا ومن أسباب اختلاف العلماء فيه أنه ينقل في الشيء نصان أحدهما بالتحليل وأحدهما بالتحريم، وقد يكون أحدهما صحيح والآخر ضعيف وأحدها ناسخ والآخر منسوخ، فيأخذ كل طائفة من العلماء بنص من النصين فيحدث الاختلاف، أحياناً يكون الشيء فيه أمر فيقول بعضهم: هذا للوجوب وبعضهم يقول: هذا للاستحباب، والورع هو أن تقوم بهذا الأمر. جاء نهي فقال بعض العلماء النهي للتحريم وقال بعضهم: النهي للكراهة والورع أن تتركه.

والعلماء أنفسهم قد تشتبه عليهم أشياء فلا يفتون فيها أو يتوقفون عنها، ومن أمثلة الأشياء المشتبهة ما لايُعلَم له أصل ملكٍ كما يجده الإنسان في بيته فلا يدري أهو له أم لغيره، النبي ﷺ قال: **«إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها»**، ولكن من جهة التحريم والحل، فالأصل في المال الموجود في بيتك أنه لك، فجانب الحل أقوى، لكن إذا أردت الورع وتصدقت بهذا المال أحسن..

وكذلك فإن الشيء قد يجتمع فيه أحياناً سبب للحل وسبب للحرمة، فيتركه الإنسان فالنبي ﷺ علّمنا عن أمور الأصل فيها الحظر كالأبضاع ولحوم الحيوان فلا تحل إلا بيقين، ولو حصل تردد مثل اجتماع سبب حاضر ومبيح نبقى على الأصل فيها وهو التحريم فقال ﷺ في من أطلق سهماً على صيدٍ أو كلبه على صيدٍ، فلما جاء ليمسك بالصيد وجد عنده كلباً آخر لا يدري الذي أمسك كلبه أو الكلب الآخر، فإذا كان الكلب المعلَّم يجوز صيده، ومعنى ذلك أن صيد غير المعلَّم لا يجوز صيده، فماذا يفعل إذا وجد مع الفريسة كلباً آخر لايدري كلبه الذي صاد أو الكلب الآخر، وصل إلى الصيد الذي صاده وقع في الماء فلايدري هل قتل بالسهم أو قتل بالغرق، الأصل يجوز الأكل مادام السهم أو البندقية خرقت وخزقت وسمّى الله على البندقية وأطلق ولكن وقوع الطائر في الماء يجعله في ريبة هل موت الطائر بفعل الرمية التي رماها أم الغرق فيتركه.

لو جاء رجل لأرض أو سجادة وقال لنفسه: هذا رجل لديه أبناء قد يكونون بالوا عليها، فأنا لن أصلي عليها، تورّع عن الصلاة عليها فما حكم هذا التورّع، هل هو شرعي أم لا؟، هذا تورع غير شرعي؛ لأنه خالف الأصل بدون أي قرينة، والأصل في الأشياء الطهارة، فيكون هذا ورعاً فاسداً.

فسّر الإمام أحمد رحمه الله الشبهة بأنها منزلة بين الحلال والحرام – يعني الحلال المحض والحرام المحض – وقال: من اتقاها فقد استبرأ لدينه، وفسرها تارة باختلاط الحلال والحرام.

ومن ضمن الأمثلة أيضاً معاملة من ماله مختلط، رجل يرابي ويبيع ويشتري، عنده

حلال وحرام، فقال العلماء: إذا كان أكثر ماله الحرام قال الإمام أحمد: ينبغي أن يجتنبه إلا أن يكون يسيراً أو لا يُعرَف، والحرام غير معيّن ولـيس معروفـاً، فيجـوز الأكـل والـورع تركـه. وقال الزهري: لا بأس أن يُؤكل منه ما لم يعرف أنه حرام بعينه. وقال سفيان: تركـه أعجـبُ إليّ. وقال الإمام أحمد في المال المشتبه حلاله بحرامه: إن كان المال كثيراً أخرج منه قدر الحرام وتصرّف في الباقي، وإن كان المال قليلاً اجتنبه كله، وهذا لأن القليل إذا تناول منه شيئاً فإنـه تبعد معه السلامة من الحرام. ورخّص قومٌ من السـلف في الأكـل ممـن يُعلَـم في مالـه حـرام ولكن لا يُعلَم على التعيين ماهو الحرام، وهذه هي الخلاصة: يجوز معاملة من ماله مختلط إذا ما علمنا الحرام أين بالضبط والورع ألا يأخذ منه.

وكذلك فإن الاستبراء للدين مهم جداً في حياة الدين المسلم، والإنسان قد لا يشبع مـن الشبهة، وقال الثوري رحمه الله في الرجل يجد في بيته الأفلس والدراهم: أحب إلـيّ أن يتنـزّه عنها إذا لم يدري من أين هي.

ولا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس[(١)].

ومن تمام التقوى أن يتقِي الله العبد حتى يتقيه مـن مثقـال ذرة، وقـال الحسـن: مازالـت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام، وقـال الثـوري: إنمـا سمّـوا المـتقين لأنهم اتقوا ما لا يُتّقى. وقال ابن عمر: إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها. وقال سفيان بن عيينة: لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبـين الحـرام حاجزاً من الحلال وحتى يدع الإثم وما تشابه منه.

وكذلك فإن النبي ﷺ قد قـال: **«الإثم ما حاك في الصدر وكرهـت أن يطّلـع عليـه الناس»**[(٢)]، إشارة إلى أن الإثم ما أثر في الصدر حرجاً وضيقاً وقلقاً واضـطراباً فلـم ينشـرح لـه الصدر ومع هذا فإنه عنـد النـاس مسـتنكر بحيـث ينكرونـه عنـد اطلاعهـم عليـه. لكـن الإنسان قد يقلق من أشياء لجهله فليتبه من هـذا وليسـأل أهـل العلـم، وهنـا تظهـر أهميـة الاستفتاء وسؤال أهل الذكر الثقات. الصحابة تحرجوا من أن يأكلوا من اللحم الذي صـاده أبو قتادة فالنبي ﷺ أكل، وفرّق العلماء بين ما صيد لأجله (لأجل المحرم) وما صاده الحلال لا لأجل المحرم فيجوز للمحرم أن يأكل منه. لكن لو أن الشخص الحلال غير المحـرم صـاد لـك أنت أيها المحرم فلا تأكل. والمقصود أن سؤال أهل العلم الثقات مما يريح الإنسان، فينبغي أن لا ينسى هذا وأن يكون على ذكر منه، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. إذا لم تستحِ فاصـنع مـا

---

(١) رواه الترمذي عن النبي مرفوعاً وقال: حسن غريب وفي سنده عبدالله بن يزيد الدمشقي وهو ضعيف.
(٢) صحيح مسلم٤٦٣٢.

شئت. الإثم حوازّ القلوب تحز في القلوب والنفوس. وكذلك فإن الصدق طمأنينة والكـذب ريبة، وكان بعض العلماء يعرفون الحديث الضعيف بأمور بقلوبهم وهـذا لـيس إلا للعلمـاء النقاد الكبار، وأما طلبة العلم العاديين فلا يمكن أن يعرف ذلك بقلبه إلا فيما ندر.

وطلب الحلال فرض على كل مسلم، وقد ادعـى بعـض الجهّـال أن الحـلال في الأرض انتهى، وبعضهم قال باقي الحشـيش والكـلأ في الـبر والأراضـي الـتي لـيس لهـا أحـد ونهـر الفرات؛ وهذا تضييق على عباد الله ومن الجهل وقلة العلم فإن النبي ﷺ قـال هـذه القاعـدة المهمة جداً: **«الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات»**، والحلال كله طيـب ولكـن بعضه أطيب من بعض، والحرام كله خبيث ولكن بعضه أخبث من بعض، والإنسـان المسـلم قد يكون عنده الحلال معلوماً من قبل ثم يقع في شك فلا يلتفت لهـذه الوسوسـة إذا لم يكـن لها دليل ولا قرينة، وكذلك قد يكون يعرف الحرام من قبل فيأتي في نفسـه وسوسـة أن هـذا ليس حراماً بدون علم ولا خبر ثقة أفتاه به أهل العلم فلا يلتفت إليه، وقـد يعـرف الإنسـان الحل ويشك في المحرم، فيكون الأصل الحل كما تقدم.

وهناك مثال يضربه بعض الفقهاء ويدل على قلة عقل من وقع فيه قال: اثنان وقفا فجاء طائر فاختلفا هل هذا غراب أم لا؟ فقال أحدهم: عليه الطلاق أنه غراب، وقال الآخر: عليه الطلاق أنه ليس بغراب، فلما أرادا أن يأتيا للتحقق طار الطائر ولم يدركاه، فصارت مشكلة فزوجة مَن طالق..!، فبعض الناس يفعل أشياء من قلة العقل، وفي هذه الحالة يقول العلماء: الأصل بقاء النكاح وحل المرأة للرجل، احتمال الطلاق وارد ومشكوك فيه. ولذلك فإن على الإنسان أن لا يورد نفسه في الموارد التي يتسبب بها في الحرج في نفسه وأن يقع في تعذيب النفس والشك، وقد يدخل الشك على بعض الناس في قضايا لا يشرع لهم أبداً السؤال فيها، فهل يجوز لإنسان دخل على بيت مسلم مستور ما يعرف عنه أي ريبة، وُضِع له الطعام، أن يقول له: المال الذي اشتريت به هذا العشاء من أين أتيت به. هل هذا من الورع..؟!!، وفي ذلك إيذاء للمسلم لأن سؤالك هذا اتهام له..! واتهام المسلم ووضعه في موضع الشك بدون قرينة ولا دليل ولا بينة لا يجوز وسوء ظن، وإيذاء المسلم للمسلم حرام.

أحياناً تأتي أشياء تستدعي التورع مثلاً إذا دخل حلال قليل في حرام كثير فعند ذلك تكون هذه القضية مما يدفع الإنسان إلى الورع فعلاً. كذلك إذا كانت القضية في الأبضاع واللحوم كما تقدم. مثلاً هناك امرأة ثقة وجئتَ لتخطب فتاة فقالت: أنا أرضعتها أو أرضعت أختها، أنا متأكدة أني أرضعت إحدى الأختين، لا أدري أيتهما، فالورع أن تترك الزواج من كلتيهما. مثلاً اثنان ذبحا ذبيحتين، إحداها ذبحها هندوسي والأخرى ذبحها مسلم، جئت لتشتري وأنت تعلم ذلك ولكن لا تدري أيتهما التي ذبحها هذا وأيتهما التي ذبحها الآخر فلا تشتر. مسألة اللحوم والأبضاع شديدة في الشرع ولذلك يحتاط فيها في أشياء أكثر من غيرها، ولكن بشرط أن لا يصل إلى الوسوسة أيضاً، فلو أن هذه ذبيحة مسلم لا يجوز لك أن تشك فيها. إذاً هناك وسوسة في هذه القضايا لا يجوز الالتفات إليها، وورع الموسوسين مثاله؛ قال ابن حجر في فتح الباري: "ورع الموسوسين كمن يمتنع من أكل الصيد خشية أن يكون الصيد كان لإنسان ثم أفلت منه، وكمن يترك شراء ما يحتاج إليه من مجهول لا يدري أماله حلال أم حرام، وليست هناك علامة تدل على الثاني ".

هناك مسائل من الورع الدقيق لا تليق بكل الأشخاص. قال ابن رجب رحمه الله: " وهاهنا أمر ينبغي التفطّن له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله في التقوى والورع – فهذا لو دقق يقبل منه التدقيق –، أما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورّع عن شيء من دقائق الشبه فإنه لا يحتمل له ذلك بل ينكر عليه" كما قال ابن عمر

لأهل العراق لما جاءوا يسألونه عن دم البعوض وفيهم ممن قتل الحسين بن علي رضي الله عنه، قالوا: المحرم إذا قتل بعوضة يجوز أم عليه فدية، فقال: "يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين وقد قال ﷺ **«هما ريحانتاي من الجنة؟!!»**.

وسُئِل الإمام أحمد عن رجل يشتري بقلاً ويشترط الخوصة، فقال الإمام أحمد: ما هذه المسائل؟ قالوا: إنه إبراهيم بن أبي نعيم. فقال: إن كان إبراهيم بن أبي نعيم فنعم هذا يشبه ذاك (هو من كبار الزهاد العابدين). ولذلك لما جاء رجل إلى الإمام أحمد يقول: إن أمه تأمره بطلاق زوجته، قال: إن كان برّ أمه في كل شيء ولم يبق من برها إلا طلاق زوجته فليفعل..!

فالخلاصة أن الورع منه دقائق لا تليق بأي أحد، بل ينكر على من تورع فيها إذا كان من أولئك الفسقة أو المتساهلين، وعلى أية حال فإن الورع هو من العبادات العظيمة وملاك الدين الورع، والفقيه الورع الزاهد المقيم على سنة النبي ﷺ له أجره العظيم يوم الدين، والإنسان ينبغي أن يضع نفسه في الموضع الصحيح في مسألة الورع كما قال الأوزاعي: (كنا نمزح ونضحك فلما صرنا يُقتدى بنا خشيت أن لا يسعنا التبسُّم). وهذا الورع يُتَعَلَّم، كما قال الضحّاك بن عثمان رحمه الله: (أدركت الناس وهم يتعلمون الورع وهم اليوم يتعلمون الكلام)، والإنسان إذا تورّع لن يعدم الحلال ولا يظن أنه سيضيق على نفسه ضيقاً لا مخرج منه فإنه يلتمس الورع الشرعي مثلما تقدم[1].

* * * * *

(١) سلسلة أعمال القلوب / الشيخ محمد صالح المنجد.

المبحث الثاني عشر:
شخصية المسلم كما يجب أن تكون

إكمال الشخصية المسلمة مطلب شرعي:

كمال الشريعة الإسلامية:

الشخصية الإسلامية كاملة كما ورد في هذه الشريعة، والله سبحانه وتعالى أنزل هذا الدين كاملاً، وقال الله عز وجل:**{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}** [المائدة: ٣] فقد كمل الله هذا الدين، والحمد لله أن شريعتنا شريعة كاملة. ومن نعمة الله عز وجل علينا أننا وجدنا في هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس، ودينها أتم الأديان، وشريعتها أكمل الشرائع، وشرائع الأنبياء من قبلنا بالنسبة إلى شريعة نبينا محمد ﷺ شرائع ناقصة، وهي بالنسبة لكل أمة من الأمم كاملة لهم، لكن شرائعهم بالنسبة إلى شرائعنا ناقصة كما ذكر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، وهذا هو المعنى المتضمن في حديث النبي عليه الصلاة والسلام: **«مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً، فأحسنها وأكملها وأجملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان، ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة. فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»** (١).

وقال: **«إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»** (٢) ﷺ، فصارت هذه الشريعة هي أكمل الشرائع قاطبة من وجوه كثيرة ومتعددة، وشرائع الأنبياء من قبلنا منها ما كان فيها التركيز على الحلال والحرام كشريعة موسى، ومنها من كان فيه التركيز على أعمال القلوب كشريعة عيسى، لكن هذه الشريعة كاملة مكملة من جميع الجهات، فهي في الإيمان والعبادات والأعمال والمعاملات فيها ذكر وتبيان لكل شيء، والمسلم منا مطالب أن يتشبه بهذه الشريعة في كمالها، فيكمل شخصيته مما جاءت به هذه الشريعة. وهذا المفهوم - مفهوم التكميل والإتمام - مفهوم إسلامي وشرعي، والنبي عليه الصلاة والسلام قد قال: **«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»** (٣) فنحن إذن مطالبون بصياغة شخصياتنا على ضوء هذه الشريعة، وأن نتمم شخصياتنا من الوحي الذي جاء في هذا الدين، وقد جاء في الحديث، عن علي أن النبي ﷺ قال: **«لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه»** (٤).

كمال الشخصية في شخصيات الإسلام:

---

(١) رواه الإمام أحمد وغيره، ورواه البخاري.

(٢) مسند أحمد٧١٧٣.

(٣) رواه الإمام أحمد.

(٤) رواه أبو نعيم رحمه الله.

إننا نجد كمال الشخصية موجوداً في شخصيات هذا الدين وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ، ثم صحابته، أما كمال شخصيته عليه الصلاة والسلام فهو مشهور ومعلوم، والنصوص كثيرة فيه، كيف كان النبي عليه الصلاة والسلام قائماً بأعمال الخير والبر، كيف كانت شخصيته عليه الصلاة والسلام كاملة علماً وعملاً. وكذلك شخصيات أصحابه أخذت من هذا التمام والكمال، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، لما سأل النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه: **«من أصبح اليوم صائماً؟»** قال أبو بكر: أنا. لا يريد أن يبين عمله، لكن لا بد من الإجابة، ولم يقلها رياءً ومفاخرة، وإنما قالها إجابة؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام سأل: **«من عاد منكم مريضاً؟»** قال أبو بكر: أنا. **«من تبع منكم جنازة؟»** قال أبو بكر: أنا. **«من أطعم منكم اليوم مسكيناً؟»** قال أبو بكر: أنا **«فإذاً هو رضي الله عنه قد كمل نفسه من خصال الخير، وأبواب الخير كثيرة»** (1).

تكامل شخصية المسلم عند السلف:

إن السلف رحمهم الله لما شرحوا الدين أتوا بهذا المفهوم واضحاً في كلامهم، مأخوذاً من الكتاب والسنة والأدلة الشرعية، فما نقله الإمام ابن بطة رحمه الله تعالى في كتاب الإبانة الكبرى نقل عبارات عن بعض السلف، فمنها في هذا الجانب قوله: " إن من أخلاق المؤمنين: قوة في الدين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وقصداً في غنى، وتجملاً في فاقة، ورحمة للمجهود - المتعب - وعطاءً في حق، ونهياً عن شهوة، وكسباً في حلال، وتحرجاً عن طمع، ونشاطاً في هدى، وبراً في استقامة، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم في الحب - لا يتجاوز - ولا يدعي ما ليس له، ولا ينابز بالألقاب، ولا يشمت بالمصاب، ولا يضر بالجار، ولا يهمز، في الصلاة متخشع، وإلى الزكاة متسرع، إن صمت لم يغمه الصمت، وإن ضحك لم يعل صوته، في الزلازل وقور، وفي الرخاء شكور، قانع بالذي له، لا يجمح به الغيظ، ولا يغلبه الشح، يخالط الناس ليعْلم أو ليعَلم، ويصمت ليسلم، وينطق ليفهم، إن كان مع الذاكرين لم يكتب مع الغافلين، وإن كان مع الغافلين كتب من الذاكرين، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له يوم القيامة ".

إذن: فهمهم لسمات الشخصية الإسلامية، لصفات الإنسان المسلم متكامل، من صلاة وزكاة، وحلم وعلم، ويقين وصبر وشكر، تعلم وتعليم، ووقار...، إذاً المسألة متكاملة.

---

(1) رواه البخاري.

الرد على من يهينون الدين وأهله:

كذلك تكميل الشخصية مهم في الرد على الذين يسمون المسلمين وأهل الدين بالصفات السيئة، فيسمونهم بالتخلف والرجعية والانتهازية والإرهابية ونحو ذلك، فمن الذي يمحو هذه الصورة السيئة عن المسلمين التي يعممها أعداء الإسلام في الأرض إعلامياً؟ يعممون سمة المسلم بأنه رجعي متخلف، وأنه إنسان همجي متوحش وغرضه السلب والنهب والإغارة والإرهاب، ما الذي سيغير هذه الفكرة؟ ما هي الشخصيات التي ستغير هذه الفكرة؟ إنها الشخصيات الإسلامية التي يسعى أصحابها إلى تكميلها، وليست الشخصيات الهزيلة والمهلهلة. وكذلك فإننا لا نريد أن نكون أولاً وأخيراً من الذين يصدون عن سبيل الله بتصرفاتنا المنحرفة، حتى عند الخادمة والسائق الموجود في البيت فكثير من الناس صدوا الخادمات عن سبيل الله، وصدوا السائقين عن سبيل الله؛ لأن الخادمة والسائق رأوا من رب البيت فسقاً ومجوناً وخلاعةً، رأوا منه ظلماً وعتواً ونفوراً ووحشيةً، ورأوا منه قهراً وإذلالاً؛ فلذلك كيف يفكر أن يسلم ويدخل في الدين وهو يرى هذا النموذج أمامه؟ كذلك الذي جاء من بلاد بعيدة مثل الهند وباكستان ليعمل وهو مسلم، ثم يجد أمامه هؤلاء الناس وفيهم هذه النقائص والمعايب والمثالب وهو يظنهم في هذا المكان عند الحرم، وفي المكان الذي هبط فيه الوحي فيظنهم أولاد الصحابة، فإذا جاء وجدهم بهذه الحالة من اتباع الهوى والشهوات والجهل. بعض المستقدمين علموا أهل البيت أشياء يجهلونها، صحيح أن الأكثر العكس؛ لأنه يوجد عندنا من العلم ما ليس موجوداً عند الآخرين بالنسبة والكثرة، لكن الأمثلة في المقابل موجودة، فهناك خادمة مصحفها على رف المطبخ لكن صاحبة البيت كل يوم في سوق، وكل مرة في حفلة وسهرة، فماذا يعني هذا عند غير العرب من الأعاجم المستوردين؟ نحن مخاطبون بالشريعة قبلهم والذي نزل عندنا قبلهم، فنحن من المفروض أن نكون قدوة للآخرين، لكن أصبح البعض بسلبياته من العوائق التي تصد عن دين الله!

إزالة القدوات السيئة من المجتمع:

كذلك فإن تكميل الشخصية الإسلامية مهم في إزالة القدوات السيئة من المجتمع؛ لأن الناس يقتدون بشخصيات المغنين والمطربين والفنانين والرياضيين ونحو ذلك، وكثير منهم فسقة ومجرمون، ولا بد من إحلال شخصيات الشهداء والصالحين والصديقين؛ حتى يقتدي الناس بهؤلاء ويتركوا أولئك، حتى يكون هناك نجوم يقتدى بها بدلاً من هذه النجوم الوهمية. أيها الإخوة! إن المسخ الذي حصل لكثير من شخصيات الناس خصوصاً الذين سافروا إلى الخارج ورجعوا بأفكار غربية غريبة، ورجعوا بأمور مخالفة للدين والشريعة بحكم الواقع الذي ضغط عليهم أو رباهم هناك، إن هذا يجعلنا نفكر مراراً وتكراراً في قضية تكميل الشخصية الإسلامية.

ولما نقول: يا مسلم.. يا عبد الله.. كمل شخصيتك؛ نذكر شخصيات الصحابة رضي الله تعالى عنهم، الله سبحانه وتعالى قص علينا أشياء كثيرة في الكتاب**{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ}**(1)..**{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ}**(2) ذكر رجالاً ونساءً، وذكرهم بصفات في شخصياتهم من القنوت والعبادة وكثرة الذكر، والحكمة، وأنه لم يكن جباراً شقياً، ولم يكن عصياً... إلى آخر تلك الصفات التي وردت لشخصيات الأنبياء. وصحابة النبي عليه الصلاة والسلام الآخذون من تلك الشخصيات اقتدوا بهم وكملوا شخصياتهم من تلك السير، فجاءت تلك النماذج عطرة، جيدة للغاية، فأنت يا أخي المسلم! يا عبد الله! عندما تريد أن تكمل شخصيتك بمسألة العلم مثلاً، تذكر ابن عباس وابن مسعود، وتذكر معاذ بن جبل الذي يأتي وقد سبق العلماء يوم القيامة برمية سهم، وهو أعلم الأمة بعد نبيها ﷺ بالحلال والحرام كما قال النبي عليه الصلاة والسلام عن معاذ، وتذكر علم زيد بن ثابت في الفرائض، وإذا جئت في الحفظ تذكر حفظ أبي هريرة رضي الله تعالى عنه. وإذا جئت في جانب التضحية التي لا بد أن تكمل شخصيتك بها؛ تذكر تضحية مصعب بن عمير، الشاب الذي ترك جو النعومة والغنى والثراء والترف، وصار صاحب أطمار وأكسية بالية، مطارداً، مشرداً، غريباً في المدينة عن أهله وعن وطنه، لكنه كان من الذين فتحوا المدينة بالقرآن ولم تفتح بالسيف، وهو الذي وطد وهيأ للنبي عليه الصلاة والسلام الأجواء قبل مقدمه إلى المدينة. وتذكر في الشجاعة حمزة، وتذكر في الجرأة في قول الحق أبا ذر رضي الله تعالى عنه، وتذكر في تحمل المسئولية أبا دجانة الذي حمل السيف بحقه، وتذكر في الثبات خبيب بن عدي الذي ثبت حتى آخر قطرة من دمه، وتذكر في العمل للإسلام حتى آخر لحظة عمرو بن الجموح، الذي أصر أن يطأ

---

(1) مريم: ٥٦.

(2) مريم: ١٦.

بعرجته في الجنة، وخرج وهو في الثمانين إلى الجهاد. وإذا تفكرت في مسألة استخدام المنصب والمركز لخدمة الدين؛ فإنك تذكر النجاشي وتذكر سعد بن معاذ ورئاسته فيهم، وإذا جئت لجانب الإيثار تذكر سعد بن الربيع الذي طلب من أخيه المهاجري أن يختار إحدى زوجتيه فيطلقها ليتزوجها هو ويشاطره في ماله، وتذكر في الجود والبذل – وهي خصلة مهمة يجب أن تكون في شخصيتك – أبا طلحة الأنصاري لما نزل قول الله:**{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}**(1) تبرع وتصدق بأحسن ما عنده وهو بيرحاء، بستان عظيم كان قريباً من المسجد النبوي، يدخل النبي عليه الصلاة والسلام إليه فيشرب من مائه أحياناً. وأنت تذكر في كتم السر حذيفة، وألا تكون مهذاراً ولا كثير كلام ولا مفشياً للأسرار، المجالس بالأمانة، وكثير من الناس عندهم هذه الخصلة الذميمة وهي إفشاء أسرار الآخرين والكلام فيما يخص الآخرين، ينبغي أن يكون مستوراً فيعلنه، وأنت تذكر في حسن العبادة أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، الذي كان بعض الصحابة يجتمعون في الليل يسمعون صوته وهو يقوم الليل، ذلك الذي أوتي مزماراً من مزامير آل داود. وهكذا في سائر الصفات والخصال التي من المفترض أن تكون في الشخصية الإسلامية منها: التواضع والبعد عن الظهور، شخصية أويس القرني وهو خير التابعين، وهكذا من بعدهم، نحن نقتبس وينبغي علينا أن نأخذ ونكمل شخصياتنا من سير السلف، بالإضافة إلى الشيء الأول وهو القرآن والسنة.

نقائص وعيوب في الشخصيات (ضعف جانب الرجولة):

أيها الإخوة! يوجد في شخصياتنا نقائص وعيوب، فمن ذلك بالنسبة للرجال: ضعف جانب الرجولة، جانب الرجولة من الخصال المهمة، والله سبحانه وتعالى وصف خيرة عباده بأنهم رجال**{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ}**(2) والذين اتصفوا بالصفات الحميدة يصفهم سبحانه وتعالى بأنهم رجال:

{لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}(3).

وقال الله عن الذاكرين في المساجد:**{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا**

(1) آل عمران: ٩٢.

(2) يوسف: ١٠٩.

(3) التوبة: ١٠٨.

وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}(١).

كان أحدهم إذا رفع المطرقة، فأذن المؤذن ألقاها وراء ظهره. قال أحد السلف: كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده يزن للناس خفضه – خفض الميزان، ترك البيع والشراء – وأقبل إلى الصلاة. قال عمرو بن دينار: كنت مع سالم ابن عبد الله ونحن نريد المسجد، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة، وخمروا متاعهم – يعني: غطوا المتاع – فنظر سالم إلى أمتعتهم – دكاكين مغطاة، وأكوام البضاعة مغطاة – فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد، متاعه في السوق لوحده، الناس في المسجد، فتلا هذه الآية**{رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}**(٢) ثم قال: هم هؤلاء.

الرجولة من أسباب الثبات:

قال تعالى:**{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ}**(٣)..

{قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ}(٤).

..**{وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى}**(٥).

أنت تقرأ الآية وتتأمل وتتملى في هذا الرجل الذي وصف بالرجولة جاء يسعى**{قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ}**(٦).

أما في قصة موسى:**{وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ}**(٧).

من هو الرجل الذي يكون من صفاته الشخصية إغاثة الملهوف والسعي إلى نصرة المظلوم وإنقاذ الآخرين – الذين هم في خطر – فذهب إليه خفية مع المشوار بعيد؛ لأنه جاء من أقصى المدينة**{قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ}**(٨) فإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم، وإنقاذ حياة الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى، والسعي في تخليصهم وإبعاد الأذى

---

(١) النور: ٣٦ – ٣٨.

(٢) النور: ٣٧.

(٣) الأحزاب: ٢٣.

(٤) المائدة: ٢٣.

(٥) يس: ٢٠.

(٦) يس: ٢٠، ٢١.

(٧) القصص: ٢٠.

(٨) القصص: ٢٠.

والشرور والأخطار عنهم، هذه من صفات الرجولة التي ينبغي أن تتصف بها شخصياتنا، الرجولة التي تسبب القيام لله بالحق، وغضبة لله في أماكن المنكرات وإذا انتهكت محارم الله، فإن الرجل يغضب لله، والمرأة كذلك تغضب لله سبحانه وتعالى فتغير في مكانها.

معاني الرجولة عند الناس:

مع الأسف إن كثيراً من معاني الرجولة قد فقدت بين الناس، وظن بعضهم أن الرجولة هي تطويل الشوارب وحلق اللحى، أو الأخذ بالثارات وقتل الأبرياء، وبعض الناس يظن أن الرجولة هي التدخين، وبعضهم يظن أن الرجولة هي رفع الصوت والصياح وفرض الرأي بالقوة أو البطش بالعضلات، لكن الرجولة شيء آخر، هذه قضايا ضعف ومعاص وآثام، فالمهم أن الإسلام يحتاج إلى رجال شخصياتهم قوية، قال عمر: تمنوا. فتمنى كل واحد شيئاً، قال: لكني أتمنى ملء هذه الحجرة رجالاً أمثال أبي عبيدة، أخوض بهم الغمار، وأحمل بهم الأمم على الإسلام، فالرجولة ليست سناً أكثر مما هي صفات وشمائل وسجايا وطباع. وماذا نفعت الرجولة الذين قال الله فيهم:**{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً}**[1]؟ وكأني بهذا الدين في هذا الزمان يهتف بأبنائه: أليس منكم رجل رشيد يحملني ويقوم بأمري؟

تكميل الشخصية المسلمة بالتربية:

شخصياتنا – أيها الإخوة – تحتاج إلى صقل وتربية وتكميل، وتكميلها بتربيتها، فتنظر إلى الجهل الذي في شخصيتك فتحل محله العلم، تنظر إلى القسوة والجفاف الموجود وتحل محله الإيمان والتقوى التي طريقها العبادة وممارسة الشعائر التعبدية والإقبال على الفرائض أولاً: **«وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه»** وإتباع ذلك بالمستحبات والنوافل ثانياً: **«ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»** [2]، وهذا هو أشرف حديث في الأولياء، وقد رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى معلقاً في صحيحه، وهو صحيح بمجموع طرقه.

تكميل الشخصية المسلمة بالتأثر والتفاعل مع الواقع:

شخصياتنا إذا أردنا أن نكملها فينبغي أن نحرص على أن تكون هذه الشخصيات شخصيات متأثرة ومتفاعلة، والتأثر والتفاعل ميزة مهمة ينبغي أن توجد في شخصياتنا؛ لأن التفاعل مع الواقع يؤدي إلى الاستفادة والأخذ والتلقي، والتلمذة والتقبل والاقتداء، وهذا

---

(١) الجن: ٦.

(٢) رواه الإمام البخاري.

مهم في تقدم الشخصيات. بعض الناس الآن إذا نظرنا في الواقع – وهم قلة – إذا جئته سنة بعد سنة وجدت التغير ملموساً، التقدم حاصل، إجازة بعد إجازة وجدت الرجل علمه زاد، عبادته زادت، أخلاقه ارتفعت وارتقت، وبعض الناس مثلما هو، (مكانك قف!) ما زالوا في نفس المكان، لم يتقدموا في شيء، لا علمهم زاد، ولا أخلاقهم تحسنت، ولا عبادتهم كثرت، فهم لا زالوا في نفس المستوى الذي عهدتهم فيه، كما خبرتهم، هم هم ما تغير فيهم شيء! واعلموا – رحمكم الله – أن وجوه أهل الإيمان والعبادة تزدان وتزداد حسناً وبهاءً، ووجوه أهل الشر والمعصية تسوء وتزداد قبحاً ودمامة، وقد نص على ذلك شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه العظيم الاستقامة فقال: وأنت ترى وجوه أهل الطاعة إذا تقدموا بالسن وكبروا ازدادت نظرة وجمالاً وعليها نور، وترى أهل المعصية والشر والبدعة يكون أحدهم في مقتبل عمره شاباً وسيماً أو أمرد جميلاً، لكن لا يزال يواقع الفواحش ويقع فيها ويزاول المنكرات أو يستمر على البدع فيقبح وجهه في الكبر، تراه قبيحاً ذميماً، مع أنك لو رأيت صورته في شبابه ومقتبل عمره؛ لوجدته ربما يكون جميل الخلقة، فهكذا الطاعة تحسن المظهر، والمعصية تشوه المظهر. ولذلك ترى أكثر أهل البدع حالهم في القبح والدمامة معروف، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى منهم في هذا الكتاب أهل الرفض قال:

هم أقبح الناس منظراً، بل أثبت في كلامه أن بعضهم قد مسخوا قردة وخنازير، فقد مسخ الله اليهود قردة وخنازير من آثار المعاصي، وقبح حتى صورهم الظاهرة، ومسخهم في أسوء البهائم منظراً: قردة وخنازير.

نحن نحتاج – كما قلت – إلى قضية التأثر والتفاعل حتى نتقدم، يا أخي! عائشة رضي الله عنها لما حاضت في الحج تأثرت، تظن أنه الأجر فاتها حتى بكت، ودخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، وسألها فأخبرته أنها حاضت، فقال: **«إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم، إن حيضتك ليست بيدك»** والآن تجد الكثير من الناس يظنون أن الحيض يمنع الإحرام، يقولون: وصلنا الميقات وما أحرمت المرأة التي معنا.. لماذا يا عباد الله؟ قال: لأنها حائض، لكن الحيض لا يمنع الإحرام. وكثير من العامة يظنون أن عقد النكاح في الحيض لا يصلح، ولذلك يقولون: هل يجوز أن تعقد وعليها العادة الشهرية؟ نقول: نعم، وما المانع؟ الله سبحانه وتعالى حرم الوطء لكن ما حرم العقد، حرم الوطء في الحيض ولم يحرم العقد. على أية حال تأثرت عائشة رضي الله عنها لهذا، انظر الآن تأثرت بأمر ليس بيدها وليس بتقصير منها، لكن انظر الآن إلى هذه الشخصيات الموجودة في المجتمع، تخرج أوقات العبادات وتفوت مواسم الخيرات، وتذهب فرصة ثمينة للأجر ولا تجد في نفوسهم تأثراً أو ندماً أبداً، مع أن التفريط منهم وما هم مثل عائشة، تلك رضي الله عنها تأثرت وبكت على شيء ليس

بيدها، وهؤلاء لا يتأثرون ولا يكون على تفريط وتضييع واضح مع أن الفرص بأيديهم. وكذلك الإنسان إذا كانت شخصيته فيها تأثر وتفاعل إذا نبه للخطأ، إذا علم أنه أثم يستحي من الله، يرجع لأن عنده تأثراً، يتفاعل مع الكلام، يتأثر بالنصيحة، بالتوجيه، بالإنكار، لكن الناس إحساساتهم متبلدة، هذا أسامة بن زيد، ذهب يجاهد ويقاتل بسيفه مع صغر سنه رضي الله تعالى عنه، أدرك رجلاً من الكفار، فرفع عليه السيف، فقال الرجل: لا إله إلا الله، لكن أسامة طعنه، فشعر بشيء من الحرج، وحاك في نفسه شيء، ذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقص عليه القصة، فقال له: (قال: لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يا رسول الله! إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: **«أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟»** فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ) أي: لأن الإسلام يجب ما قبله، قال: تمنيت أني دخلت الإسلام بعد الحادثة. قال له في رواية: **«فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟»** قلت: يا رسول الله! استغفر لي.

قال: **«فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟»** قال: فجعل لا يزيد على أن يقول: **«فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟»**. هذا رجل خارج في الجهاد ظن أن فعله صحيح، هذا رجل كافر أنكى بالمسلمين، فرفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله، فقتله. وبعض الناس الآن إذا عاتبته على منكر واضح لم يفعله باجتهاد خاطئ.. لا، وإنما منكر واضح جلي حكمه وفتاوى العلماء معروفة عنده، لكن تجد أنه لا يتحرك فيه شيء ولا يتأثر، بل قد يستهزئ، وعلى أحسن الأحوال يأتيك باعتذارات باردة أو يقول لك: هذا ليس شأنك هذا هو حالهم إذا أنكرت عليهم منكراً الآن. فنقول: إن شخصياتنا يجب أن تكون متأثرة، جانب الاستقبال فيها قوي حتى نتقدم ونتفاعل، والنبي عليه الصلاة والسلام لما جاءه قوم من الأعراب مجتابي النمار، مقطعة ثيابهم، ورأى ما بهم من الفاقة والفقر المدقع؛ تأثر ﷺ وحزن وقام خطيباً بالناس، وأمر بلالاً فأذن وجمع الناس، ثم أمرهم بالصدقة وحثهم عليها، فجاء الناس بصدقاتهم، منهم من جاء بصرة كادت يداه أن تعجز عنها، بل قد عجزت، ومنهم من جاء بما عنده حتى أن بعض الصحابة قالوا: كنا نحامل، أي: يذهبون إلى السوق يشتغلون حمالين - كما ثبت في الحديث الصحيح - واحد ما عنده صدقة، ما عنده مال، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: **«تصدقوا»** أمرهم بالصدقة، وهذا ما عنده مال، من أين يأتي بالمال؟ وهو لا يريد أن يفوت الأجر، يريد أن يتصدق وأن يلبي رغبة النبي عليه الصلاة والسلام وطلبه، فيذهب إلى السوق ويشتغل حمالاً ويأخذ الأجرة ويتصدق منها أو يتصدق بها..!

فكان عندهم تأثر لو نصحوا، لو قيل لهم: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، انفروا خفافاً وثقالاً للجهاد في سبيل الله؛ لرأيت الاستجابة حاصلة، لكن نحن المشكلة في

شخصياتنا أن جانب التأثر والتفاعل ضعيف، وعليه فالاستقبال ضعيف، فمهما جاءت موجات النصائح والإنكار والتعليم لا تجد أثراً، أو أن الأثر ضعيف والموجة مشوشة، فلا نعمل إلا شيئاً يسيراً، وقد نبخل بالأموال مع أن أحدنا إذا أحيل إلى التقاعد، وصار يأخذ راتباً أقل مما كان يأخذه وهو على رأس العمل، أو فصل من وظيفته أو استغني عن خدماته وذهب إلى وظيفة ثانية راتبها أقل؛ يصير مهموماً وحزيناً، ولا بد أن يعمل عملاً آخر.. لماذا؟ قال: لا أريد زوجتي وأولادي يعلمون أن هناك تغيراً في المستوى المعيشي. أجل.. والفقراء والمسلمون والمجاهدون والمنكوبون الذين ليس عندهم مستوى معيشي أصلاً ما هو دورك بالنسبة لهم؟ هذا مستعد أن يعمل عملاً ثانياً وثالثاً، وإضافياً، يفتح مؤسسة ويشتغل من أجل ألا يتغير المستوى المعيشي، هو أصلاً ما ربى أهله على الزهد؛ ولذلك لما اختلف المستوى المعيشي صار عنده نكبة في البيت ومصيبة، وقامت الزوجة والأولاد عليه من جميع الجهات، كيف تخرج الولد من مدرسة خاصة وتدخله مدرسة حكومية؟ كيف تأتي لنا بسلعة من كذا وكذا وأين الذي كنت تأتي به من قبل؟ كيف نشتري تايوانياً وكنا نشتري أمريكياً؟ كيف نفعل...

فالآن طبعاً الخطأ منه أصلاً؛ لأنه ما عودهم على شيء دنيوي ولا رباهم على الزهد، ولذلك لما تغيرت الأحوال صار هناك ضائقة ومشكلة. على أية حال أنا أقول: نحن في الأمور الدنيوية نعطي لأنفسنا أحسن الأشياء، ونأكل في أفخر المطاعم، ونطبخ الولائم في المطاعم، نفعل أشياء، نشتري، نبذخ على أنفسنا، لكن إذا دعا داعي الصدقة لغيرنا من المسلمين؛ رأيت الإمساك والشح! معاوية بن الحكم السلمي صحابي جليل، كان في البادية، وجاء ليتعلم عند النبي ﷺ، وقص عليه قصة، قال: (يا رسول الله! كانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانية – موضع بقرب المدينة – فاطلعت ذات يوم، فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون – أغضب – لكنني صككتها صكة – رأيت الشاة نقصت من الغنم؛ فضربت الجارية – فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله! أفلا أعتقها؟ قال: **«ائتني بها»**، فأتيته بها فقال لها: أين الله؟ قالت: **«في السماء»**. قال: **«من أنا؟»** قالت: أنت رسول الله، قال: **«أعتقها؛ فإنها مؤمنة»**. هذا الصحابي تأثر لما لامه الرسول عليه الصلاة والسلام على ضرب الجارية، والناس اليوم يضربون الخدم. يحدثني أحد الأطباء في مستشفى من المستشفيات يقول: يا شيخ! تكلموا في خطبة الجمعة، انصحوا الناس إن عندنا حالات محزنة، خادمات تأتينا فيها كسور، وهذه فيها جروح، والتي تأتي وقد أوشكت على الموت والهلاك مما يفتري بها رب البيت، يعني في الإذلال والإهانة والضرب. فالشاهد – أيها الإخوة – أن هذا الصحابي الجليل تأثر، واليوم نحن نعتدي ونقسو ونفعل ونفعل، ذلك بلا شك لخلل في شخصياتنا.

تكميل الشخصية المسلمة بالعلم والعبادة والأخلاق:

الشخصية الإسلامية تكميلها - كما قلنا - بالعلم والعبادة والأخلاق والآداب، والعلم كثير، وعلى رأسه العلم بالله وأسمائه وصفاته وتوحيده سبحانه وتعالى، العلم بالإيمان، العلم كيف نعبد الله؟ إذا عرفنا الله بالتوحيد فكيف نعبده؟ فنحتاج إلى تعلم الفقه، فإذا أردنا بعد ذلك أن نعامل الخلق فنحتاج إلى معرفة أحكام البيوع، ومن اغتنى احتاج إلى معرفة أحكام النكاح؛ لأنه سيتزوج. ولذلك العلماء لما رتبوا أبواب الفقه؛ رتبوها ترتيباً موضوعياً فبدءوها بالإيمان والعقيدة، ثم قالوا: إذا عرف الله؛ يحتاج أن يعرف كيف يعبده، فوضعوا كتاب الصلاة والزكاة والصيام والحج، ثم قالوا: إذا عرف العبادات؛ يحتاج أن يعرف المعاملات، فوضعوا البيوع، ثم قالوا: إذا اغتنى من البيوع؛ إنه يحتاج أن ينكح؛ فوضعوا النكاح بعد البيوع، ثم قالوا: إذا نكح؛ فإنه ربما يطغى ويضرب ويقتل ويجرح؛ فوضعوا كتاب القصاص والحدود والشهادات وما يتبع ذلك. فالمهم شخصياتنا فيها جهل وتحتاج إلى تكميل بالعلم، فيها قسوة تحتاج إلى أن نهذبها بالعبادات، وفيها اعوجاجات تحتاج إلى تقويم بالأخلاق الحسنة، والآداب في التعامل مع الناس، فإذا كملت الشخصية وصارت شخصية لها هيبة، وهذه الهيبة ضرورية في الدعوة وإنكار المنكر، جاء في صحيح مسلم عن سعيد بن جبير قال: (مر ابن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم) يعني:

كل سهم خطأ يعطوه لصاحب الطير، طبعاً لا يجوز اتخاذ شيء فيه روح غرضاً وهدفاً (فلما رأوا ابن عمر قادماً تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ **«لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً»**. فالآن شخصية ابن عمر المتكاملة بالعلم والعبادة والدين والأخلاق صار لها هيبة، أي أن تكميل الشخصية يسبب هيبة، هذه الهيبة مهمة في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والموضوع سيطول بنا إذا جلسنا نتكلم في تكميل الشخصية الإسلامية، وقد سبق محاضرة بعنوان "وسائل تكوين الشخصية الإسلامية" تكمل هذا الموضوع.

(وقفة)

جوانب يغفل عنها بعض الناس:

بعض الناس كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ينتهون عن المحرمات لكن يفرطون في الواجبات، يقول: ما يزني ولا يأكل الربا ولا يشرب الخمر ولا ولا.. ولكن هناك واجبات مثل صلة الرحم، وحقوق الجار مفرط فيها، هذه من النقائص الموجودة في كثير من الشخصيات، حتى أن بعض المحسوبين على الالتزام تجده لا ينظر إلى النساء، لا يشاهد الأفلام، لا يسمع الأغاني، لا

يسبل الثياب، فهو في المحظورات عنده شيء من الاهتمام، لكن في الواجبات مثل صلة الرحم، وبر الوالدين، وحقوق الإخوة، هناك تفريط واضح. ولذلك أقول: ليس تكميل الشخصية فقط في مسألة الامتناع عن المحظورات وأخذ النقاط القوية، بعض الناس يظن أنه لا بد أن تكون الشخصية فيها نقاط قوة، فيظن أن الرحمة والشفقة والرقة واللين ليست من ضمن نقاط القوة في الشخصية الإسلامية، مع أنها في الحقيقة من ضمن نقاط القوة العظيمة في الشخصية الإسلامية، ولنأخذ عدداً من الأمثلة نختم بها الموضوع، وهذه أشياء نقلها ابن رجب رحمه الله في كتابه العظيم جامع العلوم والحكم: كان عند العرب الأوائل عيب على المرأة أن تحلب الشاة، وكان يستقبحون ذلك، ويحلبها الرجل، وإذا غاب الرجل الزوج أو الأب يحلب لهم الجار، فكان أبو بكر الصديق يحلب لأهل الحي أغنامهم، فلما استخلف وصار أمير المؤمنين قالت جارية منهم – يعني من نساء الحي – بعد أن صار أبو بكر خليفة: الآن لا يحلبها. تقول: لقد صار قائد الدولة وأمير المؤمنين يسير الجيوش ويتحمل المسئوليات هل يلتفت إلى غنمنا ويحلبها؟ الآن لا يحلبها، فسمع بذلك أبو بكر رضي الله عنه فقال: بلى، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله. وكان عمر رضي الله عنه يتعاهد الأرامل، فيسقي لهن الماء بالليل، رآه طلحة بالليل يدخل بيت امرأة، فدخل طلحة إلى بيت هذه المرأة نهاراً، فإذا هي عجوز عمياء مقعدة، فسألها: ما يصنع هذا الرجل عندك؟ قالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى..! صار الواحد الآن إذا وجد أباه أو أمه أو جده مشلولاً لا يزيل عنه الأذى؟ وهذا عمر رضي الله عنه يزيل الأذى عن امرأة عجوز مقعدة عمياء ويأتي لها بما يصلحها، فقال طلحة لنفسه: ثكلتك أمك يا طلحة! عثرات عمر تتبع!!.

وكان أبو وائل رحمه الله يطوف على نساء الحي وعجائزهم كل يوم، فيشتري لهن حوائجهن وما يصلحهن. وقال مجاهد: صحبت ابن عمر في السفر لأخدمه فكان يخدمني فقضية الرفق والشفقة واللين وخدمة الآخرين بعض الناس يغفلون عنها، ويظنونها ليست من نقاط القوة في الشخصيات، وبالعكس فإنها من نقاط القوة العظيمة في الشخصية السلام على الصبيان، في البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعله. فأين هذه الشخصيات التي فيها هذا الجانب المتكامل في العلم والعبادة والأخلاق والآداب، وحتى جوانب الرفق واللين والعطف والشفقة والرحمة بالصبيان موجودة؟ فإذاً – أيها الإخوة – هذه الشخصية الإسلامية تحتاج إلى تكميل، وقد ذكرنا أهمية الموضوع وبعض الجوانب التي نحتاجها لتكميل شخصياتنا، واستعرضنا بعض قصص السلف في الموضوع، والجوانب المشرقة في ذلك التاريخ العظيم الذي جله مشرق ونور وضاء، منارات يهتدي بها الخلف من تاريخ وشخصيات السلف. إن الواقع الموجود الآن – واقع المسلمين – يحتاج في بعض الجوانب والأحوال إلى

تخصص، أي: كثرت الثغرات، من جهة العلم هناك نقص في العلم، يحتاج هذا النقص إلى شخصيات تتفرغ للعلم، من جهة الإغاثة هناك حاجة ماسة للإغاثة لدرجة أنها تستدعي تخصص أناس في هذا الجانب، في قضايا الجهاد الحاجة تستدعي لتخصص أناس في هذا الجانب، حتى مساعدة الشباب في الزواج على النساء الخيرات يحتاج إلى تخصص أناس في هذا الجانب، البحث عن عوائل فقيرة، وإنكار المنكر... إلخ، والسؤال هو: هل التخصص الذي يفرضه وتدعو إليه الحكمة يتنافى مع التكامل المطلوب؟ طبعاً الجواب: لا يتنافى، والسبب: أن المسلم ينبغي أن يكون عنده حد أدنى في كل شيء، فمثلاً: ما يمكن واحد أن يقول: أنا ما علي من العلم، سأشتغل بالإغاثة أو الجهاد أو مساعدة الفقراء.. خطأ، يجب أن يكون هناك حد أدنى من العلم وهو ما تصح به عباداتك ومعاملاتك، إذا أردت أن تنكح فإنك تحتاج إلى أن تعرف أحكام النكاح، وإذا أردت أن تبيع؛ ينبغي أن تعرف أحكام البيوع، أما الصلاة فلا بد أن تعرف أحكام الصلاة والطهارة والزكاة، هذه أشياء فيها ممارسة دائمة، وإن كنت قادراً وكان عندك مال؛ تحتاج أن تعرف أحكام الحج، هناك أشياء لا بد أن تعرفها الآن، وهناك أشياء يمكن أن تعرفها في المستقبل إذا احتجت إليها، إذا أردت أن تنكح، إذا أردت أن تطلق، إذا أردت أن تبيع، فتوفر الحد الأدنى في كل جانب مهم، وبذلك تبقى الشخصية الإسلامية في نوع من التكامل، لا يقول أحدنا: أنا أطلب العلم وما علي من الصدقات ولن أتبرع بشيء. نقول: هذا الذي تقوله خطأ واعوجاج، أين إخراج الشح من نفسك ببذل الصدقات، صحيح أنك لا تذهب للعوائل وتبحث عنها وتوصل الأشياء بنفسك، لكن قدم. فإذاً:

وجود الحد الأدنى يبقي التكامل مع وجود التخصص المطلوب. ثانياً: لا بد أن نقر بالجوانب الأخرى، يعني صاحب التخصص يقر بالحاجة إلى الأشياء الأخرى، ولا يقول: أنا مجالي فقط ومجال غيري ليس مهماً، لا. كل واحد يبدع في مجاله بحسب إمكاناته وقدراته التي أعطاها الله إياه، وكذلك يشارك بما يستطيع في الجوانب الأخرى، فمثلاً: المشتغل بالجهاد أو غيره قد توجد لديه أوقات للتعلم فهل يقول: ما دام ليس هناك قتال، فأنا لا أتعلم لأنه ليس من اختصاصي ولا هو من شئوني، هذا شغل العلماء – لا. هذا خطأ وانحراف، فنقول: أنت يا صاحب التخصص! ينبغي عليك أن تشتغل في المجالات الأخرى ما دام عندك إمكانية، وما دامت الفرصة متاحة لك، وبذلك نحافظ على أكبر قدر من التكامل المطلوب مع الاختصاص المطلوب.

سؤال وجواب............

علاج الشخصيات الهزلية:

السؤال: أنا شاب عرف عني الهزل بين الشباب، فما جلست مجلساً إلا ابتليت بداء

التعليق، وقد حاولت جاهداً أن أزيلها ولكني وجدت أن الأمر أصبح عادة ولا أستطيع تركها فأرشدني؟ الجواب: الشخصيات الهزلية دليل على خلل في الشخصية، وهذه الطبيعة لها أسباب منها: أن يكون قد نشأ على ذلك في بيته وأهله، فهم كلهم هزليون، وكل مسألة فيها ضحك ونكت، وما هي آخر نكتة؟ إضافة إلى تربية المدارس والفصول والطلاب مع بعضهم البعض، والناس في الدوائر والوظائف فتجدهم يبحثون عن آخر نكتة، فهذا مما يربي الهزل، وكذلك بعض النفوس - لهذه الشخصيات - عندها قدرة على إضحاك الآخرين، فبعض الشباب - مع الأسف - بدلاً من أن يساعدوا أخاهم الهزلي على أن يتخلص من هزليته، يجعلون الفرصة متاحة له أن يكمل فيها هزليته أكثر؛ ولذلك كلما جاء بحركة ضحكوا، كلما جاء بنكتة ضحكوا، وكلما جاء بتعليق أغرقوا في الضحك، فيحس أن له قبولاً بينهم، ولذلك فهو يكثر منها، ثم إن بعضهم قد يقصده للضحك، يذهب إليه يقول له: ما عندك آخر شيء وآخر كذا، وهذا من هنا ينغز، وهذا من هنا، أي: يجعلون فيه مداخل من أجل استجلاب ما عنده من الحركات المضحكة والكلام المضحك، وهذا من خطأ الذين حوله، فهناك مسئولية ملقاة عليه وهي: أولاً: ألا يكذب؛ لأنه ويل لمضحك القوم (ويل لمن يكذب ليضحك به القوم). وثانياً: ألا يتخذ الإضحاك نفسه ميزته وأن يكون مضحك القوم، فهذه ميزة سخيفة وليست في الحقيقة تقضي على كل جانب جدي في شخصيته، وكيف يتقبل الناس منه علماً حتى يقول: واحد هذا إذا نصحني، والله ما أدري هذا فعلاً سامعها من شيخ أو هذه من ألاعيبه؛ بسبب أنه تكونت عنه فكرة أنه شخصية هزلية. فإذاً لا يكذب ولا يجعل وظيفته مضحكة قوم. ثالثاً: أنه لا يقهقه أو يأتي بما يجعل الآخرين يكثرون الضحك فيجعل قلوبهم ميتة؛ لأن كثرة الضحك تميت القلب، وعليه أن يجاهد نفسه ويكون جاداً، ويتجنب أن يتصدر المجالس ويتكلم، وما دام أنه لن يقول خيراً ولكن سيضحك الناس فليسكت، وعلى إخوانه ممن حوله أن يساعدوه على التخلص من هذا، ولا أقصد - طبعاً - أن يصل من مرحلة الهزل والضحك إلى مرحلة العبوس، والجمود والتكشير، وإن كان التكشير صار الآن مفهومه بعكس المعنى "إنا نكشر في وجوه أقوام" أي: يتبسم. على أية حال لا نريد هذه النقلة المعيبة لكن نريد الاعتدال.

دعائم الشخصية الإسلامية في هذا العصر:

السؤال: ما هي دعائم الشخصية الإسلامية في هذا العصر الذي صارت الأمة فيه مهزومة ويذبحون ذبح النعاج؟ الجواب: أولاً: قضية الوعي لا بد أن تكون متوفرة في الشخصية الإسلامية، وكذلك معرفة ما يدور وما يحاك. ثانياً: قضية العزة، لا بد أن تكون الشخصية الإسلامية عزيزة، لا تلين لأهل الكفر، ولا تخنع وتذل لأهل بدعة أو تلاطف

وتجامل على حساب الدين، لا بد أن يكون هناك عزة، قضية الولاء والبراء من المفاهيم العقدية التي تصون الشخصية الإسلامية وتجعل الإنسان داعية بشخصيته وبأفعاله.

أسباب الملل والكسل السريع:

السؤال: كثير من الناس يسعى لتكميل شخصيته؛ لكن ما يلبث أن يدب فيه الملل والكسل؟ الجواب: من الأسباب: أنه هجم هجمة واحدة قوية أكثر مما يتحمله بدون فترات راحة وتخفيف، وإنما أخذها شدة واحدة، فهو في هذه الحالة سينقطع به الطريق؛ لأنه حمل نفسه أشياء لا تطيقها، فالنفس تتحمل يوماً أو يومين، أسبوعاً أو أسبوعين، شهراً أو شهرين ثم تمل النفس، ولذلك لو أن واحداً لا يقوم الليل أبداً وأراد أن يقوم الليل من هذه الليلة، فأحسن شيء أن يصلي إحدى عشرة ركعة، وبالنسبة للقرآن الصحابة كانوا يختمونه في أسبوع، فيقول: أنا سأنهيه في أسبوع، ممكن أن يكون مع الحماس والكلام الذي سمعه في الموضوع أو قرأ في الفضائل أن يفعل ذلك في الليلة الأولى، لكن هل تتحمل نفسه هذا؟ لا تتحمل نفسه، ولا تطيق ذلك. أو يقول: ما هو أفضل الصيام؟ صيام داود، أصوم يوماً وأفطر يوماً، من غد أصوم يوماً وأفطر يوماً، هو ما تعود على الصيام، يريد أن ينتقل إلى هذه المرحلة مباشرة، طبعاً نحن لا نريد أن نميت الهمم ونقول: يا فلان! إن كنت تستطيع أن تفعل فلا تفعل.. لا. المستطيع يفعل، النبي عليه الصلاة والسلام قال لعبد الله بن عمرو ابن العاص: (فإنك إن فعلت ذلك؛ نفهت نفسك) تعبت عينك، ونفهت نفسك، أي: كلت وملت. ولكن يرفق ما دمنا في النوافل، أما الواجبات فليس فيها تنازل أبداً ولا تساهل ولا شيء اسمه تدرج بمعنى: أول شيء نصلي العشاء في المسجد وبعد ذلك نصلي المغرب ثم نصلي العصر ثم نصلي الفجر في الخطة الخمسية إن شاء الله، هذا الكلام لا يصلح، هذه واجبات لا بد من اليوم أن يقوم الإنسان بها، نحن نتكلم عن النوافل ونقول: يرفق الشخص بنفسه ويتدرج.

حكم طاعة الكافر في مجال العمل:

السؤال: هل يجب على الإنسان المسلم طاعة الرجل الكافر في مجال العمل؟ الجواب: نقول: يجوز ذلك إذا كان في مجال العمل، وليس له علاقة في التنازل عن الدين، افرض أنك ابتليت برئيس كافر فقال لك مثلاً: اضغط الزر، اكتب هذا التقرير، احضر اجتماع العمل. كذلك ليس هناك ارتكاب لمحرم، مثل أن يقول لك: احضر اجتماعاً مختلطاً أو اسمع هذا المقطع الموسيقي، أو مثلاً اكتب هذا الشيء الذي فيه ضرر بالناس أو المسلمين، ففي هذه الحالة يكون هذا حراماً. نعم أن تسعى لأن تكون أحسن منه أو تكون أنت في مكانه هذا

مهم، لكن إلى ذلك الوقت؛ فإن التعامل معهم في حدود العمل المباح جائز.

حكم الإعجاب بالكفار:

السؤال: بعض الناس أصيبوا بالمسخ في الشخصيات نتيجة الإعجاب بالكفار؟ الجواب: صحيح أن بعض شبابنا صار معجباً بالكفار والفسقة، والناس يعجبون بهم؛ لأنه ليس هناك قدوات بارزة في الساحة، ثم الناس أنفسهم شخصياتهم هزيلة، فصار كل فاسق يعجب به، يسهل عليهم أن ينخدعوا بالفاسق والماجن والمطرب مع أنه إنسان تافه، حتى لو قرأت كلامه أو سيرته الذاتية لوجدته فاشلاً، لماذا دخل الفن والموسيقى لأنه فاشل، لا يستطيع أن يدخل الطب ولا الهندسة ولا العلوم ولا الصيدلة ولا كذا، فاتجه إلى معهد الفن والموسيقى، فصارت حركاتهم تُرفع وكلامهم يعرض، فصار الناس لهزالة شخصياتهم يتبعون ذلك. ثم إني قلت: إن كثيراً من الناس الذين سافروا إلى الخارج والبعثات مسخوا مسخاً، وصاروا خلقاً آخر. أحدهم ذهب إلى ألمانيا وعاش هناك وتزوج ألمانية، ثم جاء أهله ليزوروه – أمه وأبوه – في ألمانيا بعد سنين طويلة، فقالت له زوجته: اسمع، إذا جلسنا مع بعض؛ فممنوع تتكلم مع أهلك بالعربي، تكلم بالألماني، تسمع أو لا؟ – طبعاً هي قالتها بالألماني تسمع أو لا – فلما حضروا، جاء واستقبلهم في البيت بالألماني، وجلس يحييهم بالألماني، وكان هناك واحد يترجم؛ لأنه مسكين، شخصيته هزيلة ومهزوزة أمام هذه المرأة الكافرة التي تسلطت عليه، فصار المجلس من أضحك ما يكون، هذا يتكلم بالألماني وقريبه يترجم، ثم يرد عليه الأب والأم بالعربي ويترجم المترجم.. هذا من الأمثلة. وبعضهم يذهب ثم بعد سنوات يرجع فيقول له الناس: هاه يا فلان! أين صلاة الفجر، الصيام، السحور؟ يقول: لا، أنتم ما عرفتم أن هذا يضعف الخلايا، نحن عرفنا أشياء، هذا الصيام يعمل كذا وكذا، فنقول: صار المسخ في العبادات وكذلك في اللغة، فتراهم يستخدمون لغة الكفار حتى في محادثاتهم الشخصية، لا يوجد كافر في مجلس، فتجد اثنين من الشباب جالسين في المكتب يرطنون بلغة الأعاجم.. لماذا؟ ما هي المصلحة؟ ما هي الحاجة؟ وكثير منهم يلبس عليه بقضية دعوة الكفار، يقول: لا بد أن نطور لغتنا ونحسن، سأسمع إذاعة كذا وأسمع كذا، وأقرأ آخر كورس لغة، وأقرأ في كتب، وليس هناك شيء من الدعوة. بعض الناس والله من إخلاصهم ربما يسلم ناس على أيديهم وهم لا يعرفون لغة القوم، لكنه جاء بهذا الكافر إلى إمام المسجد أو على شخص يعرف لغة، أو على مركز توعية الجاليات مع أنه لا يعرف لغة هذا، لكن من إخلاصه أسلم ناس، فهو بلغة الإشارات والكلمات التي يعرفها تسبب في إسلام ناس، وهذا الأخ الذي جاء هنا جالس يقول: أتعلم لغتهم وأسافر إلى الخارج وأتحدث مع الكفار. يقول: لأن هذه الأشياء "الأكسنت" ما اسمها؟ هل هي هكذا أو لا؟ عندما يقولون اللغة، لا بد أن نكتسبها. لماذا يا أخي؟ هم يتكلمون بالعربي معنا؟ وإذا تكلموا يتكلموا

الفصحى؟ لماذا نحن لا بد أن نتعلم اللكنة ونتكلم مثلهم؟ فالمهم أنا أقول: إنها من جوانب مسخ الشخصية الحاصلة.

معاملة الكفار بالحسنى والتضييق عليهم:

السؤال: كيف نجمع بين قول النبي عليه الصلاة والسلام: **«فاضطروهم إلى أضيقه»**، وبين معاملتهم بالحسنى؟ الجواب: طبعاً هذا يشير إلى حديث: **«فاضطروهم إلى أضيقه»** يعني: إذا مشيت أنت وهو في الطريق، ولا تقول للكافر: تفضل.. أنت تدخل قبلي أو اخرج قبلي أو يقدم لـه شيئاً، لا، أنت لا تقدمه في شيء، يقول: كيف نجمع بين هذا وبين معاملتهم بالأخلاق الحسنة؟ نقول: أولاً: إذا كنا نريد أن نعاملهم بالأخلاق الحسنة؛ لا بد أن يكونوا من غير المعادين لنا والمحاربين في الدين**{لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ}**[1].

فإذاً الإحسان إليهم ومعاملتهم بالحسنى عندما لا يكون محارباً لنا في الدين. ثانياً: لا ينبني على ذلك إذلال للمسلم؛ لأن بعض الناس يجعل الإحسان في المعاملة إذلالاً لـه، يصبح ذلاً للإسلام، يذل الدين في عين الكافر بسبب هذه المعاملة، ليست معاملة بالحسنى. ثالثاً: أن تعامله بالحسنى في مجال الدعوة؛ لتكسب قلبه، لكن أن تقول: أزوره في بيته، وأحضر معه في مناسباته حتى أكسب قلبه، هذا شيء خاطئ إذا كنت تظن أن هذه المعصية ستؤدي إلى طاعة وهي دعوة، يجب أن تكون وسيلتك في الدعوة شرعية كلين الكلام، تبسمك في وجهه صحيح، وتقديم الحجج والبراهين والمنطق في الكلام الشرعي طبعاً هذا مطلوب. ثم إكرامه بوليمة أو شيء تدعوه إليه لتكسب قلبه نعم، لكن بعض الناس يفعلون ذلك دون أن يكون لـه قصد في الدعوة، يا أخي بدل أن تدعو هذا الكافر وتعمل لـه وليمة انظر إلى إخوانك المسلمين الذين يحتاجون إلى كل قرش فما بالك ترغب عنهم لتعطي ذاك؟

الاعتدال من خصائص الأمة الإسلامية.. لا أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية والشخصية تعني في مفهومها العام ملامح الإنسان وصفاته التي تميزه عن غيره، ولا يقتصر هذا المفهوم على الصفات البدنية، إنما يتعداها إلى الصفات النفسية والاجتماعية والعقلية، وقد صارت الشخصية علماً على السمات الخاصة التي يتميز بها كل إنسان عن الآخر في عقيدته وعواطفه ومشاعره وسلوكه وعلاقاته الاجتماعية وطرائق تفكيره وسائر تصرفاته الإرادية، لأن هذه هي المقومات الشخصية للإنسان، ومحار الحكم على مميزاته، إن تفاوت الناس في صفاتهم البدنية يرجع إلى عوامل الوراثة والبيئة، وهو تفاوت محدود لا يغير

---

(١) الممتحنة: ٨.

شيئاً من خصائص الإنسان الجسمية، ووظائفه العضوية وقلما يكون لـه تـأثير في الصفات النفسية إلا لدى أصحاب العاهات من الشواذ، والنادر لا يقاس عليـه، والحياة الإنسانية لا تقوم بالمقاييس الحسية الظاهرة إنما تقوم بمعيار العقيدة، والقيم الأخلاقية، والمستوى الفكري، لأن هذه هي خصائص الإنسان العاقل المكلف الرشيد، وبهذا المفهوم الخاص تتميز شخصية المسلم عن غيره فهي شخصية مؤمنة مهتدية، تتجه بمشاعرها وأحاسيسها لله تعالى، تستلهم منه الرشد والسداد، وتهتدي بنور الإيمان في سلوكها، وتتخذ الشريعة الإسلامية نبراساً لها في تصرفاتها، وتحتكم إليها في كل شأن من شئون حياتها.. وهي متميزة بالعقيدة الإسلامية الـتي تؤمن بها، وتخالط شغاف قلبها، وتمتزج بأحاسيسها، فتعيش من أجلها، وتجعل حياتها وقفاً عليها؛ إذ لا قيمة للحياة بدون عقيدة، والعقيدة لدى المسلم هي المعيار الأساسي للعمل، فأي عمل لا ينبعث من العقيدة لا قيمة لـه في ميزان الإسلام مهما كـان جليلاً نافعاً يعود على البشرية بالخير **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}**[1].

وهي شخصية متميزة بسلوكها الإسلامي، تقف عند حدود الإسلام وشرائعه، عبادة ومعاملة وأخلاقاً، لا تجامل على حساب دينها، ولا تداري ولا تماري، ولا تدع لأي ضغط اجتماعي فرصة للتأثير عليها، حتى تتهاون في شيء من قيمها، وهي شخصية تعتز بمقوماتها من غير كبرياء، وتشعر بقوة الحق الذي تدين به، فلا تلين ولا تضعف، ولا تذوب في أي بيئة تعيش فيها، أو مجتمع يضمها، بل تجد من إيمانها القوي ما يحملها على مقاومة التيارات الفكرية، والانحلال الخُلُقي، والفساد الاجتماعي، إنها شخصية تؤثر في غيرها، ولا يؤثر غيرها فيها، وإن استفادت بكل خير، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها.

فالشخص الذي يخضع للعادات والتقاليد الفاسدة الـتي تفرض وجودها بالانتشار في بعض المجتمعات، فيجاري أحوال الناس في فسادهم، أو يعيش في مجتمعات غير إسلامية لمقاصد سليمة فلا يلبث طويلاً حتى ينخرط في سلكها، ويتقبل أوضاع حياتها التي تتنافى مع عقيدته أو دينه، هذا الشخص أو ذاك لا شخصية لـه، لأنـه تهاون في مقومات الشخصية الإسلامية وأهدر مثلها، وجماع ما تتميز به شخصية المسلم أن يكون رجل عقيدة، ترى حياته صورة صادقة لها، يقرأ الناس فيها كتاب الإسلام مسطوراً في آرائه وأفكاره وأخلاقه

---

(١) التوبة: ١٧.

وأحكامه وسلوكه، حيث تكون نظرته إلى الكون والإنسان والحياة نظرة إسلامية، وتكون المثل التي يحتذيها والفضائل التي يتحلى بها أخلاقاً قرآنية، ويستقي أحكامه على الأمور كلها من هدي الإسلام وشريعته، ويأخذ نفسه بعد هذا بما يدين به لله في أعماله وشؤون حياته، يفتدي عقيدته بنفسه وماله، ويفي بالبيعة وفاء المؤمنين الصادقين:**{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ}**[1].

عن ابن عمر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"، وحفاظاً على جمع الكلمة، وصيانة لحرمات الأمة، فإن الإسلام يأمر بالصبر على جورهم، وتحمل أذاهم، والدعاء لهم بالتوفيق والسداد، فيحرم الخروج عليهم ما لم يأتوا كفراً بواحاً، ليس لهم عليه من الله سلطان، لما في الخروج عليهم من الفساد أضعاف ما يترتب على جورهم وظلمهم، ومن قواعد الشريعة الإسلامية، أنه إذا تعارضت مفسدتان ارتكب أخفهما اتقاء لأشدهما.. عن عبادة بن الصامت قال: "بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثره علينا، وألا ننازع الأمر أهله قال: إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان" وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : **«من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة الجاهلية»**.

فلا يجوز الخروج على أولي الأمر حتى يخرجوا عن دين الله خروجاً لا تأويل فيه، كما لا تجوز مخالفتهم إلا فيما فيه معصية لله ورسوله": **«اسمعوا واطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»** والإسلام بهذا النهج السديد يحرص على وحدة الأمة، وسلامة الجماعة، ما دامت قائمة على الحق، ومع السمع والطاعة لأولي الأمر فإن طاعتهم في المعروف، فإذا أمروا بمعصية فلا سمع ولا طاعة.

ثم اتجه الوزير إلى أمر هام وجّه إليه الشباب قائلاً: الاعتدال في السياسة بين المبالغة في النظر إلى السياسة وما بين الترك، كثير من الناس ينظر أنه بسماعه لقناة فضائية، أو لقراءته لتقرير صحفي أنه مؤهل للنظر في السياسة، السياسة صعبة حتى عند الذين عندهم مؤسسات كبيرة تدعمهم بالمعلومات ولديهم أجهزة تحرّ، فليست السياسة بالأمر السهل التي

---

(١) التوبة: ١١١.

يحكم فيها أفراد الناس؛ لأن هذا أمر حكمه كذا وأن هـذه قضـية يجـب أن ننظـر فيهـا كـذا، والواجب حينئذ أن نكون متوسطين في السياسـة الفهـم في الأمـور السياسـية مطلـوب لكـن يجب أن تثق في حل الأمور السياسية، أن تثق بولي الأمر، أن تثق بمن أعطـي في ذلـك؛ لأنـه عنده من الأجهزة والنظر والإدراك لمصالح الأمة ما ليس عند الأفراد فمن كان عنده نظـر في تقرير صحفي أو في رؤية قناة فضائية وحينئذ يجعل نفسه قائماً بأمر الأمـور السياسـية وكأنـه الذي عنده الغيرة على الأمة وغيره ليس عنده غيرة على الأمة فإنه قد بالغ وترك الاعتـدال، الاعتدال في السياسة بين الفهم والقناعة ليس كل الأمور يمكن أن تفهم لكن يجب أن تحـاول الفهم، لكن قد لا تدرك القناعة التامة، الاعتدال في السياسة بـين الاتهـام المطلـق، ومـا بـين التبرير المطلق هناك من يبالغون في الاتهـام يتهمـون بـأول خـاطر، وهنـاك آخـرون أيضـاً في الطرف الآخر يبالغ في التبرير لكل شيء، والعاقل المدرك، العالم، طالب العلم، صاحب الحق فإنه يكون وسطاً بين الاتهام، وما بين التبرير يكون متفهماً مدركاً يعـرف الأمـور ومآخـذها، الوسطية بين الوطن والأمة الوسطية بين الأهم والمهم، نحتاج إلى بحث في الوطن والأمة، منـا من قد يفرط في وطنه الـذي هـو مخاطـب أساسـاً لوجـود الولايـة عليـه، ولوجـود مصـالحه ومصالح من يكونون حولـه فيه يفرط في وطنه رعاية لمصالح الأمة كلها وهذا لـيس بسـليم، مصالح الأمة مطلوبة أن ترعى، وأن يحافظ عليها لكن أولاً أن يحافظ علـى مصـالح الـوطن لأن هذا أنت مخاطب فيه أولاً، أبدأ بنفسك ثم بمن تعول، ابدأ بنفسك أولاً وبمـن حولـك في النفقة، وفي المحافظة فمن أضاع المحافظة على الوطن من جهة النظر إلى المحافظـة علـى الأمـة، فإنه لن يدرك المحافظة على الأمة ولن يدرك المحافظة على الوطن، فـلا بـد أن تكـون الأمـور بمقدماتها تحافظ على وطنك؛ لأنه الأهم، وأن تجتمع كلمتنا على ذلك ونسعى في هـذا في أن نكون مؤثرين في الأمة ساعين في مصالحها، كذلك الأهم والمهم هنا مـن لا يرعـى الاعتـدال في ذلك يقدم كل شيء عنده مهم – لا – العقلاء من أهل العلـم والـدعوة، وأهـل التوجيـه يرون أن تقديم الأهم مطلوب حتى ولـو فـوت مهمـاً، أو مهمـات كـثيرة، لا بـد أن ترعـى الأولويات أن تبدأ بالأهم، وأن تؤخر المهـم، لا بـد مـن أن نكـون أهـل إدراك لأن شـريعتنا أمرتنا بذلك أن نكون أهل فهم أهل نظر، وألا نكون متعجلين متوانين في أمورنا، وأن نكـون وسطاً بين طرفي الإفراط والتفريط، بين طرفي الغلو والجفاء.

لتدرك أخي القارئ أنني لم أستطع أن أقف مع كـم المعلومـات الـتي طرحهـا الـوزير في المحاضرة، وما ذكرته إنما هو جزء من موضوع هام بسطت شيئاً منه ليـدل علـى عظمتـه، كـل ذلك لأنتقل بك إلى المحطة الثانية.. والمحطة الثانية: فقد ذكرت في البدايـة إلى حـرص السـلف والعلماء على نشر العلم، ونشر العلم في الماضي كانت وسائله بالنسبة لعصرنا هـذا محـدودة

للغاية ومع العلم، ونشر العلم في الماضي كانت وسائلة بالنسبة لعصرنا هذا محدودة للغاية ومع ذلك فقد استطاع العلماء بتوفيق من الله نشر العلم على معظم الخليقة، إنني هنا أعود وأقول: كيف نقدر قيمة هذه المحاضرة وأين مكانها في رفوف الموضوعات الهامة الواجب طرحها في وقتنا الحاضر، ومما يدعو كل مهتم لشؤون الوطن والمواطن والإسلام والمسلمين ليقف مشدوهاً في كثير من الأحيان عندما يمن الله عليه بالوقوف أمام أحد العلماء الربانيين وهو يتكلم أمام خمسة أو عشرة أو قل مائة أو ألف من المسلمين كلاماً لو سمعه الناس لغيَّر كثيراً في مجرى التفكير وفي مسيرة التاريخ، انظر كيف يقوم أهل الشر بإيصال أفكارهم إلى جميع الأحياء في أقطار الأرض من خلال استغلال كل الوسائل التقنية الحديثة. أليس أولى وأجدر بنا أن نوصل نحن معانينا وأفكارنا السامية التي لو سمعها الناس والشباب لما عرف شيئاً اسمه التطرف ولا طريقاً إليه ولا للتفريط واللامبالاة بل سينتهج طريقه المتوسط المعتدل النافع المفيد.

١- أين الإعلانات والدعايات الإعلامية في الوسائل المسموعة والمرئية والمقروءة، ناهيك عن التصاميم الجذابة والإعلان والإخراج المتميز.. وأنه وكوجهة نظر خاصة أرى من المهم أن تفرض هذه الدعايات أو الإعلانات حتى في القنوات الفضائية وبخاصة ذات التوجه الاستثماري.

٢- أين مؤسسات إنتاج الصوتيات والمرئيات، أين أنتم يا أصحاب هذه المؤساسات لمثل هذه المحاضرات التي لن يقاسمكم محاضروها أرباحاً، أين منسقو الوزارة مع مثل تلكم المؤسسات فقط منسق مع الوزارة وباقي الأمور من تسجيل وضبط وتوزيع إلخ، ستتولاه تلكم المؤسسات.

٣- إنه من تمعن في هذه المحاضرة التي سمعتها واطلعت عليها من بعض وسائل الإعلام كخبر سريع أو نحوه جعلني أحرص على تسجيلها وأعيد قراءتها وقد رأيت أن فتن اليوم لا علاج لها بعد أمر الله تعالى إلي في مثل الاعتناء في هذه المحاضرات، وأن عندنا من العلماء الربانيين الذين لو أذنوا للإعلاميين نقل دروسهم الدورية ومحاضراتهم لتعلم بدلاً من الطلاب العشرين نفراً وعشرات الملايين والجهد المبذول واحد، ومن الوسطية والاعتدال أن نفتح ونتفتح أن نغلق ونتغلق خوفاً من الفتن في الوقت الذي لا يمكن أن نستغني عن متابعة مصادر أخبار الفتن وترويجها الفضائيات، في المحل نفسه الذي ننغلق فيه.

قوام الشخصية المعتدلة... عدم الغلو والتطرف:

مما لاشك فيه إننا نحن معشر المسلمين تتشكل شخصياتنا من مرادات دينية من الكتاب

والسنة ومن مرادات كونية من العلوم العقلية والعرفية المستوحاة من معارف الشعوب والقبائل**{وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}**.)... ولذا فإن الاعتدال في شخصية المسلم هو بمقدار الاخذ بمبدأي:

- الموازنات.
- الأحقيات.

وهذا لن يتحصل إلا بمعرفة الانحراف نحو أحد الاطراف الشاذة والتي يسمونه بالتطرف

.. وأنا احاول بأذن الله تعالى أن أفسر بما وقع عندي من تعريف للتطرف بفضل الله تعالى وتوفيقه.. وأصل كلمة التطرف هو – طرف –.. فما هي هذه الأطراف والتي أن غلبت على إرادات وأحوال ومشاعر الإنسان العلمية والعملية قلنا عندئذ: إنه متطرف – أي غلب عليه أحوال وموجبات ولوازم أحد الأطراف.

ببساطة إنها أطراف اليمين واليسار والأمام والخلف كأصل وأمام اليمين وأمام اليسار وخلف اليمين وخلف اليسار كفرع، وهذا يعني أننا نقصد بأن لهذه الأطراف معان حسية ومعنوية تقتضيها طبائع الناس الكونية أو مؤثرات الحقائق العلمية والعملية. عليهم... حقيقة أن كل طرف من الأطراف يستوجب موجبات ولوازم ومتضمنات ومتطابقات في طبائع الإنسان وما يؤثر عليه من نقل وعقل.. ودعونا أولا نتحقق من صحة هذا الكلام وذلك بدراسة كل طرف على حدة.

أولا: اليمين واليسار:

ويحتملان مرادي اللين والشدة.. قال النبي ﷺ : إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن وليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة.. وهناك نوعان من اللين والشدة:

١– لين محمود أو مذموم. ٢– شدة محمودة أو مذمومة.

وتتحدد درجات المحمودية والمذمومية في اللين والشدة بناء على أخذ الإنسان بالتناسب المحمود أو المذموم بالتوافق بين المراد الكوني والمراد الشرعي، مراد النفي ومراد الإثبات، مراد الاتصال ومراد الانفصال، مراد الجمع ومراد التفريق.

ولعل من المناسب مواصلة الحديث عن معانى الأطراف والذي بدأنا الحديث عنهم.. في الحقيقة إن الطبائع الجبلية تعود محكماتها وما تقتضيه وتستوجبه وتستلزمه هذه الأطراف باللزوم والمطابقة والتضمن في صفات الناس الحسية والمعنوية، الأمر الذي سيساعدنا بلا

شك إن شاء الله تعالى على تشخيص داء التطرف وتقرير العلاج المناسب لكل نوع من التطرفات.

ثانيا الأمام والخلف:

هذان الطرفان يحتملان الإقدام والتراجع..

الإقدام المحمود كالمسارعة والمسابقة والنجدة والنهضة..

الإقدام المذموم كالعجلة والتهور والاندفاع وإلقاء النفس إلى التهلكة..

أما ما يتعلق بالتراجع..

التراجع المحمود التريث والتمهل والأناة والصبر والحلم..

التراجع المذموم كالفرار والتملص والانسحاب والقعود والتثبط..

وكذلك الحال للشدة واللين..

الشدة المحمودة كالثبات والاغلاظ على المنافقين والمخربين والمجرمين..

الشدة المذمومة كالعنف والقسوة والتنطع والغلو..

أما اللين..

اللين المحمود كالعفو والتسامح والمجاوزة والرفق..

اللين المذموم كالاستكانة والوهن والرهبنة والتنازل عن الحقوق المشروعةباسم التسامح..

أما بقية الأطراف الاخرى فليست سوى تجميع لمعان الأطراف الأصلية المذكورة سابقا.

وحتى نتمكن بإذن الله تعالى من تعريف مفهوم التطرف علينا أن نعرف الحالة السوية للإنسان ليتبين لنا متى يكون عندنا تطرف.

قال تعالى:**{أَفَمَن يَمْشِي مُكِباًّ عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِياًّ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}**[1].. وهذا المشي السوي حسيا ومعنويا.. الأمر الذي يكشف لنا بتلازم كوني وشرعي بين الخلق والأمر.. وحتى نفهم هذا المعنى المهم.. دعنا نتحقق حسيا عندما نمشي.. ماذا يتحقق في أجزاء الجسم؟

عندما نحرك الرجل اليمنى تتحرك معها دائما الذراع اليسرى.. أليس كذلك، إذاً هناك

(١) الملك: ٢٢.

توافق بين الجزء الأيمن والأيسر من الجسم بحيث أنه دائما عندما يتحرك أعلى الجزء الأيمن – الذراع اليمنى – يندفع معه أسفل الجزء الأيسر – الرجل اليسرى –.. والسؤال الهام هنا.. هل مثل هذه الجبرية الحسية في أعضاء جسم الإنسان لها ما يوافقها من جبرية معنوية في أحوال الإنسان الباطنية من المشاعر والإرادات والأفكار والعقليات..؟

نعم هذا بالضبط ما نقصده بالتلازم بين الخلق والأمر.. وهو ما سيساعدنا كثيرا على تشخيص داء التطرف وتقرير العلاجات المناسبه له بإذن الله تعالى، وهو ما يعني لنا أن مشاعر الإنسان الطبيعي والسوي يجب أن تكون عبارة عن تزاوجات ثنائية تتحرك في باطنه معا بانسجام سوي للشدة واللين والإقدام والتراجع وما تحتمله من مرادات محمودة أو مذمومة وما تستوجبه من معان ذكرناها في كل قسم متعلق به لهذه الموجبات واللوازم كالعفو والتسامح أو الوهن والاستكانة والعنف والقسوة أو الرفق والاندفاع أو التريث.. إلخ.

يمكننا أن نقيد أول فائدة من هذا الكلام كما يلي:

الفائدة الأولى:

إن أي علاج للتطرف في أشخاص من الناس نحو أناس آخرين يقتضي النفي الكامل لأحوال ولوازم طرف ما وإثبات أحوال ولوازم طرف آخر فقط يقتضي نشوء تطرف آخر –

إذا التطرف هو أن تغلب على الإنسان موجبات ولوازم حسية ومعنوية باللزوم أو التضمن أو المطابقة لأحد الأطراف السابقة الذكر وما تقتضيه من معان حسية ومعنوية كالاندفاع أو التعجل أو العنف أو الفظاظة أو الاستكانة أو الفرار أو التملص أو.... إلخ، وعندما تغلب على الإنسان موجبات ولوازم أحد تلك الأطراف تجده يتمسك بالأدلة والبراهين النقلية – أي من الكتب السماوية بشكل عام نظرا لأننا ندرس التطرف بشكل عام – أو العقلية – أي من خلال ما يصل إليه العقل بالبصر أو السمع أو الحس –.. فيذهب الإنسان إلى الظن بأن تلك الاجتهادات التي وقعت عنده أنها محل الكمال والإطلاق أحيانا، الأمر الذي يلتبس عليه السير باستواء سوي ومستقيم حسيا ومعنويا من خلال العمل بالتناسب الغير محمود بين مرادات:

1 – النفي والإثبات. 2 – الاتصال والانفصال.

3 – الجمع والتفريق.

فلا يحقق تحقيق التناسب المحمود بين المراد الشرعي والمراد الكوني..

أولاً: النفي والإثبات:

وتنشأ عدة حالات:

أما أن يكون النفي أكثر وأقوى من الإثبات فتجده يتعامل بالأدلة التي تقتضي الهدم والتجريح والإرهاب والتخويف والتعسير والتنفير والاختلاف والتنازع والتفريق.. إلخ. وهذه مشكلة كثير من الناس، وسببه عدم الإقرار بالتفاضل في مرادات الخير والشر.. أي أننا نعتقد وفق عقيدة أهل السنة والجماعة بأن الخير يتفاضل وكذلك الشر يتفاضل بل ويتبعض كما في كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.. فمثلا اليوم المشكلة التي يعاني منها بعض الشباب في نظرتهم للمملكة العربية السعودية من اعتماد أدلة وموجبات النفي فقط لطرفي الشدة والاندفاع بالعنف والعجلة. فنقول لهم هل تعتقدون معنا أن السوء والشر يتفاضل؟ بلا شك نعم لأن هذا من عقيدة أهل السنة والجماعة.. أي هل يمكن اعتبار موقف بعض الدول كالصين مثلا تجاه القضايا العربية مثل موقف بعض الدول الغربية والتي دائما ما تستخدم حق النقض الفيتو لإلغاء أي حق يكون لنا في فلسطين أو مكان آخر.. بالتأكيد لا يمكن المساواة بينهما مع أنهما في دائرة اللادين بالنسبة لنا.. طيب إذا سمحنا أن نحقق المفاضلة بين اللادينيين من حيث العداوة فتحقيق المفاضلة بين الدينيين بشكل عام وبين المسلمين بشكل أخص يكون أوجب بالأخذ به.. أليس كذلك؟

والموضوع عن تكميل الشخصية الإسلامية، تكميل الشخصية شخصية المسلم. الشخصية الإسلامية كاملة كما ورد في هذه الشريعة، والله سبحانه أنزل هذا الدين كاملا. وقال الله عز وجل:**{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}** فقد كمل الله هذا الدين، والحمد لله هذه نعمة من الله أن شريعتنا هذه شريعة كاملة. ومن نعمة الله عز وجل علينا أننا وجدنا في هذه الأمة التي هي خير أمه أخرجت للناس ودينها أتم الأديان وشريعتها أكمل شرائع ناقصة، هي الشرائع. وشرائع الأنبياء من قبلنا بالنسبة إلى شريعة نبينا محمد بالنسبة لكل أمة من الأمم كاملة بالنسبة لهم، لكن بالنسبة لنا شرائعهم بالنسبة إلى شرائعنا شرائع ناقصة كما ذكر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

وهذا هو المعنى المتضمن في حديث النبي عليه الصلاة والسلام: **«مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها وترك موضع لبنة لم يضعها فجل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تم موضع هذه اللبنة! فأنا في النبيين موضع هذه**

اللبنة»[1]. ورواه البخاري - رحمه الله تعالى - بلفظ: **«إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة؟! قال: فأنا اللبنة»**. فصارت هذه الشريعة هي أكمل الشرائع قاطبتا من وجوه كثيرة وأنا خاتم النبيين.

شرائع الأنبياء من قبلنا منها ما كان فيه التركيز على الحلال والحرام كشريعة موسى، ومنه ما كان فيه التركيز على أعمال القلوب كشريعة عيسى، لكن هذه الشريعة كاملة مُكملة من جميع الجهات. فهي في الإيمان والعبادات والأعمال والمعاملات، فيها ذكر لكل شيء وتبيان لكل شيء. والمسلم منا مطالب أن يتشبه بهذه الشريعة في كمالها فيكمل شخصيته مما جاءت به هذه الشريعة. وهذا المفهوم مفهوم التكميل والإتمام مفهوم إسلامي وشرعي والنبي عليه الصلاة والسلام قد قال: **«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»**. فنحن إذا مطالبون بصياغة شخصياتنا على ضوء هذه الشريعة، وأن نتمم شخصياتنا من الوحي الذي جاء في هذا الدين.

والله سبحانه وتعالى امرنا أن ندخل في السلم كافة وأن نأخذ بجميع شرائع الإسلام وشعب الإسلام والإيمان وأن نتمثل هذه الشريعة بجميع أبوابها. لسنا مطالبين بالعلم فقط، ولا بالعبادة فقط، ولا بحسن الخلق فقط، ولا بمعرفة الآداب والتمسك بها فقط، وإنما نحن مطالبون بكل ذلك، متعبدون بكل ذلك. ينبغي أن تكون شخصية المسلم متميزة بالعلم، والعبادة، والخلق، والأدب وجميع هذه الأشياء موجودة متمثلة فيه.

وانظر مثلا إلى إخفاء ذكر بعض شعب الإيمان في الأحاديث على أي شيء: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها. قال النبي: إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان»**[2].

وهذا الموضوع مهم أيها الإخوة أن نكمل شخصياتنا؛ لأن النقص عيب وشين. وإذا نظرت في الواقع فرأيت بعض الناس عنده جوانب من الخير يصلي مع الجماعة، ويقرأ القرآن، يذهب للعمرة والحج، يصوم، يتصدق، لكن في جوانب المعاملة مع الخلق تجده صاحب مثالب ومعايب وعنده نقائص. هذا المعنى موجود في حديث النبي عليه الصلاة والسلام: **«أتدرون من المفلس؟!»** - من المفلس يسألهم عليه الصلاة والسلام يلفت نظرهم إلى هذا المفهوم -. **«أتدرون من المفلس؟»** الله ورسوله أعلم. قال: **«إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة»** لاحظ ماذا عند الرجل هذا الرجل عنده صلاة

---

(١) رواه الإمام أحمد وغيره.

(٢) رواه مسلم وغيره.

وصيام وزكاة وهو مع ذلك مفلس، يصفه عليه الصلاة والسلام بأنه مفلس. كيف يكون صاحب الصلاة والزكاة والصيام مفلس؟! اسمع الجواب: يقول " ويأتي" هو يأتي يوم القيامة ومعه هذه الخصال الطيبة لكن في المقابل " يأتي: **«وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا»** كم خصلة نحن مشتركون فيها من هذه الخصال الذميمة؟ قد يقول البعض: ما سفكنا دماء. نقول: لكن انظر في الواقع كم شتمنا؟ كم قذفنا؟ كم ضربنا؟

وأرجوا من الإخوان أن يتقدموا كما أرسل الأخ رسالة: يوجد إخوان في الخارج حتى يتسنى لهم في الدخول. تقاربوا فسحوا يفسح الله لكم.

فأقول أيها الإخوة نظرة محاسبه لأنفسنا كم عملنا من هذه المعايب والذنوب؟ وهل سنكون يوم القيامة في عداد المفلسين؟ نسأل الله السلامة. ماذا سيحصل؟ **«فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته»** يعطي للمظلوم من الظالم صاحب الصلاة والزكاة والصيام. **«يعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته. فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»**.

إذا النقص عيب، لابد أن نكمل شخصياتنا؛ لأن هذه الأشياء تورد المهالك ويمكن الإنسان أن يدخل النار بسببها. فينبغي أن نكمل شخصياتنا.

ثم إن السلف – رحمهم الله – لما شرحوا الدين أتوا بهذا المفهوم واضح في كلامهم مأخوذ من الكتاب والسنة والأدلة الشرعية. فمما نقله الإمام ابن بطة – رحمه الله تعالى – في كتاب الإبانة الكبرى نقل عبارات عن بعض السلف فمنها في هذا الجانب إن من أخلاق المؤمنين ما نقل عن بعضهم قوله: إن من أخلاق المؤمنين قوة في الدين، وحزماً في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا في علم، وقصدا في غنى، وتجملا في فاقة، ورحمة للمجهود – المتعب – وعطاء في حق، ونهياً عن شهوة، وكسبا في حلال، وتحرجا عن طمع، ونشاطاً في هدى، وبرا في استقامة، لا يحيث على من يبغض، ولا يأثم في الحب لا يتجاوز، ولا يدعي ما ليس له، ولا ينابذ بالألقاب، ولا يشمت بالمصاب، ولا يضر بالجار، ولا يهمز في الصلاة متخشع، وإلى الزكاة متسرع، إن صمت لم يغمه الصمت، وإن ضحك لم يعلُ صوته، في الزلازل وقور، وفي الرخاء شكور، قانع بالذي له، لا يجمح به الغيض، ولا يغلبه الشح، يخالط الناس ليعلم أو ليعلم، ويصمت ليسلم، وينطق ليفهم، إن كان مع الذاكرين لم يكتب مع الغافلين، وإن كان مع الغافلين كتب من الذاكرين – لأنه لا يشترك معهم في الغفلة وإنما يذكر الله –، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له يوم القيامة.

إذا فهمهم لسمات الشخصية الإسلامية لصفات الإنسان المسلم متكامل، صلاة، وزكاة، وحلم، وعلم، يقين، وصبر، شكر، تعلم وتعليم، وقار. إذا المسألة متكاملة هذا فهمه لشخصية المسلم هكذا وصفوه.

ثم إننا أيها الإخوة إذا نظرنا في الواقع وفي أنفسنا وفي من حولنا وجدنا أن النقائص الموجودة في شخصياتنا لها آثار سلبية علينا وعلى غيرنا. فمثلاً: صاحب الشخصية الناقصة نقصها سلبي عليه، فقد يسبب نقصه – النقص في شخصيته – إذا صار مثلا نقص في الإيمان يسبب الوقوع في المعاصي، يسبب شقاء النفس، يسبب قلة التوفيق. وإذا كان هذا مرض صار مرض قسوة القلب. ثم أثر النقص على زوجه وأولاده لا يعاشر بالمعروف، وهي النقص فيها أن لا تخدمه بالمعروف. والنقص في شخصيته من جهة الأخلاق كذلك ينعكس على الزوجة والأولاد. نقص الشخصية – يا جماعة – ينعكس علينا حتى في بيوتنا. لا معاشرة بالمعروف، ولا رحمة بالصبيان، ولا رفق في البيت. والله سبحانه وتعالى إذا أراد بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق. فإذا وجدت البيت فيه شدة، وعنت، ومعاملة جافية وغليظة فسأل الله أن يرزقك خيراً، وأن يمنحك الرزق. فإنه يخشى أن لا تكون مِن مَن أراد بهم خيراً، ومِن مَن أراد الله ببيوتهم خيراً.

ثم إن النقص هذا في شخصياتنا ينعكس أيضاً على علاقاتنا على بإخواننا. النقص في الآداب يسبب البغض، والقطيعة، الكره، والتنافر، لا تضحية، ولا إيثار ولا سعة صدر، وحسن استقبال. هذا ينعكس سلبياً على علاقتنا بإخواننا. ثم إنه ينعكس أيضاً على الناس عموما. تأمل لو أن هناك إنساناً كمل بعض الأشياء صلى في الجماعة، اجتنب بعض المحرمات، قام ببعض الواجبات، وحتى التزم ببعض الأشياء في ظاهر شخصيته مثل إطلاق لحيته ونحو ذلك من السنن والأشياء الواجبة. كل ما صار عنده في شخصيته غلظة في التعامل، خشونة، إخلاف مواعيد، عدم صدق في الحديث. ماذا سيكون أثر هذا على الناس العامة فيلوم الناس أصحاب اللحى. ويكون هذا ظلم للغير وفتح باب ينقد الآخرون أهل الخير. وقد يصبح هذا الشخص بنقائصه من الذين يصدون عن سبيل الله. نحن بنقصنا وتصرفاتنا الخاطئة نعكس صورة مشوهةً عن الإسلام في أعين غير المسلمين، ونعكس صورة مشوهة لمفهوم الالتزام بالدين في أعين غير الملتزمين بالدين.

ولا شك أن تكميل الشخصية الإسلامية مهم؛ لأننا من المفترض أن نرث عن الأنبياء دورهم في إصلاح المجتمع. فنذكر الناس إذا غفلوا، ونعلمهم إذا جهلوا، ونقيم الحجة عليهم إذا عاندوا، بالوسائل هذه السلمية وكذلك بالوسائل العملية كالجهاد والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر. وتكميل الشخصية مهم؛ لأننا الآن في هذا الزمان نحتاج إلى شخصيات إسلامية تقود. والناس بالتدريج سئموا من قيادة الكفار. الكفار الغرب وغيرهم لا يصلحون لقيادة العالم، فتجد عندهم مقدمهم وكبيرهم واقع في الفواحش والزنى والسرقات والاختلاسات والسكر والخمور. وهمه في اللهو اللعب وعزف القياثر وعزف القيثارة والمعازف. فمثل هذه الشخصيات لا تصلح لقيادة العالم. وإذا كانوا قد تحكموا في الناس بالقوة والسلاح، لكن قيادتهم فارغة من مضامين الخلق الحسن، والأدب الحسن، والعدل - لأن العدل ينتج من أي شيء؟! اتباع الشريعة وإذا زالت الشريعة حل الظلم - ولذلك فقيادتهم للعالم ظالمة. وهذه الرموز التي تقود لا بد أن تفلس بل هي أفلست والسقوط وشيك.

وبمرور الزمن سيتهيأ المجال؛ لأن تشغل مراكز التوجيه والتأثير في العالم شخصيات أخرى. والشخصيات الأخرى المرشحة هي شخصيات المسلمين - الشخصيات الإسلامية - هي المرشحة للقيادة في المستقبل. فلا بد أن يوجد من الشخصيات المكملة من إذا أتيح لها المجال لمنصب أو مركز إذا تبوأته أن تأثر أو تقود بالعدل والإحسان،**{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ}**. ولا بد أن يوجد الاستعداد عند المسلمين لهذا الأمر، وهذه المسألة فيها عمق وقد يتخيل أن فيها بعداً لكن الله غالب على أمره والله متم نوره ولو كره الكافرون. ثم إننا نجد في الواقع؛ خذوا أنتم مثلا أصحاب الشركات والموظفين في الشركات الواحد أنتم مسلمون وإن تترقى في سلم الوظيفة ترشح لمنصب، ترشح لوظيفة أعلى من وظيفتك الحالية. وهكذا تتدرج في المستقبل. لو كانت شخصيتك الإسلامية صحيحة ناضجة تكمل شخصيتك لصار أثرك في منصبك ومركزك ووظيفتك أثرا إيجابياً إسلامياً نافعاً مباركاً. لكن لو كنت صاحب شخصية هزيلة وناقصة وعندك من المعايب والمثالب والمعاصي والآثام، فإن هذا المركز سيكون وبال عليك وسيظلم الناس من تحتك ولا شك، وسيكون كلام الناس عنك - أحياناً - كلام عن الدين نفسه الذي أنت تمثله أو عن الالتزام الذي تمثله ظاهرياً.

ولذلك أقول: إن هذا الموضوع مهم من جهة مستقبل الإسلام ومن جهة أن الظرف الحالك الذي نمر به يحتاج إلى شخصيات قوية كاملة تقود.

أذكر أبا بكر الصديق في زمن الردة وكيف كانت شخصيته حاسمة ومهمة في الخروج بالمسلمين من ذلك من ذلك المضيق. أذكر شخصية الإمام أحمد - رحمه الله - في المحنة لما ثبت، فثبت بثباته ملايين الناس كانوا ينتظرون ماذا يقول الإمام أحمد ليكتبوا ويعملوا. أذكر ابن تيمية - رحمه الله - لما ثبت بشخصيته المتميزة بالعلم والحلم بما جاء على ضوء هذه الشريعة. قبضه الله عز وجل لما ثبت في زمن التتر والمتصوفة والمتكلمين والفلاسفة، فأنقذ

الله به فئاماً من الناس. وذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – لما صار الشرك عاما في أنحاء العالم الإسلامي إلا من رحم الله حتى في هذه الجزيرة عبدت الأصنام والأوثان واضطربت أليات نساء بني دوس حول ذي الخلصه، أعيدت بعض الأصنام الجاهلية الذي يقرأ تاريخ دعوة الشيخ يعرف ذلك. بعض أصنام الجاهلية الأولى أعيدت وبنيت القباب على القبور وطاف الناس حول الأضرحة وعبد الموتى من دون الله. فصارت تلك الشخصية العالمة المجاهدة إنقاذاً للناس ورحمة من رب العالمين.

إذا الظرف الذي نعيش فيه الآن من تسلط الكفار، الظرف الذي نعيش فيه الآن من ظاهر الاستسلام الذي تعم العالم الإسلامي، والقنوط من رحمة الله، والخزي الموجود، والاستخزاء، والضعف يحتاج إلى شخصيات قوية تنقذ الموقف. وهذه الشخصيات لا يصلح أن تكون شخصيات ناقصة مهلهلة مشوهة ينبغي أن تكون شخصيات إسلامية. والتغير حاصل حاصل يا جماعة فالله سبحانه تعالى يداول الأيام بين الناس. وكما أن الغلبة اليوم للكفار ظاهرياً.**{يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}** ماذا قال مؤمن آل فرعون (ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا)

. فبأس الله سيأتيهم سيأتيهم فمن سيملأ المواضع ومن سيخلفهم؟! الله سبحانه وتعالى لا يأتي النصر للذين لم ينصروه وإنما ينصر من نصره وجاهد في سبيله**{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}**. سيحدث التغير وسيبرق ضوء الفجر لكن إذا صرنا على مستوى التغير والمواجهة والجهاد والقيام بأمر الله سبحانه وتعالى علما وعملاً عند ذلك ينصرنا الله عز وجل.

تم بحمد الله

* * * * *

المصادر والمراجع

- القرءان الكريم.
- البداية والنهاية ابن كثير.
- الجامع الصحيح: محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم: د / محمد أديب البغا، ط: ١٤٠٧هـ دار ابن كثير، دمشق.
- الطبقات الكبرى ابن سعد – تاريخ الإسلام الذهبي.
- أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي – تفسير القرآن العظيم – طبعة دار الفكر سنة ١٩٨١م. نشر مكتبة الرياض الحديثة – الرياض.
- ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٢٠ ط: ٢ سنة ١٣٦٩هـ – مطبعة أنصار السنة بالقاهرة.
- العبودية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠١ هـ، ص ٤.
- إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي – تفسير القرآن العظيم دار الفكر – بيروت سنة ١٤٠١هـ.
- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي – السنن الكبرى.
- القرضاوي: مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ص ١١٩.
- محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري – جامع البيان في تأويل آي القرآن، المشهور بتفسير الطبري دار الفكر بيروت سنة ١٤٠٥هـ.
- الروح: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ، ص ٩٧.
- أبو حامد الغزالي – إحياء علوم الدين ٣/ ٤٦
- بنت الشاطئ مقالها بجريدة الأهرام ١٠\١٤\١٩٩٠
- بستان العارفين للسمرقندى.
- تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن كثير. دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠ هـ، (٤ أجزاء) ١/ ٢٤٩
- سنن الترمذي.

- سنن البيهقي.
- سنن ابن ماجة.
- سنن النسائى.
- سلسلة أعمال القلوب / الشيخ محمد صالح المنجد.
- سنن أبى داود.
- شرح النووي على صحيح مسلم (المكتبة الألفية).
- شرح العقيدة الطحاوية: أبو العز علي بن علي بن محمد، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٠ هـ، ص ٤٥٣.
- صالح أبو عرَّاد الشهري / موقع إسلامى الإنترنت.
- صور من حياة التابعين د/ عبد الرحمن رأفت الباشا مكتبة وهبة – القاهرة ط: ٣ سنة ١٩٩٧م.
- صحيح الجامع.
- صحيح ابن حبان مؤسسة الرسالة – بيروت سنة ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م – ط: ٢. تحقيق: شعب الأرناؤوط، و: أبوبكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي. المصنف ٦/ ١٥٩ رقم ٣٠٣٢٠.
- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي.
- صيد الفوائدعلى شبكة الإنترنت.
- صحيح البخاري (الموسوعة الذهبية).
- صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني.
- صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم: عبد الرحمن بن محمد الدوسري. مكتبة دار الأرقم، الكويت، ١٤٠٦ هـ. ٢/ ٧٢
- صفة الصفوة ابن الجوزى.
- صحيح مسلم دار ابن كثير، اليمامة – بيروت سنة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
- دار إحياء التراث العربي – بيروت – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- عبد الكريم زيدان – أصول الدعوة ص ٨٩ – ٩٠.

- عبدالكريم بكار(أستاذ دكتور) كاتب ومفكر.
- فتحي يكن / المصدرشبكة الأحرار.
- محمود حمدى زقزوق: وزير الأوقاف المصرى/منتدى إنترنت.
- محمد محمد بدري – هوية الأمة الإسلامية. (مقال) – مجلة البيان – عدد ٥٤ ص ٥٨ صفر ١٤١٣هـ أغسطس ١٩٩٢م.
- محمد بن سعيد القحطاني: الولاء والبراء في الإسلام ص ٢٢٣ مكتبة دار الباز مكة سنة ١٩٩٤م – تحقيق: محمد عبد القادر عطا.
- محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري: تُحفة الأحوذي ٥/ ٤٧٠ دار الكتب العلمية بيروت.
- مسند أحمد.
- في ظلال القرآن: مرجع سابق / ٣٣٨٧.
- مشاهد القيامة في القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ص ٤١ – ٤٣.
- محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي – السنن ٤/ ٣٧٠، رقم ٢٠١٨ دار إحياء التراث العربي – بيروت – تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون.
- مناع خليل القطان – الشخصية المتميزة للمسلم ص ١٧٥ – ١٧٧ ط: ٤ سنة ١٩٨١م – دار الأصفهاني – جدة.
- نُهى بنت عبد الله العريني – المسلم والتميُّز. (مقال) بمجلة البيان – عدد ١٦٥ ص ١٤٠ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ – أغسطس ٢٠٠١م.
- وائل عبد الغني – هويتنا الإسلامية بين التحديات والانطلاق، الحلقة الأولى. (مقال) بمجلة البيان – عدد ١٢٨ ص ٥٤ ربيع آخر ١٤١٩هـ – أغسطس ١٩٩٨م.

* * * * *

الفهـرس

* * * * *